سرشناسه : نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور : ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر : تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری : ۱۸ج.
شابک : دوره 7-24-8981-964-978؛ ج. ۱۶: 5-60-8981-964-978
وضعیت فهرست نویسی : فیپا.
یادداشت : عربی.
موضوع : تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع : Qur’an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره : ۱۳۹۵ ۹ض۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد السادس عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی
الکمیة: ۱۰۰۰
الطبعة: الاوّل
تاریخ الطبع: ۱۳۹۷ ش. - ۱۴۳۹ ق.
تنسیق الصفحات: محسن نقوی
لیتوغرافی: لوح محفوظ
المطبعة: گوهر اندیشه
انتشارات: قائن
تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شابک: ۵ - ۶۰ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸
شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

سُورَةُ ٱلْأَحْقَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ
﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ
أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَ
مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَنْ لَا
يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَآئِهِمْ
غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَ إِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً
وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ
بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ
ٱلرُّسُلِ وَ مَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ

إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ مَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ
شَاهِدٌ مِنْ بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَـآمَنَ وَ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ
﴿١٠﴾ وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ
خَيْرًا مَا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَ مِنْ قَبْلِهِ
كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هَٰذَا كِتَابٌ
مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ
بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ
ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا
وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَيٰهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ
وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

◀ اللّغة

أَثَٰارَةٍ: يقال أثرت العلم رويته و قيل الإثارة شئ يستخرج منه.

ٱفْتَرَىٰهُ: الإفتراء الكذب.

تُفِيضُونَ: يقال أفاض القوم في الحديث إذا مضوا فيه.

بِدْعًا: البدع بكسر الباء و سكون الدّال الأوّل في الأمر.

إِفْكٌ: بكسر الألف الكذب.

أَوْزِعْنِيٓ: الإيزاع المنع من الإنصراف عن الشّئ

◀ الإعراب

مِنْ قَبْلِ هَٰذَآ في موضع جرٍّ أي بكتابٍ منزّلٍ من قبل هذا مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ من، في موضع نصب، بيدعوا و هى نكرة موصوفة أو بمعنى، الّذي، مَا كُنْتُ بِدْعًا أي ذا بدع و يجوز أن يكون وصفاً و يقرأ بفتح الدّال و هو جمع بدعة أي ذا بدعٍ وكَفَرْتُمْ بِهِ أي و قد كفرتم فيكون حالاً أمّا جواب الشّرط فمحذوف تقديره، ألستم ظالمين إِمَامًا وَ رَحْمَةً حالان من كتاب موسى لِسَانًا حال من الضّمير في مصدّق أو حالٌ من كتاب لأنّه وصفٌ و يجوز أن يكون مفعولاً لمصدّق أي هذا الكتاب يصدّق لسان محمّد ﷺ بُشْرَىٰ معطوف على موضع، لينذر، خَٰلِدِينَ فِيهَا حال من أصحاب الجنّة و جَزَآءً في موضع الحال (حسناً) مفعول ثانٍ أوصى وكُرْهًا حال كونها كارهة و أَرْبَعِينَ مفعول بلغ في أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ في موضع رفع.

◀ التّفسير

حمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة و قلنا أنّ المشهور أنّها أسماء للسُّور.

تَنْزِيلُ ٱلْكِتٰابِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

قد مضى تفسير هذه الآية في الجاثية و قيل في وجه تكرير الآية أنّ هذه السُّورة حالها حال السُّورة الّتي قبلها في أنّه تعالى نزّلها و شرَّفها و كرَّمها في الإضافة إلى العزيز الحكيم، و العزيز القادر الّذي لا يغالب و لا يقهر و قيل هو العزيز في إنتقامه من أعداءه الحكيم في أفعاله.

مٰا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِلّٰا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰآ أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ

ما، نافية أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه ما خلق السّموات و الأرض و ما بينهما، من الموجودات، إلاّ بالحقّ، لا بالباطل لأنّ الباطل لغوٌ و عبث و اللّه منزّه عن النّقائص و القبائح و حيث أنّ اللّه هو الحقّ بقولٍ مطلق على ما مرَّ الكلام فيه فكلّ ما صدر أو يصدر منه أيضاً حقٌّ لأنّ الحقّ لا يفعل إلاّ حقّاً و لا يقول إلاّ حقّاً و ذلك لأنّ فعل الباطل منشأه الجهل و هو تعالى منزّهٌ عنه.

و في قوله: **وَ أَجَلٍ مُسَمًّى** إشارة إلى ما هو مذكور للملائكة في اللّوح المحفوظ قاله في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين المراد به القيامة نقله عن إبن عبّاس قال لأنّه هو الأجل الّذي تنتهي إليه السّموات و الأرض و قيل أنّه الأجل المقدّر لكلّ مخلوقٍ، و يحتمل أن يكون هذا إشارة إلى حدوثهما لأنّ الموجود إذا كان لوجوده أوّل و أخر فهو حادث و لا قديم سوى اللّه تعالى و فى قوله: **وَ أَجَلٍ مُسَمًّى** إشارة إلى أنّ العلم بالأجل مختصٌّ باللّه تعالى و هو كذلك.

و قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰآ أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ** أي معرضون عن العذاب الّذي أنذروا به و ذلك لإنكارهم القيامة و الجزاء.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ تقدير الكلام من دون اللّه ألهة، و المعنى قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار أرأيتم ما تدعون و تعبدون من دون اللّه، من الأصنام و الأوثان ألهة، بأيّ شئٍ إستحقّوا ذلك **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ** فإستَّحقوا بذلك العبادة **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ** أي في خلق السّموات **ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا** أي من قبل هذا القرآن دلَّ على ذلك **أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ** أي بقيّةٍ من يستخرج منه فيثار فيعلم به ما هو منفعةٌ لكم وبعبارةٍ أُخرىٰ أيّ دليلٍ دلّ على ذلك عقلاً **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في قولكم بعبادة الأصنام و إستحقاقها العبادة هذا تفسير ألفاظ الآية و توضيحها إجمالاً:

أنّه لا شكّ في أنّ السّموات و الأرض موجودان و هذا أمرٌ محسوس لكلّ أحدٍ لا يحتاج إلى دليل عقليّ أو نقليّ لأنهما مدركان بالحسّ و العيان يراهما الكافر و المؤمن و العالم و الجاهل و لا يشكّ في وجودهما أحد، ثمّ أنّ الموجود الحادث لابدّ له من محدث يوجده و يخرجه من العدم إلى الوجود لأنّ الحادث من الممكنات و كلّ ممكنٍ نسبته إلى الوجود و العدم على حدٍّ سواء فلابدّ له من مخرج يخرجه عن حدّ الإستواء و يوجده و هذا ممّا يحكم به كلّ عقلٍ سليم و على هذا فلهما أي السّموات و الأرض خالق، ثمّ أنّ الخالق هو الّذي يستحقّ أن يعبد لا غيره لأنّه أنعم على خلقه بالوجود الّذي لا نعمة أعلى و أشرف منه و قد ثبت أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و لا نعني بالشّكر إلاّ العبادة و الخضوع و هذا الّذي ذكرناه ممّا لا كلام فيه عقلاً و نقلاً و قد ظهر منه أنّ شكر المنعم واجب و أمّا غير المنعم فلا إذا عرفت هذا فنقول أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهؤلاء الكفّار الذّين يعبدون الأصنام أنتم

تعبدون الأصنام و الأوثان و المعبود ينبغي أن يكون مستحقّاً للعبادة عقلاً و العابد ينبغي أن يعلم أنّه مستحقّ للعبادة هل أنتم علمتم بذلك ام لا فأن علمتم به بيَّنوا لي من أين علمتم و بأيّ شيئ إستحقّوا ذلك فأنّ الأمر يدور بين أمرين:

أحدهما: أن يكون المعبود خالقاً.

الثّاني: أن يكون شريكاً له بحيث لولاه لم يقدر الخالق على الإيجاد و كلاهما منتفيان في المقام.

أمّا الأوّل: فواضح لأنّ الجماد لا يكون خالقاً لذوي العقول لأنّ معطي الشّيئ لا يكون فاقداً له.

الثّاني: أيضاً غير معقول لوجهين:

أحدهما: أنّ الشّريكين لا يخلو حالهما إمّا أن يكونا جمادين، أو عالمين، أو أحدهما عالمٌ و الأخر جماد.

أمّا الأوّل: فلا سبيل اليه لأنّ حكم الأمثال واحد فضَّم جماد بجماد آخر من قبيل ضمّ معدوم بمعدوم آخر و هو كما ترى لا يسمن و لا يغني مضافاً الى أنّ معطي العلم لا يكون فاقداً له، و لا سبيل الى الثّاني أيضاً لأنّهما إن كانا عالمين غير جمادين فإمّا أن يكون أحدهما قادراً على الخلق و الإيجاد أو لا يكون فأن كان قادراً على الإيجاد فلا يحتاج الى شريكٍ و أن كان غير قادرٍ فهو ضعيف يحتاج الى شريك و حينئذٍ يلزم توارد العلّتين على معلولٍ واحدٍ محال مضافاً الى أنّ الضّعيف لا يصلح أن يكون خالقاً لأنّ كلّ ضعيفٍ محتاج الى غيره و الإحتياج مساوقٌ للإمكان و لازم ذلك أن يكونا من الممكنات و كلّ ممكنٍ مخلوق و هذا خلاف الفرض.

و لا سبيل الى الثّالث أيضاً لأنّ الجماد الّذي لا شعور له لا يكون شريكاً للعالم القادر فإذاً ثبت و تحقّق أنّ اللّه تعالى هو الخالق لا غيره.

الوجه الثّاني: أنّ الخالق الموجد لابدّ له من آثارٍ تدّل على خالقيّته منتفيةٌ في المقام و ذلك لأنّ السّماء و الأرض من سنخ الجماد فلو كان الصّنم و الوثن

و الشّمس و القمر و غيرها خالق السّماء و الأرض لزم أن يكون الجماد خالقاً لنفسه أيضاً و هو محال لأنّ الشّئ الواحد بما هو واحد لا يكون علة و معلولاً معاً للزومه تقدّم الشّئ على نفسه و قد حكم العقل بإستحالته لأنّه من إجتماع النّقيضين، فقوله تعالى: **ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَآ** إشارة الى دليل النّقل على ما إدّعوه.

و قوله: **أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ** إشارة الى دليل العقل، و هما منتفيان في المقام.

أمّا الأوّل: فواضحٌ و أمّا الثّاني، فلما ذكرناه و إستدللنا عليه.

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ

أي إذا كان الأمر على منوال ما ذكرناه من عدم دلالة النّقل و العقل على عبادة غير اللّه تعالى فمن أضلّ و أشقى ممنّ يدعوا و يعبد من دون اللّه من لا يقدر على الإستجابة لمن يدعوه الى يوم القيامة و هم، أي عبّاد الأصنام و الأوثان عن دعاءهم الأصنام و الأوثان غافلون، أي أنّهم غافلون من أنّ غير اللّه تعالى لا يقدر على كشف الضرّ عن عبده و لا على قضاء حوائجه لأنّه مخلوق مثله و العبد و ما في يده كان لمولاه، و أنمّا قال و من أضلّ منه، على سبيل الإستفهام الإنكاري أي ليس أضلّ منه أحد، لأنّ المعبود الّذي لا يقدر على قضاء حوائج العبد سواء كان من سنخ الجماد كالأصنام و أمثالها أو من غيره من أصناف النّبات و الحيوان، فهو من أحمق النّاس و أضلّهم و أشقاهم حيث إتّخذ معبوداً مثله أو أخسّ و لا نعني باللّغو و العبث إلاّ هذا.

وَ إِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ

هذه الآية بمنزلة الدّليل على ما ذكره في الآية السّابقة من كون الكافر المشرك باللّه أضلّ من غيره و حاصل الإستدلال أنّه إذا حشر النّاس يوم

القيامة و بعثهم اللّه للثواب و العقاب، كانوا لهم أعداء، يعني الأوثان الّتي عبدوها في دار الدُّنيا و طلبوا منها حوائجهم، أعداءهم، أي أعداء من عبدها و ذلك لأنّ اللّه ينطقهم يوم القيامة حتّى يجحدوا أن يكونوا دعوا الى عبادتهم، و كانوا بعبادتهم كافرين، يعني يكفرون بعبادة الكفّار لهم و ينكرون ذلك عليهم، فمن عبد معبوداً كذلك فهو أضلّ النّاس لأنّ عدم إتّخاذ المعبود بالكلّيّة أولى و أحسن من عبادة الأصنام و أمثالها و أن شئت قلت أنّ العابد للصنّم و الوثن أضلّ ممّن لم يتّخذ لنفسه معبوداً أصلاً، و ذلك لأنّ عدم الإتّخاذ دليل على الكفر فقط و أمّا إتّخاذ ما لا يضّر و لا ينفع دليل على الحماقة و الكفر و من المعلوم أنّ الكافر الأحمق أضلّ من الكافر غيره.

و قال بعض المفسّرين معنى الآية أنّهم أي الكفّار عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم و جحدوا المعبودون عبادتهم و هو قوله: **وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ.**

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ

أي و إذا تتلى على هؤلاء الكفّار آياتنا بيّنات، يعني القرآن قال الّذين كفروا للحقّ هذا سحرٌ مبين، أي ظاهر، و الغرض أنّهم يحملون الأيات على السِّحر، عناداً و تعصُّباً من غير تفكرٍ فيها ولو تفكّروا فيها حقّ التفكُّر و أخرجوا العناد و التعصُّب الجاهليّة عن قلوبهم لعلموا أنّ الأيات كلام اللّه وكلام الحقّ لا يكون باطلاً أبداً.

أَمْ يَقُولُونَ اَفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اَفْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ

قيل الميم صلة و التّقدير، أيقولون، و هو إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الأيات سحراً و معنى الهَمزة في، أم الإنكار و التّعجب كأنّه قال تعالى، دع هذا و أسمع قولهم المستنكر المفضي الى التعجُّب و ذلك أنّ محمّداً صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان لا يقدر عليه حتّى يقوله و يفتريه على اللّه ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة و إذا كانت معجزة كانت تصديقاً من اللّه له و الحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفترياً إنتهى ما ذكره بعض المفسّرين في تفسير الآية.

أقول ما ذكره هذا المفسّر في تفسير الآية أخذه عن صاحب الكشّاف بل هو هو بعينه و ألفاظه ألفاظه مع أدنى تفاوتٍ فيها، و كيف كان فقد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار قالوا أنّ النّبي إفترى على اللّه أي إختلقه من عند نفسه و أنّ اللّه لم يقل ذلك و بعبارةٍ أخرى الأيات القرآنيّة ليست من كلام اللّه قل، يا محمّد لهم إن إفتريته على ما تقولون، فلا تملكون لي من اللّه شيئاً، أي لا يمكنكم أن تمنعوا اللّه منّي إذا أراد إهلاكي على إفترائي عليه لأنه قادرٌ على عقوبتي على هذا الذّنب العظيم فكيف افتريه و أتعرّض لعقابه، و مثله قوله تعالى: **فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ**[١].

يقال فلان لا يملك إذا غضب و لا يملك عنانه إذا صمّم و من يرد اللّه فتنته فلن تملك له من اللّه شيئاً و منه قوله تعالى: **لا أَمْلِكُ لَكم مِنَ ٱللَّهِ شَيْءٍ** ثمّ قال: **هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ** الإفاضة الإشاعة يقال أفاض القوم في الحديث إذا مضوا فيه، و حديثٌ مستفيض أي شائع و المعنى هو، أي اللّه تعالى أعلم بما تنسبون إلى أياته من القدح في وحي اللّه و الطّعن في أياته سحراً تارةً و فريةً أخرى (كفى به) أي كفى باللّه شهيداً بيني و بينكم، يشهد لي بالصّدق و البلاغ و يشهد عليكم بالكذب.

١- المائدة = ١٧

قال بعض المفسّرين معنى ذكر العلم و الشّهادة وعيدٌ من اللّه بجزاء إفاضتهم **وَ هُوَ ٱلْغَفُورُ** لمن تاب **ٱلرَّحِيمُ** بعباده المؤمنين، أو هو الغفور لذنوب عباده، الرّحيم، بكثرة نعمه عليهم.

قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ ٱلرُّسُلِ وَ مٰآ أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَ مٰآ أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ

البِدع بكسر الباء و سكون الدّال و العين المهملة أوّل الأمر و منه الإبداع بمعنى الإنشاء و الإيجاد بلا إحتذاء و إقتداءٍ إذا أستعمل في اللّه تعالى لأنّه أوجد الأشياء بغير ألةٍ و لا مادّة و لا زمانٍ و لا مكانٍ و ليس ذلك إلاّ له و أمّا اذا أستعمل اللّفظ في غيره تعالى فليس بمعنى الإيجاد بل هو بمعنى الأوّل في الأمر قال الشّاعر:

فلا أنا بدعٌ من حوادث تعترى رجالاً عرت من بعد بؤسٍ و أسعد

قال إبن عبّاس و قتادة معناه ما كنت أوّل رسولٍ بعثه اللّه، و قرأ عكرمة و غيره، **بدَعاً** بفتح الدّال على تقدير حذف المضاف و المعنى ما كنت صاحب بدعٍ.

قال بعض أهل التّحقيق **مٰا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ ٱلرُّسُلِ** قيل معناه مبدعاً لم يتقدّمني رسولٌ، و قيل معناه مبدعاً فيما أقوله و البدعة في المذهب إيراد قولٍ مخترعٍ من عند نفسه ثمّ ينسبه إلى صاحب الشريعة.

و روي عن النّبي أنّه قال: كلّ محدثةٍ بدعةٍ و كلّ بدعة ضلالة و كلّ ضلالةٍ في النّار.

أقول و على هذا ففي معنى الكلام إحتمالان:

أحدهما: ما كنت أوّل من أرسل اللّه بل كان قبلي رسلٌ.

الثّاني: ما كنت صاحب بدعةٍ فيما أقول أي ليس هذا قولاً محدثاً بل كان الأنبياء قبلي أيضاً كذلك.

و أمّا قوله: وَ مٰآ أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بي وَ لاٰ بِكُمْ فمعناه لا أعلم إلاّ ما علَّمني اللّه و بعبارةٍ أخرى لا أعلم الغيب من عند نفسي، إذ لا يعلم الغيب إلاّ اللّه و على هذا فما أدري أي لا أعلم بما يفعل اللّه بي و بكم غداً يوم القيامة.

و قال الحسن معناه لا أدري ما يأمرني اللّه تعالى فيكم من حربٍ و سلمٍ أو تعجيل عقابكم أو تأخيره.

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ إن، نافية أي لا اتّبع إلاّ الوحي من اللّه تعالى فلا أقول لكم إلاّ ما أوحى اللّه إليّ و أمرني تبليغه و هذا هو الفرق بين النّبي و غيره من أفراد البشر:

قال اللّه تعالىٰ: وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ[١].

قال اللّه تعالىٰ: قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ[٢].

و قد مرَّ الكلام في معنى الوحي فيما تقدَّم وَ مٰآ أَنَا إِلاّٰ نَذيرٌ مُبينٌ أي و لست إلاّ مخوّفاً من عقاب اللّه و محذّراً من معاصيه و مرّغباً في طاعاته، وصف اللّه نبيّه بهذا الوصف في كثير من الأيات بل لا منذر إلاّ النّبي:

قال اللّه تعالى: إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ[٣].

قال اللّه تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ[٤].

قال اللّه تعالى: إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذٰابٍ شَديدٍ[٥] والأيات كثيرة.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنيٓ إِسْرٰائيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ ٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمينَ

١- النّجم = ٤ / ٣
٢- فصّلت = ٦
٣- الرّعد = ٧
٤- مَريم = ٣٩
٥- سَبأ = ٤٦

ثمّ قال تعالى: **قُلْ** يا محمّد ﷺ لهؤلاء الكفّار المنكرين أنّ القرآن كلام الله **إِنْ كٰانَ** القرأن **مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ** أي بالقرأن **وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِيٓ إِسْرٰائِيلَ عَلٰى مِثْلِهِ** قيل المراد بالشّاهد من بني إسرائيل عبد اللّه بن سلام جاء إلى النّبي و قال يا رسول اللّه سل اليهود عنّي فأنّهم يقولون هو أعلمنا فإذا قالوا ذلك قلت لهم أنّ التّوراة دالّة على نبوّتك و أنّ صفاتك فيها واضحة فلّما سألهم عن ذلك قالوا ذلك فحينئذٍ أظهر إبن سلام إيمانه و أوقفهم على ذلك فقالوا هو شرّنا و إبن شرّنا.

و قال الفرّاء الشّاهد كان رجلاً من اليهود و قال مسروق هو موسى و التّوراة لا إبن سلام لأنّه أسلم بالمدينة و السُّورة مكّية ثمّ قال أنّ موسى شهد على التّوراة كما شهد النّبي على القرأن.

أقول هذا بعيدٌ غاية البعد و ذلك لأنّ الآية ظاهرة في شهادة الشّاهد في حياة النّبي و أمّا شهادة موسى على صحّة التّوراة و أنّها كلام اللّه لا تفيد في عصر النّبي لإنكار اليهود ذلك هذا أوّلاً.

ثانياً: قوله في الأية **فَاٰمَنَ** أي امن الشّاهد بالنّبي بعد الشّهادة إتماماً للحجّة على اليهود و لا معنى لشهادة موسى و إيمانه بعدها، فالحقّ أنّ الشّاهد كان رجلاً من اليهود في عصر النّبي و أنّه أمن بالرّسول بعد الشّهادة سواء كان عبد اللّه بن سلام أم غيره و الآية تدلّ على وجود الشّاهد فقط.

و أمّا قوله: **وَ ٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمِينَ** أي فإستكبرتم من الإيمان، بعد وقوع الإيمان من الشّاهد و جواب **إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ** محذوف أي فلا تؤمنون، و قيل تقديره **فَاٰمَنَ وَ ٱسْتَكْبَرْتُمْ** أنما تهلكون، و قيل جوابه، فمن أضلّ منكم.

وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ اٰمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْرًا مٰا سَبَقُونآ إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّة اللّه و نبوّة محمّد ﷺ قالوا للّذين أمنوا و صدَّقوا رسوله، لو كان، الإيمان (خيراً) ما سبقونا هؤلاء الكفّار الّذين أمنوا به (إليه) أي إلى الإيمان و إتّباعه و ذلك لأنّا كنّا بذلك أولى و أخرى منهم.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية إختلفوا في سبب نزولها على أقوالٍ:

أحدها: أنّ أبا ذر الغفّاري دعاه النّبي إلى الإسلام بمكّة فأجاب و إستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ثمّ دعاهم الزَّعيم فأسلموا فبلغ ذلك قريشاً فقالوا غفّار الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه فنزّلت الآية.

الثّاني: أنّ زنّيرة أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها أصابك اللاّت و العزّى فردَّ اللّه عليها بصرها فقال عظماء قريش لو كان ما جاء به محمّد خيراً ما سبقتنا إليه (زنّيرة) فأنزل اللّه هذه الآية.

الثّالث: أنّ الّذين كفروا هم بنو عامر و غطفان و تميم و أسد و حنظلة و أشجع قالوا لمن أسلم من غفّار و غيرهم ممّن أسلم لو كان ما جاء به محمّد خيراً ما سبقونا إليه.

الرّابع: قال قتادة نزلت في مشركي قريش قالوا لو كان ما يدعونا إليه محمّد خيراً ما سبقنا إليه بلال و صهيب و عمّار و فلان و فلان.

الخامس: أنّ الّذين كفروا من اليهود قالوا للّذين أمنوا يعني عبد اللّه بن سلام و أصحابه لو كان دين محمّد ﷺ حقّاً ما سبقونا إليه و هذا أشهر الأقوال و إليه مال أكثر المفسّرين إنتهى موضع الحاجة منه.

و قوله: **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ** أي وإذ لَم يهتدوا هؤلاء الكفّار به، أي بالقرأن أو بالنّبي، فسيقولون هذا، أي القرأن، إفكٌ و كذبٌ قديم كما قالوا، أساطير الأوّلين و هذا دليلٌ على من جهل شيئاً عاداه، كما قيل الجاهلون لأهل العلم أعداءٌ.

أقول إذا كان الكفّار لعدم إصابتهم الهدى بالقرآن عادوه و نسبوه إلى الكذب كما دلّت عليه الآية فالمسلمون أيضاً لمّا لم يهتدوا بالقرآن النّاطق أميرالمؤمنين عليه‌السلام عادوه و نسبوه إلى الكذب وسبُّوه على المنابر و لعنوه بل لم يقنعوا بذلك حتّى قتلوه و لا فرق في ذلك بينهم و بين الكفّار كما لا فرق بين إنكار القرآن النّاطق و الصّامت وكما أنّ عدم الإهتداء بالقرآن الصّامت من خبث طينة الكفّار و سوء سريرتهم و لا ذنب للقرآن كذلك عدم الإهتداء بالقرآن النّاطق و هذا ظاهرٌ لا خفاء فيه.

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰامًا وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ

و من قبله، يعني مِن قبل القرآن **كِتٰابُ مُوسىٰ** يعني التّوراة **إِمٰامًا وَ رَحْمَةً** يعني أنزلنا التّوراة إماماً يهتدى به و رحمةً، يعني نعمةً على الخلق، كما هو شأن جميع الكتب المنزلة على الأنبياء **وَ هٰذٰا** أي القرآن **كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ** لذلك الكتاب أعني به التّوراة أي أنّ التّوراة يصدّق القرآن بأنّه منزّلٌ من السّماء من جانب اللّه فالتّوراة **مُصدِّق** بكسر الدّال و القرآن مصدَّقٌ بفتحها و قوله: **لِسٰانًا عَرَبِيًّا** يعني أنّ القرآن أنزل بلسان العرب لأنّ النّبي و قومه كانوا من العرب.

لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ لِيُنذِر بالياء على قراءة العامّة و عليها المصاحف و قرأ نافع و إبن عامر بالتّاء على الخطاب و إختاره أبو عبيدة، فعلى قراءة المشهور معناه لينذر القرآن المصَّدق الظالمين على أنفسهم بالكفر و المعصية و بشرى للمحسنين و على هذا فالإنذار و البشارة من أوصاف الكتاب.

و أمّا على قراءة نافع فهو خطاب للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و المعنى لتنذر يا محمّد الظّالمين **وَ بُشْرىٰ** في موضع رفع أي و هو بشرى و قيل، عطفاً على الكتاب، أي و هذا القرآن كتابٌ مصدّقٌ و بشرى هكذا قيل، و أنت ترى أنّ المعنى على

القرائتين يرجع إلى شئٍ واحد و ذلك لأنّ إنذار النبيّ لا يكون إلاّ بالآيات فلا فرق بين أن يقال أنّ الكتاب منذر و أن يقال أنّ الرّسول منذر و الأمر سهل بعد وضوح المعنى فأنّ الرّسول أيضاً منذر و مبّشر.

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا، وَ داعِيًا إِلَى ٱللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجًا مُنِيرًا، وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ فَضْلًا كَبِيرًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا**[2].

و غيرها من الأيات و محصّل الكلام أنّ الإنذار للظّالمين و البشرى للمحسنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقٰامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لٰا هُمْ يَحْزَنُونَ

أي أنّ الّذين أمنوا باللّه و رسوله ثمّ إستقاموا على إيمانهم فلا خوف عليهم من عذاب يوم القيامة و لا يحزنون من أهوال القيامة و المراد بالإستقامة على الإيمان الثُّبات و البقاء عليه من غير شكّ و ريبٍ و فيه إشارة إلى أنّ الإيمان قد يكون ثابتا و قد يكون متزلزلاً، فالإستقامة عليه كاشف عن يقين المؤمن كما أنّ عدمها كاشفٌ عن عدم يقينه به و أنّه أمن بلسانه دون قلبه و المراد بالإستقامة عليه عدم تزلزل المؤمن في إعتقاده و حفظه من الأفات و هو مشكلٌ جداً ألا ترى أنّ أكثر المؤمنين في صدر الإسلام بعد موت النبيّ خرجوا عن الإيمان عملاً و دخلوا في الكفر الّذي كانوا عليه قبل الإسلام من حيث لا يحتسبون فماتوا على عدم الإيمان هذا على مذهبنا من إشتراط العمل في تحقّق الإيمان بحيث أنّ الإيمان يدور مداره وجوداً و عدماً و أمّا على مسلك القوم و هو تحققُّ الإيمان باللّسان فقط فأنّهم ماتوا على الإيمان و لذا يقولون أنّ الزّبير و

١- الأحزاب = ٤٥ إلىٰ ٤٧ ٢- الفرقان = ٥٦

طلحة و معاوية و أمثالهم ماتوا على الايمان لأنّهم كانوا يقولون لا إله إلاّ اللّه و أمّا العمل فلا دخل له في تحققّه، قل كلٌّ يعمل على شاكلته، فأنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أي أولئك الّذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ إستقاموا عليه، أصحاب الجنّة خالدين فيها أبداً دائماً لا يخرجون منها **جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** في الدّنيا من الإيمان و الثّبات عليه فأنّ النّاس مجزيّون بأعمالهم أن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد.

و نحن نقول اللّهم أجعلنا من المؤمنين و وفّقنا لما تحبّ و ترضى أنّك على كلّ شيءٍ قدير و بالإجابة جديرٌ، و أجعلنا من ورثة جنّة النّعيم فأنّ ذلك هو الفوز المبين بمحمّدٍ و أله الطّاهرين أمين ربّ العالمين.

وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَىَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَيٰهُ وَ أَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

في الآية مباحث:

الأوّل: قوله **وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا** أي أمرناه أن يحسن إليهما، و الحسن عبارة عن كلّ مبتهجٍ مرغوبٌ فيه، و الإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير يقال أحسن إلى فلان.

الثّاني: إحسانٌ في فعله و ذلك إذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً و

على هذا قول أميرالمؤمنين عليه السلام: **النّاس أبناء ما يحسنون** أي منسوبون إلى ما يعلمون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة فقوله تعالى: **إِحْسٰانًا** إشارة إلى الوجهين المذكورين و المراد بالوالدين الأب و الأمّ و الأيات و الأخبار في فضل الإحسان إليهما كثيرة. أمّا الأيات:

قال اللّه تعالى: **وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**(١).

قال اللّه تعالى: **أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**(٣).

و غيرها من الأيات و ذلك لأنّ حقوقهما على الأولاد كثيرة بل يستفاد من الأخبار أنّهما أعظم حقّاً على الأولاد بعد حقّ اللّه تعالى.

فعن كتاب المحاسن عن الباقر عليه السلام: سئل رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم من أعظم حقّاً على الرّجل قال صلّى الله عليه و آله و سلّم والداه إنتهى.

و أنّما قلنا أنّ الوالدين أعظم حقّاً على الرَّجل بعد حقّ اللّه لقوله تعالى: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاّٰ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا** حَكَم اللّه تعالىٰ بالإحسان إليهما بعد عبادة اللّه و معرفته و هو دليل على المدّعى تكلّمنا في الإحسان إليهما و ذكرنا الأخبار هناك و قلنا أنّ برّ الوالدين و الإحسان إليهما واجب علىٰ كلّ حالٍ برّين كانا أو فاجرين و كفى في ذلك قوله تعالى: **فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰا أُفٍّ**.

البحث الثاني: في قوله تعالى: **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا** **الحَمل** بفتح الحاء و سكون الميم و اللاّم معنىً واحد أعتبر في أشياء كثيرة فسوّى بين لفظه في فعلٍ و فرّق بين كثيرٍ منها في مصادرها فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشّيْ المحمول على الظَّهر، حمل، بكسر الحاء كما يقال حمل بعيرٍ، و

١- النّساء = ٣٦
٢- الأنعام = ١٥١
٣- الإسراء = ٢٣

فى الأثقال المحمولة في الباطن يقال حمل، بفتح الحاء كالولد في البطن و الماء في السّحاب و الثّمرة في الشّجرة تشبيهاً بحمل المرأة، و قوله: **كُرْهًا**، الكره المشقّة، و **الكَره** بفتح الكاف مصدر، كره كرهاً، و بضمّها الإسم أي إسم المصدر و قيل هما لغتان كالضَّعف و الضُّعف و الشُّهد و الشَّهد، و قيل أنّ الكره بالضّم، ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره قهراً و غضباً و لهذا قال بعض أهل العربيّة أنّ، كرهاً، بفتح الكاف لحنٌ و معنى الكلام أنّ أمّ الإنسان حملته في بطنها بمشقّةٍ و هو كذلك فأنّ في حمل الولد على الأمّ مشقّة و تعب جدّاً و هو محسوس.

الثّالث: قوله تعالى: **حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** قد مضى معنى الحمل، و **الفِصال** بكسر الفاء التّفريق بين الصَّبي و الرّضاع و مدّة الرّضاع حولين كاملين لقوله تعالى: **وَ ٱلْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ ٱلرَّضاعَةَ**[١].

و على هذا فيكون أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر لقوله تعالى و حمله و فصاله ثلاثون شهراً.

الرّابع: قوله **حَتّىٰ إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** قيل حتّىٰ بَلَغ أشُدّه، أي بلغ حال التّكليف، و قيل، أشدّه، ثلاث و ثلاثون سنة هو وقت بلوغ الحلم، و قيل هو وقت قيام الحجّة عليه، و قيل ثماني عشرة سنة.

أقول الشدّ في الأصل العقد القويّ يقال شدّدت الشّئ قوّيت عقده فقوله: **بَلَغَ أَشُدَّهُ** فيه تنبيهٌ على أنّ الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوّى خلقه الّذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ذلك و ما أحسن، قول الشّاعر فيه:

إذا المرء في الأربعين و لم يكن — له دون ما يهوى حياءُ و لا سترُ
فدعه و لا تنفس عليه الّذي مضى — و إن جرَّ أسباب الحياة له العمر

١- البَقرة = ٢٣٣

إذا عرفت هذا فالحقّ أنّ قوله: **إِذاٰ بَلَغَ أَشُدَّهُ** هو أوان الحلم بالنّظر إلىٰ جسمه و قوله و بلغ أربعين سنة، بالنّظر إلى روحه و عقله فأنّ العقل يكمل في الإنسان في هذا السّن أعني به الأربعين فمن فسّر قوله: **إِذاٰ بَلَغَ أَشُدَّهُ** بالأربعين قد أخطأ و حاصل الكلام أنّ السّن إذا بلغ الأربعين فقد كمل الإنسان جسماً و عقلاً.

الخامس: قوله **قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلىٰ واٰلِدَيَّ** أي فلمّا بلغ أربعين سنة قال الإنسان ربّ أوزعني، أي الهمني و منه قولهم إيزاع الشّكر إلهام الشّكر، أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ و على والديّ قيل المراد بالنّعمة الهداية، و بالنّعمة الّتي أنعم اللّه بها على الوالدين الشّفقة و المحبّة حتّى ربيّاني صغيراً، و قيل أنعمت عليّ بالصّحة و العافية و على والديّ بالغنى و الثّروة، و الحقّ أنّ المراد بالنّعمة في المقامين جنسها و لا دليل على إختصاصها بما ذكروه فأنّ نعم اللّه كثيرة غير قابلة للإحصاء كما قال تعالى: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهاٰ** و أفضل النّعم و أشرفها بعد نعمة الإيجاد هو نعمة الدّين أعني به الإسلام.

و قال صاحب الكشّاف التّوحيد و الإسلام، ولم يعلم أنّ التّوحيد داخل في الإسلام فمن لا توحيد له ليس بمسلم.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال الّتي لا فائدة في ذكرها ما هذا لفظه، قال عليٌّ رضي اللّه عنه هذه الآية نزلت في أبى بكر الصّديق رضي اللّه عنه، أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحدٍ من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره فأوصاه اللّه بهما و لزم ذلك من بعده إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول غرضه من نقل هذا الحديث المجعول، أنّ أبا بكر كان أفضل من عليٍّ و غيره من المهاجرين و الأنصار، و ذلك لأنّ أبويه أسلما، جميعاً بخلاف عليٍّ

فأنّ أبويه لم يسلما و بقيا على الكفر، و لم يعلم القرطبي أنّ أبا طالب و فاطمة بنت أسد كانا أوّل من أسلم سرّاً و عليٌّ عليه‌السلام كان أوّل من أسلم جهراً و بعبارةٍ أخرى، إتّفق المحقّقون من العامّة و الخاصّة على أنّ أوّل من أسلم من الذّكور علّى بن أبي طالب عليه‌السلام و من الإناث خديجة الكبرى و لم يخالف في هذه المسألة من العامّة إلاّ شر ذمّة قليلة من المعاندين المتعصّبين أمثال القرطبي و إبن تيميّة و إبن حزم و أمثالهم من الجهّال المبغضين لآل محمّدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قربةً الى الشّيطان، و لمّا كان أبو طالب عليه السّلام مأموراً من اللّه و رسوله بخفاء إيمانه لأجل المحافظة على النّبي زعم الملحدون أنّه لم يؤمن باللّه مع أنّ إيمانه في الواقع كان مقدّماً على الكلّ و بعبارةٍ لو قلنا أنّ إيمان أبي طالب كان مقدّماً على كلّ المسلمين واقعاً لا ظاهراً فهو حقٌّ لا مرية فيه هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول مجرّد الإسلام الظّاهري لا يثبت الفضيلة ألا ترى أنّ الخوارج كانوا من المسلمين ظاهراً مع أنّهم فعلوا بالإسلام ما فعلوا، و أنمّا تثبت الفضيلة للمسلم المؤمن بسبب أعماله و ترويجه عن الّدين و العمل بأحكامه فأقض ما أنت قاضٍ.

السّادس: قوله **وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحًا تَرْضٰيهُ** و فيه إشارة الى الشُّكر العملي الّذي هو الأصل في أقسام الشُّكر و ذلك أنّ الشُّكر تارةً يكون باللّسان، و تارةً بالأعمال، فأدنى الشُّكر هو اللّساني، و بعده الحالي، و أفضله العملي، و هذا معنى قولهم، شكر العبد صرف جميع النِّعم فيما يرضي الرَّب، و هذا لا يتحقّق إلاّ بتوفيقٍ من اللّه و الإستعانة به و لذلك قال: **وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحًا** أي أعمل عملاً صالحاً في مقام الشُّكر فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و شرعاً و هو لا يوجد إلاّ في قالب العمل الصّالح.

السّابع: قوله **وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** أي إجعل ذرّيّتي و أولادي من الصُّلحاء و هذا أيضاً من أحسن الدّعوات.

قيل المعنى أجعلهم لي خلف صدقٍ ولك عبيد حقّ، و قيل معناه، أجعلهم أبراراً لي مطيعين لك، و قيل معناه، وفّقهم لصالح الأعمال الّتي ترضى بها عنهم و قيل معناه، لا تجعل للشّيطان و النّفس الأمّارة بالسُّوء و الهوى عليهم سبيلاً، و هذا أحسن الأقوال، و أحسن الذّراري و أفضلهم و أشرفهم هو ذرّيّة رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و لذلك يقال اللّهم صلّ على محمّد و آل محمّد، و قد جعل اللّه تعالى ذريّة النّبي من صلب علّي بن أبى طالب.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: معاشر المسلمين أنّ اللّه تعالى جعل ذريّة كلّ نبيٍّ من صلبه و جعل ذريّتي من صلب علّى بن أبي طالب عليه السلام. و لعمري هذا هو الشّرف و المقام و الفضيلة و الإنعام لدلالته على أنّ صلبه صلبه و ذريّته ذرّيته و الأصل في ذلك أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: أنا و علّيٌ من نُورٍ واحدٍ.

و هذا هو الشّرف الّذي لا شرف فوقه ولنعم ما قيل:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ثمّ أنّ اللّه تعالى جعل منهم الأئمّة المعصومين الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً، و لم يوجد في العالم أصلح منهم أبداً.

و أمّا قوله **إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** فمعناه واضح لا خفاء فيه.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ جزء ٢٦

أولئك، يعني الّذين وصّيناهم و عملوا به من التّائبين المسلمين المنقادين للّه و رسوله، هم الّذين نتّقبل عنهم أحسن ما عملوا، فنتقبّل، بالنُّون و إضافة الفعل إلى اللّه على قراءة الكسائي و حمزة و خلف و على هذا فقد أخبر اللّه عن نفسه بأنّه يفعل بهم و هكذا في قوله: **نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ** و أمّا على

قراءة العامّة و هى الياء المضمومة في الفعلين على ما لم يسمّ فاعله لم يذكر الفاعل لأنّه معلوم، لأنّ قبول العمل و التّجاوز عن سيّئات الأعمال و الصّفح عنها، من شأن اللّه تعالى لا غيره فالفاعل في المقامين و على القرائتين هو اللّه إلاّ أنّ الكلام على القراءة الأولى إخبارٌ منه تعالى عن نفسه بخلاف الثّانية فأنّ الفاعل مقدّر لم يذكر في اللّفظ ثمّ قال تعالى: **وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** أي أنّ الجزاء الذّي أعطيناهم في القيامة و هو الدّخول في الجنّة و التّنعم بها ممّا وعدناهم في الدّنيا و قد صدقنا فيما وعدنا، و من أصدق من اللّه قيلاً.

■

وَ ٱلَّذي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰآ أَتَعِدٰانِنِىٓ أَنْ
أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلي وَ هُمٰا
يَسْتَغيثٰانِ ٱللّٰهَ وَيْلَكَ اٰمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مٰا هٰذٰآ إِلّآ أَسٰاطيرُ ٱلْأَوَّلينَ ﴿١٧﴾ أُولٰٓئِكَ
ٱلَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرينَ
﴿١٨﴾ وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لٰا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَ يَوْمَ يُعْرَضُ
ٱلَّذينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ في
حَيٰاتِكُمُ ٱلدُّنْيٰا وَ ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذٰابَ ٱلْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ وَ ٱذْكُرْ أَخٰا
عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِٓ أَلّٰا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللّٰهَ إِنّىٓ
أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظيمٍ ﴿٢١﴾ قٰالُوٓا
أَجِئْتَنٰا لِتَأْفِكَنٰا عَنْ اٰلِهَتِنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰآ إِنْ كُنْتَ
مِنَ ٱلصّٰادِقينَ ﴿٢٢﴾ قٰالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَ
أُبَلِّغُكُمْ مٰآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لٰكِنّىٓ أَرٰيكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضًا مُسْتَقْبِلَ
أَوْدِيَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مَا
ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ريحٌ فيهٰا عَذٰابٌ أَليمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ
كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهٰا فَأَصْبَحُوا لٰا يُرٰىٓ إِلّٰا

مَسٰاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ فِيمٰآ إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ
سَمْعًا وَ أَبْصٰارًا وَ أَفْئِدَةً فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَ لآَ أَبْصٰارُهُمْ وَ لآَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَىْءٍ
إِذْ كٰانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰاتِ ٱللّٰهِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا
كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا
حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْقُرىٰ وَ صَرَّفْنَا ٱلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلاٰ نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ
دُونِ ٱللّٰهِ قُرْبٰانًا اٰلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ
إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَ إِذْ صَرَفْنٰآ إِلَيْكَ
نَفَرًا مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْاٰنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ
قٰالُوٓا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِىَ وَلَّوْا إِلٰى قَوْمِهِمْ
مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰآ إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰابًا
أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسٰى مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَ إِلٰى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يٰا
قَوْمَنٰآ أَجِيبُوا دٰاعِىَ ٱللّٰهِ وَ اٰمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ
مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَ
مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِىَ ٱللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى
ٱلْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيٰآءُ أُولٰٓئِكَ فِى
ضَلاٰلٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللّٰهَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ
عَلٰىٓ أَنْ يُحْيِىَ ٱلْمَوْتٰى بَلٰىٓ إِنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَ يَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ
فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ
كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ
لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

◀ اللّغة

أُفٍّ: بضمّ الألف كلّ مستقذرٍ من وسخٍ.

يَسْتَغِيثَانِ: الإستغاثة الدُّعاء.

أَسَاطِيرُ: جمع أسطورة و هی ما سطر و لا حقيقة لها.

عَادٍ: يعني هود.

بِالْأَحْقَافِ: الأحقاف الرَّمل فيما بين عمّان إلى حضر موت، و قيل هو وادٍ بين عمّان و مهوة.

لِتَأْفِكَنَا: أي لتصرفنا و تمنعنا كذباً و الإفك الكذب.

عَارِضًا: العارض المارّ بمعنى أنّه لا يلبث (الأودية) جمع وادي.

تُدَمِّرُ: التَّدمير التَّخريب و الباقي واضح

◀ الإعراب

يَسْتَغِيثَانِ حال و ٱللّٰهَ مفعول يستغيثان و وَيْلَكَ مصدر لم يستعمل فعله و قيل هو مفعول به و مِنْ تتَّعلق بخلت مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ الإضافة في تقدير الإنفصال أي مستقبلاً أوديتهم و هو نعتٌ لعارض و رِيحٌ خبر متبدأ محذوف

أي هو ريحٌ تُدَمِّرُ نعتٌ للرّيح و مَا مَكَّنٰهُمْ مفعول به فِيمَآ إِنْ مَكَّنّٰكُمْ ما، بمعنىٰ، الّذي أو نكرة موسوفة و، إن، بمعنى ما النّافية و قيل هي زائدة قُرْبٰانًا هو مفعول، إتّخذوا ءَالِهَةً بدلٌ منه إِفْكُهُمْ المصدر مضاف إلى الفاعل أو المفعول وَ مٰا كٰانُوا معطوف على إفكهم يَسْتَمِعُونَ نعتٌ لنفرٍ سٰاعَةً ظرف ليلبثوا و بَلٰاغٌ خبر مبتدأ محذوف أي هو بلاغٌ و قد يقرأ بلاغاً و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰآ أَتَعِدٰانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمٰا يَسْتَغِيثٰانِ ٱللّٰهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مٰا هٰذَآ إِلَّآ أَسٰاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

لم يعرف القائل بهذا الكلام فقال بعض المفسّرين هو عبد الرّحمن بن أبى‌بكر و كان يدعوه أبواه إلى الإسلام فأجابهما بما أخبر اللّه عزّ وجلّ عنه و قال قتادة و السُّدي أيضاً هو عبد الرّحمن أبي بكر قبل إسلامه و كان أبوه و أمّه أمّ رومان يدعوانه إلى الإسلام و يعدانه بالبعث فأنكر عليهما فنزلت الآية و كانت عائشة أنكرت أن تكون الآية نزلت فيه.

و قال الحسن هي نعت عبدٍ كافرٍ عاقّ لوالديه و قال محمّد بن زياد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتّى يبايع النّاس ليزيد (لعنه اللّه) فقال عبد الرّحمن بن أبي بكر لقد جئتم بها هرقليّة أتبايعون لأبنائكم فقال مروان هو الّذي يقول اللّه فيه **وَ ٱلَّذِي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰآ** فقالت و اللّه ما هو به و لو شئت لسمّيت و لكنّ اللّه لعن أباك و أنت في صلبه فأنت فضضٌ من لعنة اللّه، و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية و لا يهمّنا البحث في تعيين القائل من هو، أهو عبد الرّحمن إبن أبي بكر أم غيره.

وَ ٱلَّذي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰا قلنا في شرح اللّغات أنّ أصل الأفّ كلّ مستقذرٍ من وسخ و قلامة ظفرٍ و ما يجري مجراهما و يقال ذلك لكلّ مستخفٍّ إستقذاراً، نحو قوله تعالى: **أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ**(١) يقال لقد أففت لكذا إذا قلت ذلك إستقذاراً **أَتَعِدٰانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ** من القبر يوم البعث **وَ قَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي** أي مضت أممٌ قبلي و ماتوا فما أخرجوا و لا أعيدوا إلى الدّنيا بعد الموت و لو كان البعث الّذي تعداني حقّاً فكيف لم يخرجوا و لم يبعثوا و إذا كان كذلك فالبعث لا معنى له.

وَ هُمٰا يَسْتَغِيثٰانِ ٱللّٰهَ الغوث بفتح الغين يقال في النُّصرة و الغيث في المطر يقال إستغثته أي طلبت الغوث أو الغيث فأغاثني من الغوث و غاثني من الغيث قال اللّه تعالى في قصّة موسى عليه السلام: **فَاسْتَغٰاثَهُ ٱلَّذي مِنْ شيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذي مِنْ عَدُوِّهِ**(٢) فالمعنى أنّ أبويه كانا يستغيثان اللّه أي يطلبان النُّصرة منه تعالى فقالا له: **وَيْلَكَ اٰمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ** الوَيل بفتح الواو و قال الأصمعي، ويل، قبح و قد يستعمل على التحسّر و من قال ويل، وادٍ في جهنّم لم يرد أنّه في اللُّغة موضوع لهذا و أنّما أراد، من قال اللّه تعالى ذلك فيه، فقد استحقّ مقرّاً من النّار و ثبت ذلك له، و المعنى قال له أبواه و يلك، يعني الويل لك، آمن، باللّه و رسوله و البعث **إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ** بالبعث و القيامة **حَقٌّ** لا مرية فيه لمن أمن به **فَيَقُولُ** أي فيقول الّذي قال لوالديه أفٍّ لكما، ماهذا إلاّ أساطير الأوّلين، ما، نافية أي ليس هذا القرأن الّذي وعد بالبعث و الجزاء و القيامة إلاّ أساطير الأوّلين، و الأساطير جمع أسطورة و هى الخبر الّذي سطر في الكتاب و لا أصل له.

أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْاِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرينَ

١- الانبياء = ٦٧
٢- القصص = ١٥

أولئك إشارة إلى منكري البعث أي أولئك الّذين لم يؤمنوا باللّه و رسوله و البعث و القيامة. **حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ** بإستحقاق العقاب و إدخال النّار لكفرهم و عنادهم و إنكارهم ما أخبر اللّه و رسوله به، **فِيٓ أُمَمٍ** أي مع أمم و جماعات **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ** أي مع أمم و جماعات قد مضت أيّامهم و ماتوا على الكفر من الجنّ و الإنس فأنّ حكم الأمثال واحد و يظهر من هذه الآية و أمثالها أنّ الجنّ مكلّفٌ بالتّكاليف الشّرعية كالإنس و هو كذلك إجماعاً.

إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ هذا الكلام تعليلٌ لدخولهم النّار، كأنّه قال قائل لم دخلوا النّار فقال تعالى أنّهم كانوا خاسرين لأعمالهم فضاع سعيهم و خسروا الجنّة.

وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ

الوافي الّذى بلغ التّمام يقال درهمٌ واف وكيلٌ واف، و توفية الشّئ بذله وافياً و إستيفائه تناوله وافياً قال اللّه تعالى: **وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ** و معنى الآية أنّ لكلّ واحدٍ من الفريقين من المؤمنين و الكافرين من الجنّ و الإنس مراتب و درجات يوم القيامة بسبب أعمالهم خيراً و شرّاً.

و إن شئت قلت للثّواب درجات و للعقاب أيضاً درجات و ليوفّيهم، فمن قرأ بالياء معناه ليوّفيهم اللّه أي يجزيهم بالتّمام و الكمال، و من قرأ بالنُّون فعلى وجه الإخبار من اللّه عن نفسه أنّه يوفّيهم ثواب أعمالهم و هم لا يظلمون، أي من غير أن ينقص منه شيئاً و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد و لمثل هذا فليعمل العاملون.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَ ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ

قال صاحب الكشّاف عرضهم على النّار تعذيبهم بها من قولهم، عرض بنو فلان على السَّيف إذا قتلوا به و منه قوله تعالى: **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**[١] و يجوز أن يراد عرض النّار عليهم من قولهم عرضت النّاقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها فقلَّبوا إنتهى كلامه.

أقول معنى الكلام يوم يكشف الغطاء فيقربون الى النّار و ينظرون اليها فالعرض على النّار قربهم اليها كما يقال فلان في معرض الموت أو في معرض الخطر أي هو قريبٌ منه و قد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال الكفّار و المنافقين الّذين مستمتعين في الدُّنيا بأنواع النِّعم من الصِّحة و الشّباب و القدرة و المال و غيرها ثمّ أفنوها في معصية اللّه و ماتوا على ذلك فيقال لهم يوم القيامة: **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا** و تقدير الكلام يقال لهم أذهبتم طيّباتكم، فالقول مضمر قرأ يعقوب و إبن كثير و أبو العالية و الحسن **أأذهبتم** بهمزتين مخففّتين و أختاره أبو حاتم، و قرأ أبو حبوة و هشام **أذهَبتُم** بهمزةٍ و احدة مطوّلة على الإستفهام.

و الباقون بهمزةٍ واحدة من غير مدٍّ على الخبر و كلّها لغات فصيحة و معناها التَّوبيخ و العرب توبّخ بالإستفهام و غير الإستفهام وإختار أبو عبيد ترك الإستفهام لأنّه قراءة أكثر القرّاء، نافع و عاصم و أبي عمرو، و حمزة، و الكسائي، مع من وافقهم من غير القرّاء من العلماء، قيل و ترك الإستفهام أحسن لأنّ إثباته يوهم أنّهم لم يفعلوا ذلك كما تقول أنا ظلمتك، تريد أنا لم أظلمك و مع ذلك إثباته حسنٌ أيضاً لا بأس به كما يقول القائل ذهبت فعلت كذا، يوبّخ و يقول، أذهبت فعلت، كلّ ذلك جائز، و معنى: **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ** أي تمتّعتم بالطّيبات في الدُّنيا و أتبّعتم الشّهوات و اللّذات يعني المعاصي، قال إبن بحر، الطيّبات الشّباب و القوّة أي أفنيتموها في الكفر و المعاصي، و

١- غافر = ۴۶

إستدلّ على ذلك بقولهم، ذهب أطيباه، أي شبابه و قوّته، و الأحسن حمل الطّيبات على معناها العّام الشّامل للشّباب و القوّة و اللباس و الأكل و الشُّرب و غير ذلك من النِّعم الّتي أنعم اللّه بها على العبد ممّا يتقّوى به في حياته.

و المقصود أنّ الطّيبات من النِّعم بل من أحسنها و هذا ممّا لا شكّ فيه، ثبت أنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً و هذا أيضاً ممّا لا خلاف فيه، و قد ثبت أيضاً أنّ التّخصيص في الأحكام العقليّة غير جائز، و إتّفقوا على أنّ المراد بالشّكر المأمور به عقلاً و شرعاً هو الشّكر العملي دون اللّساني و الحالي و فسّروه بأنّه عبارة عن صرف العبد جميع ما أنعم اللّه عليه في سبيل طاعته دون معصيته.

و المفروض أنّ الكافر و المنافق لم يفعل ذلك بل صرف عمره في معصيته في الدُّنيا و هذا معنى قوله أذهبتم طيّباتكم في الحياة الدُّنيا و أستمتعتم بها، فلم يبق لهم شئ في الأخرة إلاّ العذاب الثّابت على كفر النِّعم و مسبّبٌ عنه و الى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ** أي عذاب الخزي و الفضيحة فأنّ الهون، الهوان بلغة قريش و حيث أنّ منشأ الإعراض عن الحقّ و الإقبال الى المعصية لا يكون إلاّ التّكبر على اللّه و أنّه غير مستّحقٍ للعبادة قال اللّه تعالى: **بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** الباء للسّبب أي أنّ الإستكبار سبب العصيان و فى قوله: **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ** إشارة الى أنّ الحقّ للعبد التّواضع في جنب خالقه فمن عصاه تكبَّر عليه و من كان كذلك أعرض عن الحقّ و اقبل على الباطل.

و قد ورد في الخبر، قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **من تواضع للّه رفعه اللّه ومن تكبَّر وضعه اللّه**، كما فعل اللّه ذلك بالشّيطان حيث أبى عن السُّجود لآدم و إستكبر و كان من الكافرين الملعونين في الدُّنيا و الأخرة و ذلك هو الخسران المبين.

و قوله: **وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ** الواو للعطف و الباء أيضاً للسّبب كما في قوله: **بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** و على هذا فالسَّبَّب في العذاب الإستكبار و الفسق معاً و مقتضى العطف التّغاير بين المعطوف و المعطوف عليه و لازم ذلك أنّ الإستكبار غير الفسق.

إن قلت الفسق من مصاديق الإستكبار و أىّ فسقٍ أشنع و أعظم منه و بعبارةٍ أخرى ذكر الإستكبار كان ذكر الفسق فما وجه تخصيصه بالذِّكر بعد الإستكبار.

قلت الإستكبار على وجهين:

أحدهما: أن يتحرى الإنسان و يطلب أن يصير كبيراً و ذلك متى كان على ما يجب و فى المكان الّذي يجب و فى الوقت الّذي يجب و هو محمودٌ.

الثّاني: أن يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس له، و هذا هو المذموم و على هذا ورد ما ورد في القرآن و الأثار.

و أمّا **الفِسق** بكسر الفاء فهو خروجٌ عن حجر الشّرع و ذلك من قولهم فسق الرُّطب إذا خرج عن قشره و على هذا فقد يكون المستكبر، متّصفاً بالفسق أيضاً كما إذا خرج عن حدود الشّرع عملاً و قد لا يكون متّصفاً به، فإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل و إقتضته الفطرة و مع قطع النّظر عن هذا الإعتبار لا يطلق الفاسق على الكافر الأصلي إذا ظهر لك هذا فأعلم أنّ اللّه تعالى حكم في الآية الشّريفة بالإستكبار و الكفر معاً في الكافر الّذي يعرض على النّار، أمّا أنّه مستكبرٌ فهو واضح فأنّ الكفر مسبَّبٌ عن الإستكبار.

و أمّا أنّه فاسق فلأنّه خرج عمّا ألزمه العقل و إقتضته الفطرة السليمة فهو كافرٌ و فاسقٌ هذا ما فهمناه من الكلام و اللّه أعلم بما قال.

وَ ٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَ قَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

إعلم أنّه لمّا توفّى نوح النّبي عليه السلام بقى قومه و ذريّته المؤمنون دهراً طويلاً يترقّبون هوداً و ينتظرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد و قست قلوب كثيرة منهم و أرتدّوا من الدّين، و أقبلوا على عبادة الأصنام و كان أشدّهم بأساً و أكثرهم كفراً و طغياناً قوماً منهم سكنوا أرض اليمن و بنوا فيها الأبنية و مدّنوا فيها المدن و كان يقال لهم قوم عاد الى أن كثروا و صاروا ثلاث عشرة قبيلة يبلغ عددهم ما شاء اللّه و كلّهم ينسبون الى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح و كانت بلادهم ما بين عمّان الى حضرموت و كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً و كانت بلادهم أخصب بلاد العرب و أكثرهم ثماراً و أنهاراً و كانت أعمارهم طويلة يعيش كثير منهم أربع مائة سنة و أجسادهم عظيمة و كانوا أصحاب بطشٍ و شدّةٍ كما قال اللّه تعالى عنهم: **وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ اَلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ**[1].

و قد مرّ الكلام في قصتّهم هناك إذا عرفت هذا إجمالاً فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية و نقول وَ يا محمّد **أَخا عادٍ** و هو هود النّبي عليه السلام **إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ** أي خوّفهم من عذاب الأحقاف و هى ديار عاد و هى الرّمال العظام في قول الخليل و غيره و كانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوّتهم، و الأحقاف جمع حقف و هو ما إستطال من الرّمل العظيم و إعوج و لم يبلغ أن يكون جبلاً و الجمع حقاف و أحقاف يقال إحقوقف الرّمل و الهلال أي إعوج، و قيل هو رملٌ مستطيلٌ مشرف، قال إبن زيد هي رمال مشرفة مستطيلة كهيّئة الجبال، و لم تبلغ أن تكون جبالاً.

و قال قتادة هي جبال مشرفة بالشّحر و الشّحر قريب من عدن و هو ساحل بين عمّان و عدن، و قال مجاهد هي أرضٌ من حسمي تسمّى بالأحقاف و **حِسمى** بكسر الحاء إسم أرضٍ بالبادية فيها جبال قاله الجوهري.

١- فصّلت = ١٥

و قال ابن عبّاس و الضَّحاك الأحقاف جبل بالشّام و قيل وادٍ بين عمان و مهرة، و قيل منازل عاد باليمن في حضرموت بوادٍ يقال له مهرة و إليه تنسب الإبل المهريّة و الأقوال فيها كثيرة و فيما ذكرناه كفاية، و أمّا كيفيّة إنذاره قومه فهو أنّه سمع صوتاً يقول له يا هود قرِّ عيناً فأنّ لعاد منّا يوم سوء فرجع هود إلىٰ قومه يكرّر عليهم الإنذار و يتمّ عليهم الحجّة و قال لهم ألا ترون هذه الرّمال كيف تجمّعت أنّي أخاف أن تكون مأمورة بإلقاء العذاب عليكم و أنّ ربّي قد و عدني أن يهلككم فأخذوا يستهزؤن به و أقبلوا بجموعهم على نقل تلك الرّمال إلى البراري فلم تزد الرّمال إلاّ تجمعاً.

وَ قَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ أي لم يكن هود النّبي أوّل من أنذر قومه بل قد خلت و مضت النُّذر من الأنبياء من قدّامه و وراءه و من قبله و بعده.

و قوله: **أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ** يحتمل أن يكون دعوة هود و يحتمل أن يكون دعوة جميع الرُّسل أي أنّهم أمروا قومهم بالتّوحيد و أن لا يعبدوا إلاّ اللّه **إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** الظّاهر أنّه من كلام هود في إنذاره قومه.

قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ

أي قال القوم في جواب هود بعد تهديده و تخويفه إيّاهم بالعذاب **أَجِئْتَنَا** يا هود **لِتَأْفِكَنَا** و تصرفنا عن ألهتنا التّي نعبدها، **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ** من العذاب، **إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ**.

قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَ لَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

أي قال هود في جواب قومه لمّا قالوا له **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ**، **إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ** بوقت مجيئ العذاب **عِنْدَ ٱللَّهِ** لا عندي و أنّي **أُبَلِّغُكُمْ**

مٰآ أُرْسِلْتُ بِهِ و ما على الرّسول إلاّ البلاغ **وَ لٰكِنِّىٓ أَرٰيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ** في سؤالكم بإستعجال العذاب ألم تعلموا أنّ العذاب بيد اللّه و الإنذار منه من وظائف النّبي و من لا يعلم ذلك فهو جاهلٌ.

فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مٰا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ

روي أنّ اللّه تعالى كفَّ السّماء عنهم فلم تمطر عليهم سبع سنين حتّى أصابهم القحط الشّديد و ضجّوا و أشرفوا على الهلاك و أمّا قومه الّذين كفروا به و إستكبروا على خالقهم و تمادوا في الغيّ و الضّلال و ضاق عليهم الأمر إجتمعوا يتشاورون و كانت عادتهم إذا نزل بهم بلاء لجؤوا إلى بيت اللّه الحرام بمكّة و دعوا اللّه فيصرف ما نزل بهم فإتّفقت كلمتهم على بعث وفدٍ إلى مكّة يدعوا هناك للخصب فذهب الوفد و نزلوا على رجلٍ من خيار مكّة من بني بكر و قاموا عنده إلى أن دخلوا البيت الحرام و أخذوا في الدّعاء إلى أن إرتفع فوق رؤوسهم ثلاث قطع من السّحاب، بيضاء، حمراء، سوداء، فإستبشروا زعماً منهم أن تسقيهم الأمطار فسمعوا قائلاً يقول ياقوم إختاروا واحدة من هذه السّحب فإختاروا السّحابة السّوداء و كان فيها العذاب فسيقت السّحابة بأمر اللّه إلى قوم عاد في اليمن و لمّا رأوها زعموها المطر و إستبشروا بها فجعل يقول بعضهم لبعضٍ هذه السّحابة تمطرنا الغيث و تزيل عنّا كلّ سوءٍ و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضًا** و ردَّ عليهم هود النّبي بقوله: **بَلْ هُوَ مٰا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ** أي ليس فيها مطر كما تزعمون بل هو، أي ما ترونه، ماإستعجلتم به، من العذاب حيث قلتم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين، فهذا ما وعدتكم به ثمّ بيَّن ما قال فقال: **رِيحٌ فِيهٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ** و الرِّيح الّتي عذّبوا بها نشأت من ذلك السّحاب الّذي رأوه و خرج هود من بين أظهرهم فجعلت الرّيح تحمل الفساطيط و تحمل الظّعينة

كأنّها جرادة ثمّ تضرب بها الصُّخور، قيل لمّا خرج هود و من معه كما أمرهم ربّهم و أحسَّ قوم هود بالرّيح أقبلوا عليه يقولون له ياهود أتخوَّفنا بالرّيح ثمّ جمعوا ذراريهم و أموالهم و أهاليهم في شعبٍ من تلك الشّعاب الّتي فيها القصور الشّاهقة و أقاموا على أبوابها يردُّون الرّيح عنها و عمّا فيها فإشتدّت الرياح حتّى قلّعتهم عن الأرض وهبَّت بهم تحملهم إلى اللّجوء إلى تلك القصور ثمّ إزدادت الرّياح عليهم حتّى طحنت تلك القصور و الحصون و الأشجار و الزّروع و صارت كلّها رملاً دقيقاً تسفها أقلّ ريحٍ و عصفت بها سبع ليالٍ و ثمانية أيّامٍ حسوماً.

و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ**(١).

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ

التَّدمير إدخال الهلاك على شيءٍ و كذلك الدّمار التّدمير التّخريب و إلقاء بعض الأشياء على بعض و المعنى أنّ الرّيح كانت تدمّر و تخرّب كلّ شيءٍ بأمر ربّها **فَأَصْبَحُوا** أي قوم عاد **لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ يُرَىٰ** بضم الياء بصيغة المجهول و على هذا فالنُّون في مساكنهم أيضاً بالضمّ و من قرأ على وجه الخطاب للنبيّ فالنُّون في مساكنهم بالفتح، و المشهور بين القّراء بالياء على صيغة المجهول، و قوله: **كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ** معناه أنّ هذا الهلاك لم يكن مختّصاً بقوم عادٍ بل هو ثابت لازمٌ لكلّ قومٍ مجرمين أي عاصين متّمردين عن طاعة اللّه فأنّ حكم الأمثال واحد.

١- الحاقة = ٧

وَ لَقَدْ مَكَّنّٰاهُمْ فِيمٰا إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصٰاراً وَ أَفْئِدَةً فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كٰانُوا يَجْحَدُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

قيل، إن، في **إِنْ مَكَّنّٰاكُمْ** زائدة و تقديره و لقد مكنّاهم فيما مكّناكم فيه كما قال الشّاعر:

فما إن طبّنا جبنٌ ولكن منايانا و دولة أخرينا

و أنشد الأخفش:

يرجّى المرء ما إن لا يراه و تعرض دون أدناه الخطوب

و قيل أنّ «ما» بمعنى الّذي و «إن» بمعنى، ما، والتّقدير و لقد مكنّاهم في الّذي مكنّاكم فيه، قاله المبّرد، و قيل «إن» شرطيّة و جوابها مضمر محذوف و التّقدير و لقد مكنّاهم فيما إن مكّناكم فيه كان بغيكم أكثر و عنادكم أشدَّ و تمّ الكلام ثمّ إبتدأ فقال **وَ جَعَلْنٰاهم**.

أقول أمّا الوجه الأوّل و هو أن تكون، «إن» زائدة فلا وجه له لأنّه بعيد في كلام اللّه مع أنّ الأصل أيضاً يقتضي عدم الزّيادة.

أمّا الوجه الثانى: و الثّالث فلا بأس بهما بل لكلّ واحدٍ منهما وجهٌ وجيهٌ، و الأحسن هو الثّالث و هو أن تكون شرطيّة و الجواب محذوف أي و لقد مكنّا قوم عاد من الأموال و القوّة و البأس فيما إن مكنّاكم فيه كان بغيكم و عنادكم و تكبّركم أشدَّ و أعظم من عنادهم فأنّ عند الإمتحان يكرم الرّجل أو يهان.

و أمّا قوله تعالى: **وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصٰاراً وَ أَفْئِدَةً فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ** ففيه إشارة إلىٰ نُقطةٍ خَفيّة لا بأس بالإشارة إليها على سبيل الإجمال.

فنقول الغرض الأصلي من إيجاد السّمع و البصر في الإنسان ليس مجرّد الإدراك بهما بل الغرض ترتيب أثار الإدراك فأنّ الإنسان يسمع بالأذن و يبصر

بالعين و نعبّر عنهما بالإدارك و أمّا الأثر المترتّب على السَّمع هو القبول إذا كان المسموع حقّاً و عدم القبول إذا كان باطلاً و هكذا الأثر المترتب على البصر بعد الإدراك هو التَّدبر و التفكُّر فيما يراه بعينه و أن يعتبر بهذا الإدراك حقّ الإعتبار و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **فإعتَبرُوا ياأُولي الأبصار**، فمن سمع الكلام حقّاً كان أو باطلاً و لم يترتّب على إداركه أثاره من الأخذ بالحقّ و العمل به و ترك الباطل و قنع بمجرّد الإدراك أو رأى شيئاً بعينه و لم يترتّب على رؤيته التَّفكر و الإعتبار للوصول إلى الكمال و البلوغ إلى الأمال فهو كالحيوان فأنّ الحيوان أيضاً يسمع و يرى إلاّ أنّه لا يقدر على ترتيب الأثار المذكورة فأيّ فرق بين السَّمع و البصر في الإنسان و الحيوان بل نقول هو كالعدم فأنّ الموجود بما هو موجود مع قطع النّظر عن الأثار المترتّبة عليه لا خير فيه فأنّ الشّيطان أيضاً موجود فأنّ فضيلة كلّ موجودٍ بأثاره، و هكذا الكلام في الفؤاد و هو القلب فأنّ اللّه تعالى جعله في الإنسان للتَّفقّه فمن لا تفقُّه في قلبه كأنّه لا قلب له.

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لٰا يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لٰا يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ اٰذٰانٌ لٰا يَسْمَعُونَ بِهٰآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ**(١).

نفى اللّه تعالى في هذه الآية التفقُّه عن قلوبهم و التبصُّر عن أعينهم و السَّمع عن أذانهم ثمّ جعلهم كالأنعام ثمّ قال بل هم أضلّ من الأنعام و وصفهم ثالثاً بالغفلة و قال أولئك هم الغافلون، أى أنّهم غافلون عمّا خلق كلّ واحدٍ منها لأجله من الأثار المطلوبة و من المعلوم أنّ نفى الأثار جعلهم كالحيوان ظاهر.

إذا عرفت هذا فقوله تعالى: **وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصٰارًا وَ أَفْئِدَةً فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ** معناه أنّهم لم ينتفعوا بها حقّ الإنتفاع فسمعوا كلام الأنبياء و أيات

١- الأعراف = ١٧٩

اللّه ثمّ أنكروها و رأوا بأعينهم أثار العذاب في الأمم السّابقة و لم يعتبروا بها و من كان كذلك فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم عن عذاب اللّه لبقائهم على الإنكار و الإستهزاء بأيات الله.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْقُرىٰ وَ صَرَّفْنَا اَلْآيٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

الخطاب في قوله: **مٰا حَوْلَكُمْ** لأهل مكّة من الكفّار و المشركين و أنّما قال ما حولكم من القرى، لأنّ بلاد قوم لوط و ثمود و نحوهما كانت بقرب بلاد العرب و كانت أخبارهم متواترة عندهم، فلمّا أهلكهم اللّه بكفرهم ينبغي أن يعتبروا بهم و قوله: **وَ صَرَّفْنَا اَلْآيٰاتِ** فالتَّصريف تصييرها في الجهات و هو تارةً يكون في الألفاظ و تارةً في المعاني فالأوّل مثل ضرب ضرباً ضربوا إلى أخرها.

الثّاني: كتصييره تارةً مع هذا الشّئ و تارةً مع ذلك الشّئ و على هذا فتصريف الأيات تارةً يكون في الإعجاز، و تارةً في الإهلاك، و تارةً في التّذكير بالنِّعم و تارةً في وصف الأبرار و تارةً في وصف الفجّار و الفسّاق كلّ ذلك للإعتبار **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أي أنّما صرَّفنا الأيات لكي يرجعوا إلى طاعة اللّه و يجتنبوا عن معاصيه، و المقصود إتمام الحجّة عليهم.

فَلَوْلاٰ نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ

قوله: **فَلَوْلاٰ** معناه، فهلاّ، المفسّرون جميعاً، فمعنى الأية، فهلاّ نصرهم الذّين إتَّخذوا من دون اللّه من الأصنام و الأوثان و غيرهما ممّا إتَّخذوه معبوداً لأنفسهم و كانوا يقرّبون إليهم قرباناً و سمُّوها ألهة، و الآية للتّوبيخ وبّخهم اللّه على أنفسهم بأنّ من لا يقدر على نصرة أولياءه كيف تصحّ عبادته، و بعبارةٍ أخرى هلاّ نصرهم ألهتهم الّتي تقرّبوا بها بزعمهم إلى اللّه لتشفع لهم، حيث

قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه، وكيف لم تمنعهم من الهلاك الواقع بهم في الدّنيا، و من لا يقدر على دفع العذاب من أوليائه في الدّنيا فهو في الأخرة أعجز و أضعف و العاجز الضّعيف لا يستحقّ العبادة **بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ** أي هلكوا عنهم، و قيل أي ضلّت عنهم ألهتهم لأنّها لم يصبها ما أصابهم إذ هي جماد، و قيل ضلّوا عنهم، أي تركوا الأصنام و تبرّأوا منها **وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ** أي و الألهة الّتي ضلّت عنهم هي إفكهم، أي إفك هؤلاء الكفّار و كذبهم في قولهم أنّها تقرّبهم إلى اللّه زلفى **وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ** ما، موصولة بمعنى الّذي، أي ذلك إفكهم و كذبهم الّذي كانوا يفترون و يخترعونه من عند أنفسهم.

وَ إِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْاٰنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوٓا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِيَ وَلَّوْا إِلٰى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ

قيل هذه الآية توبيخٌ للمشركين من قريش أي أنّ الجنّ سمعوا القرأن فأمنوا به و علموا أنّه من عند اللّه و أنتم معرضون عنه و مصرّون على الكفر، و معنى، صرفنا إليك، وجّهنا و بعثنا إليك، نفراً من الجنّ.

قال صاحب الكشّاف النّفر دون العشرة و يجمع على أنفار **فَلَمّٰا حَضَرُوهُ** يعني القرأن أو النّبي، قالوا، بعضهم لبعضٍ، أنصتوا فلمّا قضي، أي فلمّا فرغ النّبي من تلاوته **وَلَّوْا إِلٰى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** أي مخوّفين من معاصي اللّه، و قال قومٌ أنّ اللّه أمر نبيّه أن يقرأ القرأن على الجنّ و أمره بأن يدعوهم إلى عبادته و قال قومٌ هم يسمعون من قبل نفوسهم لقراءة القرأن فلمّا رجعوا إلى قومهم قالوا لهم كما حكى اللّه عنهم.

قٰالُوا يٰا قَوْمَنٰآ إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسٰى مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَ إِلٰى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

أي لمّا رجع هؤلاء النّفر من الجنّ إلى قومهم قالوا لهم **يٰا قَوْمَنٰآ إِنّٰا سَمِعْنٰا كِتٰابًا** و هو القرأن **أُنْزِلَ** من اللّه على نبيّه من بعد موسى **مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ**

مُصدّقاً بكسر الدّال أي أنّ الكتاب المنزل من بعد موسى مصدِّقٌ لما بين يديه و هو التّوراة و الإنجيل و معنى كونه مصدِّقاً، أنّه يحكم بصّحة التّوراة و أنّ اللّه تعالى أنزله على نبيّه موسى إبن عمران **يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَ إِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** هذا أيضاً وصف للكتاب أي أنّا سمعنا كتاباً مصدّقاً لِما بين يديه و يهدي إلى الحقّ إلى طريقٍ مستقيم، الّذي لا عوج له و لا إنحراف و قيل إلى طريقٍ مستقيم من توحيد اللّه و معرفة نبيّه المؤدّي إلى الجنّة، قيل في عددهم أنّهم كانوا تسعةً نفر و قيل سبعة نفر.

يٰا قَوْمَنٰآ أَجِيبُوا داٰعِيَ ٱللّٰهِ وَ اٰمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذاٰبٍ أَلِيمٍ

أي قال هؤلاءِ النّفر من الجنّ الّذي إستمعوا القرأن و رجعوا إلى قومهم **يٰا قَوْمَنٰآ أَجِيبُوا داٰعِيَ ٱللّٰهِ** و هو النّبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الّذي أنزل عليه القرأن الّذي يهدي إلى الحقّ، و أمنوا به، أي صدِّقوه بالنّبوة و قيل الضّمير في، به، عائد على اللّه أي أمنوا باللّه الّذي أنزل القرأن **يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** قيل، من، زائدة أي يغفر لكم ذنوبكم **وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذاٰبٍ أَلِيمٍ** **يُجركم** بضّم الياء و كسر الجيم من أجار يجير، و الإجارة من النّار معناها جعلهم في جوار لأولياء المباعدين من النّار و قد ورد في الدُّعاء اللّهم أجرني من النّار، ثمّ قالوا لقومهم

وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ داٰعِيَ ٱللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ

أي لا يفوت اللّه و لا يسبقه **وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِٓ** أي من دون اللّه أولياء أولئك في ضلالٍ ظاهر أي أولئك الّذين لم يجيبوا داعي اللّه لا وليّ له في الدّنيا و الأخرة إلاّ الشّيطان، لأنّ الّذين كفروا أوليائهم الشّيطان يخرجهم من النُّور إلى الظُّلمات أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون.

إعلم أنّ هذه الأيات من قوله تعالى: **وَ إِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ** إلى قوله: **فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ** كلّها حكايةً عن الجنّ و كان سبب نزولها أنّ رسول اللّه خرج من

مكّة إلى سوق عكاظ و معه زيد بن حارثة يدعو النّاس إلى الإسلام فلم يجبه أحد و لم يجد أحداً يقبله ثمّ رجع إلى مكّة فلمّا بلغ موضعاً يقال له (وادي مجنّة) أي الأرض الكثيرة الجنّ، تهّجد بالقرأن في جوف اللّيل فمّر به نفرٌ من الجنّ فلمّا سمعوا قراءة رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إستمعوا له فلمّا سمعوا قراءته قال بعضهم لبعضٍ، أنصتوا، يعني إسكتوا، فلمّا قضى أي فرغ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من القرأن، فوّلوا إلى قومهم منذرين، **قَالُوا يا قَوْمَنآ إِنّا سَمِعْنا كِتابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ** إلى قوله: **طَرِيقٍ مُسْتَقِيم، يا قَوْمَنآ أَجِيبُوا داعِيَ ٱللّهِ** إلىٰ قوله: **في ضَلالٍ مُبِينٍ** فجاءوا إلى رسول اللّه و أسلموا و أمنوا و علّمهم رسول اللّه شرائع الإسلام فأنزل اللّه عزّ وجلّ على نبيّه.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ(١) إلى أخر السُّورة كلّها فَحكىٰ اللّه عزّ و جلّ قولهم و وّلى عليهم رسول اللّه منهم و كانوا يعودون إلى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في كلّ وقتٍ فأمر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أميرالمؤمنين عليهم أن يعلّمهم فمنهم مؤمنون و كافرون و ناصبون و يهود و نصارى و مجوس و هم ولد الجانّ، و سئل العالم صلوات اللّه عليه عن مؤمن الجنّ أيدخلون الجنّة قال عليه السّلام: **لا، ولكن للّه حظائر، بين الجنّة و النّار يكون فيها مؤمني الجنّ وفسّاق الشّيعة و اللّه أعلم.**

و أمّا العامّة فقد ذكروا في تفاسيرهم غير ما ذكرناه و قد نقل القرطبي عن إبن عبّاس و غيره فصلاً مشبّعاً في الباب إن أردت الوقوف عليه فعليك بكتابه:

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللّهَ ٱلَّذي خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلىٰٓ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتىٰ بَلىٰٓ إِنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

قيل الرؤية في المقام بمعنى العلم، و المعنى، أولم يعلموا هؤلاء الكفّار أنّ اللّه الّذي خلق السّموات و الأرض على سبيل الإبداع **وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ** أي

١- الجّن = ١

لم يصبه في خلق ذلك إعياءٌ و لا تعبٌ، **بِقَادِرٍ** أي أنّه قادر على أن يحيي الموتى، يوم البعث، بلى أنّه، تعالى، **عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** أي أنّ قدرته تعالى لا نهاية لها حتّى يقال أنّه قادرٌ على بعضٍ دون بعضٍ كما أنّ علمه و سائر صفاته أيضاً كذلك و ذلك لأنّ الصفّة تابعة لموصوفها و قد ثبت أنّ الموصوف أعني به ذاته المقدّسة لا نهاية له لأنّها لا بداية لها و ما لا بداية له لا نهاية له فهكذا الصّفات مع أنّها عين الذّات مصداقاً و إن كانت مغايرة للذّات مفهوماً و قد مرّ الكلام في هذا الباب غير مرّةٍ ثمّ أنّ المراد بإحياء الموتى في الآية إحياء الأموات يوم البعث و هو الّذي أنكره من أنكره و الأصل في جميع ذلك هو قوله تعالى: **إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** تقدّم ذلك أيضاً.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

قد تقدّم الكلام في معنى العرض على النّار و ذكرنا الأقوال فيه و قلنا معنى العرض على النّار قرب دخولهم فيها و على قول صاحب الكشّاف بعد دخولهم فيها فيقال لهم، **أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ** على وجه الإجتماع عليهم و المعنى أليس هذا الّذي جزيتم به حقٌّ لا ظلم فيه: **قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا** الواو للقسم أي قال الكفّار بلى أنّه حقٌّ فيحلفون على ذلك فيقال لهم عند قولهم هذا و إقرارهم و إعترافهم بأنّ النّار حقٌّ لهم **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ** الّذي نشأ من أعمالكم و إنكاركم الحقّ و الكفر بما أنزل اللّه على نبيّه و بالجملة ذوقوا العذاب الّذي كسبته أيديكم في الدّنيا.

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ

الفاء في قوله: **فَاصْبِرْ** للتّفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال من كفرهم و عنادهم و إستهزاءهم و إيذاءهم الأنبياء فأصبر على إنكارهم و كفرهم و ايذائهم كما صبر أولوا العزم من الرُّسل قبلك وَ **لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** بالعقاب **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ** و هو يوم القيامة لقرب مجيئه **لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ** و هو كناية عن قلّة لبثهم و حياتهم في الدُّنيا و أمّا قوله: **بَلَاغٌ** فقيل معناه ذلك اللّبث بلاغ، و قيل معناه القرآن بلاغ **فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ** أي فهل يهلك بهذا النّوع من الإهلاك إلاّ القوم الفاسقون الخارجون عن أمر اللّه، و الإستفهام للإنكار أي لا يهلك إلاّ الفاسق.

تنبية نذكر فيه ما لابدّ من ذكره على سبيل الإجمال توضيحاً للأية الشّريفة.

فنقول أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه بالصّبر و هو الإمساك في ضيقٍ يقال صبرت الدّابة حبستها بلا علف هذا في اللُّغة و أمّا في الإصطلاح فهو حبس النّفس على ما يقتضيه العقل و الشّرع أو عمّا يقتضيان حبسهما عنه فالصّبر لفظٌ عامّ و مصاديقه كثيرة و ربّما خولف بين أسماءه بحسب إختلاف مواقعه، فأن كان حبس النّفس لمصيبةٍ سمّي صبراً لا غير و يضادّه الجزع و إن كان في محاربةٍ سمّي شجاعة و يضادّه الجبن و أن كان في نائبةٍ مضجرة سمّي رحب الصّدر و يضادّه الضّجر، و أن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً و قد سمّى اللّه تعالى ذلك صبراً ونبّه بقوله: **وَ ٱلصَّابِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَ ٱلضَّرَّآءِ**[١] و سمّي الصّوم صبراً لكونه كالنّوع له، و كيف كان لا شكّ أنّه منزلٌ من منازل السّالكين و مقام من مقامات الموّحدين و به ينسلك العبد في سلك المقرّبين و يصل الى جوار ربّ العالمين.

و قد أضاف اللّه أكثر الدّرجات و الخيرات اليه و ذكره في نيّف و سبعين موضعاً من القرآن و وصف اللّه الصّابرين بأوصافٍ حميدة كما لا يخفى على

١- البقرة = ١٧٧

المارس خلال هذه الدّيار و لذلك أمر نبيّه بل جميع أنبياءه به و الأخبار الواردة في مدحه كثيرة جدّاً إلاّ إنّا لا نحتاج الى ذكرها في المقام بعد تصريح الآيات في مدحه.

و أمّا أولوا العزم من الرُّسل، الّذين أمر اللّه نبيَّه بمتابعتهم في الصّبر.

فقال إبن عبّاس المراد بهم ذوو الحزم و الصبر و ليس المراد أشخاصاً معيّنين و ذلك جميع الأنبياء كانوا متصفين به على حسب مراتبهم و مقاماتهم.

و قال مجاهد المراد بهم خمسة من الرُّسل و هم نوح عليه السلام، و إبراهيم عليه السلام، موسى عليه السلام، عيسى عليه السلام و محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و هو أفضلهم و هم أصحاب الشّرائع، و قال أبوالعالية أنّ أولى العزم، نوح، و هود، و ابراهيم، و أمر اللّه نبيّه أن يكون رابعهم، السُّدي هم ستّة، إبراهيم، موسى، داود، سليمان، عيسى، و محمّد صلوات اللّه عليهم أجمعين، و قيل هم، نوح، هود، صالح، شعيب، لوط و موسى، و قيل غير ذلك من الأقوال الّتي لا فائدة في نقلها بعد إتّفاق قاطبة المسلمين على أنّهم خمسة، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى و محمّد عليهم السّلام هو المشهور بين المسلمين بحيث كاد أن يكون إجماعاً بينهم و الأمر سهل بعد وضوح المقصود ذكرهم، و هو متابعتهم في الصَّبر فأنّ نبيّ اللّه نوح صبر على أذى قومه، و إبراهيم عليه السلام صبر على النّار، و إسماعيل، صبر على الذّبح، و يعقوب صبر على فقد الولد و ذهاب البصر، و يوسف صبر على البئر و السِّجن، و أيُّوب صبر على الضّر و هكذا بل نقول، ما من نبيٍّ إلاّ و هو صبر على الأذى، و أمّا بقية ألفاظ الآية فقد شرحناها و لا خفاء فيها فأنّ اللّبث في الدُّنيا قليل و ما وعد اللّه حقّ لا مرية فيه و الهلاك و العذاب في الدّارين للفاسقين.

■

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ أَضَلَّ
أَعْمٰالَهُمْ ﴿١﴾ وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ
وَ اٰمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلٰى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ ﴿٢﴾
ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبٰاطِلَ وَ أَنَّ
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذٰا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقٰابِ حَتّٰى إِذٰآ أَثْخَنْتُمُوهُمْ
فَشُدُّوا ٱلْوَثٰاقَ فَإِمّٰا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّٰا فِدٰآءً حَتّٰى
تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا ذٰلِكَ وَ لَوْ يَشٰآءُ ٱللّٰهُ
لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ
ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمٰالَهُمْ
﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ ﴿٥﴾ وَ يُدْخِلُهُمُ
ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ ﴿٦﴾ يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ
تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ ﴿٧﴾ وَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ ﴿٨﴾

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ
﴿۹﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ
عٰاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ
لِلْكٰافِرِينَ أَمْثٰالُهٰا ﴿۱۰﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ أَنَّ ٱلْكٰافِرِينَ لٰا مَوْلٰى لَهُمْ ﴿۱۱﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ
جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعٰامُ وَ ٱلنّٰارُ
مَثْوًى لَهُمْ ﴿۱۲﴾ وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِنْ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنٰاهُمْ فَلٰا نٰاصِرَ
لَهُمْ ﴿۱۳﴾ أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ
لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَ ٱتَّبَعُوٓا أَهْوٰآءَهُمْ ﴿۱۴﴾ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ
ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهٰآ أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَيْرِ اٰسِنٍ
وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ
لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ
فِيهٰا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرٰاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ
هُوَ خٰالِدٌ فِى ٱلنّٰارِ وَ سُقُوا مٰآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ
أَمْعٰآءَهُمْ ﴿۱۵﴾ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّٰىٓ إِذٰا
خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مٰاذٰا
قٰالَ اٰنِفًا أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلٰى قُلُوبِهِمْ وَ
ٱتَّبَعُوٓا أَهْوٰآءَهُمْ ﴿۱۶﴾ وَ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زٰادَهُمْ
هُدًى وَ اٰتٰيهُمْ تَقْوٰيهُمْ ﴿۱۷﴾

◀ اللّغة

صَدُّوا: الصّد بفتح الصّاد المنع.

ٱلرِّقَابِ: بفتح الرّاء جمع رقبة و هى العنق.

أَثْخَنتُمُوهُمْ: أي أثقلتموهم الإثخان، الأثقال.

ٱلْوَثَاقَ: الوثاق إسمٌ من الإيثاق و قيل إسم الشّئ الّذي يوثق به كالرّباط.

أَوْزَارَهَا: الأوزار جمع وزر، بكسر الواو و هو الثِّقل.

بَالَهُمْ: البال الشّأن.

فَتَعْسًا: التَّعس الإنحطاط.

دَمَّرَ: التَّدمير الاهلاك.

مَثْوًى: المثوى المكان و المقام.

ءَاسِنٍ: بكسر السّين غير متغيّر.

أَمْعَآءَهُمْ: الأمعاء الأحشاء و قيل الأمعاء جمع معّي و التثنية، معيان و هو جميع ما في البطن من الحوايا.

◀ الإعراب

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ و أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ خبره فَإِذَا لَقِيتُمُ العامل، في، اذا هو العامل في ضَرْبَ و التّقدير و اضربوا ضرب الرّقاب فضرب هنا مصدر فعل محذوف مَنًّا بفتح الميم مصدر منَّ يمنّ عَرَّفَهَا أي قد عرَّفها فهو حال وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هو مبتدأ و الخبر محذوف تقديره، تعسوا و دلّ عليها فَتَعْسًا و دخلت الفاء تنبيهاً على الخبر كَمَنْ زُيِّنَ هو خبر من قوله مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ لَذَّةٍ، صفة لخمر و قيل هو مصدر أي ذات لذّة مَغْفِرَةٌ معطوف على المحذوف أو الخبر محذوف أي ولهم مغفرة.

◀ التّفسير

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ

قيل المراد بهم أهل مكّة من كفّار قريش الّذين كفروا بتوحيد اللّه و صدّوا أي منعوا أنفسهم و غيرهم ممَّن أمن أو أراد أن يؤمن عن دين اللّه و هو الإسلام الّذي جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم قاله السُّدي.

و قال الضّحاك المراد بقوله، عن سبيل اللّه، عن بيت اللّه يمنع قاصديه، و معنى، أضلَّ أعمالهم، أبطل كيدهم و مكرهم بالنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و قيل، أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمّونه مكارم من صلة الأرحام و فكّ الاسارى و قري الأضياف و حفظ الجوار و عن إبن عبّاس نزلت الآية في المطعمين ببدر و هم أثنا عشر رجلاً، أبو جهل و الحارث ابن هشام، و عتبة و شيبة، ابنا ربيعة و أبيّ و أميّة ابنا خلف و منّبه و بنيّه إبنا الحجّاج و أبو البختري بن هشام و زمعة إبن الأسود و حكيم بن حزام و الحارث بن عامر بن نوفل.

أقول ما ذكروه في نزول الآية لا بأس به إلاّ أنّ المراد بها العموم بمعنى أنّ الحكم عامّ يشمل جميع الصادّين عن سبيل اللّه في كلّ عصرٍ و زمانٍ و خصوص المورد لا ينافي عموم المعنى فأنّ أكثر الأيات من هذا القبيل ثبت أنّ حلال محمّدٍ حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك، و على هذا فالصدّ عن سبيل اللّه و المنع عن دخول النّاس في الإسلام بأيّ طريقٍ كان يوجب إبطال الأعمال الّتي صدرت من الصّاد.

قال بعض المفسّرين معنى أضلَّ أعمالهم، أنّ اللّه حكم على أعمالهم بالضّلال عن الحقّ و العدول من الإستقامة و سمّاها بذلك لأنّها عملت على غير هدىً و غير رشادٍ.

و قال بعضهم معنى، **أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ** أبطل كيد الكفّار و مكرهم بالنّبي و جعل الدّائرة عليهم و هذا المعنى أوفق بسياق الكلام و التّجنب عن الإحباط الّذي لا نقول به فهو من قبيل قوله تعالى: **وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ**[١] و ذلك لأنّهم يريدون إطفاء نور اللّه و اللّه متمّ نوره ولو كره الكافرون و على هذا فمعنى قوله و أضّل أعمالهم، أي أبطل أعمالهم الّتي أرادوا بها إطفاء نور الحقّ بصّدهم النّاس عن متابعة الإسلام و قبول الحقّ.

وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة حال الكفّار الّذين كانوا يصّدون عن سبيل اللّه بإضلال أعمالهم و إبطالها في إطفاء نور اللّه أشار في هذه الآية إلىٰ أحوال المؤمنين باللّه فقال: **وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ** من الأحكام الشرعيّة **وَ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ** الّذي لا مرية فيه، **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ** و معنى تكفير السّيئات هو الحكم بإسقاط المستحقّ عليها من العقاب و فيه إشارة بل دلالة على أنّ الإيمان باللّه و رسوله إذا قرن بالعمل الصّالح، فهو مسقطٌ للعقاب حتّى يصير بمنزلة ما لم يفعل.

و قوله: **وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ** قال قتادة أي أصلح حالهم في معايشهم و أمر دنياهم، و قيل معناه، و أصلح شأنهم و عن النّقاش معناه أصلح نيّاتهم.

ذٰلِكَ بِأَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اِتَّبَعُوا اَلْبٰاطِلَ وَ أَنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّبَعُوا اَلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ

هذه الآية بمنزلة الدّليل على ما ذكره اللّه في الأيتين السّابقتين من أنّ الصّد و المنع عن سبيل اللّه يوجب إبطال الأعمال و أنّ الإيمان باللّه و رسوله إذا

١- أل عمران = ٥٤

قرن بالعمل الصّالح يوجب تكفير السّيئات و حاصل الإستدلال أنّ الكفّار إتّبعوا الباطل و المؤمنين إتَّبعوا الحقّ.

و من المعلوم أنّ جزاء السّيئة سيّئةٌ مثلها و جزاء الحسنة حسنةٌ مثلها و بعبارةٍ أخرى مثل هذا البيان يبيّن اللّه للنّاس أمر الحسنات و السّيئات و الضّمير في، أمثالهم، يرجع إلى الّذين كفروا و الّذين أمنوا ففي هذه الأيات نهيٌ عن متابعة الباطل و ترغيبٌ و تحريضٌ على متابعة الحقّ و أنّ السّيئات يذهبن الحسنات و الحسنات يذهبن السّيئات.

فَإِذا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَ لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ

هذه الآية و نظائرها نزلت في الجهاد و الخطاب للجماعة و المعنى للرّسول و الإمام من بعده و المراد باللّقاء هنا اللّقاء في الحرب و المقاتلة، و نصب، **ضَرْبَ ٱلرِّقَابِ** على معنى فليكن همّكم و عملكم ضرب الرّقاب اى فأضربوا الرّقاب ضرباً فحذف الفعل و قدّم المصدر و أضيف إلى المفعول للتّأكيد و الإختصار و هو كناية عن القتل على أيّ وجهٍ كان و ليس المراد تخصيص ذلك بضرب العنق و الإثخان يتحقّق بكثرة الجراح بحيث يصيرون بذلك عاجزين عن المقاتلة، و بكثرة القتل فيهم المضعفة لهم الكاسرة لشوكتهم، و **الوثاق** بالكسر و الفتح ما يوثق به و هو كناية عن الأسر.

و قوله: **مَنًّا** و **فِدَآءً**، تفصيل لغاية الأسر على معنى إمّا تمنّون عليهم منّاً و عفواً و إمّا تفادوهم بمالٍ أو غيره، و أوزار الحرب، آلاتها اللاّزمة لها من سلاحٍ و جنّة و نحو ذلك و الأسناد مجاز أي أهل الحرب و المراد إنقضاء الحرب و إنفصالها فتكون (حتّى) غاية للمنّ و الفداء، و قيل المراد بالأوزار الأثام أي

يضع أهل الحرب شركهم و كفرهم بأن يسلموا و يدخلوا في الدّين فعلى هذا يكون، حتّى، غاية لمجموع الأحكام المذكورة يعني أنّها تجري فيهم إلى زوال دين الشِّرك بالكليّة و يستفاد من الآية أمورٌ لا بأس بالإشارة إليها:

الأوّل: أنّ مقتضى قوله **فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ** هو وجوب قتل من أخذ من الكفّار حال المحاربة و المقاتلة و قبل الإثخان و أنّ ذلك هو الحكم فيهم أو الدّخول في الإسلام كما دلّت الأخبار عليه و لعلّ في قوله: **كَفَرُوا** دلالة على من خرج منه في تلك الحال إلى الإسلام إنتفى عنه الحكم بالقتل و عليه إجماع علماؤنا أيضاً و بالجملة يحرم على الّذي يأخذ منهم أحداً إبقاءه فأن أبقاه فأمر قتله إلى الإمام و يتخيّر في قتله بين ضرب عنقه و بين قطع اليد و الرِّجل و تركهم ينزفون حتّى يموتوا و هذا مستفادٌ من دليلٍ أخر.

الثّاني: مفاد التّقييد بالغاية أنّ من أخذهم منهم بعد إستيلاءه عليهم و الظّفر بهم لا يجوز قتله في تلك الحال بل يتعيّن أسرهم و يكون الإمام مخيَّرٌ بين المنّ و الفداء و قال أصحابنا و الإسترقاق ولعلَّ في شدّ الوثاق الّذي هو كناية عن الأسر إشارة إلى ذلك و يدلّ على هذه الأحكام.

ماروواه في الكافي و التّهذيب عن طلحة بن زيد عن أبي عبد اللّه قال: سمعته يقول كان للحرب حكمين إذ كانت قائمة لم تضع أوزارها و لم يضجر أهلها فكلّ أسيرٍ أخذ في تلك الحال فأنّ الإمام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه و إن شاء قطع يده و رجله من خلاف بغير حتم و تركه يتّشخط في دمه حتّى يموت و هو قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ألا ترى أنّ التّخيير الّذي خيّر اللّه الإمام على شيءٍ واحدٍ و هو الكلّ و

ليس هو أشياء مختلفة فقلت لجعفر بن محمّد عليهما السلام قوله أو ينفوا من الأرض قال ذلك للطلّب ان تطلبه الخليل حتّى يهرب فأن أخذته الخيل حكم عليه ببعض الأحكام الّتي وصفته لك و الحكم الأخر إذا وضعت الحرب أوزارها و أثخن أهلها فكلّ أسير أخذ على تلك الحال فكان في أيديهم فالإمام فيه بالخيار إن شاء منَّ عليهم و إن شاء فاداهم أنفسهم و إن شاء إستعبدهم فصاروا عبيداً.

و بذلك يبطل ما ذهب إليه الشّافعي حيث جعلوا التَّخيير بين أربعة أمور و أضافوا إلى ذلك القتل، و ما ذهب إليه أبو حنيفة من أنّه قصر التَّخيير على القتل و الإسترقاق.

الثّالث: مقتضى إطلاق التّخيير بين الأمور الثّلاثة ثبوت ذلك و إن أسلموا و هو قول أكثر علماؤنا و ينسب إلى الشّيخ قولٌ بثبوت الإسترقاق في هذه الصُّورة.

الرّابع: ظاهر قوله **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** شمول الكفّار بأسرهم أهل الكتاب و غيرهم و هو الّذي يظهر من رواية طلحة المذكورة و نحوها و يظهر من رواية حفص السّابقة تخصيص الحكم بغير أهل الكتاب من المشركين فما نقل عن الشّيخ من أنّ الحكم بجواز الإسترقاق في الصُّورة الّتي جاز فيها ذلك مختصّ بأهل الكتاب دون غيرهم من المشركين نظراً إلى أنّهم لا يجوز إقرارهم بالجزية فلا يجوز إقرارهم بالإسترقاق لا وجه له و الملازمة الّتي إدّعاها ممنوعة.

الخامس: التّعبير باللّقاء الظّاهر في إرادة كونه في الحرب و القتال و الإتيان بصيغة **ٱلَّذِينَ** يشعر بأنّ هذا الحكم مختصّ بذوي القتال من الذّكور البالغين دون النّساء و الصّبيان فيكون الحكم فيهم أن يسترقّوا و يملكوا بالسَّبي و إن أخذوا و الحرب قائمة كما دلّت عليه النُّصوص و هو المفتى به.

السّادس: أخبر سبحانه أنّه لم يأمركم بالقتال من عجزه عن الكفّار فأنّه تعالى قادرٌ على إستئصالهم بالهلاك من دون توسُّط فعلكم و لكن جرت عادته سبحانه بالتّكاليف و إبتلاء الخلق بها فإبتلى المؤمنين بجهاد الكافرين ليظهر المكنون في الغيب و يجزي الصّابر على ذلك بالجزاء الأوفر ثمّ حرَّصهم على ذلك بأنّهم لن يضيّع أعمالهم بل يجازيهم عليها و أنّه يوفّقهم إلى ما يوصلهم إلى رضوانه و يزيل عنهم الخطرات الشيطانيّة و يدخلهم الجنّة الّتي عرَّفها لهم كما أشار إلى هذا المعنى بقوله:

سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بٰالَهُمْ، وَ يُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهٰا لَهُمْ

أي أنّ العمل بمقتضى هذا الحكم و هو القتال مع الكفّار الّذي صدُّوا عن سبيل اللّه، و قتلهم و إستئصالهم يوجب ظهور الحقّ و موت الباطل و اهله، و به يستحقّ فاعله الجنَّة.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ

خاطب اللّه تعالى في هذه الآية المؤمنين بتوحيد اللّه و تصديق رسوله و قال: **إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ** أي أن تنصروا دين اللّه بالجهاد في سبيله و العمل بأحكام دينه في الأوامر و النّواهي، ينصركم اللّه أي يؤيّدكم و يوفّقكم و يثبّت أقدامكم، عن الإضطراب و التَّزلزل في أمر الدّين و من نصره اللّه فلا غالب له و من خذله اللّه فلا ناصر له و قوله: **يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ** يعني على الايمان أي يحفظكم عن الإضطراب فيه.

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ المؤمنين الّذين ينصرون دين اللّه بأنواع المجاهدات و العمل بالأحكام ينصرهم اللّه و يثّبت على الإيمان

أقدامهم، ذكر في هذه الآية حال الكفّار و عاقبة أمرهم فقال و الّذين كفروا باللّه و رسوله، **فَتَعْسًا لَهُمْ** أي خزياً و ويلاً، و التَّعس الإنحطاط و البعد عن منازل المؤمنين و قوله: **وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ** أي أبطلها ثمّ علَّل ذلك بقوله: **ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللّٰهُ** أي إضلال الأعمال و إبطالها لأجل كراهتهم و مخالفتهم لما أنزل اللّه على رسوله من الأحكام فلا جرم أحبط اللّه أعمالهم، لكفرهم و عنادهم و إنكارهم التّوحيد و النّبوة و المعاد و من كان كذلك فلا قيمة لعمله لأنّه لم يعمل للّه تعالى.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها

الإستفهام للتّوبيخ و معناه الإنكار، أي بلى ساروا في الأرض فنظروا إلى أثار الكفّار و أنّهم أهلكوا بسبب كفرهم و طغيانهم إلاّ أنّ الدّنيا غرَّتهم و خدعتهم فلم يعتبروا بما رأوه من أثار العذاب ولم يتفطّنوا كيف دمّر اللّه على الكفّار المنكرين للتّوحيد و البعث و لم يعلموا أنّ للكافرين بعدهم و هم الذّين كانوا في عصر النّبي مثل ما وقع لمن تقدَّم عليهم من العذاب و الهلاك فأنّ حكم الأمثال واحد و ملاك العذب و سببه في السّابق و اللاحقّ واحد و التّدمير الإهلاك و الإستئصال.

و قال بعض المفسّرين، المراد بالكافرين في الآية مشركو قريش في مكّة المكرّمة و على هذا فالآية تهديدٌ لهم، و حمل الآية على العموم أولى.

ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلىٰ لَهُمْ

أي الّذي فعلناه في الفريقين من الإهلاك في الكفّار و النُّصرة للمؤمنين، بأنّ اللّه مولى المؤمنين و ناصرهم و أنّ الكافرين لا مولى لهم ينصرهم و ينجّيهم من العذاب و فى الآية إشارة إلى أنّ المعبود الذّي لا يقدر على نصرة من عبده و خضع له لا يستحقّ أن يكون معبوداً و هو واضح.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَ ٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يدخل المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات في الدّنيا، جنّات تجري من تحتها الأنهار في الأخرة و الّذين كفروا باللّه و رسوله يتمتعون في دار الدّنيا و يلتذّون فيها و يأكلون من النِّعم كما تأكل الأنعام هذا في الدّنيا و أمّا في الأخرة فالنّار، أي نار جهنّم مثوىً لهم أي موضع مقامهم الّذي يقيمون فيه و بئس القرار، شبّه اللّه تعالى الكفّار بالأنعام في الأكل و في هذا التّشبيه نقاط و لطائف:

الأولى: أنّ الأنعام يأكلون ما يجدون من النّباتات إذا كان ما يجدون موافقاً لطبائعها و لا تعلمون الحلال و الحرام و كذلك الكفّار يتمتّعون بما يجدونه من أيّ طريقٍ حصل لهم حلالاً كان أو حراماً.

الثّانية: أنّ الحيوان همّه في الدّنيا بطنه و كذلك الكافر همّه بطنه و شهوته.

الثّالثة: أنّ الحيوان لا يخاف المعاد و هكذا الكافر لا يخاف منه لعدم إعتقاده به، فإذا كان الإنسان عمله في الدّنيا مثل عمل الحيوان فما الفرق بينه و بين الحيوان بل هو أضّل من الحيوان لأنّ الحيوان لا عقل له فهو معذورٌ في فعله بخلاف الإنسان العاقل.

ثانياً: أنّ الحيوان لا تكليف له بخلاف الإنسان.

ثالثاً: هو غير مسؤلٍ عمّا يفعل يوم القيامة بخلاف الإنسان و إذا كان كذلك فذنب الإنسان أعظم و لذلك قال تعالى: **وَ ٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ولم يقل ذلك في الحيوان و ما أقبح و أشنع للإنسان الّذي هو أشرف الخلائق لو علم قدره و عمل بوظائفه المقرّرة له عقلاً و شرعاً أن يدخل في سلك الحيوانات بل يقال في حقّه أنّه أضلّ و هذا ممّا يكفي في ذمّه.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ

كأيّن، بمعنى كم، قال الخليل و سيبويه هي، أيّ دخلت عليها كاف التّشبيه و بنيت معها فصار في الكلام معنى، كم، و صوّرت في المصحف نوناً لأنّها كلمة نقلت عن أصلها فغيّر لفظها لتغيّر معناها ثمّ كثرت إستعمالها فتلّعبت بها العرب و تصرَّفت فيها بالقلب و الحذف فحصل فيها لغات أربع قرئ بها، و قرأ، إبن كثير و كائن، على وزن فاعل، و قرأ إبن محيص (وكئن) مهموزاً مقصوراً و هو من، كائن، حذفت ألفه، و عنه أيضاً غير ذلك و المشهور، كأيّن، بالتّشدّيد، و هو الأصل و كيف كان فهو بمعنى (كم)و هي تستعمل في الكثرة، و قرية، بحذف المضاف أي أهل قريةٍ و تقدير الكلام وكم من أهل قريةٍ هي أشدّ قوّةً من قريتك، أي مكّة المكرّمة **الَّتِي أَخْرَجَتْكَ** أي أخرجك منها أهلها **أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** الآن فما الّذي يؤمن هؤلاء الكفّار أن يفعل بهم مثل ذلك.

قال قتادة و إبن عبّاس لمّا خرج النّبي من مكّة الى الغار إلتفت الى مكّة: اللّهم أنت أحب البلاد الى اللّه و أنت أحبّ البلاد إلّي و لولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك فنزلت الأية:

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ البيّنة الحجّة الواضحة قال قتادة يعني محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم و قال قوم يعني به المؤمنين الّذين عرفوا اللّه تعالى و أخلصوا العبادة له.

و قيل معنى، على بيّنةٍ، أي على ثباتٍ و يقين، و قيل البيّنة في المقام، الوحي، و على جميع التقادير معنى الآية أنّ من كان على بيّنةٍ و حجّة و برهانٍ على حقانيّته كمن زيّن له سوء عمله و إتّبعوا أهواءهم و أميالهم النفسانيّة، ليس كذلك أي ليس هؤلاء و هؤلاء سواء فالإستفهام إنكاريّ مثل قوله: **أَفَمَنْ**

كٰانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كٰانَ فٰاسِقًا[١] و قال بعضهم: **كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَـمَلِهِ** أي عبادة الأصنام و هو أبو جهل والكفّار.

أقول لا وجه لتخصيص الكلام بعبادة الأصنام و حصره في أبي جهل و الكفّار بل الآية بصدد بيان حكم عامّ و هو شامل للمسلمين أيضاً، أليس في المسلمين من زيّن له سوء عمله، أليس فيهم من تابع هواه، أتظنّ أنّ جميع المسلمين كانوا على بينّةٍ من ربّهم وقعوا ما فعلوا بعد موت الرّسول من المنكرات و الظُّلم و قتلهم خيار المؤمنين، أم كانوا ممّن زينّ له سوء عمله و إتَّبع هواه فاقض ما أنت قاض إن كنت من أهل الإنصاف و العجب من مفسّري العامّة في تطبيقهم هذه الآية و أمثالها على الكفّار و المشركين و تبرأتهم المسلمين عن الحكم و لم يعلموا أنّ معاوية بن أبي سفيان و إبنه يزيد، و المروان و إبنه عبد الملك و هلمّ جرّاً الى آخر الخلفاء إلاّ ما شذّ و ندر، كانوا أخبث من أبى جهل و أمثاله من المشركين و ضررهم على الإسلام كان أضرّ من ضرر أبىجهل و أمثاله فأنّهم قتلوا في حياة النّبي في غزوة بدر و خندق و أحد، و غيرها من الغزوات و أراح اللّه الإسلام و المسلمين من شرِّهم، و أمّا معاوية و عبد الملك و أمثالهما من الخبيثين الى آخر العباسين الّذين تلبسوا بلباس الإسلام و عملوا بعمل الكفّار و إتّبعوا الشّيطان كانوا على بيَّنةٍ من ربّهم، لا يقول ذلك إلاّ الجاهل، أو المتعصّب العنيد اللّهم إلاّ أن يقال أنّهم كانوا على بيَّنةٍ من ربّهم لا من ربّ المسلمين بل من ربّهم الّذي كانوا يعبدونه في الجاهليّة فبقوا على عبادته باطناً و قالوا بربوبيّت إله المسلمين ظاهراً فأن كان مراد القائل هذا فهو حقّ لا كلام لنا معه ثمّ أشار اللّه تعالى الى أحوال المتّقين في الجنّة.

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهٰارٌ مِنْ مٰآءٍ غَيْرِ اٰسِنٍ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّٰارِبِينَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ

١- السّجده = ١٨

مُصَفًّى وَ لَهُمْ فيها مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَراٰتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خاٰلِدٌ فِى ٱلنّاٰرِ وَ سُقُوا ماٰءً حَميمًا فَقَطَّعَ أَمْعاٰءَهُمْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن وصف الجنّة الّتي وعد المتّقين بها فقال **مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ** أي وصفها **ٱلَّتى** أي الجنّة الّتي، وعد المتّقون بها، في الأيات الكثيرة أنّ فيها، أي في الجنّة أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، أي غير متغيّرٍ لطول المقام، و الآسن من الماء مثل الآجن و هو الماء الّذي تغيّرت رائحته، و فيه إشارة الى أنّ الماء في الجنّة غير الماء في الدُّنيا فأنّ الماء في الدُّنيا يتّغير طعمه لا محالة **وَ أَنْهاٰرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ** أي لم يحمض بطول المقام كما تتغيّر ألبان الدُّنيا الى الحموضة **وَ أَنْهاٰرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّاٰرِبينَ** يلتذّون بشربها و لا يتأذّون بها **وَ أَنْهاٰرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى** العسل ما يسيل من لعاب النّحل و قوله: **مُصَفًّى** أي مصفّى من القذر خلقه اللّه كذلك لم يطبخ على نارٍ و لا دنّسه النَّحل و بعبارةٍ أخرى خالٍ عن الكدر.

وَ لَهُمْ فيها مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَراٰتِ قيل، من، زائدة و الحقّ أنّها ليست بزائدة و المبتدأ محذوف و التّقدير، و لهم فيها أنواع من كلّ الثّمرات و على هذا فهي للتّبعيض أو لبيان النّوع **وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ** أي لذنوبهم **كَمَنْ هُوَ خاٰلِدٌ فِى ٱلنّاٰرِ**.

قال الفرّاء، المعنى، أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النّار.

و قال الزّجاج المعنى، أفمن كان على بيَّنةٍ من ربّه و أعطي هذه الأشياء في الجنَّة، كمن زيّن له سوء عمله و هو خالدٌ في النّار و على هذا فقوله: **كَمَنْ**، هو بدل من قوله: افمن زيّن له سوء عمله، و قال بعضهم المعنى، مثل هذه الجنّة الّتي فيها الثّمار و الأنهار كمثل النّار الّتي فيها الحميم و الزّقوم، و مثل أهل الجنّة في النَّعيم المقيم كمثل أهل النّار في العذاب المقيم.

أقول معنى الآية ظاهرٌ لا خفاء فيه و لا يحتاج الى هذه التّكلفات فالمعنى مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون كمن هو خالدٌ في النّار في الخلود فيهما و الأكل

من ثمراتها فالمتّقون مخلّدون في الجنَّة و يأكلون من ثمراتها الّتي وصفناها، و الكفّار مخلّدون في النّار و سقوا ماءً حميماً أي حارّاً فقطّع أمعاءهم و أحشاءهم من شدّة الحرارة و هذا هو الفرق بين الفريقين و أمّا في الخلود فلا فرق بينهما و أن شئت قلت الفرق بينهما في الشُّرب فأهل الجنَّة يشربون من الأنهار المذكورة في الآية و أهل النّار يشربون ماءً حميماً فالعاقل يختار الجنَّة لا النّار.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ ٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ

قال بعض المفسّرين **وَ مِنْهُمْ** أي و من الكفّار و قال بعضهم أي و من هؤلاء الّذين يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام و زيّن لهم سوء عملهم، قومٌ يستمعون اليك و هم المنافقون من المسلمين أعني بهم عبد اللّه بن أبيّ بن سلول، و رفاعة، و زيدبن الصليت و الحارث بن عمرو و مالك بن دخشم كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه فإذا خرجوا سألوا عنه، و قيل كانوا يحضرون عند رسول اللّه ﷺ مع المؤمنين فيستمعون منه ﷺ ما يقول فيعيه المؤمن و لا يعيه الكافر **حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ** و فارقوا مجلسك **قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ** قيل هو عبد اللّه بن عبّاس، و قيل هو عبد اللّه بن مسعود و المعنى قال المنافقون لأهل العلم **مَاذَا قَالَ ءَانِفًا** أي ماذا قال رسول اللّه، آنفاً، أي الآن، في الخطبة أو في غيرها، و أنّما قالوا هذا على جهة الإستهزاء **أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ ٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ** أي أولئك الّذين خرجوا من عندك و قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً، طبع اللّه على قلوبهم أي وكلهم اللّه الى أنفسهم فلا جرم إتّبعوا أهواءهم فأنّ من أعرض عن اللّه أقبل الى الشّيطان من حيث لم يحتسب و سقط في بئرٍ حفره بيده لنفسه.

وَ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ ءَاتَيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ

الإهتداء طلب الهداية و المعنى الّذين يطلبون الهداية من اللّه تعالى زادهم اللّه هدىً و فيه إشارة الى التّوفيق الملقى في الرَّوع فيما يتحرّاه الإنسان و قوله **وَ ءَاتَيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ** قيل معناه، أتاهم على زيادة الهدى تقواهم أي خوفاً من اللّه من معاصيه و قيل معناه أتاهم، ثواب تقواهم، و قيل معناه، الهمهم إيّاها و قيل خلق اللّه لهم التّقوى، و الوجوه المذكورة محتملة إلاّ الأخير منها فأنّه عاطلٌ باطل لأنّ التّقوى فعل العبد لا فعل اللّه فلو كانت مخلوقة له فهى فعله و قد ثبت بطلانه عقلاً و شرعاً، و حاصل المعنى أنّ من طلب الهداية من اللّه تعالى وصل اليها بتوفيق منه.

■

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً
فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ
ذِكْرَيٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَ
ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَ ٱللَّهُ
يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوَيٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
اٰمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ
مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ
مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ
تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾
أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَىٰٓ
أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْاٰنَ أَمْ عَلَىٰ
قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ
أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ
سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ
ٱلْأَمْرِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا
تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ
﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَ كَرِهُوا
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ
﴿٢٩﴾ وَ لَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ
لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ
﴿٣٠﴾ وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ
ٱلصَّابِرِينَ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا
أَمَدًا وَ نَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ
صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ شَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا وَ
سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا
أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوٓا
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ
لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ وَ ٱللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ
تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ
﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ
أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآ أَنْتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ ٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ
ٱلْفُقَرَآءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا
يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾

◀ اللّغة

ٱلسَّاعَةَ: القيامة.

بَغْتَةً: أي فجأةً.

مَثْوَىٰكُمْ: المثوى المقام.

ٱرْتَدُّوا: الإرتداد الرّجوع إلى ما كان عليه.

سَوَّلَ: أي زيَّن التّسويل التَّزيين.

أَمْلَىٰ: أي أخَّر، الإملاء الإمهال.

أَضْغَٰنَكُمْ: جمع ضغن و هو الحقد.

يَتِرَكُمْ: يقال وتره وتراً إذا أنقصه.

تَتَوَلَّوْا: التَّولي الإعراض.

أَمْثَٰلَكُمْ: الأمثال جمع مثل واضح.

◀ الإعراب

أَنْ تَأْتِيَهُمْ موضعه النَّصب بدلاً من السّاعة بدل الإشتمال فَأَنَّىٰ لَهُمْ هو خبر ذِكْرَىٰهُمْ و الشّرط معترضٌ، و قيل التّقدير أنّى لهم الخلاص أَوْلَىٰ مبتدأ و لَهُمْ الخبر و قيل الخبر طَاعَةٌ و قيل طاعة صفة لسورة أي ذات طاعة فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ العامل في إِذَا محذوف تقديره فإذا عزم الأمر فأصدق العامل فَلَوْ صَدَقُوا أي لو صدقوا إذا عزم الأمر أَنْ تُفْسِدُوا خبر عَسَىٰ ٱلشَّيْطَٰنُ مبتدأ وسَوَّلَ لَهُمْ خبره و الجملة خبر إن، و أَمْلَىٰ معطوف على الخبر يَضْرِبُونَ حال من الملائكة أو من ضمير المفعول ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا هو معطوف على يستبدل و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا

السّاعة القيامة و النَّظر الإنتظار، و الإستفهام للإنكار و المعنى ليس ينتظرون هؤلاء الكفّار إلاّ القيامة و قوله: **أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً** بدلٌ من السّاعة أي لا ينتظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم بغتةً و بعبارةٍ أخرى لا ينتظرون إلاّ إتيانها بغتةً ثمّ قال تعالى: **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** أي أشراط السّاعة و علاماتها و ذلك لأنّ الأشراط جمع شرط و أصله الإعلام فأشراط السّاعة علاماتها، قيل هي إنشقاق القمر و مجيئ محمّد بالأيات لأنّه أخر الأنبياء، و قوله: **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء و التّقدير، أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها، و قيل كانوا قد قرأوا في كتبهم أنّ محمّداً أخر الأنبياء فبعثه من أشراطها و أدلّتها.

و قد روي عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: بعثت أنا و السّاعة كهاتين و ضمّ السّبابة و الوسطى.

و يروى عنه صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: بعثت و السّاعة كفرسي رهان، نقله القرطبي في تفسيره.

و قيل أشراط السّاعة أسبابها الّتي هي دون معظمها و منه يقال للدُّون من النّاس الشَّرط، و عن الكلبي أنّها كثرة المال و التجارة و شهادة الزُّور و قطع الأرحام و قلّة الكرام و كثرة اللِّئام و قيل غير ذلك و الكلّ محتملٌ.

و حيث إنجرّ الكلام إلى أشراط السّاعة و قد أشرنا ما نقلته العامّة في تفاسيرهم فلا بأس بالإشارة إلى ما روي في ذلك من طريق أهل البيت عليهم السّلام فأنّ أهل البيت أدرى بما فى البيت فما ذكروه هو المعتمد في الباب فنقول:

روى علّي بن إبراهيم القمّي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، حدَّثني أبي عن سليمان بن مسلم الخشّاب عن عبد اللّه بن جريح المكّي عن عطا بن أبي رباح عن عبد اللّه بن عبّاس قال حججنا مع

رسول اللّه حجّة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال ﷺ ألا أخبركم بأشراط السّاعة و كان أدنى النّاس منه يومئذٍ سلمان رحمة اللّه عليه فقال بلى يارسول اللّه، فقال ﷺ: أنّ من أشراط السّاعة إضاعة الصّلوات و إتّباع الشّهوات و الميل إلى الأهواء و تعظيم أصحاب المال و بيع الدّين بالدّنيا فعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما ذاب الملح في الماء ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه. قال ﷺ إي و الّذي نفسي بيده ياسلمان يليهم عند ذلك امراء جورة و وزراء فسقة و عرفاء ظلمة و أمناء خونة، قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان، أنّ عندها يكون المنكر معروفاً و المعروف منكراً و يؤتمن الخائن و يخون الأمين و يصدّق الكاذب و يكذّب الصّادق قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه قال ﷺ إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان فعندها تكون إمارة النّساء و مشاورة الإماء و قعود الصّبيان على المنابر و يكون الكذب طرفاً و الزّكوة مغرماً و الفيء مغنماً و يجفوا الرّجل والديه و يبرّ صديقه و يطلع الكواكب المذنب قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه قال ﷺ إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان، و عندها تشارك المرأة زوجها في التّجارة و يكون المطر قيظاً و يغيظ الكرام غيظاً و يحتقر الرّجل المعسر فعندها تقارب الأسواق إذ قال هذالم أبع شيئاً و قال هذا لم أبع شيئاً (لم أربح شيئاً) فلا ترى إلاّ ذامّاً للّه قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه قال ﷺ إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم و إن سكتوا

إستباحوهم ليستأثرون بفيئهم و ليطأنَّ حرمتهم و ليسفكنّ دمائهم و لتملأنّ قلوبهم غلّاً و رحباً فلا تراهم إلاّ وجلين خائفين مرعوبين قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان، أنّ عندها يؤتى بشيءٍ من المغرب و شيءٍ من المشرق يلون أمّتي فالويل لضعفاء أمّتي منهم و الويل لهم من اللّه لا يرحمون صغيراً و لا يوّقرون كبيراً ولا يخافون عن مسيءٍ حثّتهم حثّة الأدميّن و قلوبهم قلوب الشّياطين قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان، و عندها يكتفي الرّجال بالرّجال و النّساء بالنّساء و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها و تشبّه الرّجال بالنّساء و النّساء بالرّجال و تركبن الفروج السُّروج فعليهنَّ من أمّتي لعنة اللّه قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده ياسلمان أنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع و الكنائس تحلّى المصاحف و تطول المنارات و تكثر الصُّفوف و القلوب متباغضة و الألسن مختلفة قال سلمان و أنّ هذا لكائن يا رسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان و عندها تحلّي ذكور أمّتي بالذّهب و يلبس الحرير و الدّيباج و يتّخذون جلود النُّمور سفاقاً قال سلمان و أنّ هذا الكائن يا رسول اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده ياسلمان و عندها يظهر الزّناء و يتعاملون بالغيبة و الرّشي و يوضع الدِّين و ترفع الدّنيا قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه قال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان و عندها يكثر الطّلاق فلا يقام حدٌّ ولن يضرّوا اللّه شيئاً قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان و عندها تظهر القينات و المعارف ويليهم أشرار أمّتي قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول

اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان و عندها يحجّ أغنياء أمّتي للنُّزهة و يحجّ أوساطها للتّجارة و يحجّ فقراؤهم للرّياء و السُّمعة فعندها يكون أقواماً يتعلّمون القرأن لغير اللّه و يتَّخذونه مزامير و يكون أقواماً يتفقّهون لغير اللّـه و تكثر أولاد الزّنـاء و يـتغنُّون بالقرأن و يتهافتون بالدّنيا قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده ياسلمان ذاك إذا إنتهكت المـحارم و إكتسبت المأثم و تسلّط الأشرار على الأخيار يفشوا الكذب و تظهر اللّجاجة و تفشوا الفاقة و يتباهون في اللّباس و يمطرون في غير أو ان المطر و يستحسنون الكوبة (الشّطرنج) و المعارف و ينكرون الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر حتّى يكون المؤمن فـي ذلك الزّمان أذلّ من الأمة و يظهر قرّاؤهم و عبّادهم فيما بينهم التّلاؤم فأولئك يـدعون فـي مـلكوت السّموات الأرجـاس الأنـجاس قـال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده يا سلمان فعندها لا يخشى الغنّي على الفقير حتّى أنّ السّائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفّه شيئاً قال سلمان و أنّ هذا لكائن يارسول اللّه فقال إي و الّذي نفسي بيده يـاسلمان فعندها يتكلّم الرُّويبضة فقال سلمان و ما الرُّويبضة يارسول اللّه فداك أبي و أمّي قال عليه السلام يتكلّم في أمر العامّة من لم يكن يتكلّم فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتّى تخور الأرض خورة فلا تظنّ كلّ قومٍ إلاّ أنّها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء اللّه ثمّ يـنكثون فـي مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها قال ذهبٌ و فضّة ثمّ أومى بيده إلى الأساطين فقال مثل هذا فيومئذٍ لا ينفع ذهبٌ و لا فضّة فهذا معنى قوله تعالى: فَقَدْ جٰآءَ أَشْرٰاطُهٰا إنتهى.

أقول هذا الحديث يكفينا في المقام و يوضح لنا تفسير الآية بما لا مزيد عليه و الإنصاف أنّه من معجزات الكلام و أكثر ما فيه قد وقع و هو ظاهر.

و أمّا قوله: **فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَيٰهُمْ** فمعناه من أين لهم إذا جائتهم السّاعة ذكراهم، أي ما يذكّرهم أعمالهم الّتي عملوها في الدّنيا من خيرٍ أو شرّ مع أنّه لا ينفعهم في ذلك الوقت الإيمان و الطاعات لزوال التّكليف عنهم هكذا فسّر الكلام بعض المفسّرين.

و قال صاحب الكشّاف و قرئ إن تأتهم بالوقف على السّاعة و إستئناف الشّرط و هى في مصاحف أهل مكّة كذلك.

فأن قلت فما جزاء الشّرط.

قلت قوله: **فَأَنَّى لَهُمْ** و معناه إن تأتهم السّاعة فكيف لهم ذكراهم أي تذكّرهم و إتعاظهم إذا جاءتهم السّاعة يعني لا تنفعهم الذّكرى حينئذٍ.

كقوله تعالىٰ: **يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ وَ أَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ**[١].

و قال القرطبى في تفسيره لهذه الآية، **ذِكْرَيٰهُمْ** ذكراهم، إبتداء و (أنّى لهم) الخبر و الضّمير المرفوع في جاءتهم للسّاعة و التّقدير فمن أين لهم الذّكرى (التّذكر) إذا جاءتهم السّاعة، يعني لا يتذكّرون بعد مجيئها، و قيل معناه فكيف لهم النّجاة إذا جاءتهم الذّكرى بعد مجئ السّاعة.

أقول يستفاد من كلماتهم حول الآية أنّ الأمر في قوله: **فَأَنَّى لَهُمْ** يدور مدار أمرين:

أحدهما: أنّ الذّكرى أي التّذكر بالأعمال خيراً أو شرّاً بعد مجئ السّاعة لا ينفع لهم.

الثّانى أنّه لا ذكرى لهم بعد مجئ السّاعة و هذا هو الحقّ و ذلك لأنّ الخوف و الرُّعب بعد مجئ السّاعة مانعٌ عن التّذكر لأنّه أي القيامة يوم يفرّ المرء من

١- الفجر = ٢٣

أخيه و صاحبته و بنيه فكيف يمكن أن يتذّكر الإنسان أعماله و أفعاله و اللّه أعلم.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوٰيكُمْ

لمّا بيَّن اللّه تعالى حال المؤمنين و حال الكافرين قال لنبيّه إذا علمت أنّ الأمر كما ذكر من سعادة المؤمنين و شقاوة الكافرين فأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة اللّه و على التواضع و هضم النّفس و إستغفار ذنبك و ذنوب من على دينك و اللّه يعلم أحوالكم و منصرفاتكم و منقلبكم في معايشكم و متاجركم و يعلم حيث تستقرّون في منازلكم أو منقلبكم في حياتكم و مثواكم في القبور أو منقلبكم في أعمالكم و مثواكم من الجنّة و النّار ذكره الزّمخشري في الكّشاف، و أنت ترى أنّ ما ذكره في المقام ليس إلاّ تفسير الألفاظ من حيث اللُّغة و هو ممّا لا يكفي و لا يغني ولم يبيّن معنى إستغفار النبيّ لذنبه و من المعلوم أنّ النّبي لا ذنب له غيره من المفسّرين، سكتوا عمّا سكت صاحب الكشّاف عنه و لم يعلموا أنّ هذا هو الأصل في الآية و باقي الألفاظ واضح لا خفاء فيه.

فنقول إمّا قوله: **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لآ إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** فأنّه كلمة التّوحيد و قد مرّ الكلام فيها غير مرَّةٍ و أقمنا، البراهين و الدّلائل العقليّة و النقليّة على توحيده بما لا مزيد عليه فلا نطيل الكلام بذكرها في المقام و لعَّل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً.

و أمّا قوله: **وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** الاستغفار طلب المغفرة و الذّنب في الأصل الأخذ بذنب الشّيء يقال، ذنبته، أصبت ذنبه و يستعمل في كلّ فعلٍ يستوخم عقباه إعتباراً بذنب الشّيء و لهذا يسمّى الذّنب تبعة إعتباراً لما يحصل من عاقبته قاله الرّاغب في المفردات.

أن قلت قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ الأنبياء معصومون و معنى العصمة أنّ اللّه عصمهم عن الذَّنب و المعاصي و الخطأ و السَّهو و النسيان و بالجملة عن كلّ ما ينافي العصمة و إذا كان كذلك فالنّبي لا ذنب له و من لا ذنب له عن أيّ شيءٍ يستغفر فأنّ السّالبة تنتفي بانتفاء موضوعها.

قلت أجابوا عن هذا الإشكال بوجوهٍ:

أحدها: أنّ المراد بالذَّنب في الآية ذنب الأمّة لا ذنب النّبي فالمعنى إستغفر لذنب أمّتك.

الثّاني: أنّ الذَّنب مصدر، و المصدر قد يضاف إلى الفاعل و قد يضاف إلى المفعول، و المراد ما تقدّم من ذنبهم إليك في إخراجك من مكَّة و ما تأخَّر من صدّك عن المسجد الحرام و المراد بالمغفرة على هذا إزالة أحكام المشركين و نسخها عنه و هذا وجهٌ نقل عن السّيد المرتضى.

الثّالث: ما نقل عن الرّضا عليه السلام حين سئله المأمون عن قول اللّه ليغفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخَّر فقال الرّضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي مكَّة أعظم ذنباً من رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأنّهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاث مائة و ستّين صنماً فلّما جاءهم الرّسول بالدَّعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم و عظم فقالوا إجعل الآلهة إلهاً واحداً، إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عُجابٌ الى قوله: إِلَّا اخْتِلاقٌ[١] فلمّا فتح اللّه على نبيّه مكَّة و قال يا محمّد: إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ عند مشركي مكَّة بدعائك إلى التَّوحيد فيما تقدّم و ما تأخَّر.

أقول إمّا الوجه الأوّل في الجواب فلا سبيل إليه لأنّ اللّه قال بعد قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ و للمؤمنين و المؤمنات و لا نعني بالأمّة إلاّ من آمن به من

١- ص = ٥الى ٧

الرّجال و النّساء فلو كان المراد من الذَّنب في الآية ذنب الأمّة لزم التّكرار كما ترى، و لا سبيل إلى الوجه الثّاني أيضاً لأنّه خلاف ظاهر اللّفظ و مع ذلك لا يساعده العقل و لا النّقل و صحّة إضافة المصدر إلى المفعول أوّل الكلام.

و أمّا الحديث المرويّ عن الرّضا عليه‌السلام فهو أيضاً لا يفيد على فرض صحّة الحديث و ذلك لأنّه يدُّل على أنّ المشركين أثبتوا ذنباً على النّبي بدعائه إيّاهُم إلى التَّوحيد، و الحال أنّ الذَّنب أسند إلى شخص النَّبي لا إلى ما عدُّوه ذنباً، و الحقّ أنّ الإستغفار و الذَّنب بحالها و أنّ النَّبي كان مأموراً بالإستغفار لنفسه و للمُؤمنين و المؤمنات إلاّ أنّ الذَّنب في النَّبي غير الذَّنب في غيره و سيأتي الكلام فيه عند قوله تعالى: **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ**[1] فأنتظر إن شاء اللّه و أمّا قوله: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْوٰيكُمْ** فالمنقلب المرجع والمَثوىٰ المقام، أي أنّ اللّه يعلم ما ترجعون إليه بعد الموت و ما تجازون من الثّواب و العقاب.

وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلٰى لَهُمْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن المؤمنين أنّهم كانوا يقولون **لَوْلاَ نُزِّلَتْ** أي (هلاّ نزّلت سورة) على النَّبي و إنّما قالوا ذلك بعد إبطاء الوحي و ذلك لأنّهم كانوا يأنسون بنزول الوحي و يستوحشون من إبطائه فقال تعالى حاكياً عن حالهم ضدّ نزول السُّورة **فَإِذَآ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ** و المراد بكونها محكمة كونها غير متشابهة و ذكر فيها القتال، معناه أنزّلت السُّورة و أوجب اللّه عليهم فيها القتال و الجهاد، **رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**

١- الفتح = ٢

مَرَضٌ أي مرض النّفاق و الشكّ **يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ** و ذلك لثقل القتال و الجهاد عليهم إذ فيه القتل أو الجرح أحياناً فكأنّه غشي عليهم، من خوف الموت.

إن قلت صدر الآية دلّ على إيمانهم باللّه و رسوله و ذيل الآية و هو قوله: **رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** يدُّل على نفاقهم و الإيمان و النّفاق لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ.

قلت الإيمان يطلق على معنيين:

أحدهما: الإيمان المستودع و هو الّذي لم يستقّر في القلب و قد يعبّر عنه بالإيمان اللّساني كما يعبّر عنه بالإيمان المستعار و هو إيمان أكثر المؤمنين.

الثّاني: الإيمان المستقرّ الثّابت في القلب و هو الّذي لا يزول عنه لرسوخه في جميع الأعضاء و على هذا فالمراد بالإيمان في صدر الآية هو الأوّل أعني به إيمان العوام و من المعلوم أنّه لا يخلو عن النّفاق قلّ أو كثر، هذا و يحتمل أن يكون المراد بالّذين في قلوبهم مرض غير المؤمنين المذكورين في صدر الآية أي و يقول المنافق كذا و كذا و على هذا فصدر الآية حكاية عن المؤمنين و ذيلها حكاية عن المنافقين الّذين كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم و اللّه أعلم.

و أمّا قوله تعالى: **فَأَوْلَىٰ لَهُمْ** قال قتادة هو تهديدٌ و وعيدٌ كأنّه قال العقاب أولى بهم و هو ما يقتضيه قبح أحوالهم و به قال الجوهري، قال الشّاعر:

فأولى ثـمّ أولى ثـمّ أولى — و هل للدّر يحلب من مردّ

و قال الأصمعي معناه، قاربه ما يهلكه و أنشد فيه:

فعادى بين هاديتين منها — و أولى أن يزيد على الثّلاث

أي قارب أن يزيد قال ثعلب و لم يقل أحد في أولى أحسن ممّا قال الأصمعي.

و قال المبّرد يقال لمن همَّ بالعطب ثمّ أفلت، أولى لك أي قاربت العطب، و قيل هو كقول الرّجل لصاحبه، يامحروم أيُّ شئٍ فاتك.

و قال الجرجاني هو مأخوذٌ من الويل فهو، أفعل، ولكن فيه قلب و هو أنّ عين الفعل وقع موقع اللاّم و قد تمّ الكلام على قوله: **فَأَوْلَىٰ لَهُمْ** و الأقوال كثيرة و الأشهر هو قول قتادة و هو أنّه تهديد و وعيد و المعنى كأنّه قال العقاب أولى بهم.

طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

قيل أنّ هذه الآية متصلّة بالأولى، و اللاّم في قوله: **لَهُمْ** بمعنى الباء أي الطّاعة أولى و أليق بهم و أحقّ لهم من ترك إمتثال أمر اللّه و هى قراءة (أبيّ إبن كعب) و قيل أنّ **طَاعَةٌ** نعتٌ لسورة، على تقدير فإذا أنزلت سورة ذات طاعة فلا يوقف على هذا على (أولى لهم) قال إبن عبّاس أنّ قولهم (طاعة) إخبار من اللّه عزّ وجلّ عن المنافقين و المعنى.

لهم طاعة و قولٌ معروفٌ قبل وجوب الفرائض علهيم فإذا أنزلت الفرائض شقّ عليهم نزولها فيوقف على هذا على (فأولىٰ) و قوله: **عَزَمَ ٱلْأَمْرُ** أي جدّ القتال أو وجب فرض القتال، كرهوه، فكرهوا جواب (إذا)محذوف المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر **فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ** في الإيمان و الجهاد **لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** من المعصية و المخالفة.

أقول و الأكثرون على أنّ **طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ** كلامٌ مستقلّ غير متصّلٌ بالآية الأولى محذوف منه أحد الجزئين، أمّا الخبر و تقديره، طاعةٌ و قولٌ معروفٌ أمثل و أحسن و هو قول مجاهد و مذهب الخليل و سيبويه و إمّا المبتدأ و تقديره الأمر أو أمرنا طاعة و قولٌ معروفٌ أي الأمر المرّضي للّه كذلك و قيل هي حكاية قولهم أي قول المنافقين أي يقولون طاعة و قولٌ معروف و قولهم هذا على سبيل الهزل و الخديعة، و أمّا قولهم، جواب

(إذا)محذوف و تقدير الكلام فكرهوه، فهو أيضاً من قبيل الأكل من القفا و ذلك لأنّ جواب، إذا، قوله: **فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** و لا إشكال فيه.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ

إختلف المفسّرون في معنى الآية على أقوالٍ:

منها، أنّ تولّيتم الأحكام و جعلتم ولاة، أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرّشاء.

و منها، أن أعرضتم عن كتاب اللّه أن تعودوا إلى ما كنتم من أمر الجاهليّة أن يقتل بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه.

و منها، إن تولّيتم الأمر أن يقطع بعضكم رحم بعضٍ و تقتل بعضكم بعضاً كما قتلت قريش بني هاشم و قتل بعضهم بعضاً.

و منها، إن أعرضتم عن كتاب اللّه و العمل بما فيه من وجوب القتال، أن تفسدوا في الأرض فيها بالمعاصي و تقطّعوا أرحامكم فلا تصلونها فأنّ اللّه يعاقبكم عليه بعذاب الأبد و يلعنكم.

هذه الوجوه مذكورة في التّبيان بناء على فتح التّاء في توَلّيتم، و قرئ‌بضّم التّاء و الواو و كسر اللاّم و هى قراءة إبن أبي إسحاق و قال القرطبي هي قراءة علّي بن أبي طالب عليه‌السلام و أمّا الوجوه المذكورة في تفاسير العامّة و الخاصّة فهي مختلفة الألفاظ و المأل فيها واحد و أظهر الأقوال بينهم هو أنّ اللّه عني به المنافقين.

و قال إبن أبي حيّان قريش و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى، و الأحسن أن يقال أنّ الآية خطاب للمسلمين من المنافقين و غيرهم الّذين أسّسوا الخلافة الكاذبة بعد موت النّبي من عند أنفسهم على خلاف رضى اللّه و رسوله و إختاروا الولاة كما شاءوا و أرادوا مع أنّ الخلافة كانت لأمير المؤمنين عليه‌السلام بعد موت النّبي و بعده للأئمّة المعصومين من ولده بأمرٍ من اللّه و قد بيّن ذلك رسول اللّه في قصّة الغدير بأبلغ بيانٍ و أخذ منهم البيعة

لعلّي عليه السلام فلمّا غصبوا الخلافة و صاروا حكّاماً على النّاس لم يقنعوا بذلك بل قتلوا أولاد الرّسول و شرّدوهم في البلاد و بالجملة فعلوا من الفجائع و الفضائح ما يعجز اللّسان عن بيانه و القلم عن تحريره.

فالحقّ أنّ الآية نزلت في الخلفاء و الحكّام الظّالمين و لا نعني بالفساد في الأرض و قطع الأرحام إلاّ هذا و أنّما قلنا أنّهم قطعوا الأرحام لأنّ الخلفاء كانوا من قريش ظاهراً و أهل البيت أيضاً كانوا من قريش فالظُّلم منهم على أولاد الرّسول و قتلهم و إستئصالهم من أعظم مصاديق قطع الأرحام و أمّا قتلهم النّاس فهو من مصاديق الفساد في الأرض.

و محصلّ الكلام أنّ الحكّام و الولاة الّذين خرجوا من السَّقيفة إلى أخر بني العبّاس كانوا كذلك و تفصيل ذلك يطلب من التّواريخ و على هذا فالآية من معجزات الكلام حيث أخبر اللّه فيها عمّا وقع بعد موت النّبي قبل موته فأفهم.

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ

أمّا أنّ اللّه لعنهم فلأنّ الظّالم المفسد ملعون قال اللّه تعالى: **ألا لعنةُ اللّه على القوم الظّالمين** و لم يوجد في العالم أظلم منهم قطعاً.

و أمّا قوله: **فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ** ففيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالىٰ وكلهم الى أنفسهم و من وكّله اللّه إلى نفسه فله قلبٌ لا يفقه به و له سمعٌ لا يسمع به و له عينٌ لا يبصر بها بمعنى أنّه لا يتّرتب على سمعه و بصره إلاّ الإدراك فقط كما في الحيوان و قد تكلّمنا في هذا الباب سابقاً و قلنا أنّ السّمع و البصر إذا لم يترتّب عليهما أثارهما فكأنّهما معدومان و أيُّ فرقٍ بين من يسمع و لا يترتّب عليه أثر و بين من لا يسمع أصلاً و هكذا في البصر و غيرهما من القوى و لذلك عبّر اللّه عنهما بالصمّ و العمى ثمّ أوضح ذلك بقوله:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ

التدبّر و التَّفكر ثمّ الإعتبار و الأقفال جمع قفل و المعنى أفلا يتدبّرون القرآن بأن يتفكّروا فيه ثمّ يعتبروا به أم على قلوبٍ أقفالها كأقفال البيوت الّتي تمنع عن دخول البيت.

قال القرطبي في قوله: **أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** أي بل على قلوبٍ أقفالها أقفلها اللّه عزّ وجلّ عليهم فهم لا يعقلون و هذا يردّ على القدريّة و الإماميّة مذهبهم و فى حديثٍ مرفوع أنّ النّبي ﷺ: **قال (أنّ عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتّى يكون اللّه يفتحها إنتهى.**

أقول أمّا تفسيره كلام اللّه بقوله أي بل على قلوبٍ أقفال أقفلها اللّه عليهم فهو من الكذب على اللّه تعالى إذ قال تعالى أم على قلوبٍ أقفالها، و لم يقل أقفال أقفلها اللّه عزّ وجلّ عليهم، فهذا من تفسير الكلام بما لا يرضى به صاحبه فكأنّ القرطبي لم يفرق بين الإخبار المجّرد عن الإنتساب و بين الإخبار مع الإنتساب و الآية من قبيل الأوّل لأنّه تعالى أخبر عن وجود الأقفال و أمّا من أقفل القلوب فالآية ساكتة عنه و بعبارةٍ أخرى أخبر عن وجود الشّئ لا عن موجده و قد يحصل القفل على القلب بسبب المعصية كما ورد في الأحاديث الصَّحيحة و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ العاصي إذا دوام على المعصية يوجد في قلبه نقطة سوداء و هى الّتي تحيط بالقلب و تمنعه عن الدَّرك الصَّحيح و القفل في الآية كناية عن ذلك و ليس المراد أنّ هناك قفلٌ واقعاً من الحديد أو كأقفال الحديد كما ذكره في حديثه الّذي رواه و هو أشبه شئٍ بحديث المجانين.

و أمّا الإماميّة فأنّهم قد نزّهوا اللّه تعالى عن هذه الأراجيف و القبائح الّتي لا تليق بجنابه ألم يعلم القرطبي أنّ الآية وردت في ذمّ الذّين على قلوبهم أقفال فلو كان الذامّ هو الّذي أقفل القلوب فالذمّ يرجع إلى الفاعل و هو اللّه تعالى لا إلى المفعول و لكنّه لجهله و غوايته لم يفهم ذلك و نسب الإقفال إلى اللّه، نعم

نحن برآؤ عن الخالق الّذي خلق العبد و أقفل قلبه عن التدبّر و التفكّر و قبول الحقّ ثمّ عاقبه على ذلك لأنّه ظلمٌ قبيح و اللّه الّذي نعبده و نعرفه منزّهٌ عنه أعلم بالصّواب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَىٰ لَهُمْ

الإرتداد الرّجوع يقال إرتدّ فلان إذا رجع عن الحقّ و الإيمان، إلى ما كان عليه من الكفر و منه قول الصّادق عليه السلام: **إرتدّ النّاس بعد النّبي إلاّ ثلاثة، أو سبعة،** أي رجعوا عن الإسلام إلى ما كانوا عليه في عهد الجاهليّة عملاً و إن بقوا على الإسلام ظاهراً و لساناً، و امّا **الأدبار** بفتح الألف فجمعٌ، و يشتقّ منه تارةً دبر الفاعل و تارةً بإعتبار دبر المفعول فمن الأوّل قولهم دبر فلان كما قال تعالى: **وَ ٱللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ**(١) و بإعتبار المفعول قولهم دبر السّهم الهدف سقط خلفه و دبر فلان القوم صار خلفهم.

قال اللّه تعالى: **أَنَّ دابِرَ هَٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَقُطِعَ دابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا**(٣) و الدّابر يقال للمتأخر و التّابع.

و قال بعضهم الدّبر الظّهر و هو الخلف و كيف كان فمعنى الآية أنّ الّذين إرتدّوا و رجعوا عن الحقّ و الإيمان إلى خلفهم أي ما كانوا عليه **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ** و ظهر **لَهُمُ ٱلْهُدَى** و هو الطريق الواضح المفضي إلى الجنّة.

إن قلت كيف يرتّد المؤمن الّذي ظهر له الحقّ.

قلت المراد بالّذين أمنوا في الآية ليس أمثال سلمان و أباذر و حذيفة و عمّار و نظراءهم بل المراد من المؤمنين الّذين أمنوا باللّه و رسوله بألسنتهم

١- المدثّر = ٣٣
٢- الحجر = ٦٦
٣- الانعام = ٤٥

دون قلوبهم و هذا الإيمان يعبّر عنه بالإيمان المستعار و أكثر المؤمنين في صدر الإسلام كانوا كذلك ألا ترى أنّهم إرتدُّوا بعد موت النّبي و رجعوا عن الحقّ ولاية عليّ بن أبي طالب إلى الباطل و كان ذلك بعد ما تبيّن لهم الهدى في غدير خمّ، و غيره من المواضع فأحيوا سنن الجبّارين الظالمين في الإسلام و أظهروا سنن الجاهليّة بعد إندراسها في عهد النبيّ بتسويل الشّيطان و إمهاله إيّاهم بالأطماع و الإغترار كما قال تعالى: (سوَّل لهم الشّيطان و أملى لهم) فأنّ الإملاء الإمهال.

قال بعض المفسّرين من العامّة المراد بهم المنافقون الّذين قعدوا عن القتال بعد ما عملوه في القرأن، و لم يعلم هذا القائل أنّ الحكم عامٌّ و لا يختصّ بالقتال في عهد النبيّ بل نقول أنّ الآية ناظرة إلى إرتدادهم بعد موت النّبي أو هي شاملةٌ له بعمومها و إطلاقها مع أنّ الحقّ أنّ الإرتداد كان بعد موته لا قبله كما هو ظاهر عند التّأمل فيها إذ لم يثبت إرتدادهم على أدبارهم في حياة النّبي و أنّما ثبت ذلك بعد موته و على هذا ففي الآية إخبار من اللّه تعالى عمّا وقع بعد موت النّبي و أنّ حكم المرتدّين حكم الكفّار في العذاب يوم القيامة و يؤيّده قوله تعالى في الأيات السابقة حيث قال:

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ[١].

و من المعلوم أنّ التولّي و الفساد في الأرض كان بعد موته صلّى الله عليه و آله و سلّم لا في حياته و العجب من مفسّري الشّيعة أنّهم لم يتنبّهوا و لم يتفطّنوا به و حملوا الآية على القاعدين عن القتال من المنافقين في عهد النّبي.

قال الزّمخشري في الكشّاف ما هذا لفظه.

فأن قلت من هؤلاء.

قلت اليهود كفروا بمحمّدٍ صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد ما تبيّن لهم الهدى و هو نعته في التّوراة و قيل هم المنافقون **الّذين قالوا اليهود** و الّذين كفروا ما نزّل اللّه

١- محمد = ٢٢

المنافقون و قيل عكسه و أنّه قول المنافقين لقريظة و النَّضير لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم إلى أخر ما قال بقوله و قيل و قيل و قيل.

أقول أنّه ما أتعب نفسه و لم يأت بشيءٍ يعتمد عليه إلاّ صرف الآية عمّا تكون مشعرة به إلى ما هي أجنبيّة عنه و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام، فأنّ هذه الأيات من قوله تعالى: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** إلى قوله تعالىٰ: **وَ أَمْلَىٰ لَهُمْ** نزلت فيمن يتولّى أمر المسلمين بعد النّبي و هم الخلفاء و غيرهم و أيُّ ربطٍ لها باليهود و القريظة و النَّضير و أمثالهم كما زعمه صاحب الكشّاف و من قلَّده في تفسير الكلام اليس فى هذه الأيات في تولّي أمور الملسمين و بعبارةٍ أخرى المخاطب في قوله: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ** الى آخر الآية الولاة على هذه الأمّة و هى الخلفاء و الحكّام بعدهم الى يوم الوقت المعلوم و إنّي أظنّ أنّ صاحب الكشّاف و من تبعه أو قدَّمه في هذا التّفسير خافوا من قوله تعالى: **أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ** و حقٌّ لهم أن يخافوا فأنّ من يفسد في الأرض و يقطع الأرحام جزاءه اللّعنة و العذاب في الأخرة و أن كان الشّيطان أمهلهم في الدُّنيا أيّاماً معدودة و هذا ظاهرٌ.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ

معنى الآية على ما فسّرو الكلام أنّ المنافقين أو الكفّار قالوا للّذين كرهوا ما نزَّل اللّه، من القرآن و ما أمرهم به من الأمر و النّهي و الحلال و الحرام و شبّهوا عليهم ذلك و مالوا الى خلافه، و قيل هذا قول اليهود للمنافقين سنطيعكم، في بعض الأمر أي نفعل بعض ما تريدونه الى آخر ما قالوا، و أمّا على مذهب المختار فمعنى الآية أنّهم أي الولاة قالوا للّذين كرهوا ما نزَّل اللّه في أمر الولاية: **سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ** و هذا كقول بعض الولاة منّا الأمراء و منكم الوزراء.

و في قولٍ آخر نحن الأمراء و أنتم الوزراء نشاوركم في جميع الأمور، تعالى: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** أي و اللّه يعلم ما أسرُّوا و أخفوا في قلوبهم من نقض العهد و العمل على خلاف ما قالوا به و حيث إنجرّ الكلام فلا بدّ لنا من نقل بعض الأخبار الواردة في الباب.

فنقول روي الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه، المسمّى بشواهد التنزيل بأسناده عن إبن عبّاس في قوله تعالى: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** فلعلّكم أن ولّيتم أمر هذه الأمّة تفضوا للّه و تقطّعوا أرحامكم، إبن عبّاس فولاّهم اللّه أمر هذه الأمّة فعملوا بالتجبُّر و المعاصي و تقطّعوا أرحام نبيّهم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و أهل بيته إنتهى.(١)

أقول هذا الحديث نقله الحسكاني في شواهده و هو نصٌّ على ما قلناه و إستظهرناه من أنّ المراد بهذه الأيات ليس ما توهّمه أكثر المعرضين عن الحقّ و أمّا قوله في آخر الحديث (فولاّهم اللّه أمر هذه الأمّة) فهو من فلتات القول و أن شئت قلت هو كذبٌ على اللّه تعالى إذ لو كان الأمر كما ذكره من توليته اللّه أيّاهم لقال: (فهل عسيتم إن ولاّكم اللّه) أو نظير ذلك، و حيث لم يقل ذلك بل قال: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ففيه إشارة الى أنّ اللّه لم يولّهم بل النّاس ولّوهم على الأمّة إذ ولاّهم اللّه فلا ذنب لهم، إذ لهم أن يقولوا للّه يوم القيامة أنّك كنت تعلم بعلمك السّابق إنّا نفسد في الأرض و نقطع الأرحام، فلم وليتنا على الأمّة و أنّما قلنا ذلك لعدم صحّة نسبة هذه التّولية الى اللّه إلاّ بضربٍ من المجاز الّذي يصحّ سلبه بحسب الحقيقة، كما لا يصحّ نسبة قتل قابيل هابيل الى اللّه و هكذا لا يصّح نسبة قتل يحيى و زكرّيا اليه و كما لا تصّح نسبة تمرّد الشّيطان و غيره من إخوانه و أعوانه الى اللّه و إلاّ يلزم إبطال الشّرائع و كون اللّه أعبث العابثين و اللاّعبين تعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً ذلك ظنّ الّذين كفروا فويلٌ للكافرين من النّار.

١- ج ٢ ص ١٧٧

إن قلت فمن ولّاهم على الاءمّة.

قلت ولّاهم أعوانهم و أنصارهم ممّن كانوا شركاؤهم في الغنيمة الّتي وجدوها و أغتنموا بها ألا ترى أن عمرو بن العاص لعنه اللّه في قصّة الحكمين خلع عليّاً عن الخلافة و نصب معاوية لها لأجل حكومة مصر فلمّا ولّى معاوية جعله حاكماً على مصر ما دام حياته، و هكذا عبد الرّحمن بن عوف بايع عثمان بن عفّان و ترك عليّاً مع أنّ عليّاً لا يقاس بغيره كائناً من كان فضلاً عن عثمان، و هكذا عمر بن الخطاب بايع أبابكر قبل بيعة النّاس في السّقيفة، و أنّ أبابكر حين وفاته لم يجعل الأمر شورى بل نصب عمر و جعله والياً على المؤمنين من غير مشورةٍ و هكذا الأمر في سائر الخلفاء و ذلك لأنّ النّاس عبيد الدُّنيا و الّدين لئقٌ على ألسنتهم فإذا محصّوا بالبلاء قلَّ الدّيّانون، و الأصل في ذلك أنّ اللّه تعالى جعل النّاس مختارين في أفعالهم و أقوالهم في الدُّنيا يجعلهم مجبورين مضطرين و لذلك تراهم يفعلون و يقولون ما لا يرضى اللّه به كتركهم الواجبات و فعلهم المحرّمات أتظنّ أنّ اللّه تعالى يرضى بترك الواجب و فعل الحرام و إذا كان الأمر على هذا المنوال فمانحن فيه أيضاً من هذا القبيل.

فقول إبن عبّاس، فولّاهم اللّه أمر هذه الأمّة شططٌ من الكلام و لنشر الى بعض ما ورد عن أهل البيت عليهم السّلام في تفسير الآية.

فنقول روي البحراني في غاية المرام بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ و ملّكتم أن تفسدوا في الأرض و تقطّعوا أرحامكم، قال عليه السلام نزلت هذه الآية في بني عمّنا بني العبّاس و بني أميّة ثمّ قرأ عليه السلام أولئك الّذين لعنهم اللّه فأصمّهم و أعمى أبصارهم عن الوحي، ثمّ قرأ عليه السلام أنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم، بعد ولاية عليٍّ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى لَهُمْ ثمّ قرأ عليه السلام وَ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا بولاية عليٍّ عليه السلام زَادَهُمْ هُدًى حيث

عرَّفهم الأئمّة من بعده و القائم عليه السلام وَ ءَاتيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ أماناً من النّار و قال عليه السلام، و قوله عزّ وجلّ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ثمّ إستغفر لذنبك و للمؤمنين) و هم عليٌّ عليه السلام و أصحابه، و المؤمنات و هم خديجة و صويحباتها، و قال عليه السلام: و قوله تعالى: وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ ثمّ قال و الّذين كفروا، بولاية عليٍّ يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَ ٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ثمّ قال عليه السلام: مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ و هم آل محمّد و أشياعهم الحديث[١].

ما رواه بأسناده عن عبد الرّحمن بن كثير عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى فلان و فلان و فلان، إرتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية أميرالمؤمنين عليه السلام قال قلت له قوله تعالى (ذلك بأنّهم قالوا للذّين كرهوا ما أنزل اللّه سنطيعكم في بعض الأمر قال عليه السلام: دعوا بني أميّة الى ميثاقهم أن لا يصيروا الأمر فينا بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و لا يعطونا من الخمس شيئاً و قالوا إن أعطيناهم لم يحتاجوا الى شيءٍ و لم يبالوا أن لا يكون الأمر فيهم فقالوا، سنطيعكم في بعض الأمر الّذي دعوتمونا اليه و هو الخمس لا نعطيهم منه شيئاً.

و قوله: كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ و الّذي نزّل اللّه ما إفترض من ولاية عليٍّ عليه السلام على خلقه و كان معهم أبو عبيدة و كان كاتبهم فأنزل اللّه عزّ وجلّ: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَيٰهُمْ إنتهى[٢].

١- غاية المرام ص ٤٤٦

٢- غاية المرام ص ٤٤٦

ما وراه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى قال عليه السلام: الهدى هو سبيل علّي بن أبي طالب عليه السلام إنتهى(١).

و لولا مخافة الإطالة لنقلنا من الأخبار أكثر ممّا نقلناه و لكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الأبصار و لا شكّ أنّ أهل البيت أدرى بما فيه.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَٰرَهُمْ

ذلك بأنّهم اتبعوا ما أسخط اللّه و كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم، أمّا ضرب الملائكة وجوههم و أدبارهم أي ظهورهم فهو حين الموت و أمّا قوله: **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا** فهو بمنزلة التّعليل لضرب الوجوه و الأدبار، فكأنّه قيل لم يضرب الملائكة وجوههم و أدبارهم و أيُّ ذنبٍ صدر عنهم، فقال تعالى ذنبهم أنّهم إتَّبعوا ما أسخط اللّه أي ما أوجب سخطه و غضبه و أنّهم كرهوا رضوانه تعالى فأحبط اللّه أعمالهم.

روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: كرهوا علياً وكان أمر اللّه بولايته يوم بدر و يوم حنين و ببطن نخلة و يوم التّروية و يوم عرفة نزلت فيه خمس عشرة آية في الحجّة الّتي صدّ فيها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الحرام.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ

الّذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، و الأضغان الأحقاد و الحقد يضمر من المكروه و إختلفوا في معنى الحقد فقال السُّدي الحقد الغشّ، و قال إبن عبّاس الحقد الحسد، و قال قطرب، العداوة، و قال في التّبيان في معنى الآية **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** أي نفاقٌ و شكٌّ يظنّون **أَن لَّن يُخْرِجَ**

١- ص ٤٤٦

ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ أي إعتقادهم مع المؤمنين و لا يظهرها و لا يبدي عوراتهم للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف أَضْغَٰنَهُمْ أحقادهم و إخراجها إبرازها لرسول اللّه و للمؤمنين و إظهارهم على نفاقهم و عداوتهم لهم و كانت صدورهم تغلي حقداً عليهم إنتهى.

و قال القرطبي، أم حسبوا أن لن يظهر اللّه عداوتهم و حقدهم لأهل الإسلام إنتهى و به ذلك غيرهم من المفسّرين و ظاهر ألفاظ الآية يقتضي هذا المعنى ثمّ أنّهم إتفّقوا على أنّ المراد بالّذين في قلوبهم مرض، المنافقون، يبيّنوا في تفاسيرهم المحقود عليه بشخصه هل هو الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أم غيره و يظهر من كلام أكثرهم أنّ المحقود علهيم هم المسلمون و من كلام بعضهم هو الإسلام.

و حاصل كلمات المفسّرين أنّهم أي أهل النّفاق حقدوا على الإسلام و المسلمين، هذا و الّذي ظهر لي في تفسير الآية بقرينة الأيات السّابقة الّتي مضى الكلام فيها: هو أنّ المنافقين الّذين في قلوبهم مرض انوا من أصحاب الرّسول في ظاهر الأمر، و المحقود عليه أميرالمؤمنين علّي بن أبي طالب و منشأ حقدهم و حسدهم و عداوتهم أنّه قتل أقربائهم في بدر و أحد و غيرهما كما تشهد به التّواريخ و لذلك كانوا ينتهزون الفرصة لإخراج أضغانهم فلمّا مات النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أخرجوها عن قلوبهم و غصبوا حقّه و هتكوا و قتلوا أولاده واحداً بعد واحدٍ و لا يبعد أن يكون هذا أي الأحقاد المستورة في القلوب هو الأصل في إعراضهم عن أهل بيت النّبي و تركهم و اقبالهم إلى أعداء اللّه و رسوله أمثال معاوية و يزيد و عبدالملك و غيرهم من الظالمين و المتّأخرين و الدّليل على ذلك لولا حقدهم و عداوتهم لعليٍّ لأجل ما ذكرناه فما الباعث على تقديمهم غيره عليه مع أنّه كان أفضل من جميعهم قطعاً بإعتراف أهل الإنصاف و قبح تقديم المفضول على الفاضل عقلاً هذا كلّه مضافاً إلى

النّصوص الواردة من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في ولايته و خلافته، فلمّا رأينا انّهم أي أصحاب النّبي فعلوا به ما فعلوا و لم نجد في تقديمهم أبا بكر و عمر و عثمان عليه وجهاً عقليّاً أو شرعيّاً علمنا أنّ منشأ ذلك كان الحقد و الحسد و العداوة المضمرة في قلوبهم و لتفصيل الكلام في هذا الباب مقام أخر.

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ

فمعناه أنّ اللّه تعالى هو العالم بالضّمائر و ما في القلوب لا غيره و هو الّذي عرّف المنافقين لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم و كان النّبي عارفاً بهم بأذن اللّه تعالى، و قوله: **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ** فالمراد من لحن القول بغضهم لعليٍّ عليه السّلام أي و لتعرفنَّهم ببغضهم لعلّي بن أبي طالب.

روى الحافظ الحسكاني في شواهده و هو من أعيان العامّة بأسناده عن أبي سعيد الخدري في قوله جلّ شأنه وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ قال ببغضهم علّي بن أبي طالب[1].

و في مجمع البيان عن أبي سعيد الخدري قال لحن القول بغضهم علّي بن أبي طالب.

و روى عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري و عن عبادة بن الصّامت قال، كنّا نبور (أي نختبر) أولادنا بحبّ عليّ بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشده (**رشده بالفتح و الكسر**) ضدّ الزّينة.

قال أنس ما خفى منافق على عهد رسول اللّه بعد هذه الآية و نقل صاحب الكشّاف عن أنس أنّه قال، و لقد كنّا في بعض الغزوات و فيها تسعة من المنافقين يشكوهم النّاس قاموا ذات ليلةٍ و أصبحوا و على جبهة كلّ واحدٍ منهم مكتوب هذا منافق إنتهى.

١- ج ٢ ص ١٧٩

أقول هذا الحديث من الموضوعات وضعه أنس أو غيره و ذلك لأنّ اللّه ستّار العيوب و أمر عباده أيضاً بذلك فكيف يعقل أن يفعل ما ينافي ستّاريته مضافاً إلى أنّ راوي الحديث و هو أنس كان من رؤوس المنافقين الملعونين فلم لم يكتب على جبهته هذا منافق.

إذا عرفت المراد من قوله: **وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ** و أنّه بغضهم و عدواتهم لعلّي بن أبي طالب فقوله تعالى: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** معناه لا يخفى على اللّه شيئاً فهو عالمٌ بالضّمائر كما هو عالمٌ بالظّواهر لأنّه علامّ الغيوب، و لا يبعد أن يكون المراد بلحن القول، سبّهم و لعنهم لعلّي بن أبي طالب بعد النبّي بل هذا المعنى أوفق و أليق بظاهر اللّفظ و ذلك لأنّ المذكور في الأية، لحن القول، و البغض أمرٌ باطنيّ لا ربط له بالقول و هذا بخلاف السبّ و الشّتم و اللعن فأن هذه الأمور من لحن القول قطعاً و أيُّ قولٍ أسوء و أقبح و أشنع من سبّ المعصوم الّذي هو في الحقيقة سبّ اللّه و رسوله.

و محصلّ الكلام في هذه الأيات من قوله تعالى: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** إلى قوله: **يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** هو أنّ اللّه تعالى أخبر نبيّه بأنّ ضرر المنافقين الّذين دخلوا فى الاسلام ظاهراً و أبطنوا الكفر و النّفاق في قلوبهم أشدّ و أعظم على الإسلام و المؤمنين من الكفّار الّذين لم يدخلوا في الإسلام أصلاً أمثال أبي جهل و أبي لهب و عتبة و شيبة و غيرهم و هو كذلك كما تشهد به التّواريخ.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ ٱلصَّابِرِينَ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا

إعلم أنّ الظّاهر من كلمات المفسّرين أنّ الآية نزلت في الكفّار أي أنّا نبلوا هؤلاء الكفّار و الإبتلاء الإمتحان و الإختبار و معناه أنّا نختبرهم بما نكلّفهم من الأمور الشّاقة قاله الشّيخ في التّبيان ثمّ أطال الكلام بما لا نحتاج إلى ذكره، وبه قال المفسّرون من العامّة أيضاً قال القرطبي، **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ** أي نتعبّدكم بالشّرائع و إن علمنا عواقب الأمور.

و قال صاحب الكشّاف هم قريظة و النَّضير.

أقول الظّاهر أنّ الآية نزلت في المنافقين و إن شئت قلت في جميع المسلمين بدليل قوله: **حَتّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجاٰهِدِينَ مِنْكُمْ وَ ٱلصّاٰبِرِينَ** و من المعلوم أنّ الجهاد و الصَّبر على مشاقّه من و ظائف المسلم المؤمن و الكافر لا يقول بالجهاد لكفره و ليت شعري ما الّذي دعاهم إلى ما حملوا الآية عليه و الحقّ أنّ اللّه تعالى بيَّن في هذه الآية أنّ الإبتلاء و الإختبار ممّا لابدّ منه لكلّ مسلم بل لكلّ بشرٍ في الدُّنيا و على هذا فالآية خطاب للمسلمين يقول اللّه فيها **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ** بأنواع الإبتلاء لأجل الإختبار و الإمتحان **حَتّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجاٰهِدِينَ مِنْكُمْ وَ ٱلصّاٰبِرِينَ** على الجهاد.

وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ

أي و نعلم المطيع من العاصي.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَ ٱلْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوٰالِ وَ ٱلْأَنْفُسِ وَ ٱلثَّمَرٰاتِ وَ بَشِّرِ ٱلصّٰابِرِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**(٢).

و الأيات كثيرة و ما نحن فيه من هذا القبيل فالآية بصدد بيان حكم كلّي قد جرت سنّة اللّه بذلك في أولاد أدم و هو الإختبار في الدُّنيا ثمّ ترتّب الجزاء من الثّواب و العقاب عليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ شٰاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدٰى لَنْ يَضُرُّوا ٱللّٰهَ شَيْئًا وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ الّذين كفروا باللّه و رسوله و أنكروا التّوحيد و النّبوة و صدّوا عن سبيل اللّه، أي منعوا غيرهم عن الإيمان باللّه و رسوله، و

١- البقرة = ١٥٥
٢- الكهف = ٧

شاقُّوا الرّسول، أي هاندوه و خالفوه و آذوه **بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ** أي بعد ما تبَّين الحقّ بواسطة الرّسول لهم **لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا** و ذلك لأنّ اللّه غنيّ عن طاعتهم أمناً من معصيتهم، و سيحبط أعمالهم، و يستحقّون عليها العقاب.

وإعلم أنّ المفسّرين حملوا الكفر في الآية على إنكار التّوحيد و النبوّة و على هذا فالمراد بقوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** الكفّار الّذين لم يؤمنوا باللّه أمثال أبى جهل و أبى‌لهب و عتبة و شيبة و غيرهم، و يحتمل أن يكون المراد بالكفر في الآية الكفر على نعمة الولاية و عدم قبولها بعد ما تبيّن لهم الهدى، و هو الولاية في غدير خمّ، و شاقُّوا الرَّسول، بإنكارهم و إعراضهم عمّا بيَّن الرّسول لهم، **لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا** و أنّما ضرُّوا نفوسهم، و سيحبط أعمالهم الّتي عملوها في الإسلام لخلُّوها عن الولاية كما وردت به الأخبار فأنّ إنكار الولاية يرجع إلى إنكار النّبوة و هو إلى إنكار التّوحيد و لا نعني بالكفر إلاّ هذا، أمّا أنّ إنكار الولاية يرجع إلى إنكار النّبوة فلأنّ النّبي **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**[١] فما قاله النّبي هو قول اللّه تعالى و قد ثبت أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بيَّن لهم الهدى.

من كنت مولاه فهذا عليٌ مولاه اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه و أنصر من نصره و أخذل من خذله الخ.

و قال أيضاً فيه، أما ترضى ياعلّي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبّي بعدى.

استثنى من الحكم النّبوة و أبقى فيه سائر الخصال كائناً ما كان و فى رأسها الولاية على النّاس فلو لم تكن الولاية ثابتة لعليٍ بعد الرّسول لكان على الرّسول أن يقول الاّ أنّه لا نبّي بعدي و لا وليّ بعدي، و لم يقل ذلك و بعبارةٍ أخرى أنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم كان له مقامان و منزلتان من عند ربّه، النّبوة و الولاية، و الدّليل على النّبوة:

١- النّجم = ٤ / ٣

قال اللّه تعالى: **مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰآ أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ خٰاتَمَ اَلنَّبِيّٖنَ**(١).

و على الولاية:

قال اللّه تعالى: **إِنَّمٰا وَلِيُّكُمُ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**(٣).

و إذا ثبت هذان الوصفان في حقّ النّبي و حيث أنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إستثنى النّبوة فقط فبقيت الولاية تحت الحكم فمن أنكر ولاية علّي فقد أنكر ولاية الرّسول فقد انكر ولاية الرّسول و من أنكر ولاية اللّه بتكذيبه القرأن و لا نعني بالكفر إلاّ هذا و أنّما حملنا الكفر على كفر النّعمة لأنّ الكفر بولاية اللّه على الخلق ليس معناه إنكار اللّه بل هو إنكار ولايته كما تقول به المفوضّة من المسلمين و أن كان إنكار الولاية إنكار اللّه في الحقيقة لأنّ الخالق الّذي لا ولاية له على خلقه فهو كالعدم إلاّ أنّ القائل به لا يعدّ كافراً إصطلاحاً بمعنى كفر الجحود، و أنّما قلنا أنّ إنكار الولاية من قبيل الكفر بالنّعمة لأنّ الولاية من أجلّ النّعم الّتي أنعم اللّه بها على خلقه، و على هذا فمعنى الآية أنّ الّذين كفروا بنعمة الولاية بعد الرّسول **وَ صَدُّوا** و منعوا النّاس **عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ** و هو الصّراط المستقيم في دينهم و دنياهم **وَ شَآقُّوا اَلرَّسُولَ** أي خالفوه و عاندوه فيما أوصاهم به و هو الولاية **مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدىٰ** بالأدلّة القاطعة العقليّة و النقليّة في مواضع كثيرة **لَنْ يَضُرُّوا اَللّٰهَ شَيْئاً** بل ضرّوا بأنفسهم لأنّ من لم يقبل ولاية اللّه قبل ولاية الشّيطان من حيث لا يحتسب **وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ** لأنّ العمل الّذي لا ولاية فيه لا خير فيه و المراد بالأعمال العبادات و ذلك لأنّ الولاية روح العبادة فالاذكار و الأوراد و الأعمال في الصّلوة و الصّوم

١- الأحزاب = ٤٠
٢- المائدة = ٥٥
٣- الأحزاب = ٦

و الحجّ و أمثالها بمنزلة الجسم و الولاية فيها بمنزلة الرُّوح و بقاء الجسم بالرُّوح فالصّلوة الّتي لا ولاية فيها كالجسم الّذي لا روح فيه.

قال الصّادق عليه السلام: بني الإسلام على خمسٍ، على الصّلاة و الصَّوم و الزّكوة و الحجّ و الولاية و مانودي بشئٍ منها كما نودي بالولاية فاخذ النّاس بالأربع وتركوها.

و الأخبار في الباب كثيرة، و يؤيّد ما إحتملناه في تفسير الآية قوله تعالى: **وَ سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ** و ذلك لأنّ الكافر باللّه و رسوله لا عمل له حتّى يحبط فأنّ العمل في حال الكفر كالعدم نعم يترتّب عليه العقاب و أمّا الثّواب فلا، و الحبط في الثّواب، أي سيحبط ثواب أعمالهم، و ليس للكفّار ثواب أصلاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ

أمر اللّه تعالى الّذين آمنوا باللّه و رسوله بإطاعة اللّه و إطاعة رسوله و نهاهُم عن إبطال أعمالهم بترك الإطاعة في أعمالهم، ففي هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى أمورٍ هي الأصل في مقام العبوديّة و عليها مدار السّعادة و الشّقاوة.

الأوّل: إطاعة اللّه.

الثّاني: إطاعة الرّسول.

الثّالث: المواظبة على الأعمال من حيث الصّحة و البطلان.

فنقول الطّاعة، في الأصل الإنقياد فإطاعة اللّه الإنقياد له في أوامره و نواهيه فقوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ** أي كونوا منقادين و مطيعين له في جميع أموركم.

أن قلت المؤمن يكون مطيعاً و منقاداً لربّه لا محالة و إلاّ يكون مؤمناً حقّاً، و على هذا فما معنى قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ** و المفروض أنّ الخطاب للمؤمنين.

قلت المراد بالإيمان في الآية الإيمان المستعار و هو الّذي يحصل بالقول و أحياناً بالإعتقاد مجّرداً عن العمل، فالمعنى (يا أيّها آمنوا بألسنتكم و قلوبكم باللّه و رسوله) أطيعوها بأعمالكم أيضاً فأنّ الطّاعة لا تستحقّ إلاّ بالعمل و

الدّليل على ذلك قلوه في آخر الآية **وَ لَا تُبْطِلُوٓا أَعْمٰالَكُمْ** و إن شئت قلت أطيعوا اللّه في أعمالكم هذا في إطاعة اللّه واضح لا كلام فيه.

و أمّا إطاعة الرّسول فهي في الحقيقة إطاعة اللّه و إنّما خصّها بالذكر لأنّ النّبي يبيّن للنّاس كيفيّة إطاعة اللّه و لذلك قال اللّه تعالى: **مَآ اٰتٰيكُمُ اَلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[١] و أمّا قوله: **وَ لَا تُبْطِلُوٓا أَعْمٰالَكُمْ**.

فقال الزّمخشّري ـ في تفسيره أي لا تحبطوا الطّاعات بالكبائر كقوله تعالى: **لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ اَلنَّبِيِّ**[٢].

و نقل عن أبي‌العالية أنّه قال كان النّبي يرون أنّه لا يضرّ مع الإيمان ذنبٌ كما لا ينفع مع الشِّرك عمل حتّى نزلت **وَ لَا تُبْطِلُوٓا أَعْمٰالَكُمْ** فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم، و عن حذيفة فخافوا أن يحبط الكبائر أعمالهم.

و عن إبن عمر، كنّا نرى أنّه ليس شيئ من حسناتنا إلاّ مقبولاً حتّى نزل **وَ لَا تُبْطِلُوٓا أَعْمٰالَكُمْ** فقلنا ما هذا الّذي يبطل أعمالنا، فقلنا الكبائر الموجبات و الفواحش حتّى نزل: **إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰآءُ**[٣] فكفنا عن القول في ذلك، و أطال الكلام صاحب الكشّاف الى أن قال لا تبطلوا بالرّياء و السمّعة و بالشكّ و النّفاق و قيل بالعجب الى آخر ما قال إنتهى كلامه الّذي أردنا نقله.

و تبعه على ذلك كثير من المفسّرين، و قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان **وَ لَا تُبْطِلُوٓا أَعْمٰالَكُمْ** بأن ترفعوها على خلاف الوجه المأمور به فيبطل ثوابكم عليها و تستّحقون العقاب إنتهى.

أقول ما ذكروه لا بأس به فأنّ الإبطال يصدق على جميع ذلك و مصاديقه كثيرة و الأحسن أن يقال لا تبطلوا أعمالكم بمخالفة الرّسول لأنّه تعالى ذكر ذلك بعد قوله و أطيعوا الرّسول و على هذا فعدم بطلان العمل يتوقّف على

١- الحشر = ٧
٢- الحجرات = ٢
٣- النسّاء = ٤٨

إطاعة الرّسول قولاً و فعلاً كما أنّ بطلانه يتوقّف على مخالفته فمن خالف الرّسول في قوله فقد أبطل عمله و قد ذكرنا في تفسير الآية السّابقة ما ينفعك في المقام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكافر الصّاد عن سبيل اللّه لو مات على كفره فلن يغفر اللّه له أبداً، و مفهوم الآية أنّ الكافر الصّاد عن سبيل اللّه لو تاب عن كفره قبل الموت و آمن باللّه و رسوله فهو مغفورٌ له و ذلك لقوله تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا**[١] و هذا ممّا لا خلاف فيه.

فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَ ٱللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

الوهن الفشل و الضّعف و التّواني في العمل، قيل في معناه لا تتواني في العمل، و قال إبن زيد لا تضعفوا **وَ تَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ** يعني المصالحة **وَ أَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ** أي و أنتم القاهرون الغالبون في قول مجاهد **وَ ٱللَّهُ مَعَكُمْ** أي ناصركم و الدّافع عنكم فلا تميلوا مع ذلك الى الصُّلح و المسالمة بل جاهدوا و أصبروا عليه، و قوله: **وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** أي لن ينفعكم أجور أعمالكم، يقال وتره وتراً إذا أنقصه و هو قول مجاهد و قال إبن عبّاس(لن يظلمكم) و أصله القطع، هكذا فسّره الشّيخ في التّبيان و به قال المفسّرون من العامّة و الخاصّة و ظاهر الآية يقتضي ذلك و على هذا ففي الآية حثٌّ و ترغيبٌ الى الجهاد و ذلك لأنّ دعوة الخصم الى الصُّلح و السلم دليلٌ على الضَّعف و الملال و هو لا يليق بشأن المسلم المجاهد في سبيل اللّه.

١- الزّمر = ٥٣

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِن تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ

كلمة، أنمّا، تفيد الحصر أشار اللّه تعالى في هذه الآية الى أنّ الحياة الدُّنيوية لعبٌ و لهوٌ في الحقيقة و ذلك لزوالها و عدم بقاءها و مع ذلك هي محفوفة بالأفات و الهموم و ما كان كذلك لا يعتمد عليه ثمّ قال تعالى: (و إن تؤمنوا باللّه و رسوله و اليوم الأخر) **وَ تَتَّقُوا** بإجتناب المعاصي و فعل الواجبات **يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ** على ذلك **وَ لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** أن تدفعوها اليه و قيل معناه لا يسألكم أموالكم كلّها، و إن أوجب عليكم الزّكاة في بعض أموالكم، و قيل معناه لا يسألكم محمّد أموالكم أجراً على تبليغ الرّسالة ففي الآية ترغيبٌ و تحريضٌ على الزُّهد في الدُّنيا الفانية و التوجّه الى الدّار الأخرة الّتي لا فناء لها و أنّ من إختار الفاني على الباقي كان جاهلاً فأنّ الدُّنيا دار من لا دار له.

و أمّا قوله: **وَ لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** أي أنّ اللّه لا يسألكم أموالكم لعدم إحتياجه اليها بل هو المنعم بها عليكم.

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ

الاخفاء الإلحاح في المسألة و قيل الاخفاء طلب الجميع، لمّا قال اللّه تعالى في الآية السّابقة **وَ لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** أي أنّ اللّه أو الرّسول لا يسألكم أموالكم، قال في هذه الآية **إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا** أي إن يسألكم اللّه أو الرّسول أموالكم، **فَيُحْفِكُمْ** أي يلحّ و يصر عليكم في أخذ أموالكم، **تَبْخَلُوا** من الإنفاق **وَ يُخْرِجْ** البخل **أَضْغَانَكُمْ** و أحقادكم لأنّ في سؤال الأموال بالإحفاء خروج الأضغان و الأحقاد الّتي في القلوب و تظهر العداوات الباطنة.

هَآ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَ مَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَ ٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم

قيل أنّما كرّر التّنبيه في موضعين للتّوكيد فقال: **هَآ أَنْتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ** و قيل، ها، للتّقريب، **تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** أي في الجهاد وطريق الخير **فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِۦ** أي علىٰ نفسه و كلمة، من، في قوله: **فَمِنْكُمْ** للتّبعيض، أي بعضكم يبخل عن الإنفاق في سبيل اللّه و لا ينفق و من يبخل عن الإنفاق فأنمّا يبخل عن نفسه، أي على ضرر نفسه لأنّ البخل يمنعها الأجر و الثّواب **وَ ٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ** عن جميع ما سواه **وَ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ** في جميع شئونكم ذاتاً و صفةً، و الدليل على ذلك أنّ المخلوق قائم بخالقه و موجده بمعنى أنّه لا قوام له كان كذلك فهو نفس الفقر لا شيٌّ له الفقر و قد تقدَّم الكلام في هذا الباب سابقاً ثمّ قال تعالى: **وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُمْ** التوَّلي الإعراض أي أن تعرضوا عن أمر اللّه و نهيه و لا تعملون بما فيهما يستبدل قوماً غيركم، أطوع للّه منكم و المستبدل هو اللّه تعالى أي يستبدل اللّه بهم من في المعلوم أنّهم يخلقون بعد، قيل من الملائكة، و قيل هم قومٌ من اليمن و قيل هم الأنصار و قيل سلمان و أشباهه من أبناء فارس.

قال صاحب الكشّاف، أي يخلق قوماً سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان و التّقوى غير متوّلين عنهما و نقل عن الحسن، هم العجم، و عن عكرمة أنّهم فارس و الرُّوم و **سئل رسول اللّه** ﷺ **عن القوم و كان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه و قال هذا و قومه و الّذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثّريا لتناوله رجال من من فارس إنتهى.**

و نقل القرطبي عن المحاسبي أنّه قال فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسن ديناً و لا كانت العلماء منهم إلاّ الفارس إنتهى.

و قوله تعالى: **ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُمْ** أي في البخل بالإنفاق في سبيل اللّه.

و اللّه أعلم.

سُورَةُ ٱلْفَتْحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مٰا
تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ
يَهْدِيَكَ صِراطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَ يَنْصُرَكَ ٱللَّهُ
نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي
قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوٓا إِيمٰانًا مَعَ إِيمٰانِهِمْ وَ
لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ كٰانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ
جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ
يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ فَوْزًا
عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَ يُعَذِّبَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتِ وَ
ٱلْمُشْرِكِينَ وَ ٱلْمُشْرِكٰاتِ ٱلظّٰآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ
ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سٰآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَ لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ كٰانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنّآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا
وَ نَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ

تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا ﴿٩﴾إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَ
مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٠﴾سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ
لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾بَلْ
ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَ مَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَ كَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا
كَذٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ
أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ

تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

◀ اللّغة

جُنُودُ: بضمّ الجيم و النُّون جمع، جند و هو العسكر.

ٱلسَّوْءِ: بفتح السّين القبيح.

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ: بضّم السّين العذاب.

تُعَزِّرُوهُ: قيل أي تصروه و قيل التّعزير التّعظيم.

تُوَقِّرُوهُ: بضمّ التّاء و كسر القاف المشدّدة، و المصدر منه التَّوقير و هو التَّعظيم و التكريم.

بُكْرَةً وَ أَصِيلًا: البكرة بالضّم الغداة و الأصيل العشّي.

نَكَثَ: النَّكث النَّقض.

بُورًا: البور بضمّ الباء الفاسد.

ذَرُونَا: أي أتركونا يقال ذره أي دعه.

يُبَدِّلُوا: التّبديل التّغيير.

بَأْس: البأس الشِّدة.

تَوَلَّيْتُمْ: التَّولي الإعراض.

◀ الإعراب

عِندَ ٱللَّهِ هو حال من الفوز لأنّه صفة له في الأصل فصار حالاً و يجوز أن يكون ظرفاً، لمكان، أو لما دلَّ عليه الفوز و لا يجوز أن يكون ظرفاً للفوز لأنّه مصدر ٱلظَّآنِّينَ صفة للفريقين إِنَّمَا يُبَايِعُونَ هو خبر، إنّ يَدُ ٱللَّهِ مُبتدأ و ما بعده الخبر و الجمله خبر أخر، لأنّ، أو حال من ضمير الفاعل في يبايعون، أو

مستأنف يُرِيدُونَ هو حال من ضمير المفعول في ذَرُونٰا و يجوز أن يكون حالاً من المخلّفون، و أن يستأنف يُقٰاتِلُونَهُمْ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون حالاً مقدّرة.

التّفسير

إِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال و ذلك ضربان:

أحَدَهما: يدرك بالبصر كفتح الباب و فتح القفل و الغلق و المتاع، و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ لَمّٰا فَتَحُوا مَتٰاعَهُمْ وَجَدُوا بِضٰاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ(١).

و قال اللّه تعالى: **حَتّٰى إِذٰا فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا ذٰا عَذٰابٍ شَدِيدٍ**(٢).

الثّانى: يدرك بالبصيرة كفتح الهمّ و هو إزالة الغمّ و ذلك ضروبٌ:

أحَدها: في الأمور الدُّنيوية كغمٍّ يفرج و فقرٍ يزال بإعطاء المال:

قال اللّه تعالى: **فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ أَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ**(٣).

أي وسّعناه قال اللّه تعالى: **لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ**(۴).

الثّانى: فتح المستغلق من العلوم نحو قولك فلان فتح باباً من العلم إذا عرفت هذا فنقول:

إختلف المفسّرون في معنى المراد منه في الأية، قيل عني به فتح مكّة و قيل عني به ما إفتتح على النّبي من العلوم و الهدايات الّتي هى ذريعة إلى الثّواب و المقامات المحمودة الّتي صارت سبباً لغفران ذنوبه و قيل المراد به،

١- يُوسف = ۶۵
٢-المؤمنون = ٧٧
٣-الأنعام = ۴۴
۴- الأعراف = ٩۶

فتح الحديبيّة بالصُّلح و قيل المراد به بيعة الرّضوان يوم الحديبيّة و قال مجاهد هو نحره بالحديبيّه و حلقه رأسه و قال كان فتح الحديبيّة أية عظيمة و الأقوال فيه كثيرة و الشمهور بينهم أنّ المراد به فتح الحديبيّة فأنّ الصُّلح من الفتح بل هو أعظم الفتوح لأنّه كان مفتاحاً لفتح مكّة و كيف كان فقد أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه كان فتحاً ظاهراً.

أقول الّذي وصل إلينا في الباب من طريق أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت.

مارواه علّي بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية قال حدّثني أبي عن أبي عمير عن أبي سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال، كان سبب نزول هذه السُّورة و هذا الفتح العظيم أنّ اللّه عزّ وجلّ أمر رسوله في النَّوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و يحلق مع المخلّفين فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا فلمّا نزلوا ذا الحليفة أحرموا بالعمرة و ساقوا البدن و ساق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ستّاً و ستّين بدنة، و أشعرها عند إحرامه من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة قد ساق من ساق منهم الهدي مشعرات مجللات، فلمّا بلغ ذلك قريشاً بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً ليستقبل رسول اللّه فكان يعارضه على الجبال فلمّا كان في بعض الطّريق حضرت صلاة الظّهر فأذّن بلال و صلّى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بالنّاس فقال خالد بن الوليد لو كنّا حملنا عليهم و هم في الصّلاة لأصبناهم فأنّهم لا يقطعون صلاتهم و لكن تجئ لهم الآن صلاة أخرى أحَبّ إليهم من ضياء أبصارهم فلمّا دخلوا في الصّلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصلاة الخوف.

فلمّا كان في اليوم الثّاني نزل رسول اللّه الحديبيّة و هي طرف

الحرم و كان رسول اللّه ﷺ يستنفر بالأعراب في طريقه معه فلم يتبعه أحد و كانوا يقولون أيطمع محمّد و أصحابه أن يدخلوا الحرم و قد غرّتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم أنّه لا يرجع محمّد و أصحابه إلى المدينة أبداً فلمّا نزل رسول اللّه الحديبيّة خرجت قريش يحلفون باللّات و العزّى لا يدعون محمّداً يدخل مكّة و فيهم عينٌ تطرف، فبعث إليهم رسول اللّه ﷺ أنّي لم أت لحربٍ و أنّما جئت لأقضي نسكي و أنحر بدني و أخلي بينكم و بين لحماتها فبعثوا عروة بن مسعود الثّقفي و كان عاقلاً لبيباً و هو الّذي أنزل اللّه فيه و قالوا أنزل هذا القرأن على رجلٍ من القريتين عظيم، فلمّا أقبل على رسول اللّه عظم ذلك و قال يامحمّد تركت قومك و قد ضربوا الأبنية و أخرجوا العود المطاميل، يحلفون باللاّت و العزّى لا يدعوك أن تدخل مكّة فأنّ مكّة حرمهم و فيها عينٌ تطرف أفتريد أن تبيد أهلك و قومك يامحمّد فقال رسول اللّه ﷺ ما جئت لحربٍ و أنّما جئت لأقضي نسكي فأنحر بدني و أخلّي بينكم و بين لحماتها فقال عروة باللّه ما رأيت كاليوم أحدٌ صدّ كما صددت فرجع إلى قريش فأخبرهم فقالت قريش و اللّه لئن دخل محمّد مكّة و تسامعت به العرب لنذلّن و لنجترينّ علينا العرب فبعثوا حفص بن الأحنف و سهيل بن عمر و فلمّا نظر إليهما قال رسول اللّه ﷺ ويح قريش قد نهكتهم الحرب ألا خلّوا بيني و بين العرب أن أك صادقًا فأنّ أجر الملك إليهم مع النّبوة و أن أك كاذباً كفتهم ذؤبان العرب لا يسألني اليوم إمرؤاً من قريش خطّة ليس للّه فيها سخط إلاّ أجبتهم إليه قال فوافوا رسول اللّه ﷺ فقالوا يامحمّد ألا ترجع عنّا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ماذا يصير

أمرك و أمر العرب فأنّ العرب قد تسامعت بمسيرك فأن دخلت بلادنا و حرمنا إستذلّتنا العرب و إجترأت علينا و نخلّي لك البيت في العام المقبل في هذا الشّهر ثلاثة أيّام حتّى تقضي نسكك و تنصرف عنّا فأجابهم رسول اللّه إلى ذلك و قالوا له و تردّ علينا كلّ من جاءك من رجالنا و نردّ إليك كلّ من جاء من رجالك فقال رسول اللّه ﷺ من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه و لكن على أنّ المسلمين بمكّة لا يؤذون في إظهارهم الإسلام و لا يكرهون و لا ينكر عليهم شيئ يفعلونه من شرائع الإسلام فقبلوا ذلك فلمّا أجابهم رسول اللّه إلى الصُّلح أنكر عامّة أصحابه و أشدَّ من كان إنكاراً فلان «و هو عمر بن الخطّاب على ما نقله المؤرّخون» فقال يا رسول اللّه ألسنا على الحقّ و عدوّنا على الباطل فقال ﷺ نعم، قال فنعطي الذِّلة (الدّنية خ ل) في ديننا قال ﷺ أنّ اللّه وعدني ولن يخلفني قال لو أنّ معي أربعين رجلاً لخالفته و رجع سهيل بن عمر و و حفص بن الأحنف إلى قريش فأخبرهم بالصُّلح فقال عمر يارسول اللّه ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام و نحلق مع المخلّقين فقال ﷺ أمن عامنا هذا و عدتك، و قلت لك أنّ اللّه وعدني أن أفتح مكّة و أطوف و أسعى مع المخلّقين فلمّا أكثروا عليه قال لهم إن لم تقبلوا الصُّلح فحاربوهم، و ساق الحديث إلى أن قال و رجع حفص بن الأحنف و سهيل بن عمرو إلى رسول اللّه و قالا يامحمّد قد أجابت قريش إلىٰ ما إشترطت عليهم من إظهار الإسلام و أن لا يكره أحدٌ على دينه فدعا رسول اللّه أميرالمؤمنين و قال له أكتب فكتب أميرالمؤمنين، بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، فقال سهيل بن عمرو لا نعرف الرّحمٰن أكتب كما كان يكتب أباؤك

بإسمك اللّهم، فقال رسول اللّه ﷺ أكتب بإسمك اللّهم فأنّه إسم من أسماء اللّه، ثمّ كتب هذا ما تقاضى عليه محمّد رسول اللّـه و الملاء من قريش فقال سهيل بن عمرو لو علمنا أنّك رسول اللّه ما حاربناك، أكتب هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبد اللّه أتأنف من إسمك يامحمّد فقال رسول اللّه أنا رسول اللّه و إن لم تقرّوا ثـمّ قال ﷺ أمح يا عليّ و أكتب محمّد بن عبد اللّه فقال أميرالمؤمنين ما أمحوا إسمك من النّبوّة أبداً فمحاه رسول اللّه ﷺ بيده ثـمّ كتب هذا ما إصطلح عليه محمّد بن عبد اللّه و الملاء من قريش و سهيل بن عمرو إصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعض عن بعض و على أنّه لا إضلال و لا إغلال و ساق الحديث إلى أخر الكتاب و شهد عليه المهاجرون و الأنصار ثمّ قال رسول اللّه ﷺ يا عليّ أنك أبيت أن تمحوا إسمي مـن النّبوة فوالّذي بعثني بالحقّ نبيّاً لنجيبنّ أبناؤهم إلى مثلها و أنت مضيضٌ مضطهدٌ فلمّا كان يوم صفيّن و رضوا بـالحكمين كتب هـذا مـا إصطلح عليه أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب و معاوية بـن أبـي سفيان فقال عـمرو بـن العـاص لو عـلمنا أنّك أمـيرالمـؤمنين مـا حاربناك و لكن أكتب هذا ما إصطلح عليه عليّ بن أبـى طـالب و معاوية بن أبي سفيان فقال أميرالمؤمنين صدق و اللّـه و صـدق رسوله ﷺ أخبرني رسول اللّه بذلك، قال فلمّا كـتبوا الكـتاب، قامت خزاعة فقالت نحن في عهد محمّد رسول اللّه ﷺ و عقده و قامت بنو بكر فقالت نحن في عهد قريش و عقدها و كتبوا نسختين نسخة عند رسول اللّه و نسخةٌ عند سهيل بن عمرو و رجع سهيل إبن عمر و حفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم و قال رسول

اللّه ﷺ لأصحابه أنحروا ابدانكم و أحلقوا رؤوسكم فأمتنعوا و قالوا كيف ننحر و نحلق و لم نطف بالبيت و لم نسع بين الصّفا و المروة فإغتمّ رسول اللّه ﷺ من ذلك، و ساق الحديث إلى أن قال، ثمّ رحل رسول اللّه نحو المدينة فرجع إلى التّنعيم و نزل تحت الشّجرة فجاء أصحابه الذّين أنكروا عليه الصُّلح و إعتذروا و أظهروا النّدامة على ما كان منهم و سألوا رسول اللّه ﷺ أن يستغفر لهم فنزلت أية الرّضوان بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، اِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً.

أقول أي أنّ هذا الصُّلح كان فتحاً مبيناً أي ظاهراً لمن كان له قلب و يظهر من هذا الحديث أنّ المراد بالفتح المبين هو الصُّلح في الحديبيّة حيث ألقى اللّه الرُّعب في قلوب المشركين و لأجل ذلك قال تعالى: **إِنّٰا فَتَحْنٰا** و نسب الفتح إلى نفسه لا إلى المسلمين، لأنّه أدخل الخوف في قلوبهم فهو الفاتح لا غيره و لولا ذلك لكانت الغلبة مع الكفّار قطعاً لقلّة المسلمين و كثرة المشركين و أيّ فتح أعظم و أظهر منه و اللّه أعلم.

لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا

اللاّم في **لِيَغْفِرَ** إمّا للتّعليل و إمّا للغاية، فعلى الأوّل يكون المعنى أنّه علّة للفتح من حيث أنّه مسبّبٌ عن جهاد الكفّار أو السّعي في إزاحة الشّرك و إعلاء الدّين و تكميل النّفوس النّاقصة قهراً ليصير ذلك بالتّدريج باعثاً و سبباً لتخليص الضّعفة عن أيدي الظّلمة و بعبارةٍ أخرى هذا الصُّلح صار مسبّباً و معلولاً عن جهاد الكفّار و إن شئت قلت أنّما فتحنا لك هذا الفتح **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** فالمغفرة علّة للفتح.

علىٰ الثّاني: و هو كون اللاّم للغاية فالمعنى إنّا فتحنا لك لأجل المغفرة فهي الغاية و المقصد له و المآل في الإحتمالين واحدٌ كما لا يخفى ثمّ أنّهم إختلفوا في معنى المراد بالذّنب في الآية بعد دلالة العقل و النقل و إجماع الأمّة على عصمة الرّسول و معنى العصمة أنّ اللّه عصمه عن الخطأ و النّسيان و الزّلل و إذا كان كذلك فما المراد بالذّنب المغفور له في الأية، فنقول.

روى علّي بن إبراهيم في تفسيره بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ قال: عليه السلام ما كان له من ذنب و لا همَّ بذنبٍ و لكنّ اللّه حمله ذنوب شيعته ثمّ غفرها له إنتهى.

و في العيون عن الرّضا عليه السلام قال: أنّه سئل عن هذه الآية فقال عليه السلام: لم يكن أحدٌ عند مشركي أهل مكّة أعظم ذنباً من رسول اللّه لأنّهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاث مائة و ستّين صنماً فلمّا جاءهم بالدّعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم و عظم و قالوا أجعل الألهة إلهاً واحداً إلى قوله إلاّ إختلاق فلمّا فتح اللّه تعالى على نبيّه مكّة قال يامحمّد إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر عند مشركي أهل مكّة بدعاءك إلى توحيد اللّه فيما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكّة و من بقي منهم لم يقدر على إنكار التّوحيد عليه إذ دعا النّاس إليه فصار ذنبه عندهم مغفوراً عليهم إنتهى.

و في رواية إبن طاووس عنهم أنّ المراد منه، **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** عند أهل مكّة و قريش يعني ما تقدّم قبل الهجرة و بعدها فأنّك إذا فتحت مكّة بغير قتلٍ لهم و لا إستئصالٍ و لا أخذهم بما قدّموه من العداوة و القتال غفروا ما كانوا يعتقدونه ذنباً لك عندهم متقدّماً و متأخّراً كان

يظهر من عداوته لهم في مقابلة عداوتهم له فلمّا رأوه قد تحكّم و تمكّن إستعصى غفروا ما ظنّوه من الذّنوب قال بعض المحقّقين في المقام، قد ثبت عصمته فليس له ذنبٌ فلم يبق لإضافة الذّنب إليه إلاّ أن يكون هو المخاطب و المراد أمّته كما قيل إيّاك أو هو أو إسمعي يا جارة، قال ـ ما تقدّم من ذنبك من آدم إلى زمانه و ما تأخّر من زمانه إلى يوم القيامة فأنّ الكلّ أمّته فأنّه ما من أمّةٍ إلاّ و هى تحت شرع محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم من إسم الباطن من حيث أنّه كان نبيّاً و آدم بين الماء و الطّين و هو سيّد النّبيين و المرسلين فأنّه سيّد النّاس أجمعين فبشّر اللّه تعالى محمّداً بقوله: **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** لعموم رسالته إلى النّاس كافّة و ساق الكلام إلى أن قال فالكلّ أمّته من آدم إلىٰ يوم القيامة فبّشره اللّه بالمغفرة إلى آخر ما قال و لا فائدة في نقله و الأقوال كثيرة و المعتمد منها ما نقلناه عن أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت.

و أمّا قوله: **وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** بإعلاء كلمة التّوحيد و ضّم الملك إلى النُّبوة **وَ يَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** في تبليغ الرّسالة و الإستقامة على طريق الحّق.

وَ يَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا

لا يتّبعه ذلٌّ و حقارةً أبداً فأنّ من ينصره اللّه لا يغلب.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

السَّكينة، في الأصل السُّكون، الطمّأنينة، الثُّبات و قد يعبّر عنه بالإيمان.

قال بعض المفسّرين هو ما يفعل اللّه تعالى بهم من اللُّطف الّذي يحصل لهم عنده بصيرة بالحّق تسكن إليها نفوسهم و يجدون الثّقة بها بكثرة ما ينصب لهم من الأدلّة الدالّة على الحّق و هذه النّعمة التامّة للمؤمنين خاصّة و أمّا

غيرهم فتضطرب نفوسهم لأوّل عارضٍ من شبهةٍ ترد عليهم إنتهى أقول ما ذكروه في معناها لا إشكال فيه إلاّ أنّ فيه تطويلٌ لا فائدة فيه و ذلك لأنّ اللّه تعالى مقلّب القلوب و السَّكينة معناها الثُّبات و عدم الإضطراب في القلب من حيث الإعتقاد و الإيمان و المتصرّف فيه أي في القلب هو اللّه تعالى لا غيره و أمّا قوله: **لِيَزْدادُوا إِيمانًا مَعَ إِيمانِهِمْ** فمعناه أنّ المؤمن قبل نزول السَّكينة يكون في إيمانه مضطرباً متزلزلاً و أمّا بعد انزالها من جانب اللّه يصير إيمانه مستقرّاً ثابتاً لا إضطراب فيه و هذا معنى زيادة الإيمان لأنّ الإيمان المستعار صار ثابتاً مستقرّاً و فيه إشارة إلى مراتب الإيمان و أنّ له درجات قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** إشارة إلى أنّ أزمة الأمور بيده تعالى و لا رادّ لقضائه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد كّل ذلك على أساس المصلحة النّاشئة عن العلم و الحكمة بعواقب الأمور و هذا ظاهرٌ.

لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللّٰهِ فَوْزًا عَظِيمًا

اللاّم للتَّعليل أي أنزل اللّه السَّكينة في قلوب المؤمنين ليدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً **وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ** أي عِقاب معاصيهم الّتي فعلوها في دار الدُّنيا، و كان ذلك، أي إدخالهم الجنَّة و تكفير السّيئات عنهم عند اللّه فوزاً، أي ظفراً و مقاماً منيعاً لا مقام فوقه و أيّ فوزٍ أعظم من دخول الجنَّة و تكفير السّيئات و رضاء الحقّ عن العبد ثمّ أخبر عن حال المنافقين بعد الموت.

وَ يُعَذِّبَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَ ٱلْمُشْرِكٰاتِ ٱلظّٰانِّينَ بِاللّٰهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دٰائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَ غَضِبَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِيرًا

أي و يعذّب اللّه يوم القيامة، المنافقين، من الرّجال، و المنافقات من النّساء، و هم الّذين كانوا في دار الدُّنيا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر أو المشركين، من عبدة الأصنام و المشركات كذلك **ٱلظَّآنِّينَ بِاللّٰهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ** عرّف اللّه المنافقين و المشركين بأنّهم كانوا يظنّون باللّه ظَنّ السّوء، أي يتوهّمون أن ينصرهم اللّه على رسوله و لم يعلموا أنّ ذلك قبيح على اللّه تعالى فلا يجوز وصفه به.

و قيل المراد بالظّن السّوء ظنّهم أنّ النبيّ لا يرجع إلى المدينة و لا أحد من أصحابه حين يخرج إلى الحديبيّة و أنّ المشركين يقتلونهم أو يستأصلونهم كما حكى اللّه عنهم بقوله: **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ إِلٰىٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**(١).

قال الخليل و سيبويه السّوء، هنا، الفساد، و أمّا قوله: **عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ** قيل في الدُّنيا بالقتل و السَّبي و الأسر و فى الآخرة بجهنّم، هكذا فسّروه.

و أعلم أنّ المشهور بين القُّراء، **السَّوء** بفتح السّين و قرأ أبو عمر و بضمّها و جميع المصاحف على الفتح.

قال في المفردات، السُّوء، بالضمّ كلّ ما يضمّ الإنسان من الأمور الدُّنيويّة و الأخرويّة و من الأحوال النفسيّة و البدنيّة و الخارجة من فوات مالٍ و جاهٍ و فقد حميم، و قد يفسّر بالآفة قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**(٢).

و قال تعالىٰ: **زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ** أي قبحها، و قال بعض أهل اللُّغة في قوله تعالى: **عَلَيْهِمْ دٰآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ** السُّوء و السَّوء هما من ساء يسوءه سوأ بالفتح و مساءة نقيض، سرّه و الإسم السُّوء بالضّم فمن قرأ عليهم دائرة السَّوء بالفتح فمن المساءة و هى نقيض سرّه، و من قرأ بالضّم فمن السُّوء إنتهى.

١- الفتح = ١٢ ٢-النّحل = ٢٧

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَآءَتْ مَصِيرًا** أمّا أنّ اللّه غضب عليهم فلأنّهم أعرضوا عن الحقّ و أقبلوا الى الباطل و ظنّوا باللّه ظنّ السّوء و من كان كذلك فأنّه مغضوبٌ له تعالى و كلّ مغضوبٍ فهو ملعون و كلّ ملعونٍ فقد أعدّ اللّه له جهنّم و من المعلوم أنّ من كان مصيره إلى جهنّم فهو من أخسر الخاسرين.

وَ لِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ فيفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و كان اللّه عزيزا، أي قادراً، حكيماً، في جميع أفعاله، ثمّ خاطب نبيّه فقال:

إِنَّآ أَرْسَلْنٰكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا

وصف اللّه نبيّه بالرّسالة، و الشّهود و البشارة و الإنذار فقوله: **أَرْسَلْنٰكَ** نصّ على أنّه رسولٌ من عند اللّه إلى خلقه ليهديهم إلى الحقّ الّذي لا بطلان و لا زوال له، و قوله: **شٰاهِدًا** يعني على أمّتك بالبلاغ و الدّعاء إلى عبادته أو شاهداً بما عملوه من طاعةٍ و معصيةٍ.

و قوله: **مُبَشِّرًا** إشارة إلى أنّ الرّسول يبشّر المطيع برحمة اللّه و ثوابه و قوله **نَذِيرًا** إلى أنّه يخوّفهم من عذابه و عقابه في القيامة في صورة العصيان و المخالفة و هو ظاهر.

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا

اللاّم في قوله: **لِتُؤْمِنُوا** للتعليل و قيل للغاية و المآل فيهما واحد إذ لا فرق بين أن يكون الإرسال علّةً للإيمان و الإيمان معلول له و بين أن يكون الإيمان غايةٌ له ضرورة أنّ الإيمان يحصل للإنسان بسبب إرسال الرّسول فالرّسالة بمنزلة الشّجرة و الإيمان فرعها و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالى أرسل الرّسل إلى خلقه ليؤمنوا باللّه و رسوله.

و قوله: **وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ** فقال بعض المفسّرين الضّمير راجع على

النّبي و المعنى، تنصروه أي النّبي و تعظّموه، قال: **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ** فتوَّحدوه، **وَ رَسُولِهِ** فتصدّقوه، **وَ تُعَزِّرُوهُ** أي تنصروه فالهاء راجعة إلى النّبي **وَ تُوَقِّرُوهُ** أي تعظّموه يعني النّبي و قوله: **وَ تُسَبِّحُوهُ** يعني اللّه تعالى بكرةً و أصيلاً، أي بالغداة و العشيّ إنتهى.

و قرأ إبن كثير و إبن محيص و أبو عمر و (ليؤمنوا) بالياء و كذا (يعزّروه و يوقّروه و يسبّحوه) كلّه بالياء على الخبر و إختاره أبو عبيد.

أقول الحقّ أنّ الضّمائر كلّها للّه تعالى إذ لا دليل على تخصيص بعضها بالنّبي و بعضها باللّه تعالى و المعنى **تُعَزِّرُوهُ** أي تعظّموه و تفخّموه تنصروه أي تعظّموا اللّه أن تنصروه و نصرة اللّه نصرة دينه **وَ تُوَقِّرُوهُ** أي توقّروا اللّه، بإثبات الربوبيّة له و نفي الشّريك عنه و تنزيهه عن التَّشبيه و التعطيل **وَ تُسَبِّحُوهُ** تسبيحاً لائقاً بشأنه في الغداة و العشّي و التّسبيح التّنزيه عمّا لا يليق به و أنّما قلنا ذلك لأنّ الضّمائر كلّها على نسقٍ واحد فالمرجع فيها أيضاً واحد و أنّما أرجعناها إلى اللّه دون النّبي لقوله تعالى: **وَ تُسَبِّحُوهُ** و التّسبيح لا يكون إلاّ للّه تعالى اللّهم إلاّ أن يقال أنّ تعزير النّبي و توقيره هو تعزير اللّه و توقيره و على هذا فالأمر سهلٌ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

قيل المراد بالبيعة هاهنا بيعة الحديبيّة و هى بيعة الرّضوان و سيأتي الكلام فيها في هذه السُّورة، و المبايعة المعاقدة على السّمع و الطّاعة كالمعاقدة في البيع و الشّراء فلا يجوز الرّجوع فيه، و قيل أنّها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنّة للزومهم في الحرب النُّصرة جعل اللّه تعالى بيعة المسلمين لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مثل بيعتهم للّه تعالى في لزوم الوفاء بها و ترتّب الثّواب عليها فقال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ**

يُبَايِعُونَكَ من المسلمين **إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ** في الحقيقة و لذلك لم يقل كأنّما يبايعون اللّه ففيه إشعار بانّ بيعتهم لرسول اللّه أنّما هي بيعة اللّه نفسها لا أنّها مثلها كما أنّ طاعتهم و معصيتهم إيّاه كذلك و الوجه فيه واضح و هو أنّ الرّسول بعث و أرسل إلى النّاس ليدعو النّاس إلى اللّه لا إلى نفسه و لذلك كان شعاراً اللاسلام في إبتداء البعثة، **قُولُوا لاَ اِلٰهَ اَلاّ اللّٰه تُفْلِحُوا** و قوله: **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** قيل معناه، عقد اللّه في هذه البيعة فوق عقدهم لأنّهم بايعوا اللّه ببيعة نبيّه.

و قيل معناه قوّة اللّه في نصرة نبيّه فوق نصرتهم و قيل يد اللّه في هدايتهم فوق أيديهم بالطّاعة.

و قيل يد اللّه في الثّواب فوق أيديهم في الوفاء، و يده في المنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطّاعة.

و قال الكلبي نعمة اللّه فوق ما صنعوا من البيعة.

أقــول لا شكّ أنّ اليد بالمعنى المتعارف بين النّاس و هو الجارحة المخصوصة من شئون الجسم و اللّه تعالى منّزهٌ عنه و لذلك قالوا، يد اللّه كناية عن قدرته و على هذا فمعنى، **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** قدرة اللّه فوق قدرتهم، و أستعير للنّعمة أيضاً فقيل، يديت إليه أي أسديت إليه، و للملك أيضاً، يقال هذافي، يد، فلان أي في حوزه و ملكه، و يقال لاولياء اللّه هم أيدي اللّه، فإذاً يد الرّسول يد اللّه و إذ كان يد الرّسول فوق أيديهم في البيعة، فيد اللّه فوق أيديهم، و هذا الوجه الأخير أحسن الوجوه المحتملة و ذلك لأنّ يد الرّسول فوق أيديهم في البيعة، و قد ثبت أنّ أولياء اللّه أيدي اللّه و فى رأس الأولياء الأنبياء و فى رأس الأنبياء المرسلين منهم، و فى رأس المرسلين خاتمهم فالمطلوب ثابت.

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ النّكث النّقض، أي فمن نقض عقد بيعته، فأنّما ينكث على نفسه أي يرجع ضرر النّكث عليه لأنّه حرّم نفسه عن

الثّواب و ألزمها العقاب **وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ** يقال وفيت بالعهد و أوفيت به و هى لغة تهامة و منها قوله تعالى: **أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** و قال: **وَ ٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ** و الأيات في الحثّ على الوفاء بالعهد و ذمّ نقض العهد كثيرة مضى الكلام في هذا المضمار غير مرّةٍ و سيأتي الكلام فيه في المستقبل أيضاً.

و المعنى من وفي بعهده الّذي **عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ** و هو عقد البيعة مع الرّسول **فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** من قبل اللّه تعالى و هو المقام في الجنّة و التنعُّم بما فيها من أنواع النِّعم، و قرأ حفص و الزُّهري، عليه، بضم الهاء و جرّها الباقون، فمن قرأها بالضمّ فلأنّها الأصل و من كسر الهاء فللمجاورة للياء.

و أعلم أنّ النّاكثين في الإسلام أصحاب الجمل و القاسطين أصحاب معاوية و المارقين أصحاب الخوارج، سمّاهم رسول اللّه بذلك حين قال لعلّي عليه السلام **ياعلّي ستقاتل النّاكثين و القاسطين والمارقين و الأخبار عنه** صلى الله عليه و آله و سلم **في الباب كثيرة.**

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

لمّا أراد رسول اللّه الخروج إلى مكّة عام الحديبيّة أحرم بعمرة و دعا الأعراب الّذين كانوا حول المدينة إلى الخروج فتثاقلوا و لم يخرجوا معه، و هم، أسلم و غفّار، وجهينة ومزينة فأخبر اللّه تعالى بذلك و المخلّف هو المتروك في المكان خلّف الخارجين عن البلد و هو مشتقّ عن التخلُّف و ضدّه المتقدّم، قيل أنّما تخلّفوا لتثاقلهم عن الجهاد و إن إعتذروا بشغل الأموال و الأولاد، و الأعراب الجماعة من عرب البادية، و أمّا عرب الحاضرة ليسوا بأعراب ففرّقوا بينهما و إن كان اللّسان واحداً هكذا قيل، أخبر اللّه تعالى رسوله عن إعتذار المتخلّفين و قال له: **سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ** و هم القبائل

الأربعة المذكورة من الأعراب الذّين كانوا في البوادي حول المدينة **شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَ أَهْلُونَا** أي منعتنا عن الخروج معك أموالنا و أهلونا، والشُّغل قطع العمل عن عملٍ لا يمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابها كالكتابة والرَّمي عن القوس و اللّه تعالى لا يشغله شان من شأن لأنّه لا يعمل بألةٍ قاله في التّبيان و هو حقّ لا مرية فيه.

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا أي أنّ الأعراب المتخلّفين، بعد إعتذارهم بشغل الأموال و الأولاد قالوا للرّسول، فإستغفر لنا عند ربّك.

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ أخبر اللّه تعالى نبيّه بأنّهم يقولون في مقام الإعتذار بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كما هو شأن المنافق أي أنّهم كذبوا في إعذارهم، **شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَ أَهْلُونَا** بل كان عدم خروجهم لتثاقلهم عن الجهاد ثمّ أمر نبيّه أن يقول لهم **فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا** لا يقدر أحد على دفعه **أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا** لا يقدر أحد على إزالته، قرأ حمزة و الكسائي، ضرّاً بالفتح و الباقون بالضّم فمن قرأ بالفتح أراد المصدر و من قرأ بالضمّ أراد الإسم، و قيل بالفتح ضدّ النّفع و بالضمّ سوء الحال و المقصود من هذا الكلام في هذا المقام أنّ الضّر و النَّفع في الأولاد و الأموال بيد اللّه و مشيئته فقولكم شغلتنا أموالنا و أهلونا، أي ليس لنا من يقوم بهما، كلام لا طائل تحته لأنّ اللّه تعالى هو الحافظ لا أنتم.

بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا لا يخفى عليه شيئ من مكركم و حيلتكم و مكروا و مكر اللّه و اللّه خير الماكرين، فالأحسن لكم الإقرار بالذّنب ثمّ التّوبة أنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعاً.

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَ ٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا

كلمة، بل، للإضراب أي لم يشغلكم عن الخروج ما ذكرتم من الأموال و الأولاد بل شغلكم عن الخروج أنّكم ظننتم أن لن ينقلب الرّسول أي لن يرجع الرّسول و المؤمنون إلى أهليهم أبداً، و ذلك أنّهم قالوا أنّ محمّداً و أصحابه أكلة رأسٍ لا يرجعون، أي هم قليل يشبعهم رأسٌ واحد، و لأجل ذلك تقاعدتم عن الجهاد **وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ** الظّن الباطل **فِي قُلُوبِكُمْ** من قبل الشّيطان **وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ** و هو أنّ اللّه لا ينصر رسوله **وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا** أي كُنتُم قوماً فاسدين لا يصلحون لشئٍ من الخير.

و قال مجاهد، أي كنتم قوماً هلكى، بور بضّم الباء جمع بائر مثل حائل و حول و قد بار فلان أي هلك و أباره اللّه أي أهلكه و قيل بوراً، يعني أشراراً.

وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيرًا

هذه الآية وعيدٌ و تهديد لمن لم يؤمن باللّه و رسوله و مات على الكفر قيل نكّر سعيراً، لأنّها نارٌ مخصوصة كما نكّر ناراً تلظى، و المقصود أنّ الكافر مصيره إلى النّار الّتي خلقها اللّه لهم و قال بعضهم في قوله: **سَعِيرًا**، أي ناراً تسعرهم و تحرقهم، أعاذنا اللّه منها بمحمّدٍ و آله الطّاهرين.

وَ لِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰآءُ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا

اللاّم في لِلّٰه للملك أو للإختصاص و على التّقديرين هو الذّي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فيما خلق فيهما من أصناف المخلوقات و من جملتها الإنسان الذّي عليه مدار البحث في الأيات فقوله تعالى: **يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰآءُ** حكمٌ مطابقٌ للواقع والعقل السّليم أيضاً يحكم بصحته بل نقول أنّه من الأحكام العقليّة الّتي لا ينبغي الشكّ فيه و ذلك لأنّ الخالق مالكٌ لمخلوقه جدّاً في الدّنيا و الأخرة فمن يقدر على منعه عمّا شاء و أراد في الدّارين و

المفروض أنّ ما سواه كائناً ما كان فمخلوق له فكما أنّ الحياة و الموت في الدّنيا بيده كذلك الغفران و العذاب بيده في الأخرة.

و قوله: **وَ كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا** وعدٌ بعد الوعيد و رجاءٌ و رحمة بعد التّهديد أي أن تاب المذنب فلاعذاب له لأنّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ ٱللّٰهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا كَذٰلِكُمْ قٰالَ ٱللّٰهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا بَلْ كٰانُوا لاٰ يَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِيلًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قول المخلّفين ثانياً و قال سيقول المخلّفون الّذين لم يخرجوا معكم إلى الحديبيّة و إعتذروا بقولهم: **شَغَلَتْنٰآ أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا**.

إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا و هي مغانم خيبر **ذَرُونٰا** أي أتركونا **نَتَّبِعْكُمْ** و نجئ معكم إلى خيبر **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ ٱللّٰهِ** أي يغيّرواكلام اللّه.

قال ابن زيد هو قوله: **فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**[١] و أنكر هذا القول الطّبري و غيره بسبب أنّ غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكّة.

و قيل يريدون أن يغيّروا وعد اللّه الّذي وعد لأهل الحديبيّة و ذلك أنّ اللّه تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكّة إذ رجعوا من الحديبيّة على صلح قاله مجاهد و قتادة و إختاره الطّبري و عليه عامّة أهل التّأويل إنتهى ما قاله القرطبي في تفسيره.

أقول في المقام إحتمالٌ أخر يختلج ببالي و هو أنّ المراد بقوله: **يُرِيدُونَ**

١- التّوبة = ٨٣

أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ هو قوله تعالى: **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**[١] توضيح ذلك أنّهم إعتذروا عن عدم خروجهم مع الرّسول إلى الحديبيّة بقولهم: **شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا** فردّ اللّه عليهم بقوله: **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** أي أنّهم كذبُوا في إعتذارهم هذا فأنّهم قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، و هذا هو النّفاق بعينه فأثبت اللّه تعالى لهم النّفاق بقوله هذا، ثمّ إنّ قولهم: **ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ** يدلّ على عدم نفاقهم لأنّ المنافق لا يتّبع المؤمن واقعاً فمعنى كلام هؤلاء القوم أنّهم من المؤمنين، خلاف حكم اللّه فيهم و هذا تغيير كلام اللّه و بعبارةٍ أخرى حكم اللّه بنفاقهم يبدّل و يغيّر بعدم النّفاق و لازم ذلك تكذيب اللّه في قوله و هو كما ترى هذا ما ظهر لي في معنى الكلام و اللّه أعلم.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ أي أنّه تعالى حكم بنفاقكم من قبل و المنافق لا يتّبع المؤمن أبداً، و لذلك أتى بكلمة، **لَنْ** في عدم المتابعة و هي لنفي الأبد و الدّليل على ذلك أنّ النّفاق ضدّ الإيمان و الضّدان لا يجتمعان و إن شئت قلت نقيضه و النقيضان لا يجتمعان فكيف يعقل أن يكون الضّد تابعاً لضدّه و هذا معنى نفي الأبد **فَسَيَقُولُونَ** أي المخلّفون **بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** أي سيقولون لكم، بل تحسدوننا في منعكم إيّانا عن المتابعة و أخذ الغنائم، فأجاب اللّه تعالى بقوله ليس الأمر على ما يظنّون بل كانوا لا يفقهون الحقّ و ما يدعون إليه إلاّ القليل منهم.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

١- الفتح = ١١

أي قل يا محمّد للمخلّفين الّذين لم يخرجوا معكم الى الحديبيّة **سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** أي ستدعون الى حربهم و قتالهم مع أنّهم أقوى من المشركين و أشدَّ بأساً منهم **تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** قال إبن عبّاس أولوا البأس الشّديد أهل فارس، و قيل هم الرُّوم، و قيل هم هوازن بحنين، و قال الزّهري هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذّاب **فَإِنْ تُطِيعُوا** الدّاعي الى القتال **يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا** يوم القيامة **وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ** أي و أن تعرضوا عن القتال و الجهاد كما أعرضتم من قبل، في الحديبيّة **يُعَذِّبْكُمْ** اللّه **عَذَابًا أَلِيمًا** يوم الحساب هذا تفسير ألفاظ الآية.

قال صاحب الكشّاف في قوله: **أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ** يعني بني حنيفة قوم مسيلمة و أهل الرِّدة الّذين حاربهم أبو بكر الصّديق رضي اللّه عنه لأنّ مشركي العرب و المرتدّين هم الّذين لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السَّيف عند أبي حنيفة و من عداهم من مشركي العجم و أهل الكتاب و المجوس تقبل منهم الجزية و عند الشّافعي لا تقبل الجزية إلاّ من أهل الكتاب و المجوس دون مشركي العجم و العرب و هذا دليل على إمامة أبي بكر رضي اللّه عنه فأنّهم لم يدعوا الى حربٍ في أيّام رسول اللّه ولكن بعد وفاته إنتهى موضع الحاجة من كلامه بألفاظه و عباراته، و تبعه على ذلك الإختراع من قلّده من مفسّري العامّة كالقرطبي و الألوسي و غيرهما.

قال الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان إستدلّ جماعة من المخالفين بهذه الآية على إمامة أبي بكر من حيث أنّ أبا بكر دعاهم الى قتال بني حنيفة و عمر دعاهم الى قتال فارس و الرُّوم و كانوا قد حرموا القتال مع النّبي بدليل قوله تعالى: **لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**(١) و هذا الّذي ذكروه غير صحيحٍ من وجهين:

١- التّوبة = ٨٣

أحدهما: أنّه غلط في التّاريخ و وقت نزول الآية.

الثّاني: أنّه غلط في التّأويل و نحن نبيّن فساد ذلك أجمع و لنا في الكلام في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: أنّه تنازعٌ في إقتضاءها داعياً يدعوا هؤلاء المخلّفين غير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و نبيّن أنّ الدّاعي لهم في ما بعد كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره على ما حكيناه عن قتادة و سعيد بن جبير في أنّ الآية نزلت في أهل خيبر و كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الدّاعي الى ذلك.

الثّاني: أن يسلم أنّ الدّاعي غيره و نبيّن أنّ الدّاعي لم يكن أبابكر و لا عمر بل كان أميرالمؤمنين عليه السلام.

أمّا الوجه الأوّل: فظاهر لأنّ قوله: **سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ** الىٰ قوله: **وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا** قد بيّنا أنّه أراد به الّذين تخلّفوا عن الحديّبية بإجماع المفسّرين ثمّ قال تعالى: **سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ** الى آخر الأية، فبيّن أنّ هؤلاء المخلّفين سألوا أن يخرجوا الى غنيمة خيبر فمنعهم اللّه من ذلك و أمر نبيّه أن يقول لهم **قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا** الى هذه القرية لأنّ اللّه تعالى حكم من قبل أنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديّبية و أنّه لا حظّ فيها لمن لم يشهدها و هذا هو معنى قوله: **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ** و قوله: **كَذٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ** ثمّ قال: **قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** و إنّما أراد الرّسول سيدعوهم في ما بعد إلى قتال قومٍ بهذه الصّفة و قد دعاهم بعد ذلك الى غزواتٍ كثيرة و قال قومٌ أولي بأسٍ شديد كوقعة تبوك و حنين و غيره، فمن أين يجب أن يكون الدّاعي لهم غير النّبي، و أمّا قولهم أنّ معنى قوله: **كَذٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ** هو أنّه أراد قوله: **فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا**(١) مملوءٌ بالغلط الفاحش في التّاريخ لأنّا بيّنا أنّ هذه الآية

١- التّوبة = ٨٣

الّتي في التّوبة نزلت في تبوك، سنة تسع و أمّا آية سورة الفتح نزلت سنة ستّ فكيف تكون قبلها و ينبغي لمن تكلّم في تأويل القرآن أن يرجع الى التّاريخ و يراعي أسباب النُّزول في الآية على ما روي و لا يقول على الأراء و الشَّهوات و تبيَّن أيضاً أنّ هؤلاء المخلّفين غير أولئك و إن يرجع الى التّاريخ.

و نقول قوله: **فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** فلم يقطع على طائفةٍ و لا علىٰ معصيةٍ بل ذكر الوعد و الوعيد على ما يتّعلق به من طاعةٍ أو معصيةٍ و حكم المذكورين فيهم في سورة التّوبة بخلافه لأنّه تعالى قال بعد قوله: **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ** الى قوله: **وَ هُمْ كَافِرُونَ**(١) فإختلاف أحكامهم يدلّ على إختلافهم و قد حكينا عن سعيد بن جبير أنّ هذه الآية نزلت في هوازن يوم حنين.

و قال الضّحاك هُم ثقيف و قال قتادة هم هوازن و ثقيف.

و أمّا الوجه الّذي يسلم معه أنّ الدّاعي غير النّبي فهو أن نقول الدّاعي أميرالمؤمنين لأنّه قاتل بعد الرّسول أهل الجمل و صفين و أهل النّهروان و بشَّره النّبي بقتالهم بعده و كانوا أولي بأسٍ شديد فأن قالوا، من قتلهم عليٌّ كانوا مسلمين و فى الآية قال تقاتلونهم أو يسلمون فكيف تتناولهم الآية.

قلنا أوّل ما نقوله أنّهم غير مسلمين عندنا، و لا عند من خالفنا من المعتزلة لأنّ عندهم صاحب الكبيرة ليس بمؤمنٍ و لا مسلم و أمّا مذهبنا في تكفير من قاتل عليّاً عليه‌السلام فمعروفٌ و قد ذكرناه في كتب الإمامة لقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **يا علّي حربك حربى**، و غير ذلك من الأخبار و الأدلّة الّتي ذكرناها في غير موضعٍ وإستوفينا ما يتعلّق بذلك في كتاب الإمامة و يمكن على تسليم أن يكون الدّاعي هو أبو بكر و عمر أن يقال ليس في الآية ما يدلّ على مدح الدّاعي على

١- التّوبة = ٨۴ الى ٨۶

إمامته لأنّه قد يدعوا الى الحقّ من ليس عليه و يجب ذلك من حيث كان واجباً من أجل دعاء الدّاعي و أبو بكر دعاهم الى الدّفاع عن الإسلام و هذا واجب على كلّ واحدٍ لا دعاء داعٍ و يمكن أن يكون المراد بقوله: **سَتُدْعَوْنَ** دعاء اللّه لهم بإيجاب القتال عليهم لأنّه إذا دلَّهم على وجوب قتال المرتدّين و دفعهم عن بيضة الإسلام و قد دعاهم الى القتال و وجبت عليهم طاعته و الكلام في هذه الآية كالّتي قبلها في إنّا إذا قلنا لا تدلّ على إمامة الرّجلين لا تكون طاعنين عليهما بل لا يمتنع أن يثبت فضلهما و إمامتهما بدليلٍ آخر غير الآية لأنّ المحصلين من العلماء يذهبون الى إمامتهما من جهة الأخبار لا من هذه الآية و قوله: **تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** بالرّفع معناه أنّ أحد الأمرين لابدّ أن يقع لا محالة و تقديره، أو هم يسلمون و قرئ شاذّاً بالنّصب و الوجه فيه حتّى يسلموا ولو نصبه فقال: **أَوْ يُسْلِمُونَ** لكان دالاً على أنّ ترك القتال من أجل الإسلام إنتهى ما ذكره الشّيخ في التّبيان في جواب الخصم و حلّ الإشكال من الآية و أنمّا نقلنا كلامه بطوله و تفصيله لأنّ ما ذكره ﷺ حقٌّ حقيقٌ بالإتّباع أجاب و أجاد و لا كلام لنا بعد كلامه ﷺ.

و نحن نقول العجب من صاحب الكشّاف حيث إستدلّ على صحّة خلافة أبى‌بكر و عمر بهذه الآية و لم يعلم أنّ الخطابات القرآنية لم تكن منحصرة بالحاضرين الموجودين حين الخطاب بل المخاطب بالآية في الحقيقة هو النّوع الى يوم القيامة فقوله تعالى: **قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ** ليس معناه قل للمخلّفين من الأعراب الموجودين في زمانك ستدعون الى قومٍ أولي بأسٍ شديد بمعنى عدم شموله الأعراب بعدهم بل معنى الكلام قل للمخلّفين من الأعراب الحاضرين منهم و الغائبين الى يوم القيامة كذا و كذا.

و حاصل الكلام أنّ اللّه تعالى بصدد بيان حكم كليٍّ لمن تقاعد عن الجهاد أو لم يتقاعد الى يوم القيامة فالآية لا تدلّ على مطلوبه و على فرض التسليم و

الغضّ عمّا ذكره الشّيخ في التّبيان و ما ذكرناه نقول الإمامة و الخلافة لا تثبت بما ذكروه بل هي تحتاج الى النّص الصّريح من النّبي و هو الأصل في الباب إذ لولا النصّ من المستخلف عنه فهو خليفة النّاس لا خليفة الرّسول و الخصم لا يقول به في أبي بكر و عمر و غيرهما هذا مع أنّ الإمام بعد الرّسول له شرائط مذكورة في موضعه و للبحث فيه مقام آخر فأنّ دليل الخصم أوهن من بيت العنكبوت و إلاّ يلزم أن يكون معاوية و عبد الملك و غيرهما من خلفاء الرّسول لأنّهم دعوا الأعراب الى الجهاد بعد النّبي و العاقل لا يقول به.

■

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمٰى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ
رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ
وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذٰابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَضِيَ
ٱللّٰهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ
أَثٰابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهٰا
وَ كٰانَ ٱللّٰهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللّٰهُ
مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَ كَفَّ
أَيْدِيَ ٱلنّٰاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ اٰيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ
يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَ أُخْرٰى لَمْ
تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا قَدْ أَحٰاطَ ٱللّٰهُ بِهٰا وَ كٰانَ ٱللّٰهُ
عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَ لَوْ قٰاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا
نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ
لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي كَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرٰامِ وَ ٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ
مَحِلَّهُ وَ لَوْلَا رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰآءٌ مُؤْمِنٰاتٌ
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ

بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ لَوْ
تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿۲۵﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ
حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَ
كَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿۲۶﴾ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِالْحَقِّ
لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ
مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ
مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا
﴿۲۷﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا ﴿۲۸﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَيٰهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
ٱلتَّوْرَيٰةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطْـَٔهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ
يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿۲۹﴾

◀ اللُّغة

ٱلْأَعْمَىٰ: إفتقاد البصر.

حَرَجٌ: أصل الحرج مجتمع الشّيْ و تصوّر منه ضيقٌ ما بينهما فقيل للضّيق حرج وللإثم حرج.

ٱلْأَعْرَجِ: العرج أفة تعرض لرجلٍ واحدة و يقال له بالفارسّية (لنگ).

وَ أَثَٰبَهُمْ: الإثابة تستعمل في المحبوب تستعمل في المكروه على سبيل الإستعارة.

كَفَّ: الكّف المنع.

مَعْكُوفًا: المعكوف الممنوع من الذّهاب و منه الإعتكاف تَزَيَّلُوا (تزيلوا) أي تفرّقوا.

حَمِيَّةَ: الحميّة الأنفة.

شَطْـَٔهُۥ: الشّطأ فراغ الزّرع الّذى ينبت في جوانبه، شاطئ النّهار جانبه.

فَـَٔازَرَهُۥ: أي عاونه يقال أزر النَّبت و أزرته مثل رجع و رجعتُه هما لغتان و قال أبوعبيدة، أزره، ساواه فصار مثل الأمّ.

سُوقِهِۦ: و هو جمع ساق و ساق الشّجرة حاملة الشّجر و هو عوده الّذي يقوم عليه.

◀ الإعراب

وَ أُخْرَىٰ مبتدأ و لَمْ تَقْدِرُوا صفته و قَدْ أَحَاطَ الخبر وَ ٱلْهَدْيَ هو معطوف أي و صدُّوا الهدى مَعْكُوفًا حال من الهدى أَنْ تَطَـُٔوهُمْ في موضع رفع بدلاً من رجال بدل الإشتمال فَتُصِيبَكُمْ معطوف على تطئوا و بِغَيْرِ عِلْمٍ حالٌ من الضّمير المجرور أو صفة لمعرّةٍ لَعَذَّبْنَا جواب، لو تزيّلوا و جواب، لولا، محذوف حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ بدل بِالْحَقِّ يتعلّق، بصدّق أو حال من الرُّؤيا

ءَامِنِينَ حال و مُحَلِّقِينَ حال أخرى لَا تَخَافُونَ حال مؤكّدة مُحَمَّدٌ هو مبتدأ و رَسُولُ ٱللَّهِ خبره و يجوز أن يكون رسول اللّه صفة و أَشِدَّآءُ الخبر و رُحَمَآءُ خبر ثانٍ سِيمَاهُمْ مبتدأ و فِي وُجُوهِهِمْ الخبر مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ حال من الضّمير في الجارّ وَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ معطوف على المثل الأوّل و على هذا فالكاف في موضع رفع أي هم كزرعٍ، أو في موضع نصب على الحال عَلَىٰ سُوقِهِ حال و مِنْهُمْ لبيان الجنس تفضيلاً لهم بتخصيصهم بالذّكر و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

الآية نزلت في الجهاد، يجب على كلّ مكلّفٍ حرٍّ، ذكر، غير همٍّ و لا أعمى و لا مقعد و هو الأعرج مريضٍ يعجز عن الرّكوب و العدو و لا فقير يعجز عن نفقة عياله و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ أي إثم في ترك الجهاد و لا على الأعرج و أن وجد مطيّة و لا على المريض، ظاهر إطلاق الحكم تعليقه على مسمّى المرض و له وجهٌ و لكن تحديده بما يشقّ عليه الرّكوب و المشي أو العدو مشقّةً لا يحمل مثلها عادةً أوجه، و الحقّ أنّ الأعمى هو من لا يبصر بجارحة العين، و الأعرج الّذي برجله أفة تمنعه من المشي، و المريض من به علّة تمنعه من الحركة من إضطرابٍ في البدن حتّى يضعف و تحصل فيه ألام، بيّن اللّه تعالى أنّ هؤلاء المذكورين في الآية الّذين بهم هذه الأفات لا حرج عليهم في تركهم الجهاد مع المؤمنين.

وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ في أوامره و نواهيه يُدْخِلْهُ أي يدخله اللّه جنّات تجري من تحتها الأنهار و من يتولّ، التّولي الإعراض و من المعلوم أنّ

المراد الإعراض عنه من غير عذرٍ عقليٍ أو شرعيٍّ يعذّبه، أي يعذّبه اللّه يوم القيامة عذاباً مؤلماً.

لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا

هذه بيعة الرّضوان و كانت بالحديبيّة و نحن ذكرنا قصّة الحديبيّة، و أمّا في المقام فنقول:

ذكر صاحب الكشّاف أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين نزل الحديبيّة بعث جواسّ إبن أمّية الخزاعي رسولاً إلى مكّة فهمّوا به فمنعه الأحابيشى فلمّا رجع دعا به عمر ليبعثه فقال إنّي أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إيّاهم و ما بمكّة عدّويٌ يمنعني و لكنّي أدلّك على رجلٍ هو أعزّ بها و أحبَّ إليهم عثمان بن عفان فبعثه فخبّرهم أنّه لم يأت بحربٍ و أنّما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته فوقّروه و قالوا أن شئت أن تطوف بالبيت فإفعل فقال ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و إحتبس عندهم فأرجف بأنّهم قتلوه فقال رسول اللّه لا نبرح حتّى نناجز القوم و دعا النّاس إلى البيعة فبايعوه تحت الشّجرة و كانت سمرة قال جابر بن عبد اللّه لو كنت أبصر لأريتكم مكانها كان رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جالساً في أصل الشّجرة و على ظهره غصنٌ من أغصانها قال عبد اللّه بن المقفل و كنت قائماً على رأسه و بيدي غصنٌ من الشّجرة أذبّ عنه فرفعت الغصن من ظهره فبايعوه على الموت و على أن لا يفرّوا فقال لهم رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنتم خير أهل الأرض و كان عدد المبايعين ألفاً و خمس مائة و خمسة و عشرين و قيل ألفاً و أربع مائة و قيل ألفاً و ثلاث مائة.

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ من الإخلاص و صدق الضّمائر فيما بايعوه عليه **فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ** أي الطّمأنينة و الأمن بسبب الصُّلح على قلوبهم **وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** و قرئ (وأتاهم) و هو فتح خيبر بعد إنصرافهم من مكّة إلى أخر ما

قال إنتهى ما أردنا نقله عنه من قصّة بيعة الرّضوان و قد نقلها القرطبي أيضاً في تفسيره لهذه الآية بوجهٍ أبسط إن شئت الوقوف عليه فراجع كتابه إذا عرفت هذا فنقول:

إعلم أنّ بيعة الرّضوان ممّا لا كلام فيه لأحدٍ من المسلمين لأجل هذه الآية الّتي هي صرَّحت بوقوعها، و أيضاً لا كلام لأحدٍ في أنّها وقعت في الحديبيّة، و أنت ترى أنّ الآية أخبرت بوقوعها و أمّا إثبات الفضيلة لبعض المسلمين المبايعين على بعضٍ أخر فالآية ساكتةٌ عنه بل يظهر منها أنّ المبايعين جميعاً رضي اللّه عنهم بسبب البيعة و مع ذلك إستدلّ جمع من علماء العامّة بها على فضل أبي بكر على غيره بدليل أنّه كان من المبايعين تحت الشّجرة و أنّ اللّه رضي عنه و أنزل السَّكينة عليهم و أنّه لما في قلوبهم من الإيمان و أثابهم فتحاً قريباً فالفضل ثابتٌ له و من كان كذلك فلا قدح في خلافته لأنّ المفروض أنّه ممّن رضي اللّه عنه و علم ما في قلبه من الإيمان و أنزل السَّكينة عليه.

و الجواب عنه أنّ أصل الفضيلة لأصحاب النّبي في بيعة الرّضوان ممّا لا كلام فيه إجمالاً و أمّا أنّ الفضيلة ثابتة لجميعهم فلا تدلّ الآية عليه إلاّ على القول بالعموم و قد ثبت أنّه لا صيغة للعموم ينفرد بها و به قال كثير من المخالفين فمن أين ثبت للمستدلّ أنّه أريد بها العموم و على هذا كانت الآية عندنا مجملة لا يعلم المعنى بها و قد بايع النبيّ جماعة من المنافقين بلا خلاف حتّى في بيعة الرّضوان فلابدّ من تخصيص الآية على كلّ حالٍ.

و قوله تعالى: رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ لا يدلّ على العموم لما ذكرناه بل أتى بضمير الجمع من باب التّغليب و هذا لا ينافي وجود المنافقين فيهم، و قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: **أنتم خير أهل الأرض)** لا يثبت مدّعا المستدلّ كما مدح الرّسول الأنصار في كثيرٍ من المواضع و لا شكّ لأحدٍ أنّ بعض الأنصار كانوا من المنافقين كما إذا قيل أهل المدينة خير أهل الأرض، ليس معناه أنّه لا يوجد فيهم منافق أو كافر.

و قوله تعالىٰ: **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** و هو عمدة أدلّتهم أيضاً لا يفيد و لا يثبت المدّعى إلاّ على تفسير صاحب الكشّاف حيث قال في معناه من الإخلاص و صدق الضّمائر فيما بايعوه عليه، تفسير بالرّأى. و قد قال رسول اللّه ﷺ: **مَن فَسَّر القرأن برأيه فليُتبَوّأ مَقعَده من النّار**، و من أين علم الزّمخشري، أنّ علم اللّه ما في قلوبهم الإخلاص و صدق الضّمائر، اللّهم إلاّ أن يقال أوحى اللّه إلى صاحب الكشّاف أنّ المراد ما ذكره من الإخلاص و صدق الضّمائر.

قال رسول اللّه ﷺ: **من لا حياء له لا دين لَه**، أليست الآية دالّة على أنّ اللّه علم ما في قلوب المبايعين من الإيمان و النّفاق أو الخوف من العدوّ و عدمه، ولو كان المراد ما ذكره لقال علم اللّه ما في قلوبهم من الإيمان و الإخلاص و لم يقل ذلك لعلمه تعالى بأنّ كثيراً منهم لولا أكثرهم من المنافقين و كيف يعقل أن لا يكون بينهم منافقاً مع كثرة عددهم.

و قوله: **فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** أي على المؤمنين منهم لا على جميعهم و على فرض نزولها على جميهم معناه أنزل الطّمأنينة و الثّبات على قلبوهم لئلاّ يخافوا من كثرة الأعداء و محصّل الكلام أنّ قوله: **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** من حيث المعنى مجملٌ و اذا كان كذلك فالفضل في الآية ثابت لمن علم اللّه ما في قلبه من الإيمان و الإخلاص و أمّا أنّه من هو فهو يحتاج إلى الإثبات هذا كلّه مضافاً إلى أنّ اللّه تعالى ذكر أوصاف المبايعين تحت الشّجرة في الأيات.

و من المعلوم أنّها لم تحصل في جميع المبايعين فوجب أن يختصّ الرّضا من اللّه تعالى بمن جمع الصّفات فيه و لا خلاف بين أهل النّقل أنّ الفتح في قوله: **وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** هو فتح خيبر الذّي حصل لهم بعد بيعة الرّضوان بلا فصل.

و أنّ رسول اللّه عند ذلك قال: لأعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ اللّه و رسوله و يحبّه اللّه و رسوله كرّاراً غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح اللّه

على يديه، و هو علّي بن أبي طالب عليه السلام فوجب أن يكون هو المخصوص بحكم الآية و هو المطلوب.

إن قلت ظاهر قوله تعالىٰ: **رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ** أنّ اللّه رضي عن جميعهم لأنّهم كانوا مؤمنين باللّه واقعاً و هو يدلّ على عدم وجود المنافق فيهم.

قلت أمّا أوّلاً فأنّ اللّه خصّ الرّضا في الآية بالمؤمنين و أمّا أنّ جميع المبايعين كانوا مؤمنين فالآية لا تدلّ عليه لعدم وجود لفظٍ فيها يفيد العموم و الدّليل على ما ذكرناه وجود الزُّبير و طلحة فيهم و هما من رؤوس أصحاب النبّي على قول الخصم كيف و هما بزعمهم من العشرة المبشّرة و لا خلاف في نفاقهما لأنّهما نكثا بيعتهما لأمير المؤمنين بعد عثمان و قد وقع منهما في حرب الجمل ما خرجا به من الإيمان و فسقا عند جميع المعتزلة و من جرى مجراهم من العامّة.

و أمّا عندنا فقد كفرا و رجعا عن الدّين لقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لعلّي عليه السلام: ياعلّي حربك حربي.

و من المعلوم أنّ حرب الرّسول حرب اللّه و هو كما ترى و نظائرهما كثيرة فكيف يقول صاحب الكشّاف في تفسير قوله تعالى: **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ** من الإيمان و الإخلاص و للبحث فيه مقام أخر.

وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا جزء ٢٦

هذا معطوف على قوله فتحاً قريباً، أي و أثابهم فتحاً قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها، و المراد به فتح خيبر بإتّفاق المفسّرين لأنّه وقع بعد الحديبيّة بلا فصلٍ بينهما و كانت الغنائم في خيبر كثيرة جدّاً من الأموال و الأراضي و قد قسّمها رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بينهم على ما ذكره المؤرّخون و قد أجرى اللّه تعالى هذا الفتح على يد أميرالمؤمنين عليه السلام بعد دعاء الرّسول **لأعطينّ الرّاية غداً**

رجلاً يحبّ اللّه و رسوله و يحبّه اللّه و رسوله كرّاراً غير فرّارٍ لا يرجع حتّى يفتح اللّه على يَده و قد أجاب اللّه دعوة الرّسول و قرَّ عينيه بالفتح على يد إبن عمّه الّذي قتل مرحباً و قلع باب خيبر إلى أخر ما نقله المؤرّخون ولذلك إشتهرعليه‌السلام بفاتح خيبر، و لعمري أنّ ما قاله الرّسول في حقّ علّيعليه‌السلام من أشرف الفضائل و لا سيّما قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ويُحبّه اللّه ورسُوله و أيّة فضيلةٍ أحسن من أن يكون العبد محبوباً للّه و رسوله و لنعم ما قال الشّاعر فيه:

فقلت أمّا علّيٌ أيةُ خلقت و اللّه أظهرها للنّاس في رجلٍ
مخيفة بعلّيٍ ثمّ ألحقها بذي الفقار و فيه قبصته الأجل
ما سلّه و رحاء الحرب دائرةٌ إلاّ و أغمده في هامة البطل
فأصاح في الجيش صوتاً ثمّ أتبعه أنا علّيٌ تولّى الجيش منجفلٍ

وَ كَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أي قادراً و قاهراً و عالماً بمصالح الأمور فأنّ الحكيم من يضع الشّيئ في محلّه و اللّه تعالى كذلك في جميع أفعاله.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا

يقول اللّه تعالى: وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً فعجّل لكم هذه، أي هذه الغنيمة الّتي غنمتموه من خيبر من أنواع الغنائم، و بعبارةٍ أخرى الغنائم الموعودة ليست منحصرة بغنائم خيبر فأنّ بعدها أيضاً غنائم في الحروب وَ كَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنْكُمْ الكفّ المنع يعني أنّ اللّه تعالى منع أيدي النّاس عنكم فلم يغلبوكم قيل المراد بالنّاس، أسد و غطفان فأنّهم كانوا مع خيبر فصالحهم النّبي فكفّوا عنه و قيل يعني اليهود كفّ أيديهم عنكم بالمدينة من قبل الحديبيّة و مجيئ قريش فلم يغلبوكم، و قيل أهل مكّة، كفّ أيديهم عنكم بالصُّلح، كفّ أيدي المشركين بالحديبيّة و الأقوال كثيرة و الجامع كفّ اللّه تعالى أيدي أعدائكم عنكم، و الغرض من ذكر هذا الكلام و ما قبله و ما بعده

هو أنّ اللّه تعالى أنعم عليكم بأنواع النّعم الماديّة و المعنويّة و قد ثبت عقلاً و شرعاً أنّ شكر المنعم واجبٌ فقوله: **مَغَانِمَ كَثِيرَةً** إشارة إلى النّعم المادّية الّتي تحتاجون إليها في معيشتكم فبذلك نجوتم من الفقر و الإستيصال الّذي كنتم فيه قبل الفتح، و فى قوله: **كَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ** إشارة إلى العزّ بعد الذلّ و خروجكم من الخوف إلى الأمن. **قد قال رسول اللّه** صلّى الله عليه وآله وسلّم **نعمتان مجهولتان الصِّحة و الأمان.**

و فى قوله: **وَ لِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ** فالآية العلامة الّتي تستدلّ بهما على الطّريق و المعنى تستدلُّون بهما على صحَّة قولكم و ليعلم النّاس أنّ عزَّ الدُّنيا و الآخرة في الإيمان باللّه و رسوله و فى قوله: **وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا** إشارة إلى لطفه تعالى و عنايته بالمؤمنين الّذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ أستقاموا عليه حيث يهديهم إلى الصّراط المستقيم الّذي قال لنّبيه **وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** و قد ورد في أخبار أهل البيت أنّ الصّراط المستقيم ولاية أميرالمؤمنين و الأئمة المعصومين.

وَ أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها و عجّل لهم غنائم خيبر، وعدهم في هذه الآية بالغنائم الأخر بعد غنائم خيبر فقال تعالى شأنه **وَ أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** أي و غنيمة أخرى لم تقدروا على تحصيلها، قيل المراد بها غنائم فارس و الرُّوم.

و قال قتادة في مكّة (قد أحاط بها) أي قدر عليها و أحاط بها علماً فجعلهم بمنزلة ما أدبر، و قيل المراد معنى (قد أحاط اللّه بها علماً) أعدّها لكم فهي كالشَّئ الّذي قد أحيط به من جوانبه فهو محصورٌ لا يفوت فأنتم و أن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم، و قيل معناه علم أنّها ستكون

لكم، و قيل حفظها اللّه لكم، و المعنى واضح فأنّ اللّه خالق الأشياء و الخالق محيطٌ بمخلوقه علماً و قدرةً.

وَ لَوْ قٰاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيرًا

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ الّذين كفروا، و هم قوم قريش، و قيل غطفان و أسد و الّذين أرادوا نصرة أهل خيبر **لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبٰارَ** منهزمين بخذلان اللّه إيّاهم و نصرته إيّاكم **ثُمَّ لاٰ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيرًا** يدفع عنهم، لأنّ اللّه تعالى وعد أولیائه النّصر و أعدائه الذّلة و الحقارة و فی الآية تـوية لقـلوب المـؤمنين المخلصين بأنّ **حِزبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُون** ففي الآية إشارة بل دلالة على من يتوكل على اللّه فهو حسبه.

سُنَّةَ ٱللّٰهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلًا

يعني أنّ سنّة اللّه و طريقته و عاداته السّالفة قد جرت بنصر أوليائه على أعدائه ولن تجد لسّنة اللّه تبديلاً أبداً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلّا مِنْ عِنْدِ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰآءُ**(٣) والآيات كَثيرة.

وَ هُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا

و قيل المراد ببطن مكّة الحديبيّة، و قيل يريد به مكّة بدليل قوله تعالى: **بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** و على هذا فالآية نزلت بعد فتح مكّة و فيها دليلٌ على أنّ مكّة فتحت صلحاً لقوله عزَّ و جّل وكفَّ أيديهم عنكم، أخبر اللّه في هذه الآية

١- أل عمران = ١٢٦ ٢- الرُّوم = ٤٧

٣- أل عمران = ١٣

أنّه كفَّ أيديهم، يعني أيدي الكفّار عن المسلمين وكفَّ و منع أيدي المسلمين عنهم أيضاً.

روي عن أنس أنّه قال أنّ ثمانين رجلاً من أهل مكّة هبطوا على النّبي ﷺ من جبل التّنعيم متسلّحين يريدون عزّة النّبي ﷺ و أصحابه فأخذناهم سلماً فأستحييناهم فأنزل اللّه تعالى: **وَ هُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**.

و قال عبد اللّه بن مقفّلي المزني كنّا مع النّبي ﷺ بالحديبيّة في أصل الشّجرة الّتي قال اللّه فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابّاً عليهم السّلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم النّبي فأخذ اللّه بأبصارهم فقال لهم رسول اللّه ﷺ هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحدٌ أماناً قالوا اللّهم لا فخلّوا سبيلهم فأنزل اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ** و ذكر إبن هشام عن وكيع أنّه قال، كانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين و إنتهاز الفرصة في أطرافهم ففطن المسلمون لهم أخذوهم أسرى و كان ذلك و السُّفراء بينهم يمشون في الصُّلح فأطلقهم رسول اللّه ﷺ فهم الّذين يسمّون العتقاء و منهم معاوية و أبوه.

و قال مجاهد أقبل النّبي ﷺ معتمراً إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين فأرسلهم النّبي ﷺ فذلك الأظفار ببطن مكّة.

و قال الكلبي هم أهل الحديبيّة كفّ اللّه أيديهم عن المسلمين حتّى وقع الصُّلح و كانوا خرجوا بأجمعهم و قصدوا المسلمين و كفَّ أيدي المسلمين عنهم و نقل المفسّرون في تفاسيرهم أقوال كثيرة لا فائدة في نقلها.

و قوله: **وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** معناه واضح لأنّه تعالى يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصُّدور فضلاً عن أعمال العباد.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَ ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَآءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا باللّه و رسوله وهم كفّار قريش **وَ صَدُّوكُمْ** أي منعوكم **عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** في الحديبيّة و صدّوكم أن تعتمروا و تطوفوا بالبيت **وَ ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** المعكوف المحبوس، و قيل الموقوف يقال عكفه و وقفه، و **المَحِلّ** بكسر الحاء غاية الشّيء و بفتحها الموضع الّذي يحلّه النّاس، و بعبارة أخرى، **مَحَلّ** بفتح الحاء إسم مكانٍ أي مكان الحلول و بكسر الحاء غاية الشّيء و مقصده.

و قرأ المشهور بالكسر و عليه المصاحف و قريء بالفتح أيضاً. فعلى قراءة الكسر معنى الكلام و الهدي معكوفاً أي محبوساً أن يبلغ محلّه أي غايته و مقصده و الغاية فيه الذّبح بمكّة، و على قراءة الفتح معناه أن يبلغ المحلّ الّذي يحلّ نحره فيه، و بعبارةٍ أخرى منحره، و ذلك لأنّ هدي العمرة لا يذبح إلاّ بمكّة كما أنّ هدي الحج لا يذبح إلاّ بمنى **وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ** باللّه **وَ نِسَآءٌ مُؤْمِنَاتٌ** كذلك و قيل المراد بالرّجال في الآية المستضعفون منهم من المؤمنين بمكّة وسط الكفّار و النّساء كذلك **لَمْ تَعْلَمُوهُمْ** أي لم تعرفوهم، أو لم تعرفوهم أنّهم مؤمنون **أَنْ تَطَؤُهُمْ** بالقتل و الإيقاع بهم، فقوله: **لَمْ تَعْلَمُوهُمْ** نعتٌ لرجال و نساء و جواب لولا محذوف و التّقدير، ولولا أن تطئوا رجالاً مؤمنين و نساءً مؤمنات لم تعرفوهم لأذن اللّه لكم في دخول مكّة و لسّلطكم عليهم و لكنّا صنّا من كان فيها بكتم إيمانه.

و قال الضّحاك لولا في أصلاب الكفّار و أرحام نسائهم من رجال مؤمنين و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوا أبائهم فتهلك أبناءهم.

أقول ما قاله الضّحاك بعيدٌ لا يمكن حمل كلام اللّه عليه لأنّ ما ذكره من الملاك موجود في جميع الحروب و قوله: **فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ** المعرَّة العيب و هى مفعلة من العرّ و هو الحرب أي يقول المشركون أنّ المسلمين قتلوا أهل دينهم، و قيل المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفّارة قتل الخطأ و هى عتق رقبة مؤمنة و من لم يقدر فصيام شهرين متتابعين و هو كفّارة قتل الخطأ في دار الحرب.

و محصلّ الكلام في الآية لولا المؤمنون من الرّجال و النّساء في مكّة لم تعلموهم لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم، فهذه الآية إشارة إلى علّة الصُّلح و أنّ المصلحة كانت فيه لا في الحرب و هو كذلك و لذلك فالمراد بقوله تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا** هو الصُّلح و أىّ فتح أنفع و أصلَح منه.

لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا أي لو تميّز المؤمنون منهم، و قيل لو تفرّقوا **لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** من أهل مكّة عذاباً أليماً، أي مؤلماً بالسّيف و القتل، و قيل المعنى لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفّار لعذّب الكفّار بالسّيف ولكنّ اللّه يدفع بالمؤمنين عن الكفّار.

وإعلم أنّ قراءة العامّة لو تزيّلوا، و عليها المصاحف و قرئ شاذّاً **تَزَيَّلُوا** فرق في المعنى بينهما.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

الحَمِيَّة بفتح الحاء و كسر الميم و فتح الياء المشدَّدة، فعيلة و هى الأنفة يقال حميت عن كذا حميّةً بالتّشديد و محّمية إذا أنفت منه و داخلك عارٌ و آنفه إن تفعله، قال الزُّهري حميّتهم أنفسهم من الإقرار للنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرّسالة، و الإستفتاح ببسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، و منعهم رسول اللّه من دخول مكّة، و

قال إبن‌بحر حميّتهم عصبيّتهم لإلهتهم الّتي كانوا يعبدونها من دون اللّه و الاءنفة من أن يعبدوا غيرها، و قيل حميّة الجّاهلية أنّهم قالوا قتلوا أبناءنا و اخوانا ثمّ يدخلون علينا في منزلنا و اللاّت و العزّىٰ لا يدخلهما أبداً.

و قال الرّاغب في المفردات الحمى الحرارة المتولِّدة من الجواهر المحميّة كالنّار و الشّمس و من القوّة الحاّرة في البدن و عبّر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت و كثرت بالحميّة فقيل حميت على فلان أي غضبت عليه إنتهى موضع الحاجة من كلامه و ما ذكره هو الحقّ و نضيف الى ما ذكره أنّ منشأ الحمّية الكبر لا مجرّد الغضب إذا عرفت هذا فقوله تعالى: **إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** و هم مشركوا العرب **فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ** معناه أنّهم أنكروا نبوّة الرّسول بعد إنكارهم التّوحيد لأجل الحميّة و العصبيّة الّتي كانت في قلوبهم مكنونة من عهد الجاهلية و ذلك لأنّهم كانوا يقولون نحن أشرف و أفضل من محمّد فكيف نتّبعه و نطيعه فيما يقول لنا و أنمّا أضاف اللّه الحميّة الى الجاهليّة لأنّ منشأها الجهل و الحماقة و حيث أنّهم كانوا قبل البعثة من الجُهال فقال تعالى: **حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ** و أنمّا قال ذلك لأنّهم لم يعلموا أنّ شرف الإنسان و فضله ليس بالمال و الحياة و كثرة الأولاد و الأفراد و أنمّا هو بالعلم و الصِّدق و الأمانة و أمثالها من الفضائل و هذه الحميّة كانت في قلوبهم حتّى بعد ظهور الإسلام و إيمانهم ظاهراً باللّه و رسوله و إستمرّت فيها الى زمانا هذا لأجل هذا لم يقبلوا إمامة علّي بن أبي طالب و خلافته بعد الرّسول ألا ترى أنّ أبا عبيدة و إبن عوف و أمثالهم قالوا لعلّي بعد موت الرّسول و تعيينهم أبا بكر للإمامة و الخلافة، يا بن عمّ أنّك حدث السِّن و أبو بكر من مشائخ القوم الى آخر ما قالوا و ليس هذا إلاّ حميّة الجاهليّة **فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** أي فعل اللّه به من اللُّطف و الشّفقة و الغاية الخّاصة، ما سكنت اليه نفسه و صبر على الدُّخول تحت ما أرادوه منه **وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** أي و فعل ذلك

بالمؤمنين الّذين آمنوا باللّه و رسوله من إنزال السّكينة عليهم **وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوىٰ وَ كٰانُوٓا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا** أي و ألزم اللّه المؤمنين كلمة التّقوى، و إختلف المفسّرون في معنى المراد بها.

فقال إبن عبّاس هي قوله: **لاٰ اِلٰه اِلاّ اللّٰه، مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللّٰهِ.**

و قال مجاهد هي كلمة الإخلاص، و قيل **لاٰ اِلٰه اِلاّ اللّٰه وَ اَللّٰهُ أَكْبَر**، و قيل **لاٰ اَله اِلاّ اللّٰه وَحْدَهُ لاٰ شَرِيكَ لَه لَهُ الْمُلْكَ وَ لَهُ الْحَمْدِ وَ هُوَ عَلىٰ كُلَّ شَيٍ قَدِير، و قيل، بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم**، يعني أنّ المشركين لم يقرؤا بهده الكلمة فخصّ اللّه بها المؤمنين و الأقوال كثيرة.

و الّذي نقول في المقام هو انّ كلمة التّقوى، كلمة التّقوى لا غيرها و هى فعل الطاعات و اجتناب المحرّمات يعنى ينبغى للمؤمن الّذى آمن باللّه و رسوله أن يعمل و لا يقنع بالإيمان اللّفظي و لا نعني بالتّقوى إلاّ العمل بمقتضى الإيمان، و لذلك قال تعالى: **كٰانُوٓا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا** أي و من أحقّ بالتّقوى من المؤمن، و من أهل التّقوى إلاّ المؤمن **وَ كٰانَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا** لا يخفى عليه شئ لأنّه عالم بالسّر و العلن و الظّاهر و الباطن و قد مضىٰ الكلام في هذا الباب فيما سلف مفصّلاً.

لَقَدْ صَدَقَ ٱللّٰهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرٰامَ إِنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ اٰمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا

اللاّم في قوله: **لَقَدْ** للقسم أقسم اللّه تعالى أنّ النّبي صادقٌ في قوله أنّه رأى في المنام أنّه يدخل هو و المؤمنون المسجد الحرام و أنّه لا بدّ من كون ذلك قال قتادة رأى رسول اللّه ﷺ في المنام أنّه يدخل مكّة على هذه الصّفة فلمّا صالح قريشاً بالحديّبية إرتاب المنافقون حتّى قال رسول اللّه ﷺ أنّه يدخل مكّة فأنزل اللّه هذه الآية فأعلمهم أنّهم سيدخلونها في غير ذلك العام و

أنّ رؤيا الرّسول حقٌّ، و المشهور بين المفسّرين أنّ الرّؤيا كانت في الحديبيّة و قال قومٌ كانت في المدينة قبل أن يخرج منها الى الحديبيّة و أنّه أخبر بذلك أصحابه فخرجوا و فرحوا بذلك و حسبوا أنّهم داخلون في مكّة في عامهم ذلك فلمّا صدّوا قال المنافقون ما خلفنا و لا قصّرنا و لا دخلنا المسجد حتّى قال عمر ما شككت مذ أسلمت إلاّ يومئذٍ فأنزلت الآية و كان دخولهم في العام القابل و أمّا تعليق الدُّخول على المشّيئة في قوله: **اِن شاءَ اللّه** فقيل معناه أمركم اللّه بهما لأنّ مشيئة اللّه تعالى بفعل عباده هو أمره به قاله البلخى.

و قال قوم هو تأديبٌ لنا كما قال: **وَ لا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنّى فاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا، إِلّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللّهُ**[١] و قوله: **اٰمِنِينَ** أي بلا خوفٍ عليكم من أعدائكم.

مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ الظّاهر من الآية أنّ الحلق و التّقصير من مناسك الحجّ و العمرة و يعلم كونه واجباً من البيان الواردة من معدن الوحي الإلهي و هو المعروف من مذهب الأصحاب بل قال العلامة في المنتهى على ما نقل عنه أنّ كونه نسكاً واجباً كون علماؤنا أجمع و نسب إلى الشّيخ قدّس سرّه أنّه مندوبٌ غير واجب و لم يظهر لنا صحّة هذا القول و قد رأيت في بعض مؤلّفات أصحابنا أنّ الشّيخ قال به في التّبيان و نحن لم نجده فيه و اللّه أعلم.

و كيف كان فالقول المشهور هو المتّبع و وقته يوم النّحر بعد ذبح الهدي و حصوله في رحله و عن أبي الصّلاح أنّه جوّز تأخيره إلى أيّام التّشريق، يجب الجمع بين الحلق و التّقصير معاً و لا يستجبّ و على هذا فتعيّن أن يكون الواو في قوله تعالى: **وَ مُقَصِّرِينَ** بمعنى أو، و المعنى بعضكم محلّقين و بعضكم مقصّرين و يعلم ذلك من النّص و الإجماع و تفصيل ذلك في المناسك **لَا تَخافُونَ** من الأعداء **فَعَلِمَ** اللّه ما لم تعلموا، من المصالح، و قيل معنى الكلام، فعلم اللّه و علم النّبي من دخولهم إلى سنة ما لم تعلموا معاشر المؤمنين، و

١- الكهف = ٢٤

قيل معناه أنّ بمكّة رجال مؤمنين و نساءٌ مؤمنات لم تعلموهم **فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** و هو فتح خيبر و قيل هو فتح الحديبيّة.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ اللّه **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ** إلى الخلق **بِٱلْهُدَىٰ** قيل يعني بالدّليل الواضح و الحجّة و البيّنة **وَ دِينِ ٱلْحَقِّ** و هو الإسلام الّذي هو فوق جميع الأديان السّماوية فأنّ الإسلام يعلوا و لا يعلى عليه و فى قوله: **كُلِّهِۦ** إشارة الى علوّ مقام الإسلام و رفعة شأنه و أنّه لا دين فوقه و ذلك لجامعيّة الإسلام جميع ما يحتاج إليه البشر في أمر دينه و دنياه إلى يوم القيامة و لذلك قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ، وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**[١].

و هذه الآية من أدلّ الدّلائل على المدّعى و أنّه أجمع و أكمل من جميع الأديان و الرّسول الّذي جاء به من عند اللّه أيضاً أفضل الأنبياء و أمّته أفضل الأمم و أحكامه أحسن الأحكام و بالجملة هو الدّين الّذي لا ثاني له و لا ناسخ له إلى يوم القيامة **وَ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا** أي شاهداً على ما ذكره لأنّه تعالى بدينه و الأحكام المودَّعة فيه.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَ ٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا

١- آل عمران = ٨۶

مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ أرسله اللّه إلى خلقه ليهديهم إلى الحقّ كما أرسل قبله من الأنبياء **وَ ٱلَّذِينَ** أمنوا باللّه و رسوله **أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ** أي غلاظٌ عليهم كالأسد على فريسته وأشِدّاء بفتح الهَمزَة و كسر الشّين و تشديد الدّال مثل أطبّاء و طبيب و كونهم أشدّاء على الكفّار معناه يقاتلونهم و يجاهدونهم **رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** أي يرحم بعضهم بعضاً، أثبت اللّه تعالى للمؤمنين الشّدة على الكفّار و الترحّم و التّعاطف بينهم و فيه إشارة إلى مواساتهم لأنّ المؤمن أخو المؤمن **تَرَيٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** و هو كناية عن كثرة صلواتهم و لا شكّ أنّ الصّلاة أفضل العبادات و أشرف القربات و أحسن الأذكار و الأوراد و الأفعال للعبد و في قوله: **رُكَّعًا سُجَّدًا** إشارة إلى تواضعهم خصَّهما بالذِّكر من بين الأفعال و الأذكار الواردة في الصّلاة و إلى هذا المعنىٰ أشارت بضعة الرّسول فاطمة الزّهراء عليها السلام في خطبة فدك.

و قالت: أنّ اللّه تعالىٰ جعل الإيمان لكم تنزيهاً من الشِّرك و الصّلاة تنزيهاً عن الكبر.

و صار الشّيطان مطروداً بتركه السّجُد لأدم و إذا كان كذلك فما ظنّك بتارك الصّلاة هذا إذا كان الرّكوع و السّجود للّه تعالى خالصاً لوجهه الكريم و إلاّ مجّرد الرّكوع و السُّجود لا خير فيهما كما في أصحاب النّهروان و أكثر المسلمين في صدر الإسلام إلى زماننا هذا فأنّ الصّلاة معراج المؤمن لا معراج المصلّي كيف إتّفقت و للبحث فيه مقام أخر.

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَانًا أي أنّهم يطلبون بصلاتهم و ركوعهم و سجودهم فضلاً و رحمةً من اللّه تعالى و هو دليلٌ على إخلاصهم و أنّهم يصلّون للّه تعالى لا للرّياء و السُّمعة كما هو شأن المنافق.

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ أي أنّ أثر صلاتهم و عبادتهم يظهر في وجوههم و قيل هو ما يظهر في وجوههم من السّهر باللّيل و قيل

علامة نورٍ يجعلها اللّه في وجوههم يوم القيامة **ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ** أي وصفهم كأنّه مثلهم في التّوراة و أمّا **وَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنْجِيلِ** أي وصفهم اللّه في الإنجيل **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ** أي وهم كزرعٍ و شطئه، يعني فراخه و أولاده قال الجوهري ٍشطأ الزَّرع و النَّبات فراخه و الجمع أشطاه يقال أشطاء الزَّرع خرج شطؤه.

و قال الأخفش، أخرج شطاه أي طرفه قال الزّجاج أشطأ الزَّرع فهو مشطئ إذا خرج، و هذا مثلٌ ضربه اللّه لأصحاب النّبي يعني أنّهم يكونون قليلاً ثمّ يزدادون و يكثرون فكان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتّى قوى أمره و ذلك كالزَّرع يبدوا بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حالٍ حتّى يغلظ نباته و أفراخه فكان هذا من أصحّ مثلٍ و أقوى بيانٍ.

و قال قتادة، مثل أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في الإنجيل مكتوبٌ أنّه سيخرج من قوم ينتهون نبات الزّرع يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر إنتهى ما ذكره بعض المفسّرين في وجه التشّبيه.

أقول فهم الكلام لا يحتاج إلى هذه التكلُّفات و ذلك لأنّ وجه الشَّبه في هذا التّشبيه ظاهرٌ لا خفاء فيه، و هو أنّ اللّه تعالى شبَّه نبيَّه بالزَّرع و شبَّه المؤمنين الَّذين وصفهم في هذه الآية بشطأ الزَّرع و هو فروخه و جوانبه و حواليه فالنبّي بمنزلة الأصل و المؤمنون بمنزلة الفرع فقوله تعالى: **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ** يعني انّ النبّى كزرعٍ أخرج شطأه و هذا ظاهر لا إبهام فيه.

فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ الأزر، القوّة الشّديدة، و أزره أي أعانه و قوّاه و أصله من شَدَّ الازار، يقال أزرته فتّأزر أي شدَّت إزاره و أزرت البناء قوَّيت أسافله، و تأزّر النَّبات طال و قوي إذا عرفت هذا فقوله: **فَـَٔازَرَهُۥ** أي قوّاه و شدَّه و بعبارةٍ أخرى قوّي الشَّطأ

الزَّرع و قيل بالعكس أي قوّي الزَّرع الشَّطأ **فَاسْتَغْلَظَ** أي صار غليظاً بإجتماع الفراخ مع الأصول **فَاسْتَوٰى** أي صار مثل الأمّ و هو الزّرع **عَلٰى سُوقِهِ** هو جمع ساق و ساق الشَّجرة حاملة الشّجرة و هو عوده الّذي يقوم عليه قصبة كما قوّي النّبي بأصحابه و قوله: **يُعْجِبُ ٱلزُّرّاعَ** يعني الّذين زرعوا ذلك الزَّرع **لِيَغيظَ بِهِمُ ٱلْكُفّارَ** أي ليغيظ بالنّبي و أصحابه الكفّار.

قال بعض المفسّرين في وجه ضرب هذا المثل بالزّرع الّذي أخرج شطأه هو أنّ النّبي حين ناداهم إلى دينه كان ضعيفاً ثمّ بعد ذلك كثر جمعه و قوي أمره كالزَّرع.

و قال البلخى: **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفّارَ نَباتُهُ**[١] والمراد بالزُّراع الكُفّار لأنّهم يعجبون ممّا يرونه من كثرة المسلمين في مدّةٍ قليلة و محصلّ الكلام في الآية أنّ الدّين كان في بدو الأمر ضعيفاً غريباً ثمّ قويت أركانه بحيث كان الكفّار يعجبون من قدرة الإسلام و شوكته كما تشهد به التّواريخ.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **بدأ الإسلام غريباً و سيعود غريباً**، صدق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فأنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله كما أنّ الزَّرع الّذي أخرج شطأه أيضاً يرجع إلى أصله، و للبحث فيه مجال واسع إلاّ أنّه خارجٌ عن موضوع الكتاب.

■

١- الحَديد = ٢٠

سُورَةُ ٱلْحُجُرٰاتِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحيمِ

يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذينَ اٰمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بيْنَ يَدَيِ ٱللّٰهِ وَ
رَسُولِهِ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ سَميعٌ عَليمٌ ﴿١﴾ يٰآ
أَيُّهَا ٱلَّذينَ اٰمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوٓا أَصْواٰتَكُمْ فَـوْقَ
صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ
تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ يَغُضُّونَ أَصْواٰتَهُمْ عِنْدَ
رَسُولِ ٱللّٰهِ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ ٱمْتَحَنَ ٱللّٰهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوٰى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذينَ
يُنٰادُونَكَ مِـنْ وَرٰآءِ ٱلْـحُجُرٰاتِ أَكْـثَرُهُمْ لاٰ
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
لَكٰانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴿٥﴾ يٰآ أَيُّهَا
ٱلَّذينَ اٰمَنُوٓا إِنْ جٰآءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَنْ
تُصيبُوا قَوْمًا بِجَهٰالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلٰى مٰا فَعَلْتُمْ
نٰادِمينَ ﴿٦﴾ وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ ٱللّٰهِ لَوْ
يُطيعُكُمْ في كَثيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْايمٰانَ وَ زَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ

إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَ ٱلْفُسُوقَ وَ ٱلْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ
ٱلرّٰاشِدُونَ «٧» فَضْلًا مِنَ ٱللّٰهِ وَ نِعْمَةً وَ ٱللّٰهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٨» وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰيهُمٰا
عَلَى ٱلْأُخْرىٰ فَقٰاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتّٰى تَفِيءَ
إِلىٰ أَمْرِ ٱللّٰهِ فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ
وَ أَقْسِطُوا إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ «٩» إِنَّمَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ ٱتَّقُوا
ٱللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «١٠» يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ
يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا
مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لاٰ تَنٰابَزُوا
بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمٰانِ وَ
مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظّٰالِمُونَ «١١» يٰا أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ
«١٢» يٰا أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ
وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ «١٣» قٰالَتِ
ٱلْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا

أَسْلَمْنا وَ لَمّا يَدْخُلِ ٱلْايمانُ في قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ
تُطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ
شَيْئًا إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ
جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ ٱللّٰهِ
أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللّٰهَ
بِدِينِكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ ما فِي ٱلسَّمٰواتِ وَ ما فِي
ٱلْأَرْضِ وَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ
بَلِ ٱللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰيكُمْ لِلْايمانِ إِنْ كُنْتُمْ
صادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰواتِ وَ
ٱلْأَرْضِ وَ ٱللّٰهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

◀ اللّغة

تَحْبَطَ: الحبط البطلان يقال حبط عمله إذا بطل.

ٱلْحُجُراٰتِ: بضمّ الحاء و الجيم جمع حجرة، بضمّ الحاء مثل غرفة و غرفات و الحجرة البيت.

لَعَنِتُّمْ: يقال أعنتُ فعنت، أعنت الرَّجل إذا حملت عليه عامداً لما يكره، و قيل العنت بسكون النون المشقّة.

فَإِنْ بَغَتْ: البغي طلب التَّجاوز عن الحدّ و قد يعبّر عنه بالظُّلم.

تَفِيٓءَ: أي ترجع، الفيء الرّجوع.

فَاۤءَتْ: أي رجعت.

وَ أَقْسِطُوا: القسط العدل.

وَ لَا تَلْمِزُوا: اللّمز هو الرّمي بالعيب لمن لا يجوز أن يؤذى بذكره و أمّا مجرّد ذكر العيب فليس بلمز.

وَ لَا تَنَابَزُوا: قال أبو عبيدة الإنباز و الألقاب واحد فالنّبز القذف باللّقب.

لَا يَلِتْكُمْ: أي لا ينقصكم و لا يظلمكم، يقال ألته السّلطان حقّه أشدّ الألت و هى لغة غطفان ولغة أسد، و قرئ، و لا يألتكم أيضاً و المعنى واحد.

◀ الإعراب

لَا تُقَدِّمُوا قيل المفعول محذوف أي لا تقدّما لا يصلح أُولَٰئِكَ مبتدأ و ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ خبره لَوْ يُطِيعُكُمْ يجوز أن يكون في موضع الحال و العامل فيه الإستقرار فَضْلًا مفعول له مَيْتًا هو حال من اللّحم أو من أخيه يَلِتْكُمْ يقرأ بهمزة بعد الياء أيضاً كما مرَّ في شرح اللّغات، و ماضيه، ألت و يقرأ بغير همزٍ و ماضيه لات، و المصاحف على هذه القراءة فعلاً، و هما لغتان و فيه لغة ثالثة و هى ألات يليت و هى شاذّة.

◀ التّفسير

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الخطاب للمؤمنين الّذين أمنوا باللّه و رسوله و المعنى لا تقدّموا قولاً و لا فعلاً بين يدي اللّه و رسوله فيما تأخذوه عنه في أمر الدّين و الدّنيا و من قدّم قوله أو فعله على قول الرّسول و فعله فقد قدّمه على اللّه لأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأمر عنه وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ أمرهم أن يتّقوا اللّه بإجتناب معاصيه و أن يفعلوا طاعاته إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لما يقولونه و يضمرونه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

إختلف المفسّرون في شأن نزول الآية على أقوال كثيرة مدّونةٌ في التّفاسير:

فمنها، ما نقله القرطبي عن الواحدي من حديث إبن جريح قال حدَّثني إبن أبي مليكة أنّ عبد اللّه بن الزُّبير أخبره أنّه قدم ركبٌ من بني تميم على رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال أبوبكر أمر القيقاع بن معبد و قال عمر أمر الأقرع بن جالس فقال أبوبكر ما أردت إلاّ خلافي و قال عمر ما أردت خلافك فتماديا حتّى إرتفعت أصواتهما فنزل في ذلك **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** إلى قوله: **حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ** رواه البخاري عن الحسن بن محمّد بن الصَّباح و ذكره المهدّوي أيضاً إنتهى كلام القرطبي ثمّ ذكر وجوهاً كثيرة لا نحتاج إلى ذكرها فمن أراد الوقوف على أقوالهم فعليه بكتبهم.

و نقل الشّيخ قُدِّسَ سِرُّهُ في التّبيان عن مجاهد و قتادة، قالا، جاء أعرابٌ أجلاف من بني تميم فجعلوا ينادون من وراء الحجرات يامحمّد أخرج إلينا فنزّلت.

إن قلت أيّ إشكالٍ في رفع الصَّوت عند النّبي و لم نهاهم اللّه عنه علمنا أنّ بعض الأشخاص جهورّي الصَّوت طبعاً.

قلت أنّ العادة جارية أنّ من كلَّم غيره و رفع صوته فوق صوته أنّ ذلك على وجه الاستخفاف به فلذلك نهاهم عنه و أمّا من كان بمقتضى طبعه جهوريّ الصَّوت فهو خارج عن النّهي ثمّ أنّ الجهر ظهور الصَّوت بقوّة الإعتماد و منه الجهارة في المنطق ونقيض الجهر الهمس.

و قوله: **أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** أي إن فعلتم ما نهيتكم عنه تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون، و لا تعلمون و ذلك لمخالفتكم أوامر اللّه و نواهيه و كلّ عملٍ نهى الشّارع عنه فهو باطل و رفع الصَّوت من هذا القبيل لأنّه غالباً على وجه الإستخفاف كما بيّنّاه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ

أي أنّ الّذين يخفضون أصواتهم عند رسول اللّه و الخفض ضدّ الرّفع، **أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ** أي أنّهم متّصفون بها، **لَهُم مَّغْفِرَةٌ** من اللّه **وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ** أي و لهم أجرٌ جزيل عنده في الأخرة لكونهم مستحقّين للمغفرة و الأجر عند خالقهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

قال مجاهد و غيره نزلت الآية في أعراب بني تميم قدم الوفد منهم على النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدخلوا المسجد و نادوا النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من وراء حجرته «أن أخرج إلينا فأنّ مدحنا زينٌ و ذمّنا شينٌ» و كانوا سبعين رجلاً قدّموا الفداء ذراري لهم النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نام للقائلة و روي أنّ الّذي نادى الأقرع بن حابس و أنّه القائل، (أنّ مدحي زينٌ و أنّ ذمّي شينٌ) فقال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذاك اللّه ذكره التّرمذي عن البراء بن عازب أيضاً و روي زيد بن أرقم فقال أتىٰ أناسٌ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال بعضهم لبعضٍ إنطلقوا بنا إلى هذا الرّجل فأن يكن نبيّاً فنحن أسعد النّاس بأتّباعه و أن يكن ملكاً نعش في جناحه فأتوا النّبي فجعلوا ينادونه و هو في حجرته يا محمّد، يا محمّد فأنزل اللّه هذه الآية قيل أنّهم كانوا من بني تميم قال مقاتل كانوا تسعة أو عشرة، قيس بن عاصم، و الزّبرقان بن بدر، و الأقرع بن حابس، و سويد بن هاشم، و خالد بن مالك، و عطاء بن حابس، و القعقاع بن معبد، و وكيع بن وكيع، و عنيبة بن حصين، و هو الأحقّ المطاع، و كان من الجرّارين يجرّ عشرة آلاف قناة أي يتبّعه و كان إسمه حذيفة و سمّي عنيبة الشّتر كان في عينيه.

و روي أنّهم وفدوا وقت الظُّهر و رسول اللّه راقد فجعلوا ينادونه يا محمّد أخرج إلينا فأستيقظ صلى الله عليه وآله وسلم و خرج و نزلت الآية قيل هم جفاة بني تميم فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **لولا أنّهم من أشّد النّاس قتالاً لدعوت اللّه عليهم أن يهلكهم** هذا ما قيل في نزول الآية و اللّه أعلم.

و أمّا تفسير ألفاظ الآية فنقول **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ** الخطاب للرّسول يعني ينادونك يا محمّد **مِنْ وَرَآءِ ٱلْحُجُرٰتِ** أي من وراء البيوت فأنّ الحجرة الرَّفعة من الأرض المحجورة بحائطٍ يحوط عليها و قرأ أبو جعفر القعقاع، **الحُجَرات** بفتح الجيم إستثقالاً للضّمتين، و قريء **الحُجْرات** بسكون الجيم و كيف كان فالمراد بها بيوت النبّي صلى الله عليه وآله وسلم و قوله: **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** فالوجه فيه واضح لأنّ من لا أدب له لا عقل له و أكثر النّاس كذلك حتّى في زماننا هذا و هو دليل على جهلهم و إنّما قال أكثرهم لأنّ جميع النّاس ليسوا كذلك ثمّ أشار اللّه تعالى إلى دواء هذا الدّاء.

فقوله: **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ** بدون النّداء **لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** من النّداء من وراء الحجرات و ذلك لأنّ في النّداء من وراء الحجرات إيذاءٌ للنّبي و هو من المحرّمات مضافاً إلى أنّه من سوء الأدب فهو شرٌّ و أمّا ترك النّداء و الصّبر حتّى يخرج النّبي فيه ثوابٌ عند اللّه و شرفٌ و كرامة عند الخلق و هو خيرٌ، و أمّا قوله: **وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ففيه إشارة إلى من فعل ذلك ندم و تاب عمّا فعل فاللّه تعالى يغفر له و يدخله في رحمته الواسعة فأنّ رحمته وسعت كلّ شيءٍ و هو الّذي يغفر الذُّنوب جميعاً و هو ظاهرٌ.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ

إتّفق المفسّرون على أنّها نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لمّا بعثه رسول اللّه في صدقات بني المصطلق خرجوا يتلقُّونه فرحاً به و إكراماً له فظنّ

أنّهم همُّوا بقتله فرجع إلى النَّبي ﷺ فقال أنّهم منعوا صدقاتهم و كان الأمر بخلافه قاله إبن عبّاس و مجاهد و قتادة و غيرهم.

و قال بعض المؤرّخين إنّما فعل ذلك، لأحنَّةٍ كانت بينه و بينهم، فرجع إلى النَّبي و قال أنّهم قد إرتدّوا عن الإسلام، فأنطلق خالد بن الوليد بأمرٍ من رسول اللّه ﷺ إليهم و أمره ﷺ أن يتثبّت و لا يعجّل، فأتاهم خالد، ليلاً فبعث عيونه فلّما جاءوا أخبروا خالداً أنّهم متمسّكون بالإسلام و سمعوا آذانهم و صلاتهم فلمّا أصبحوا أتاهم خالد و رأى صحَّة ما ذكروه و أخبروه به، فَعاد خالد إلى نبّي اللّه فأخبره فنزلت هذه الآية فكان يقول النّبى: **التّأني من اللّه والعجلة من الشّيطان.**

و في روايةٍ لمّا أخبر الوليد رسول اللّه أنّهم قد إرتدُّوا همَّ النبّي بغزوهم فبينما كذلك اذ قدم وفدهم على رسول اللّه و قالوا يا رسول اللّه أنّا خرجنا إليه لنكرمه و نؤدّي إليه صدقاتنا فإستَّمر راجعاً فأنزل اللّه هذه الآية و سمّي الوَليد فاسقاً أي كاذباً، و قيل الفاسق المعلن بالذَّنب، و قيل الّذي لا يستحيي من اللّه.

أقول الفسق خروجٌ عن حجر الشّرع و ذلك من قولهم فسق الرُّطب إذا خرج عن قشره و هو أعمّ من الكفر و الفسق يقع بالقليل من الذّنوب و الكثير لكن تعورف فيما كان كثيراً و أكثر ما يقال الفاسق لمن إلتزم حكم الشّرع و أقرَّ به ثمّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه قاله الرّاغب في المفردات.

و لمّا نزلت الآية في الوليد و سمّاه اللّه في الآية فاسقاً إشتهر بذلك في أصحاب الرّسول فكانوا يقولون وليد الفاسق و كان خمّاراً زانياً هتّاكاً و بالجملة ما من فسقٍ إلاّ أنّه إرتكبه و لذلك ولاّه عثمان بن عفّان على الكوفة و صلّى بالنّاس أربع ركعات بالصُّبح ولمّا سئل عن ذلك قال لهم لو شئتم أزيدكم.

و قصّته طويلة و نسبه مخدوشة و هو في الفسق كان أشهر من كفر إبليس و نظائره كثيرة في أصحاب النّبي و لذلك قال القرطبي في تفسيره ما هذا لفظه:

قلت فالصّحابة كلّهم عدول أولياء اللّه تعالى و أصفياءه و خيرته من خلقه بعد أنبياءه و رسله هذا مذهب أهل السّنة و الّذي عليه الجماعة من أئمّة هذه الأمّة و قد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أنّ حال الصّحابة كحال غيرهم فيلزم البحث عن عدالتهم و ساق الكلام إلى أن قال إذا كانت تلك الأمور مبنيّة على الإجتهاد إذ كلّ مجتهدٍ مصيب إنتهى ما أردنا نقله منه(١).

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف إلى هذه الكلمات العارية عن المعنى الّتي لا يقول بها إلاّ من لا عقل له، فلو كانت الصّحابة كلّهم عدول من أولياء اللّه و أصفياءه و خيرته من خلقه فكيف حكم اللّه تعالى في الآية بفسق الوليد من أولياءه و أصفياءه و خيرته من خلقه بعد أنبياءه، أليس تفسيق العادل الصفّي من الفسق و بعبارةٍ أخرى من حكم بفسق العادل الصفّي فهو فاسق لأنّه كاذبٌ في قوله و الكذب من أظهر مصاديق الفسق نعوذ باللّه من هذه الهفوات الّتي ألقاها الشّيطان في قلبه، اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الآية نزلت في فرعون و نمرود و أمثالهما لا في الوليد الّذي إتّفقوا على أنّه من الصّحابة لأنّه كان مجتهداً و كلّ مجتهدٍ مصيبٌ، إلاّ أنّهم لا يقولون به و للبحث في هذه الأمور مقام أخر و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول:

قوله تعالى: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا** الخطاب للمؤمنين بأنه **إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ** و هو الخارج عن طاعة اللّه و الدّاخل في طاعة الشّيطان **بِنَبَإٍ** أي بخبرٍ من الأخبار **فَتَبَيَّنُوٓا** أي تفحّصوا في حاله لتعلموا صدقه من كذبه **أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ** أي لئلا تصيبوا، أن، في محلّ النّصب بإسقاط الخافض، قوماً بجهالةٍ أي بخطأٍ **فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ** و النّدامة بعد العمل لا فائدة فيها، و لذلك إشترطوا في الشّاهد أن يكون عادلاً فلو شهد ألف فاسق عند القاضي لا إعتناء بقولهم لأنّ الفسق أخرجهم عن قبول شهادتهم و العجب

١- ج ١٦ ص ٢٩٩

أنّ الشّافعي و نظراؤه أجازوا إمامة الفاسق في الصّلاة، لا يؤتمن على حبَّة مالٍ كيف يصحّ أن يؤتمن على قنطار دين.

و الذّي يستفاد من الآية أنّ التبيّن لازم في خبر الفاسق و هو الّذي أظهر فسقه في النّاس و أمّا من لم يظهره فيحكم بأنّه عادلٌ فلا يجب التبيّن في خبره أو شهادته و هو كذلك و عليه إجماع الفقهاء و بعبارةٍ أخرى عدم العلم بالفسق يكفي في قبول الخبر و الحكم بعدالة المخبر، و لا يشترط العلم بالعدالة واقعاً لأنّ أحكام الإسلام على الظّاهر كما أنّ عدم العلم بنجاسة الماء يكفي في الحكم بطهارته و هكذا سائر الأحكام و هذا ممّا امتنّ اللّه تعالى على عباده دفعاً للعسر و الحرج.

وَ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَ ٱلْفُسُوقَ وَ ٱلْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ. فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

فضلاً من اللّه و نعمةً و اللّه عليمٌ حكيمٌ يعني **وَ ٱعْلَمُوٓا**، معاشر المؤمنين **أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ** أي أنّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في جماعتكم و معكم **لَوْ يُطِيعُكُمْ** الرّسول **فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** قيل في معناه لو فعل الرّسول ما تريدونه في كثيرٍ من الأمور لعنتّم أي أصابكم عنتٌ و مكروه و قيل معنى الكلام لو تسارع النّبي إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقّة و إثم فأنّه لو قتل القوم الّذين سعى بهم الوليد بن عقبة و أخبر الرّسول بإرتدادهم لكان خطأً و لعنت من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوةٍ كانت بينه و بينهم و معنى طاعة الرّسول لهم الإئتمار بما يأمر به فيما يبلّغونه عن النّاس و السّماع منهم قاله بعض المفسّرين.

و قال الزّمخشري في الكشّاف ما هذا لفظه:

و المعنى أنّ فيكم رسول اللّه على حالةٍ يجب عليكم تغييرها، أو أنتم على حالةٍ يجب عليكم تغييرها و هى أنّكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى رأيكم فعلي المطواع لغيره التّابع له فيما يرتئيه المحتذى على أمثلته ولو فعل ذلك **لَعَنِتُّمْ** أي لوقعتم في العنت و الهلاك و ساق الكلام في معنى العنت إلى أن قال و هذا يدّل على أنّ بعض المؤمنين زيّنوالرسول اللّه ﷺ الإيقاع ببني المصطلق و تصديق قول الوليد و أنّ نظائر ذلك من الهنئات كانت تفرط منهم إلى أخر ما قال إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول أنّ المفسّرين قد أطالوا الكلام في معنى الآية و هو دليل على أنّهم عدُّوها من المعضلات و الّذي نفهم منها أنّها ليست كذلك بمعنى أنّه لا خفاء في معناها و ذلك لأنّ اللّه حكم في هذه الآية بوجوب متابعة الرّسول قولاً و فعلاً للمؤمنين باللّه و رسوله و عدم متابعة الرّسول إيّاهم في الأمور بقولٍ مطلق و لذلك قال في كثيرٍ من الأمر و لم يقل في جميع الأمور فقوله تعالى: **لَوْ يُطِيعُكُمْ** أي لو يجيئكم الرّسول في كثير من الأمور لعنتُّم، و أنّما قلنا ذلك لأنّ الطّاعة يراعى فيها الرُّتبة فلا يكون المطيع مطيعاً لمن دونه و أنّما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به ألا ترى أنّه لا يقال في اللّه تعالى أنّه مطيعٌ لنا إذا فعل ما أردناه، و يقال فينا إذا فعلنا ما أراده اللّه أنّه مطيع و حيث أنّ النّبي فوقنا فلا يكون مطيعاً لنا فإطلاق ذلك على الرّسول مجاز و لذلك قلنا معنى يطيعكم يجيئكم، ثمّ أنّ إجابة الرّسول لهم في كثيرٍ من الأمور توجب المشقّة لهم و إيذائهم و ذلك لأنّهم لا يريدون إلاّ ما إشتهت إليه أهوائهم و أميالهم النفسانيّة فلو أجابهم الرّسول فيما طلبوه منه أو دعوه إليه لوقعوا في العنت و المشقّة قطعاً و هو خلاف المصلحة فالحقّ متابعتهم إيّاه لا متابعة ﷺ إيّاهم، ففيه حثٌّ على الطّاعة و الإنقياد لهم كما قال تعالى: **وَ مَآ ءَاتَيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا**[1].

١- الحشر = ٧

و أمّا قوله تعالى: **لٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** إلى أخر الأية. فمعناه أنّ اللّه تعالى بلطفه و عنايته جعل الإيمان محبوباً لكم و زينه في قلوبكم كما أنّ الشّيطان حبَّب الكفر إلى الكفّار و زيَّنه في قلوبهم بوسوسته و المراد بتحبيب الإيمان و تزيينه في القلوب أنّه تعالى عرَّفكم محاسن الإيمان و ما يترتّب عليه من الثّواب في الأخرة و لذلك قبلتموه بإختياركم كما هو شأن العاقل و ليس معناه أنّه خلق الإيمان في قلوبكم كما تقول به الأشاعرة القائلين بالجبر و أنّ الإيمان و الكفر مخلوقان في قلوب النّاس بحيث لا يقدر الكافر على الإيمان و لا المؤمن على الكفر فأنّ هذا الكلام مع أنّه منافٍ للتّكليف، مقالة الجهّال.

و إن شئت قلت، المراد بالتَّحبيب و التَّزيين التَّوفيق فالمؤمن يُبّ الإيمان و يكره الكفر و الفسوق و العصيان بإختياره و توفيق من اللّه.

و قوله: **أُولٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ** يعني أولئك الّذين وفَّقهم اللّه للإيمان و العمل بمقتضاه، هم الرّاشدون المهتدون إلى طريق الحقّ.

و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **فَضْلًا مِنَ ٱللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ففي هذه الآية عرَّف اللّه الرّاشدين الّذين حبَّب إليهم الإيمان و زيَّنه في قلوبهم أي أنّ الّذي أعطيناهم من التّوفيق إلى الإيمان كان فضلاً و رحمةً من اللّه و نعمةً أنعمهم اللّه بها وَ **ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** أي عالم بالمصالح و الأشياء كلّها، حكيمٌ في جميع أفعاله، و هذا حقّ لا مرية فيه إذ لا نعمة بعد نعمة الإيجاد أفضل و أحسن من نعمة الإيمان باللّه و رسوله و العمل بمقتضاه.

وَ إِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰيهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرٰى فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتّٰى تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِنْ فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ

الطّائفة تتناول الرّجل الواحد و الجمع و الإثنين، و طائفة الشّئ القطعة منه، قال تعالى: **وَ إِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا** قيل نزلت الآية في الأوس و الخزرج و هما طائفتان من أنصار المدينة فعن سعيد بن جبير أنّ الأوس و الخزرج كان بينهم على عهد رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قتال بالسّيف و النّعال و نحوه فأنزل اللّه هذه الآية فيهم.

و قال الكلبي نزلت في حرب سمير و حاطب و كان، سمير، قتل حاطباً فإقتتل الأوس و الخزرج حتّى أتاهم النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فنزلت و أمر اللّه نبيّه و المؤمنين أن يصلحوا بينهما، و الأقوال كثيرة و الحقّ أن يقال أنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي في الإسلام و هو أنّه إذا وقع قتال بينهم بأيّ دليلٍ كان و من أيّة فرقةٍ كانت، فيجب على غيرهم من المؤمنين أن يصلحوا بينهما سواء كان القتال في عهد النّبي أم لم يكن و فيه إشعار بأنّ الإصلاح بين المؤمنين من أهمّ الفرائض و أوجب الواجبات لأنّه يوجب حفظ الدّماء و الأعراض كما أنّ القتال يوجب إراقة الدّماء و إيجاد العداوة و البغضاء و لذلك قال تعالى: **وَ إِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** بأيّ نحوٍ مُمكنٍ **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَيٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ** البغي التّعدي و التّجاوز إلى حقّ الغير وأن يطلب ما لا يجوز له، و الإحتمالات في المقام ثلاثة:

الأوّل: أن يكون الباغي أحدهما.

الثّاني: أن يكون كليهما.

الثّالث: عدم البغي منهما.

لا سبيل إلى الثّالث لأنّ المفروض أنّ القتال وقع بينهما فلو لم يكن البغي فيهما فلم وقعا في القتال فالأمر يدور بين الأوّل و الثّاني.

و الثّاني أيضاً خارج عن البحث و الآية لا تشمله لأنّ البغي إذا كان في الطّائفتين فهما ظالمان معاً كقتال الكفّار مع الكفّار فلا يجب الصُّلح بينهما بل

ينبغي تركهما و قتالهما كما قيل اللّهم إشغل الظّالمين بالظّالمين و ذلك لأنّ الظّالم لا قيمة له كما وقع القتال بين أل مروان و بني العبّاس فلا يجب على المؤمنين الصُّلح بينهما لأنّ موت الظّالم أنفع للنّاس من حياته و بقاءه بل نقول ذرهم في خوضهم يلعبون، و إذ إنتفى الإحتمالان بقي الأوّل و هو بغي أحدهما على الأخر بمعنى أن تكون إحدى الطّائفتين من البغاة دون الأخرى و هذا معنى قوله: **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَيٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ** و ذلك كحرب الجمل و النّهروان و صفيّن أعني بهم النّاكثين و المارقين و القاسطين فأنّ الباغي في هذه الحروب إحدى الطّائفتين قطعاً و أنّما عبّرنا عنهم بالبغاة، لأنّ أصحاب الجمل نكثوا العهد و نكث العهد ظلم.

و أمّا أصحاب النّهروان فقد مرقوا و خرجوا عن الدّين بتكفيرهم أميرالمؤمنين و هو ظلم، و أمّا معاوية و أصحابه فأنّهم أظهروا كفرهم بقتالهم أميرالمؤمنين و هو ظلمٌ، فهؤلاء من أظهر مصاديق البغي و أيُّ بغي أفحش و أشنع من بغيهم و هم كانوا يطلبون ما لا يجوز لهم و هو الخلافة و الإمامة.

و أمّا قول علماء العامّة أنّهم إجتهدوا و أخطأوا أحياناً فلا ذنب لهم لأنّ كلّ مجتهدٍ مصيب فهو كلام لا طائل تحته و لا يفيد الخصم لأنّهم لم يفهموا معنى الإجتهاد فكيف إجتهدوا مضافاً إلى أنّ الإجتهاد في الأحكام الفرعيّة لا في حرب من قال رسول اللّه ﷺ: **في حقّه ياعلّي حربك حربي و سلمك سلمي إلى أخر ما قال**، و أمّا قولهم كلّ مجتهدٍ مصيب، فهو من كلام المجانين لا من كلام العقلاء كما قرّر في الأصول.

فأن قلت ليس مرادهم من الإجتهاد معناه المصطلح بين الفقهاء من أنّه عبارة عن إستنباط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة عن أدلّتها فأنّ الإجتهاد بهذا المعنى لم يوجد لهؤلاء البغاة الّذين كانوا لا يعلمون الهرّ من البرّ بل المراد الإجتهاد بالمعنى اللُّغوي و هو الجدّ و الجهد و أن شئت قلت:

بذل الوسع في الوصول إلى المراد و هؤلاء كانوا مجتهدين بهذا المعنى فأنّهم بذلوا وسعهم و طاقتهم في كيفيّة البلوغ إلى آمالهم فلم يجدوا إلاّ ما فعلوا من إيقاد نار الحرب و إيجاد الفتنة و الفساد في الأرض.

قلت هذا لا يسمّىٰ بالإجتهاد إذ الإجتهاد بهذا المعنى كان موجوداً في جميع الظّالمين قبل الإسلام و بعده، فأنّ أبا جهل حارب رسول اللّه لإجتهاده فهو مصيب و هكذا عتبة و شيبة و عمرو بن عبدود وأمثالهم كلّهم إجتهدوا فرأوا أنّ الحرب أولى و هكذا معاوية و أي فرقٍ بين أبو جهل و معاوية إلاّ أنّه لم يسلم أصلاً و معاوية أسلم ظاهراً و أبطن الكفر واقعاً فلمّا وجد أنصاراً لنفسه أظهر ما في بطنه و هكذا غيره فأنّه قد ثبت عندنا أنّ محاربي علّي كانوا كفرة، لقول رسول اللّه: **حربك حربي** و العجب من القرطبي حيث أطنب الكلام في تفسيره لهذه الآية و أتعب نفسه في إثبات عدالتهم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً و لم يعلم أنّ ذنب معاوية و أصحاب النّهروان و الزّبير و طلحة و نظرائهم أعظم من أن يغفر يوم القيامة لأنّ من حارب عليّاً عليه السلام فقد حارب الرّسول حارب الرّسول فقد حارب اللّه و من حارب اللّه فجزاءه جهنّم و بئس المصير ألم يعلم هذا الرّجل أنّ من رضى بفعل قومٍ فهو منهم، ألم يعلم من أحبَّ حجراً حشره اللّه معه، و لولا مخافة الخروج عن موضوع الكتاب لقلنا في جوابه ما يستحّقه و لكنّا نختم الكلام و نقول اللّهم أحشره معهم بمحمّدٍ و آله الطّاهرين.

و أمّا قوله تعالى: **فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** أي بين الطّائفتين لأنّ إصلاح ذات البين مرّغبٌ فيه عقلاً و شرعاً **فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ** أي فأن لم يقبل أحداهما الصُّلح و بغت على الطّائفة الأخرى فقاتلوا الّتي تبغي، لأنّها هي الظّالمة المتعديّة دون الأخرى فيجب عليكم ردعها و منعها عن التّعدي حتّى تفيْ أي ترجع الى أمر اللّه و هو

الصُّلح أو ترك القتال **فَإِنْ فَآءَتْ** أي رجعت و تابت و أنابت الى طاعة اللّه و قبول الحقّ **فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ** فلا تميلوا على واحدةٍ منهما دون الأخرى **وَ أَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** يعني العادلين فأنّ العدل أقرب للتّقوى.

و محصلّ الكلام في هذه الآية هو أنّه يجب على المؤمن أن يكون للظّالم خصماً و للمظلوم عوناً و منه يظهر أنّ الّذين قعدوا في بيوتهم و لم ينصروا أميرالمؤمنين عليه‌السلام في حرب الجمل و النّهروان و صفّين، أمثال سعد و عبداللّه بن عمر و محمّد بن مسلمة و أسامة و غيرهم من القاعدين عن الجهاد و دفع الشّر عن الإسلام و المسلمين، كانوا مذنبين مقصّرين لأنّهم لم يقاتلوا الّتي كانت تبغي حتّى تفئ الى أمر اللّه بإجتهادهم على قول القرطبي و لم يعلموا أنّ الإجتهاد لا يقابل النصّ و هذا التّقاعد عن الجهاد لدفع شرّ الظّالمين صار باعثاً على تسلّط معاوية و أمثاله على الإسلام و المسلمين.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

يعني، **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** في الدّين لأنّ المؤمن أخو المؤمن، و إذا كان كذلك فينبغي لكلّ مؤمنٍ أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه و يبغض له ما يبغض لها كما هو مقتضى الأخوّة و أمّا قوله: **فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** فهو من ثمرات الأخوّة.

و قد قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصّلوات و الصّيام حتّى أنّ الإسلام أجاز الكذب للمصلح لأجل الإصلاح.**

وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ بإجتناب معاصيه و الإتيان بالأعمال الصالحة لعلّكم ترحمون، أي لكي ترحمون.

يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْايمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلظّٰالِمُونَ

نهى اللّه تعالى في هذه الآية عن أمورٍ ينبغي للمؤمن باللّه و اليوم الأخر مراعاتها و الإجتناب عنها فخاطب المؤمنين و قال: **لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ** الى قوله: **مِنْهُنَّ** نهى اللّه المؤمنين و المؤمنات عن السخريّة و الإستهزاء و ذلك لأنّ السخريّة توجب تحقير المؤمن و إيذاءه و قد ثبت أنّ إيذاء المؤمن حرامٌ هذا بالنّظر الى الشّرع و أمّا بالنّظر الى العقل فلما قال اللّه تعالى: **عَسىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ** عند اللّه و هكذا في النّساء، و قال بعض المفسّرين يجوز أن يكون خيراً منهم في منافع الدُّنيا و كثرة الإنتفاع بهم.

أقول الآية لا تختصّ بالمؤمن و ذلك لأنّ إستهزاء المؤمن إستهزاء اللّه و هو كما ترى و أنمّا الآية بصدد بيان حكم كليّ و لذلك قال لا يسخر قوم من قومٍ، و على هذا فقوله: **عَسىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ** يحتمل أن يكون المراد به أن يكون في القوم مؤمن و المستهزء لا يعرفه فوقع في المعصية من حيث لا يحتسب و كيف كان لا شكّ في أنّ أصل العمل قبيح لا يصدر من العاقل فضلاً عن المؤمن و المفروض أنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم فلا وجه للإستهزاء و السخريّة لأحدٍ من المسلمين و هذا هو النّهي الأوّل من النّواهي المذكورة في الآية.

الثّاني: قوله تعالىٰ وَ **لا تَلْمِزُوٓا أَنْفُسَكُمْ** واللّمز بفتح اللاّم هو الرَّمي بالعيب لمن لا يجوز أن يؤذى بذكره و هو المنّهي عنه و أمّا ذكر عيبه فليس بلمزٍ.

و روي أنّه عليه‌السلام قال: قولوا في الفاسق ما فيه كي يحذره النّاس.

و قال الطبّري، اللّمز يكون باليد و العين و اللّسان و الإشارة و الهمز لا يكون إلاّ باللّسان، و كيف كان فمعنى الأية، لا يعب بعضكم بعضاً، و قال إبن عبّاس و مجاهد و قتادة و سعيد بن جبير، لا يطعن بعضكم على بعضٍ، و قال الضّحاك لا يلعن بعضكم بعضاً، و قوله: **أَنْفُسَكُمْ** تنبيهٌ على أنّ العاقل لا يعيب نفسه فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنّه كنفسه.

أقول ما ذكره هذا المفسّر في قوله لأنّه كنفسه، لا يصحّ إلاّ في المؤمنين لما روي أنّ المؤمنين كجسدٍ واحد، و أمّا الآية فتشمل المؤمن و غيره اللّهم إلاّ أن يقال أنّ خطابات القرآن تختصّ بالمؤمنين فقوله تعالى: **لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ** يعني لا يسخر قومٌ من المؤمنين من قومٍ مثلهم، و في المقام، لا تلمزوا أيّها المؤمنون أنفسكم، يعني لا تلمزوا المؤمنين الّذين هم بمنزلة نفوسكم.

و أمّا إذا قلنا أنّ خطابات القرآن عامّة لجميع البشر بناءً على أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع أيضاً فقوله تعالى: **وَ لَا تَلْمِزُوٓا أَنْفُسَكُمْ** خطابٌ لجميع النّاس و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و أنّ الأمور الّتي تعلّق النّهي بها في هذه الآية و أمثالها من سنخ الآداب و ليست من سنخ الأحكام المجعولة من الشّارع بل هي من القبائح العقليّة بمعنى أنّ العقول السّليمة تحكم بقبح السُّخرية و اللّمز و التّنابز بالألقاب و أمثالها ممّا هو مذكور في الأيات و الأخبار فنهى الشّارع عنها تأييداً لنهي العقل عنها و لذلك يعمّ الحكم لجميع البشر و الدّليل على ماذكرناه أنّك لا ترى كافراً عاقلاً يحكم بحسن السُّخرية و اللّمز و أمثالهما.

نعم المؤمن أولى بترك هذه الصّفات و الأعمال من الكافر لوجود الإيمان فيه.

إذا عرفت هذا فأعلم أنّ العيب الموجود في الإنسان يتصوّر على قسمين:

أحدهما: العيوب الظّاهرة في جسمه كالعمى، و العرج و أمثالهما، فالظّاهر من العقل و الشّرع أنّ ذكر هذه العيوب لا إشكال فيه إذا لم يكن قصد العائب

التّحقير بل كان قصده التّعريف للمخاطب إذ المفروض أنّه لا يعرف بدون ذكرها.

الثّاني: أن تكون العيوب غير ظاهرة كالبرص في جسمه و أمثاله ممّا ليس بظاهر و لا يراه النّاظر لأنّه مستور تحت لباسه فهذه العيوب لا يجوز ذكرها للمخاطب لأنّ اللّه تعالى ستّارٌ و يجب أن يكون العبد كذلك هذا كلّه في العيوب العارضة على الجسم، و أمّا العيوب العارضة على الرُّوح كالبخل و الحسد و أمثالهما فذكرها منهيّ عنه و يدخل في باب الغيبة و سيأتي الكلام فيها.

و أمّا العيوب الظّاهرة منها كالظُّلم و الكذب و الخيانة و أمثالهما فلا إشكال في ذكرها لأنّ المتصّف بها يكون فاسقاً علناً و هذا القسم هو الّذي يقال أنّه ليس بلمزٍ.

و روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: قولوا في الفاسق ما فيه كي يحذره النّاس.

بل لا يبعد أن يكون تركه في بعض الموارد من مصاديق الإعانة على الإثم، فظهر أنّ مجرّد ذكر العيب ليس بمنهيٍ عنه بقولٍ مطلق بل لابدّ للعائب أن يعرف موارده.

الثّالث: قوله **وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ**

قال أبو عبيدة الإنباز و الألقاب واحد، فالنَّبز القذف باللَّقب، قيل معناه، نهاهم اللّه أن يلقب بعضهم بعضاً.

و قال الضّحاك معناه كلّ إسمٍ أو صفةٍ يكره الإنسان أن يدعى به فلا يدع به و أنّما يدعى بأحبّ أسماءه عليه، و قال الرّاغب في المفردات، النَّبز التّلقيب، قال تعالى: **وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** إنتهى.

و الإنصاف أنّ ما قاله الرّاغب من أنّ النَّبز التَّلقيب، على إطلاقه لا يصحّ لأنّ

التّلقيب بما هو هو لا ذمّ فيه، و أنمّا الذمّ ثابت للتّلقيب الّذي يكره الإنسان أن يدعى به و مع ذلك لا يستحقّ به و لذلك فسَّر أبو عبيدة الإنباز، بالقذف باللَّقب لأنّ القذف عبارةٌ أخرى عن التُّهمة فما قاله الضّحاك من أنّه كلّ إسم أو صفةٍ يكره الإنسان أن يدعى به فلا يدع به و أنمّا يدعى بأحبّ أسماءه علٍيه، أيضاً لا يصحّ على إطلاقه نعم هو حقّ لمن لا يستحقّ أن يدعى به و أمّا المستحقّ فتلقيبه لا إشكال فيه، مثلاً إذا قال القائل لظالمٍ فاسقٍ، أنت رأس الظالمين أو أنت أمير الفاسقين، لا شكّ أنّه يكره أن يدعى به مع أنّه يستحقّه فهذا ممّا لا إشكال فيه و لا ذّم فيه لأنّ الصّفة موجودة فيه ظاهرة لكلّ أحدٍ كره أو لم يكره، وأمّا إذا قيل ذلك لمن لا يستحقّه فهو مذمومٌ منهيّ عنه و قد نقل المؤرّخون أنّ عائشة كانت تقول للصّحابة أقتلوا نعثلاً قتله اللّه، و كان عثمان ملقّباً به أو هي لقّبته به و لم تردّ الصّحابة مع أنّ عثمان كان يكره ذلك قطعاً و هو دليل على أنّ تلقيب المستحقّ بما هو أهله لا إشكال فيه و أن كره ذلك، فأحسن الأقوال في المقام هو قول أبي عبيدة و هو أنّ النَّبز القذف باللَّقب، و أمّا قوله تعالى: **بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ** قيل في معناه بئس أن يسمّى الرّجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه و توبته، قاله إبن زيد، و قيل معناه، أنّ من لقّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق، و قيل من فعل ما نهى اللّه عنه من السخريّة و الهمز و النّبز فذلك فسوق، و ذلك لا يجوز، و قال صاحب الكشّاف (الإسم) ها هنا بمعنى الذّكر من قولهم طار إسمه في النّاس بالكرم أو باللّوم، أي ذكره، و على هذا فالمعنى بئس ذكر الفسوق بعد الإيمان، أي أن يصير المؤمن بعد إيمانه مشهوراً بالفسق، أو المعنى بئس الذّكر أن تذكروا الرّجل بالفسق.

أقول ما ذكروه خارجٌ عن مورد البحث لأنّ من تنابز بالألقاب لا يصير فاسقاً به و لا أنه لقّب غيره بالفاسق، و النّهي في قوله و لا تنابزوا تنزيهيّ لا تحريميّ

حتّى يحكم بفسق المتنابذ و المراد بالإسم الفسوق، الإسم القبيح الّذي يكره الإنسان أن يدعى به فمعنى الكلام أنّ المؤمن بعد إيمانه لا يفعل ذلك و اللّه أعلم.

وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظّٰالِمُونَ أي من لم يتب عمّا فعل من القبائح فهو ظالمٌ على نفسه و على غيره و من تاب فأنّ اللّه غفورٌ رحيم.

يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أيضاً أموراً ينبغي التّجنب عنها.

أوّلها: الإجتناب من الظّن فقال: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ** قال الرّاغب في المفردات، الظّن إسمٌ لِما يحصل من إمارةٍ و متى قوّيت يؤدّي الى العلم إنتهى.

أقول ما ذكره الرّاغب هو بيانٌ لما يحصل منه الظّن و أمّا مرتبته في الإعتقاد فلا تستفاد منه و بعبارةٍ أخرى هو معناه اللُّغوي و أمّا في الإصطلاح فهو الإعتقاد الرّاجح، بيانه أنّ المعتقد أعني به ما يعتقده الإنسان و يحتمل فيه الخلاف أمّا أن يكون متساوي الطّرفين نفياً و إثباتاً فهو الشّك، و أمّا أن يكون أحد الطَّرفين راجحاً على طرف الأخر فهو الظّن، و أمّا أن لا يحتمل فيه الخلاف فهو القّطع و اليقين.

و بعبارةٍ أخرى، الّذي يدركه الإنسان من إمارةٍ أو غيرها، أمّا يحتمل فيه الخلاف أو لا يحتمل، و الثّاني، يعبّر عنه بالعلم، و الأوّل أما أن يكون متساوي الطَّرفين في الإحتمال فهو الشّك و أمّا أن يكون أحد الطَّرفين راجحاً على الأخر فهو الظّن إذا عرفت هذا فنقول، لا خلاف في أنّ المقطوع يؤخذ به و يتّبع لأنّ القطع حجّة، كما لا خلاف في أنّ المشكوك لا يؤخذ به و لا يتّبع لأنّه

من التّرجيح بلا مرجحّ لأنّ المفروض تساوي طرفيه وجوداً و عدماً فالأخذ به يوجب ترجيح أحدهما و لا دليل عليه.

و أمّا الظنّ و هو المتوسّط بينهما فلا إشكال في الأخذ به لوجود الرّاجح على الغرض لأنّ أحد طرفيه أقوى من الأخر و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً إلاّ أنّ إحتمال الخلاف فيه أيضاً موجودٌ فلا إشكال في كشف الخلاف أحياناً و لنضرب لك مثلاً، إذا رأيت كتاباً في زيد فقاعدة اليد إمارةٌ على أن الكتاب له لأنّ اليد من الإمارات فتشتري الكتاب منه فهذا ممّا لا إشكال فيه شرعاً فأنّ هذا الظّن الحاصل من إمارة اليد حجّة و هكذا إذا شهد الشّاهدان و هذا ممّا لا خلاف فيه و عليه المدار في جميع المعاملات و محصلّ الكلام أنّ إتّباع الظنّ النّاشئ من الإمارات الشّرعية ممّا إتّفق عليه الكلّ فقوله تعالىٰ: **ٱجۡتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ** لا يراد به هذا الظّن لأنّه يوجب إختلال النّظام في أكثر المعاملات و أنمّا المراد به الظنّ الحاصل من غير إمارةٍ فأنّه يؤدّي الى الإثم و لعلّه الى هذا ينظر من يقول أنّ الظنّ على قسمين:

خاصٌّ و عامٌّ، فالخاصّ، ما ذكرناه و العّام مطلق الظنّ الحاصل من غير إمارةٍ تدلّ عليه فالخاصّ منه و يتّبع و العاّم الشّامل للخّاص و غيره قد يتّبع إذا كان من إمارةٍ و قد لا يتّبع إذا حصل من غيرهما، و حيث أنّ الظنّ الحاصل من غير إمارةٍ أكثر ممّا يحصل منها، قال: **ٱجۡتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌ** و قال تعالى في موضع آخر **إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡئًا**[١] و الوجه فيه أنّ هذا الظنّ لا دليل على حجّتيه و أنمّا نشأ من الخيال و الوهم و الوسوسة من الشّيطان فتركه أولى من فعله و على هذا فكأنّه قال لا تتّبعوا كثيراً من الظّن و هو الّذي لم يحصل من إمارةٍ شرعية و إجتنبوه لأنّه يؤدّي الى الإثم، و ذلك مثل أن يرى الإنسان، أنّ رجلاً و إمرأة يتكلّمان معاً فظنّ أنّهما أجنبيّان فهذا إثمٌ أو

١- النّجم = ٢٨

رأى شيئاً في يد غيره فظَّن أنّه سرقه من غيره و هكذا و الأمثلة كثيرة هذا ما فهمناه من هذه الجملة و اللّه أعلم.

الثاني: من الأحكام الّتي ذكرها اللّه تعالى في هذه الآية قوله: **وَ لَا تَجَسَّسُوا** قيل في تفسيره أي لا تتَّبعوا عثرات المؤمن و قال أبو عبيدة التجسُّس و التَّحسس واحد و هو التَّبحث، و قيل للمؤمن حقٌّ على المؤمن ينافي التَّجسس عن مساوية و قرأ أبو رجاء **وَ لَا تَحَسَّسُوا** بالحاء المهملة و الظّاهر أنّهما بمعنى واحد كما قال به أبو عبيدة و قيل أنّه بالحاء تطلبه لنفسه و بالجيم أن يكون رسولاً لغير و منه الجاسوس، و المقصود أنّ في الآية نهيٌ عن تتبّع عورات المسلمين.

فقد روى عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين و لا تتَّبعوا عوراتهم فأنّ من إتَّبع عوراتهم يتبع اللّه عورته فأن يتَّبع اللّه عورته يفضحه في بيته. نقله القرطبي في تفسيره.

ثمّ نقل عن عبد الرّحمن إبن عوف أنّه قال حرست ليلة مع عمر بن الخطّاب بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج في بيتٍ بابه مجافٍ على قومٍ لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر هذا بيت ربيعة إبن أميّة بن خلف و هم الآن، شرب، فما ترى قلت أرى إنّا قد آتينا ما نهانا اللّه عنه (ما نهى اللّه عنه) قال اللّه تعالى: **وَ لَا تَجَسَّسُوا** و قد تجسَّسنا، فإنصرف عمر و تركهم، أبو قلابه حدّث عمر بن الخّطاب أنّ أبا محجن الثّقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته فأنطلق عمر حتّى دخل عليه فإذا ليس عنده إلاّ رجل، فقال أبو محجن أنّ هذا لا يحلّ لك قد نهاك اللّه عن التجسّس فخرج عمر و تركه إنتهى ما أردنا ذكره.

أقول فيما ذكره القرطبي إقرارٌ على أنّ عمر كان جاهلاً بالحكم و أنّما أعلمه به أبوعبيدة في الحديث الأوّل و أبو محجَّن الثّقفي في الثّاني و من كان جاهلاً

بالأحكام الأوّلية كيف يليق بالخلافة و الزّعامة بعد رسول اللّه و للقرطبي أن يقول في الجواب أنّا لا نشترط العلم في الخليفة و لا غيره من الصّفات كالعدالة و الأمانة و الصداقة و أمثالها أنّما نشترط نصّ أبي بكر على خلافته حصل.

و محصّل الكلام أنّ التجسّس في عورات المسلمين مذمومٌ محرّمٌ عند العامّة و الخاصّة و لم يقل بجوازه أحد و هذا يكفينا في قبحه و ذمّه و الأخبار في ذمّه أيضاً كثيرة هذا كلّه مضافاً إلى أنّ العقل أيضاً يحكم بأنّ التجسّس في أمور المسلمين و عوراتهم قبيح جدّاً كما أنّ السّتر على أخيه المؤمن حسنٌ جدّاً.

قال الصّادق: من ستر على أخيه المؤمن عورةً ستر اللّه عورته يوم القيامة.

الثّالث: من الأمور المذكورة في الآية الّتي نهى اللّه عنها قوله: **وَ لَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** إلى قوله: **فَكَرِهْتُمُوهُ** نهى اللّه تعالى عن الغيبة فنقول قال في المفردات الغيبة أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيبٍ من غير أن أحوج إلى ذكره إنتهى.

و قال الزّمخشري الغيبة من الإغتياب كالغلة من الإغتيال، و هى ذكر السُّوء في الغيبة و سئل رسول اللّه ﷺ عنها فقال: **أن تذكر أخاك بما يكره فأن كان فيه فقد إغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته إنتهى.**

و كيف كان لا شكّ في أنّها محرّمةٌ كتاباً و سنّةً و إجماعاً و عقلاً و لم يخالف في هذه المسئلة أحدٌ من المسلمين من جميع الفرق الموجودة في الإسلام.

قال بعض المحقّقين في معناها هي أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء كان ذلك بنقصٍ في بدنه أو في أخلاقه أو في أقواله المتعلّقة بدينه أو دنياه بل و أن كان بنقصٍ في ثوبه أو داره أو دابّته و الدّليل على هذا التّعميم بعد إجماع الأمّة على أنّ من ذكر غيره بما يكرهه إذا سمعه فهو مغتاب:

ما روي عن رسول اللّه، هل تدرون ما الغيبة قالوا، اللّه و رسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل له، أرأيت أن كان في أخي ما أقول، قال ﷺ إن كان فيه ما تقول فقد إغتبته و إن لم يكن فيه فقد بهته إنتهى.

و ما روي أنّه ذكر رجلٌ عنده فقالوا ما أعجزه فقال ﷺ: إغتبتم أخاكم قالوا يا رسول اللّه قلنا ما فيه قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه إنتهى.

و ما روي عن عائشة قالت دخلت علينا إمرأة فلمّا ولّت أو مأت بيدي أنّها قصيرة فقال ﷺ: إغتبتها إنتهى.

و ما روي أنّها قالت إنّي قلت لإمرأةٍ مرّةً و هى عند النّبي ﷺ أنّ هذه لطويلة الذّيل فقال ﷺ: لي إلفظي إلفظي، فلفظت لحم إنتهى.

و قد روي أنّ أحد الشّيخين قال للأخر أنّ فلاناً لنؤمٌ ثمّ طلبا أُدماً من رسول اللّه ليأكلا به الخبز فقال ﷺ: قد أئتلمتما فقالا ما نعلمه فقال ﷺ بلى إنكما أكلتما لحم صاحبكما إنتهى.

و قال الكاظم عليه السّلام، من ذكر رجلاً من خلقه بما هو فيه ممّا عرفه النّاس لم يغتبه، و من ذكر من خلقه بما هو فيه ممّا لا يعرفه النّاس فقد إغتابه إنتهى.

و الحاصل أنّ الإجماع و الأخبار متطابقان على أنّ حقيقة الغيبة هو أن يذكر الغير بما يكرهه إذا سمعه سواءٌ كان ذلك بنقصٍ في نفسه (و بدنه أو دينه أو دنياه أو فيما يتعلّق به من الأشياء، ثمّ أنّ الغيبة لا تنحصر باللّسان بل كلّ ما يفهم منه نقصان الغير و يعرف ما يكرهه فهو غيبته سواء كان بالقول أو الفعل أو التّصريح أو التّعريض أو بالإشارة و الإيماء و أمثالها بل يظهر من الأخبار الواردة في ذمّها أنّه يجب على المستمع ردع المتكلّم بها و منعه بقدرالإمكان.

قال النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: من أذَّل عنده مؤمنٌ و هو يقدر على أن ينتصر له فلم ينصره أذّله اللّه يوم القيامة على رؤوس الخلائق و من ردَّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقّاً على اللّه أن يردّ عن عرضه يوم القيامة إنتهى.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: من ذبَّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقّاً على اللّه أن يعتقه من النّار إنتهى.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: ما من رجلٍ ذكر عنده أخوه المسلم و هو يستطيع نصره ولو بكلمةٍ ولم ينصره إلاّ أذّله اللّه عزّ وجلّ في الدّنيا و الأخرة و من ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره اللّه في الدّنيا و الأخرة إنتهى.

و الأخبار بذلك أيضاً كثيرة إذا عرفت أنّ الغيبة ذكر الغير بما يكرهه لو سمعه فأعلم أنّ ذلك أنّما يحرم إذا قصد به هتك عرضه و التّفكر به أو إضحاك النّاس منه و أمّا إذا كان ذلك لغرضٍ صحيح لا يمكن التّوصل إليه إلاّ به فلا يحرم و الأغراض الصحيحة المرخّصة له أمور نشير إليها:

الأوّل: التّظلم عند من له رتبة الحكم و إحقاق الحقوق كالقضاة و المفتين و السلاطين فأنّ نسبته الظُّلم و السُّوء إلى الغير عندهم لإستيفاء الحقّ جائز لقول النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: **لصاحب الحقّ مقال**. و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: **ليَّ الواجد يحلّ عرضه و عقوبته**، و أمثال ذلك من الأخبار.

الثّاني: الإستعانة على رفع المنكر و ردَّ المعاصي إلى الصّلاح و أنّما يستباح بها ذكر مساءة اذا كان بالقصد الصّحيح لا بدونه.

الثّالث: نصح المستشير في التّزويج و إيداع الأمانة و أمثالهما و كذلك جرح الشّاهد و المفتي و القاضي إذا سئل عنهم فله أن يذكر ما يعرفه من عدم العدالة و الأهليّة للإفتاء و القضاء بشرط صحّة القصد و إرادة الهداية و عدم

باعث حسدٍ أو تلبيسٍ من الشّيطان و كذلك توقّي المسلمين من الشّر و الضَّرر أو سراية الفسق و البدعة فأنّ من رأىٰ عالماً أو غيره من المؤمنين يتَّردد إلى ذي شرٍّ أو فاسقٍ أو مبتدعٍ و خاف أن يتَّضرر و يتّعدى إليه الفسق و البدعة بمصاحبته يجوز له أن يكّشف له ما يعرفه من شرّه و فسقه و بدعته، و من جملة ما يدخل في تحذير المسلمين و توَّقيتهم من الشّر و الضّرر إظهار عيب يعلمه في مبيع و أن كرهه البائع حفظاً للمشتري من الضّرر.

الرّابع: من إدّعى نسباً ليس له كمن ادعى أنّه سيّدٌ من أل الرّسول و أنت تعلم أنّه كاذبٌ في قوله.

الخامس: القدح في مقالةٍ أو دعوى باطلة في الدّين.

السّادس: الشّهادة على فاعل المحرّم حسبة.

السّابع: ضرورة التّعريف فأنّه إذا كان أحدٌ معروفاً بلقبٍ يحكي عن عيبٍ لكن توّقف تعريفه عليه لم يكن إثّمٌ في ذكره بشرط عدم إمكان التّعريف بغيره و ذلك كقولهم، روى الأعمش، و الأعرج، و غير ذلك من الألقاب الّتي لا يعرف صاحبه إلاّ بذكره، و من هذا القبيل الأعمى لمن إتّصف به و لا يعرف في النّاس إلاّ بذكر الصّفة.

الثّامن: كون المقول فيه مستحقّاً للإستخفاف لتظاهره و تجاهره بفسق الظّلم و الزّنا و شرب الخمر و غير ذلك بشرط عدم التَّعدي عمّا يتظاهر به إذ لو ذكره بغير ما يتظاهر به لكان أثماً و أمّا إذا ذكر منه مجّرد ما يتجاهر به فلا إثم عليه.

و إلى هذا المعنى أشار الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: **من ألقى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له إنتهى.**

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: **ليس لفاسقٍ غيبة**، و العقل أيضاً يحكم بذلك لأنّه كان معلناً بفسقه إختياراً و هو ظاهر.

قال النّراقي قدس سره في جامع السّعادات بعد ذكره ما نقلناه عنه من الأخبار ذكره في معنى الغيبة ما هذا لفظه:

و الظّاهر أنّ ذكر ما يتجاهر به من العيوب ليس غيبة لا شرعاً و لا لغةً لا أنّه غيبة أستثنى جوازها شرعاً.

قال الجوهري الغيبة أن يتكلّم خلف إنسانٍ مستور بما يغمّه لو سمعه فأن كان صدقاً سمّي غيبة و أن كان كذباً سمّي بهتاناً إنتهى.

و لنختم الكلام بذكر الغيبة في الباب حذراً من الإطناب و من أراد تفصيل الكلام فيها فعليه بكتب الأخلاق فأنّها موضوعة لهذه الأبحاث.

و أمّا قوله تعالىٰ: **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** فمعناه أنّ الغيبة كلحم الميتة بل هي هو في الواقع و لا ذمّ لها أشنع و أقبح منه فهو يكفينا في المقام.

الرّابع: من الأمور المذكورة في الآية قوله: **وَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوّٰابٌ رَحِيمٌ** أمر اللّه تعالى المؤمنين بمراعاة التّقوى و هى فعل الطّاعات و إجتناب المعاصي و منه ترك متابعة أكثر الظّن و ترك الغيبة هذا أوّلاً.

ثانياً: أعلمنا بأنّ اللّه توّابٌ يعني يقبل التّوبة من عباده، و رحيمٌ بهم، لأنّه أرحم الرّاحمين و المقصود إذا عصيتم فتوبوا إلى اللّه تعالى و تيأسوا من روح اللّه فأنّ اليأس من رحمته من أعظم الكبائر.

يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

الخطاب في الآية عامٌّ يشمل جميع أولاد أدم من الذّكر و الأنثى فأنّ الخلق من الذّكر و الأنثى يعني الأب و الأمّ ليس مختّصاً بالذّكور منهم بل الأنثى أيضاً كذلك لدخول الأنثى في النّاس و فى الآية إشعارٌ بأنّ اللّه تعالى قد جرت سنتّه به لا أنّه لم يقدر على خلق البشر من غيرهما ألا ترى أنّه خلق أدم من غيرهما و حوّاء أيضاً كذلك و خلق عيسى إبن مريم من الأنثى بغير ذكرٍ.

و من المعلوم أنّ حكم الأمثال واحد ففي الآية دلالة على أنّ اللّه يفعل ما يشاء و يقدر على كلّ شيءٍ و يحكم بما يريد لا رادّ لقضاءه و لا مانع لمشيّئته لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و قوله: **وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ**، الشُّعُوب بضمّ الشّين رؤوس القبائل مثل ربيعة و مضّر و الأوس و الخزرج، واحدها **شعب**، بفتح الشّين مثل، دهر و دهور، و عدل و عدول، و قلب و قلوب، سمُّوا به لتَّشعبهم و إجتماعهم كشعب أغصان الشّجرة، و الشَّعب من الأضداد يقال شعَّبته إذا جمعته، و شعبته إذا فرَّقته.

قال الجوهري الشَّعب ما تشَّعب من قبائل العرب و العجم و الجمع الشُّعوب و الشَّعب أيضاً القبيلة العظيمة و هو أبو القبائل الّذي ينسبون إليه يجمعهم و يضمّهم.

و قال إبن عبّاس الشُّعوب الجمهور مثل مضّر و القبائل الأفخاذ و قال مجاهد، الشُّعوب البعيد من النَّسب و القبائل دون ذلك، قال الشّاعر:

رأيت سعوداً من شعوبٍ كثيرةٍ فلم أر سعداً مثل سعد بن مالكٍ

و الأخر:

قبائل من شعوبٍ ليس فيهم كريمُ قد يعدّ و لا نجيب

و قيل أنّ الشّعوب عرب اليمن من قحطان و القبائل من ربيعة و مضّر، أنّ الشُّعوب بطون العجم و القبائل بطون العرب و الأقوال فيهما كثيرة و لا يهمّنا البحث فيهما أكثر ممّا ذكرناه و المقصود أنّ اللّه تعالى لم يجعل أولاد أدم على و تيرةٍ واحدة خلقاً و خلقاً بل خلقهم مختلفين فيهما من جيث الخَلق و الخُلق، فجعل فيهم الأسود و الأبيض و الأحمر و غيرها من الألوان و طويلاً و قصيراً من حيث القامة كلّ ذلك **لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ** أي أنّما خلقناكم كذلك لتعارفوا و تعلموا أنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم، عند اللّه توضيح ذلك إجمالاً:

أنّ البشر له جنبتان، ملكّي و ملكوتّي، و ذلك لأنّه معجون مرّكبٌ من الرُّوح و البدن، فالبدن من عالم الملك لقوله تعالى: **مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فيها نُعيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ**[١].

و الرُّوح من عالم الملكوت لقوله تعالى: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[٢] و من المعلوم أنّ الرُّوح المجّرد عن المادّة الّذي نسبه اللّه و أضافه إلى نفسه تشريفاً و تعظيماً ليس من عالم المادّة بل هو من عالم المجّردات إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ** أي خلقنا أبدانكم كذلك لأنّها خلقت من تراب، و أمّا الأراوح فلا ربط لها بالأب و الأمّ و أنّما أهبطها اللّه من عالم الملكوت و جعلها في الأبدان في عالم الرَّحم بعد ما صارت النُّطفة إنساناً سوّياً قابلاً لتعلّق الرُّوح به، و على هذا فلا فضل لأحدٍ على غيره من حيث أنّه بشر من أولاد أدم و مخلوقٌ من التُّراب كما نسب إلى أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

النّاس من جهة التّمثال أكفاءُ أبـوهم أدم و الأمّ حـوّاءُ

و أنّما الفضل بين أولاد أدم ثابت من جهة المعرفة و العبوديّة للّه تعالى فمن كان منهم أعرف بربّه فهو أعبد و من كان أعبد فهو أتقى و أزهد و من كان أتقى أي أبعد من المعاصي و أقرب إلى الطّاعات للّه تعالى فهو أكرم و أشرف و أفضل من غيره و هذا هو الملاك في الفضيلة، و أنّما قال عند اللّه و لم يقل أنّ أكرمكم أتقاكم لوجهين:

أحدهما: أنّ أكثر الخلق لا يرون التّقوى فضيلة و كرامة فضلاً عن كونها أكرم و أفضل كما نرى و نشاهد في زماننا هذا في أبناء زماننا أنّهم يستهزؤن المؤمنين المتّقين و يعبّرون بالمتحجّرين.

١- طه = ٥٥
٢- الحجر = ٢٩

الثّاني: أنّ في قوله: **عِنْدَ ٱللّٰهِ** إشارة إلى أنّ اللّه ينصرهم و يثّبت أقدامهم و يجزيهم أحسن الجزاء يوم القيامة كما هو مقتضى مقام العنّدية و بعد اللُّتيا و اللّتي في الآية إشارة بل دلالة على أنّ ملاك الفضيلة في الإنسان هو التَّقوى دون المال و المقام و العشيرة اولاد و امثال ذلك، كيف لا و نحن نرى أنّ التّقوى رفعت مقام سلمان و أبىذرّ و المقداد و أمثالهم و وضع الكفر مقام أبىلهب و هو هو ففي الآية حثٌّ على الإتّصاف بها و التَّجنب عن الكفر و النّفاق و الفسق و أمثالها ممّا يوجب سقوط البشر عن مقام الإنسانيّة و أنّ الإسلام دين الفضيلة و الشَّرف و الكمالات النّاشئة عن مقام العبوديّة و لمثل هذا فليعمل العاملون.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** أي أنّه تعالى عالمٌ بظواهركم و سرائركم و نيّاتكم فلا يخفى عليه شيء.

قٰالَتِ ٱلْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ ٱلْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآية مصَّرحة بأنّ الإيمان يغاير الإسلام خلافاً لأكثر العامّة حيث ذهبوا الى أنّهما واحد معنىً و أن تغاير لفظاً فكلّ مؤمنٍ مسلم و بالعكس و أمّا الشّيعة ففَّرقوا بينهما قولاً واحداً و حكموا بتغايرهما و تخالفهما و لم يتخلّف فيه أحد و قليل من العامّة وافقونا على عدم إتّحادهما فعلى مذهب أهل البيت الإسلام يحصل بمجّرد الشّهادتين لساناً و إن لم يعتقد المقّر قلباً، و لم يعمل بمقتضى إقراره كأبي سفيان و معاوية و يزيد و أمثالهم فأنّهم لم يكن لهم نصيبٌ من الإسلام إلاّ الإقرار باللّسان حفظاً لدمائهم و أموالهم و أعراضهم.

و الإيمان عبارة عن الإقرار باللّسان و الإعتقاد بالقلب و العمل بالجوارح فمن لا يعتقد و لا يعمل ليس بمؤمنٍ بل هو مسلمٌ فقط فالمؤمن و المسلم

يشتركان في الإقرار باللّسان و يفترقان في الإعتقاد بالجنان و العمل بالأركان هذا في الدُّنيا.

و أمّا في الأخرة فالثّواب يترتَّب على الإيمان فقط و أمّا أحكام الإسلام من القصاص و الدّيات و الطّلاق و النّكاح و الحدود و التّعزيرات و الإرث و أحكام الغسل و الكفن و الدَّفن و بالجملة جميع أحكام الإسلام من البدو الى الختم فلا فرق في جريانها في حقّهما إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير ألفاظ الآية و نقول قيل أنّها نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في سنةٍ بهديّة و أظهروا الشّهادتين و لم يكونوا مؤمنين في السّر و أفسدوا طرق المدينة بالعذراتِ و أغلوا أسعارها و كانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أتيناك بالأثقال و العيال و لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصّدقة.

و قال إبن عبّاس نزلت في أعرابٍ أرادوا أن يسمُّوا بإسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم اللّه أنّ لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين و قيل غير ذلك و بالجملة فالآية خاصّة لبعض الأعراب لا في جميعهم لأنّ منهم من آمن باللّه و اليوم الأخرِ حقّاً، فقال اللّه تعالى لنبيّه أن يقول في جوابهم: **لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوٓا أَسْلَمْنَا** أي إستلمنا خوف القتل و السبّي و هذه صفة المنافقين لأنّهم أسلموا في ظاهر إيمانهم و لم تؤمن قلوبهم و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **وَ لَمَّا يَدْخُلِ ٱلْايمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ** أي أنّه لم يتجاوز ألسنتكم ثمّ قال تعالى: **وَ إِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ** يعني أن تخلصوا الايمان لساناً و قلباً و عملاً **لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئًا** أي لا ينقصكم منها شيئاً، و قوله: **لَا يَلِتَكُمْ** بفتح الياء و كسر اللاّم مِن «ولت يليت»، إذا نقص و قرأ أبو عمر **لا يألِتكم** من ألت يألت ألتاً و هو إختيار أبي حاتم إعتباراً بقوله تعالى: **وَ مٰآ أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**[1] أي ما نقصناهم و المشهور قراءة الأولى و عليها

١- الطور = ٢١

المصاحف و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** أنّه تعالى يغفر الذُّنوب و يرحم العباد.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصّٰادِقُونَ

لمّا نفى اللّه تعالى عنهم الإيمان في الآية السّابقة بقوله: **قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا** بيَّن في هذه الآية أوصاف المؤمنين ليعلم من يدّعي الإيمان أنّه مؤمنٌ أم لا فقال تعالى: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** على وجه الحصر المستفاد من كلمة (إنمّا) أي أنّ المؤمن ينحصر بمن إتّصف بهذه الأوصاف.

أحدهما: الإيمان باللّه و رسوله، من الإقرار و الإعتقاد و العمل.

الثّاني: عدم الشكّ فيه بأن كان على يقينٍ منه و اليه الإشارة بقوله: **ثُمَّ لَمْ يَرْتٰابُوا** فأن الإرتياب الشكّ.

الثّالث: الجهاد بالمال و النّفس في طريق الحقّ و اليه أشار بقوله: **وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ثمّ قال تعالىٰ: **أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصّٰادِقُونَ** في إدّعاءهم الإيمان و قوله: **أُولٰـئِكَ** إشارة الى الموصوفين بالصّفات المذكورة و يظهر من هذا الكلام أنّ من لم يتصّف بها و إدّعى الإيمان فهو كاذبٌ في قوله و من المعلوم أنّهم أعزّ من الكبريت الأحمر.

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

تُعلِّمون بضمّ التّاء من علّم يعلّم تعليماً، و التّعليم تعريض من لا يعلم حتّى يعلم بإفهام المعنى أو خلق العلم له في قلبه، و على هذا فالمتعلّم لا بدّ أن يكون جاهلاً محتاجاً الى التّعلم و إلاّ يلزم تحصيل الحاصل، و حيث أنّ اللّه تعالى عالمٌ بكلّ شيءٍ فلا يحتاج الى التّعلم من غيره إذ لا يخفى عليه شئ لا في

الأرض و لا في السّماء مضافاً الى أنّ العلم صدر منه تعالى الى خلقه فكيف يكون الخلق معلّماً له لأجل ذلك قال اللّه تعالى: **قُلْ** يا محمّد للإعراب، **أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ** حيث تقولون، آمّنا باللّه و رسوله و هو تعالى يَعلم منكم خلاف ذلك من الكفر و النّفاق فاللّفظ لفظ الإستفهام و المراد به الإنكار إذ كيف تعلّمون اللّه و هو يعلم ما في السّموات و الأرض و هو بكلّ شيءٍ عليم.

هذا محصّل الكلام في الآية و المعنى ظاهر.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰيكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

المنّة النّعمة الثّقيلة و يقال ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بالعمل و قيل بالفعل فيقال منَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنّعمة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ** و ذلك علىٰ الحقيقة لا يكون إلاّ للّه تعالى.

الثانى: أن يكون ذلك بالقول و ذلك مستّقبحٌ فيما بين النّاس إلاّ عند كفران النّعمة و لقبح ذلك يقال المّنة يهدم الصّنيعة و لحسن ذكرها عند الكفران قيل إذا كفرت النّعمة حسنت المنّة إذا عرفت هذا فقوله: **لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ** فالمنّة منهم بالقول و قوله: **بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ** و هو هدايته أيّاهم فالمنّة فيه بالفعل إذ لا نعمة أثقل من نعمة الإيمان، أفاد اللّه تعالى في هذه الآية أنّ بعض الأعراب يمنّون عليك بقولهم، أن أسلموا قل يا محمّد لهم لا تمنّوا علّي إسلامكم، إذ نفعه عائد اليكم، بل يمُن اللّه عليكم حيث هداكم للإيمان الّذي

١- أل عمران = ١٦۴

هو من أعظم النِّعم و أشرفها فأنّ من لا إيمان له فهو أضلّ من الحيوان و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي إن كنتم صادقين في إدّعاءكم الإيمان و الإسلام.

إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ

أمّا أنّه تعالى يعلم غيب السّموات و الأرض، فالوجه فيه أنّه خلقهما و ما فيهما و الخالق لا يكون جاهلاً بما خلق و منه يظهر معنى قوله: **وَ ٱللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ** من طاعةٍ و معصية و إيمانٍ و كفرٍ في باطنٍ أو ظاهرٍ، و هو واضح.

■

سُورَةُ قٓ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَ ٱلْقُرْاٰنِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَنْ جٰاۤءَهُمْ
مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقٰالَ ٱلْكٰافِرُونَ هٰذٰا شَيْءٌ عَجِيبٌ
﴿٢﴾ ءَإِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ
عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ
حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاۤءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ
أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمٰاۤءِ فَوْقَهُمْ
كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَ
ٱلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا
فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَ ذِكْرىٰ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَ نَزَّلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰاۤءِ مٰاۤءً
مُبٰارَكًا فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَ
ٱلنَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبٰادِ
وَ أَحْيَيْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحٰابُ ٱلرَّسِّ وَ
ثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوٰانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَ أَصْحٰابُ ٱلْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ

فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ
فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَ
جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ
تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ
﴿٢٠﴾ وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ
﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَ قَالَ قَرِينُهُ
هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ
الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَ لَٰكِنْ
كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ
وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ
لَدَيَّ وَ مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ
لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَ
أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ
الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾

ٱدْخُلُوهٰا بِسَلامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مٰا
يَشٰآؤُنَ فيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزيدٌ ﴿٣٥﴾ وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
ٱلْبِلٰادِ هَلْ مِنْ مَحيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ
لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهيدٌ
﴿٣٧﴾ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا
بَيْنَهُمٰا في سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾
فَاصْبِرْ عَلٰى مٰا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَ قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَ مِنَ ٱللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبٰارَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَ ٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنٰادِ
ٱلْمُنٰادِ مِنْ مَكٰانٍ قَريبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ
ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنّٰا نَحْنُ
نُحْيي وَ نُميتُ وَ إِلَيْنَا ٱلْمَصيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ
ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرٰاعًا ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنٰا يَسيرٌ
﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا يَقُولُونَ وَ مٰآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِجَبّٰارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْاٰنِ مَنْ يَخٰافُ وَعيدِ ﴿٤٥﴾

◀ اللّغة

ٱلْمَجيدِ: العظيم الكرم و هو مشتّق من المجد و هو العظمة.

مَريجٍ: أي مختلطٌ ملتبسٌ و أصله إرسال الشّيء مع غيره في المرج من قولهم مرج الخيل الذّكور مع الأناث.

فُرُوجٍ: الفروج الفتوق و الفَتق ضدّ الرَّتق.

مَدَدْنَٰهَا: المَّد البسط.

رَوَٰسِيَ: جمع راسية و هى الثّابتة، كالحواشي جمع حاشية، يقال أرساها إذا أثبتها.

بَهِيجٍ: البهجة الحسن الذّي له روعة عند الرُّؤية كالزُّهرة و الأشجار الملتفة و الرّياض الخضرة.

مُّنِيبٍ بضمّ الميم فاعل من الإنابة الرُّجوع أي منيبٌ إلى اللّه.

ٱلْحَصِيدِ: بفتح الحاء و كسر الصّاد كلّ ما يحصد من الزَّرع.

بَاسِقَٰتٍ: أي عاليات و قيل هي طوال النّخل.

نَضِيدٌ: أي نضد بعضه على بعضٍ.

ٱلرَّسِّ: البئر.

ثَمُودُ: قوم صالح.

عَادٌ: قوم هود.

أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ: قوم شعيب.

أَفَعَيِينَا: يقال عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه و أعييت إذا تعبت و كلّ ذلك من الطَّلب.

لَبْسٍ: اللَّبس منعٌ من إدراك المعنى كالسَّتر له.

تُوَسْوِسُ: الوسوسة حديث النَّفس.

ٱلْوَرِيدِ: الوتين.

عَتِيدٌ: العتيد المعدّ للزوم الأمر.

تَحِيدُ: أي تنفر و تهرب.

غِطَآءَكَ: الغطاء السَّتر.

عَتِيدٌ: أي معدٌّ محفوظ.

أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ: الإزلاف التَّقريب إلى الخير و منه الزُّلفة و الزُّلفىٰ.

أَوّٰابٍ: من الأوب و هو الرّجوع.

مَحِيصٍ: حاص يحيص حيصاً، المحيص المخلص المنجأ المهرب.

لُغُوبٍ: اللُّغوب الإعياء و هو التَّعب.

سِراٰعًا: أي بسرعةٍ.

حَشْرٌ: الحشر الجمع.

وَعِيدِ: أي وعيد اللّه بالعذاب.

◄ الإعراب

فَوْقَهُمْ حال من السّماء أو ظرفٌ، لينظروا وَ ٱلْأَرْضَ معطوف على موضع السّماء مَدَدْنٰاهٰا حال تَبْصِرَةً مفعول له أو حال من المفعول أو مصدر أي بصرناهم تبصرةً ذِكْرىٰ كذلك وَ حَبَّ ٱلْحَصِيدِ أي و حبُّ النَّبت المحصود و حذف الموصوف و مثله حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ أي حبل العرق الوريد وَ ٱلنَّخْلَ معطوف على الحبّ وبٰاسِقٰاتٍ حال وَلَهٰا طَلْعٌ حال أيضاً و نَضِيدٌ بمعنى منضود رِزْقًا مفعول له وقَعِيدٌ مبتدأ و عَنِ ٱلشِّمٰالِ خبره مَعَهٰا سٰآئِقٌ الجملة صفة لنفسٍ، أو كلّ أو حال من كلّ، هذا مبتدأ و في ما وجهان:

أحدهما: هي نكرة و عتيد صفتها لَدَىَ معمول، عتيد.

الثّاني: أن تكون، ما، بمعنى، الّذي و على هذا فتكون (ما) مبتدأ و لَدَى صلة و عتيدٌ خبر مَنْ خَشِيَ في موضع رفع أي هم من خشي أو في موضع جرّ بدل من المتّقين، أو من كلّ أوّاب، أو في موضع نصب أي أعني من خشي فيهٰا يتعلّق بيشاؤن و يجوز أن يكون حالاً من، ما، أو من العائد المحذوف وَ كَمْ نصب بأهلكنا وَهُمْ أَشَدُّ صفة لقرن، أو صفة لكم.

◀ التّفسير

قال في التّبيان لم يعدّ أحد قٓ أية و كذلك نظائره مثل (ن) و(ص) لأنّه من المفرد و أمّا المرّكب فما أشبه الجملة و وافق رؤوس الأي، مثل (طه) و(حم) و (الم) و ما أشبه ذلك إنتهى كلامه.

أقول فعلى هذا هو إسمٌ للسُّورة **وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ** قيل الواو للقسم أقسم اللّه تعالى بالقرأن و جواب القسم محذوف و تقديره لحقّ الأمر الّذي وعدتم به أنّكم لمبعوثون، و كيف كان فالقرأن إسم لما بين الدَّفتين و المجيد صفة وصفه اللّه تعالى بالمجد و العطمة و الكرم، و القدر و امثال ذلك كلّه هذه الأوصاف حقّ ثابت له كيف و هو كلام اللّه و الصّفة تابعة للموصوف في المجد و العظمة و لا شكّ أنّ اللّه تعالى واجب الوجود مستجمعٌ لجميع الصّفات الكماليّة فما من صفة كمالٍ إلاّ و هى موجودةٌ له تعالى بالفعل و إذا كان المتكلّم كذلك فكلامه أيضاً منّزهٌ عن النّقص و العيب و القرأن كلام اللّه تعالى فهو أيضاً متّصفٌ بالمجد و العظمة فثبت المطلوب.

بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ

المنذر هو رسول اللّه و المعنى أنّ الكفّار و المشركين عجبوا أن جاءهم منذر منهم، أي من بينهم لأنّ النّبي نشأ بينهم، فقال: **ٱلْكَٰفِرُونَ** هذا شيٌ عجيب، أن يكون المنذر من بين القوم و لعلَّ الوجه في تعجُّبهم أنّ البشر كيف يكون منذراً لبشرٍ أخر و هو مثله يأكل و يشرب و ينكح و يمشي في الأسواق كانوا يقولون ماهذا إلاّ بشر مثلنا يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق و لم يعلموا أنّ النّبي و أن كان في الظّاهر في قالب البشر إلاّ أنّه في الواقع أعلى و أشرف من الملك لمكان الوحي و أنّه واسطة بين الخلق و الرَّب فهو إنسانٌ ملكوتي في قالب البشر الملكي صورته صورة البشر و سيرته سيرة الملك لا يقول إلاّ

من اللّه تعالى لقوله: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ اَلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ**[1] و علىٰ هذا فالمنذر في الواقع هو اللّه على لسان رسوله.

ءَإِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ

جواب الشّرط محذوف لدلالة الكلام عليه و تقديره، ءإذا متنا و كنّا تراباً بعد الموت، يبعثنا اللّه، ذلك، أي ذلك البعث بعد الموت رجعٌ بعيدٌ عند العقول غير ممكنٍ، إذ كيف يعقل ذلك فقال اللّه تعالى في جواب الكفّار المنكرين للبعث.

قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ اَلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ

يظهر من الجواب أنّهم أنكروا البعث لأنّ البدن بعد الموت صار تراباً في القبر و لم يبق من اللّحم و العظم و سائر الأجزاء شئ ظاهراً و إذا كان كذلك فلازم البعث أن يرجع ما نقص منه إلى ما كان أوّلاً و هو غير معقول للزومه إعادة المعدوم و الإعادة محال، فأجاب اللّه تعالى بما حاصله أنّا نعلم ما نقص من البدن في القبر و صار تراباً و إليه الإشارة بقوله: **وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ**، و هو اللّوح المحفوظ و قيل الكتاب عبارة عن العلم و الأحصاء و الجامع أنّ اللّه لا يخفى عليه شئ.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ

كلمة، بل للإستدراك أي ليس منشأ إنكارهم البعث ما ذكروه بل انّهم كذّبوا النّبي و القرآن الّذي جاء به دالاً على صدقه و بعبارةٍ أخرى إنكارهم غير منحصرٍ بالبعث بل أنكروا جميع ما جاء به الرّسول من عند اللّه فهم في أمرٍ مريجٍ، أي مختلطٌ ملتبسٌ فى اصل النبوّة فتارةً يقولون أنّه ساحرٌ و تارةً يقولون

۱- النّجم = ۴ / ۳

أنّه كاذبٌ و تارةً يقولون أنّه مجنون، و تارةً يقولون أنّه كاهنٌ، و من أنكر النّبوة أنكر ما جاء به النّبي بطريقٍ أولى.

و قال إبن عبّاس، المريج الأمر المنكر و قال بعضهم، أصل المرج الإضطراب و القلق و قيل غير ذلك و أنت ترىٰ أنّ الوجوه المذكورة متقاربة المعنى.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمٰاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰاهٰا وَ زَيَّنّٰاهٰا وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ

الإستفهام للتّوبيخ و فيه التّهديد و المعنى أفلم ينظروا هؤلاء الكفّار المنكرين للبعث الى اسّماء فوقهم كيف بنيناها، أي خلقناها، و زيّنّاها بأنواع الكواكب و لا سيّما بوجود الملائكة **وَ مٰا لَهٰا مِنْ فُرُوجٍ** أي ليس فيها فتوق يمكن السّلوك فيها، و الفروج جمع فرج و هو الشقّ.

و قال الكسائي معنى الآية ليس فيها تفاوت و لا إختلاف و لا فتوق، تقريب الإستدلال بالآية على إثبات المدّعى و هو البعث و الخلق بعد الموت، هو أنّ اللّه الّذي و أوجد السّماء و رفعها فوقنا بلا عمد و زيّنها بأنواع النّجوم الثّابتة فيها، قادرٌ على إحياء الخلق بعد الموت، لأنّه أي الخلق بعد الموت أسهل من خلق السّموات و ما فيها و ذلك لبقاء المادّة في البدن بعد صيرورته تراباً و هذا بخلاف خلق السّماء إذ لم تخلق من مادّةٍ بل خلقها كان إبداعيّاً و لذلك يقال أنّه تعالى بديع السّموات و الأرض و لا شكّ عند ذوي العقول أنّ الخلق الابداعي أصعب من الخلق عن مادّةٍ موجودة و سيأتي منّا البحث في هذا الباب بوجهٍ أبسط في المستقبل إن شاء اللّه.

وَ الْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

الواو للعطف فالآية معطوفة على الآية السّابقة أي أفلم ينظروا إلى الأرض مددناها أي بسطناها و ألقينا فيها، أي في الأرض، رواسي، و هي الجبال الثّابتة عليها و أمّا أنّها أي الجبال تمنع الأرض عن الحركة ليتّمكن إستقرار الحيوان عليها، كما فسَّروا الرَّواسي به فلا يستفاد ذلك لا من الآية و لا من الرّواسي هو ظاهر و قد مرَّ الكلام منّا في هذا الباب و سيأتي بعد ذلك إن شاء اللّه.

و أمّا قوله: **وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** فهو مشهودٌ محسوس لا يحتاج إلى الإثبات و المعنى أنبتنا في الأرض من كلّ زوجٍ أي من كلّ صنفٍ أو نوعٍ من النّبات ما يتهيج الإنسان به و لنعم ما قال الشّاعر فيه:

تفَّكر في نبات الأرض و أنظر — إلى أثـار مـا صـنع المـليك
ففي رأس الزُّبرجد شاهداتُ — بأنّ اللّـــه ليس له شـــريكُ

تَبْصِرَةً وَ ذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ

قال في التّبيان، أي فعلنا ذلك و خلقناه علىٰ ما وصفناه ليتّبصر به و يتَّفكر كلّ مكلّفٍ كامل العقل يريد الرّجوع الى اللّه و الإنابة اليه، و قال بعضهم قوله: **تَبْصِرَةً** نصب على المصدر يعني جعلنا ذلك تبصيراً و تنبيهاً على قدرتنا.

أقول ما ذكروه لا بأس به فأنّه حقٌّ يرجع معنى الكلام اليه، و الّذي يختلج بالبال أنّ في التعبير بقوله: **تَبْصِرَةً وَ ذِكْرَىٰ** نكتة خفيّة و هي أنّ التّفكر، في النّباتات فرعٌ على رؤيتها بالبصر فأنّ الإدارك مقدّم على التّعقل و التفكّر فمن لا يدرك شيئاً ببصره كالأعمى كيف يتفكّر فيه و على هذا فقوله: **تَبْصِرَةً** إشارة الى الرّؤية بالبصر، و قوله: **وَ ذِكْرَىٰ** إشارة الى التّعقل بالقلب، أنّ في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، ولذلك قدّم التّبصر على التّذكر في اللّفظ كما هو كذلك في المعنى، فيصير مفاد اللّفظ أنظر بالبصر و تذّكر أو تفكّر بالقلب.

وَ نَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ ٱلْحَصِيدِ

يعني نزّلنا من السَّماء مطراً و غيثاً، و وصفه بالبركة و قال، مباركاً، لأنّ في المطر و الغيث من البركات ما لا يحصى و كفى في اثبات ذلك قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ**(١) فحياة الأرض و ما عليها ببركة الماء و أيُّ شيءٍ أعظم بركةً من الماء الّذي بقاء الأرض و ما فيها و ما عليها، عليه و من آثاره و بركاته قوله: **فَأَنْبَتْنَا** به أي، بسبب الماء جنّاتٍ و حبَّ الحصيد، أي بساتين فيها أشجار و حبَّ الحصيد قيل يعني البرُّ و الشّعير، و قيل كلّ ما يحصد من أنواع النّبات.

قال قتادة الحبّ هو الحصيد أنمّا أضافه الى نفسه كما قال، حقّ اليقين، و قيل التّقدير و حبَّ النبت الحصيد، و الأصل الحبُّ الحصيد فحذفت الألف و اللاّم و أضيف المنعوت الى النّعت.

وَ ٱلنَّخْلَ بٰاسِقٰاتٍ لَهٰا طَلْعٌ نَضِيدٌ

قيل باسقات أي عاليات، و قال إبن عبّاس، باسقات طوال النّخل و به قال مجاهد و قتادة، و قال سعيد بن جبير، باسقات أي مستويات و به قال الحسن و عكرمة و الفرّاء، و الأوّل أعني به قول إبن عبّاس، في اللُّغة أكثر و أشهر يقال نسق النّخل نسوقاً إذا طال و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله حيث قال:

لنا خمرُ و ليست خمر كرم — ولكن من نتاج الباسقات
كرامُ في السَّماء ذهبن طولاً — وفات ثمارها أيدي الجناةِ

يقال، نسق فلان على أصحابه أي علاهم، و **الطَّلع** بفتح الطّاء و سكون اللاّم و العين أوّل ما يخرج من ثمر النّخل و منه الطُّلوع، يقال طلعت الشّمس و يقال عند طلوع الشّمس كلّ ذلك مشتّق من الطَّلع يقال طلع طلعاً و طلوعاً، و النَّضيد يقال لما نضد بعضه على بعضٍ، قال بعضهم أي متراكبٌ قد نضّد

١- الانبياء = ٣٠

بعضه على بعضٍ، و نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن البخاري، النَّضيد الكفُّري ما دام في أكمامه و معناه منضودٌ بعضه على بعضهِ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيدٍ إنتهى.

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ

أي رزقناهم رزقاً أو على معنى أنبتناها رزقاً لأنّ الإنبات في معنى الرِّزق و المعنى خلقنا ما ذكرناه من حبَّ الحصيد و الطَّلع النَّضيد رزقاً للعباد و غذاءً لهم، في تفسير الرِّزق، هو ما للحيّ الإنتفاع به على وجهٍ ليس لغيره منعه منه، قالوا الحرام ليس برزقٍ لأنّ اللّه منع منه بالنّهي و الحظر و هذه المذكورات في الأيات من بركات الماء و لذلك قال ماءً مباركاً، و قوله: **وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** أي بالماء الّذي أنزلناه من السَّماء أحيينا بلدةً ميتاً، أي جدباً قحطاً لا تنبت شيئاً فأنّ حياة كلّ شئٍ بحسبه، كذلك الخروج، من القبور، أي مثل ما أحيينا الأرض بسبب الماء بعد موتها كذلك نحيي الموتى يوم القيامة فيخرجون من قبورهم ومن قدر على إحياء الأرض الميتة قدر على إحياء الموتى فأنّ حكم الأمثال واحد.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَ ثَمُودُ، وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ، وَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ

أي أنّ تكذيب الأنبياء غير مختصٍ بهؤلاء الكفّار من قومك و ذلك لأنّه كذّبت قبلهم قوم نوحٌ نبوّته و هكذا أصحاب الرَّس و ثمود و عاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الأئيكة و قوم تبَّع كلّهم كانوا من المكذّبين لأنبياءهم و رسلهم فحقّ وعيد، أي فأستَّحقوا بما وعدناهم من العذاب و قد مرَّ الكلام في هؤلاء الأقوام فيما مضى عند الأيات النّازلة فيهم مفصّلاً فلا نطيل الكلام بذكرهم ثانياً ثمّ قال اللّه تعالى على وجه الإنكار عليهم بلفظ الإستفهام.

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ

المراد بالخلق الأوّل آدم أبو البشر يقال عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه، و أعييت اذا اتعبت، و ألغيّ، بفتح العَين التعب و المشقّة و المعنى إنّا كنّا لم نعي و لم نتعب بالخلق الأوّل فكذلك لا تفيا بخلقهم على وجه الإعادة فأنّ حكم الأمثال واحد و المحيي واحد و القدرة واحدة، و بعبارةٍ أخرى، أفعيينا بالخلق الأوّل فنعيا بالبعث و هذا في الحقيقة جواب قولهم: **ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**.

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أي بل هؤلاء الكفّار في حيرةٍ و شكٍّ من البعث مصدّقٌ و منهم مكذّب و ليس ذلك إلاّ لإلتباس الأمر عليهم في الخلق بعد الموت، و أن شئت قلت لم يلتبس عليهم الخلق الأوّل، و أنّما إلتبس الأمر عليهم في الخلق الثّاني و هو البعث مع أنّ الخليقتين حكمهما واحد من حيث الإمكان و عدمه و حيث أنّ ذلك من وساوس الشّيطان بتوسّط النّفس الأمّارة.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ

قيل المراد بالإنسان في الآية النّاس المراد به أدم، فمعنى الآية على الأوّل أنّا خلقنا النّاس و نعلم ما توسوس به نفسه، فأنّ الخالق أعرف بمخلوقه منه نفسه و ذلك لأنّ النّفس الّتي توسوس مخلوقه له لمصلحةٍ لا يعلمها إلاّ هو و فى قوله: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** إشارةٌ إلى ما ذكرناه و الحبل الوريد هو حبل العاتق يقال له بالفارسيّة (رگ گردن) و إذا كان كذلك فلا يخفى علينا ما توسوس به نفسه.

و المقصود من الآية أنّ إنكارهم البعث ليس إلاّ من قبيل الوساوس النّفسانية الّتي لا أصل لها و ليس مستنداً إلى علم و درايةٍ إذ لو كانوا من أهل العلم و الفهم و الفكر لم ينكروا البعث و علموا أنّه على الخالق القادر على كلّ شيءٍ سهلٌ يسيرٌ، و لكنّ الوساوس منعتهم عن ذلك.

إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ عَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ

إذ، متعلّقة بقوله: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ** و المتلقّيان هما الملكان الموكّلان على الإنسان أحدهما عن يمينه و الأخر عن شماله يقال لهما رقيبٌ، و عتيدٌ، و كلّهما اللّه تعالى على الإنسان ليكتبا ما يقول و ما يفعل في صحيفة أعماله، و معنى الآية نحن أقرب إليه من حبل وريده و إذا كان كذلك فنحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملكٍ يخبرنا و لكنّهما وكّلا به إتماماً للحجّة و توكيداً للأمر عليه

و قال مجاهد وكّل اللّه بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل و ملكين بالنّهار يحفظان عمله و يكتبان أثره إلزاماً للحجّة:

أحَدهما: عن يمينه يكتب الحسنات و الأخر عن شماله يكتب السّيئات فذلك قوله تعالى: **عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ عَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ.**

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

أي لا يتكلّم بشيءٍ من القول إلاّ و عنده حافظ يحفظ عليه، فالرَّقيب الحافظ، و العتيد المعدّ، للزوم الأمر، ما يلفظ، مأخوذ من لفظ الطّعام و هو إخراجه من الفم.

قال بعض المفسّرين، في الرَّقيب ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه المتبع للأمور.

الثّاني: أنّه الحافظ.

الثّالث: أنّه الشّاهد.

و في العتيد وجهان:

أحدهما: أنّه الحاضر الذّي لا يغيب.

الثّاني: أنّه الحافظ المعدّ إمّا للحفظ و إمّا للشّهادة.

و قال الجوهري العتيد الشّئ الحاظم المهيأ، ثمّ مال وكّله يرجع إلى معنى الحضور و منه قول الشّاعر:

لئن كنت منّي في العيان مغيّباً فذكرك عندي في الفؤاد عتيدُ

أقول و عن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من قلبٍ إلاّ وله أذنان على أحديهما ملكٌ مُشد و على الأخرى شيطان مفتن هذا يأمره و هذا يزجره، الشّيطان يأمره بالمعاصي و الملك يزجره عنها و هو قول الله تعالى: عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ عَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ إنتهى[1].

وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ

سكرة الموت غمرته و شدّته فأنّ الإنسان مادام حيّاً تكتب عليه أقواله و أفعاله ليحاسب عليها يوم الحساب ثمّ يجيئه الموت و هو يراه عند المعاينة من ظهور الحقّ فيما وعد الله و أوعده، و قيل الحقّ هو الموت سمّي حقّاً إمّا لإستحقاقه و إمّا لإنتقاله إلى دار الحقّ و هو الأخرة فعلى هذا في الكلام تقديم و تأخير و تقديره جائت سكرة الحقّ بالموت.

و قيل الحقّ هو الله تعالى و المعنى جائت سكرة أمر الله بالموت.

و قيل الحقّ هو الموت و المعنى و جائت سكرة الموت بالموت هذا ما قالوه في معنى الآية و الذّي يختلج بالبال في معنى الآية هو أنّ المراد بالحقّ معناه المتعارف عند النّاس الّذي نعبّر عنه بضدّ الباطل ففي الآية إشارة إلى أنّ الموت حقٌّ لكلّ مخلوقٍ أي كلّ مخلوقٍ يستَّحقه لقوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ**[2] والسِّر فيه أنّ الوجُود للمخلُوق عارية عارضة على ماهيّته و ليس عين ذاته كما هو كذلك في الواجب، و كلّ عارضٍ فهو قابلٌ للزّوال عن معروضه لا محالة و إلاّ لا يكون عارضاً و لا نعني بالموت إلاّ هذا أي زوال العارض عن المعروض.

١- تفسير نُور الثّقلين ج ٥ ص ١١٠ ٢- الرّحمن = ٢٦ / ٢٧

و أن شئت قلت زوال الوجود عن ماهيّة و قد فسّر الحقّ بأنّه الثّابت الّذي لا يتّغير فالموت حقٌّ بهذا المعنى لكلّ مخلوقٍ و هذا معنى قوله: **وَ جَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** أي يقال له عند المَوت ذلك الذّي كنت منه تهرب و تروع، يقال حاد يحيد حيوداً، مال عنه و عدل، و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى:

قال اللّه تعالى: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ**(١).

قال اللّه تعالى: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقيكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالى: **أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**(٣).

و غيرها من الأيات الدالّة على أنّ الموت لابدّ منه لكلّ مخلوقٍ.

وَ نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ

ذكروا في الصُّور وجهين:

أحَدهما: أنّه جمع صورة.

الثّاني: أنّ الصُّور قرنٌ ينفخ إسرافيل فيه النَّفخة الأولى فيموت الخلق، و النَّفخة الثّانية فيحيون يوم القيامة و هو يوم الوعيد الّذي وعد اللّه أن يعاقب فيه من يكفر به و يعصي أمره و يثيب من يؤمن به و يمتثل قاله الشّيخ في التّبيان، و هو حقٌّ.

و أمّا الوجه الأوّل ممّا ذكره و هو أنّ الصُّور جمع صورة ينفخ اللّه في الصُّور بأن يحيها يوم القيامة، فلا نفهم معناه و ذلك لأنّ الصُّورة يجمع على صُوْر بضّم الصّاد و سكون الواو هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لا معنى للنَّفخ في الصُّور، فأنّ الصُّورة من الأعراض و العرض لا

١- الاحزاب = ١٦ ٢- الجمعة = ٨
٣- النّساء = ٧٨

يوجد في الخارج بدون الموضوع بل وجوده في نفسه وجوه لموضوعه في الخارج.

نعم لو قلنا بأنّ صور الخلائق موجودة في الصُّور مع معروضاتها وجوداً عقليّاً فإذا نفخ إسرافيل في الصُّور فكأنّما نفخ في الصُّور القائمة بذواتها فيحيون بأذن اللّه، فله وجه و لم نعلم من قال به.

أمّا الوجه الثّاني: ممّا ذكرهﷺ فهو المشهور المؤيّد بالأيات و الأثار كلام لأحدٍ فيه.

وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ

أي و جائت يوم الوعيد يوم القيامة كلّ نفسٍ من المكلّفين و معها سائقٌ يسوقها، و شهيدٌ يشهد عليها إختلف المفسّرون فيهما، فقال بعضهم أنّهما ملكان أحدهما يسوقه و الأخر يشهد عليه بما يعمله من حاله.

و قال إبن عبّاس السّائق من الملائكة و الشّهيد من أنفسهم الأيدي و الأرجل، و قيل السّائق الملك و الشّهيد العمل، و الأقوال كثيرة نقلوها في تفاسيرهم.

و الحقّ أنّ السّائق ملكٌ يسوقه و الشّهيد من أنفسهم الأيدي و الأرجل كما قال إبن عبّاس و الدلّيل على ذلك:

قال اللّه تعالى: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**(٢).

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ اَلْيَوْمَ حَدِيدٌ

١- النّور = ٢٤ ٢- يس = ٦٥

الغفلة ذهاب المعنى عن النّفس و ضدّه اليقظة و المعنى، يقال له، يمكن أن يكون القائل هو السّائق الّذي يسوقه إلى النّار، و يمكن أن يكون ملكاً أخر و كيف كان يقال له لقد كنت في غفلةٍ أي في سهوٍ و نسيانٍ في الدّنيا، من هذا، أي من هذا اليوم **فَكَشَفْنَا** أي أزلنا و رفعنا **عَنْكَ غِطَآءَكَ** الغطاء السَّتر أي و أزلنا عنك السَّتر حتّى ظهر لك الأمر.

فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ أي بصرك اليوم قوّيٌ ناخذ يرى ما كان محجوباً عنك في الدّنيا.

و قال بعضهم معناه نظرك إلى لسانِ ميزانك حين توزن حسناتك و سيّئاتك، و قيل المراد بالبصر بصر القلب كما يقال هو بصيرٌ بالفقه فبصر القلب و بصيرته و تبصرته شواهد الأفكار و نتائج الإعتبار كما تبصر العين ما قابله من الأشخاص و الأجسام.

أقول قرأ المشهور **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا** فعلى هذه القراءة الخطاب في كنت، للإنسان شخصه و عليها فالمراد بقوله: **فَبَصَرُكَ** البصر المحسوس و هو العين النّاظرة، و قرأ بعضهم بكسر التّاء في، كنت، و هكذا في غطائك، و عنك و بصرك اليوم حديد و على هذه القراءة فالمخاطب في، كنت و أخواتها، هو النّفس لا الشّخص.

و من المعلوم أنّ النّفس لا عين لها ظاهراً لتبصر بها و أنّما بصرها بصيرتها و عندي أنّ هذه القراءة أولى من الأولى و ذلك لأنّها أوفق بسياق الآية و الّتي قبلها فأنّ اللّه تعالى في الآية السّابقة و جائت كلّ نفسٍ و لم يقل كلّ إنسانٍ أو كلّ شخصٍ مثلاً، ثمّ قال في هذه الآية **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ** فالخطاب للنّفس بقرينة السّياق و إذا كان كذلك فالأحسن أن يقال فبصرك اليوم حديد، أي بصيرتك و اللّه أعلم.

و على التّقديرين ففي الآية دلالة على أنّ عالم الطّبيعة كالغطاء و السَّتر بالنّسبة إلى الأخرة قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **النّاس نيامٌ إذا ماتوا تنبّهوا** فا

الانسان مادام كونه في الدُّنيا مشغولٌ بما فيها غافلٌ عمّا ورائها من الأفات و البليّات.

فعن الفقيه في رواية السَّكوني أنّه قال:

قال عليّ عليه السلام: ما من يوم يمُّر على إبن أدم إلاّ قال له ذلك اليوم أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد فأفعل فيَّ خيراً و أعمل فيَّ خيراً أشهد لك به يوم القيامة فأنّك لن تراني بعد هذا أبداً إنتهى[1].

وَ قٰالَ قَرِينُهُ هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ، مَنّٰاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ

قيل المراد بالقرين الملك الشَّهيد عليه، و قيل، قرينه من الشّياطين، و الحَّق أنّ القرين الملك الشَّهيد عليه بدليل قوله: **هٰذٰا مٰا لَدَيَّ عَتِيدٌ** أي هذا ما عندي من كتابة عمله معَّدٌ محفوظ، و من المعلوم أنّ الكاتب الملك لا الشّيطان فلّما قال الملك هذا الذّي وكّلني به من بني آدم قد أحضرته و أحضرت ديوان عمله.

يقول اللّه تعالى: **أَلْقِيٰا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفّٰارٍ عَنِيدٍ** و إنّما قال ألقيا لأنّ المأمور بالإلقاء هو الملكان الموكّلان عليه و قيل يجوز أن يكون على لفظ الإثنين و المأمور واحد لأنّه بمنزلة إلقاء إثنين في شدَّته و نقل عن الخليل و الأخفش أنّهما.

قالا هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الإثنين إنتهى، ما قالاه.

و أنا أقول لا أعلم وجهه، و على فرض صحَّة النّقل و إستقامته المعنى لا ربط له بما نحن فيه لأنّ المخاطب ليس بواحدٍ.

١- نُور الثّقلين ج ٥ ص ١١٢

و قال المازني، قوله: **أَلْقِيَا** يدُلّ على، ألق ألق و قال المبّرد هي تثنية على التّوكيد و الحقّ ما ذكرناه فأنّ هذه الوجوه ضعيفة جدّاً، و قوله: **عَنِيدٍ** أي معاند فأنّ العناد وراء الكفر.

و قوله: **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ** أيضاً من أوصاف الكفّار لأنّهم لا يعلمون الخير بل يمنعون عن العمل به أيضاً.

و قال بعضهم في قوله: **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ** يعني الزّكوة المفروضة و كلّ حقٍّ واجب و أنت ترى أنّ حمل اللّفظ على معناه العامّ الشّامل لكلّ خيرٍ أولى من حمله على معنى خاصّ من غير دليلٍ، و أمّا قوله: **مُعْتَدٍ** أي أنّه معتدٌّ في منطقه و سيرته و أمره فهو ظالمٌ من جميع الجهات و قوله: **مُعْتَدٍ** أي الشّاك في التّوحيد و قيل هو المشرك و يدُلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك.

ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ

كأنّه قيل من المريب فقال تعالى في الجواب، الّذي جعل مع اللّه إلهاً أخر، و لا نعني بالمشرك إلاّ هذا و الشّرك من أعظم الذّنوب و قد ثبت أنّ الظُّلم الّذي لا يغفر أبداً هو الشّرك و لذلك قال تعالى: **فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ** أمر اللّه تعالى بإلقاء المشرك في العذاب الشّديد، و الإنصاف أنّ العذاب الشّديد حقٌّ له لأنّه عبد في الدُّنيا الأصنام و الأوثان الّتي لا شعور لها و لا عقل و ترك المعبود بالحقّ الّذي خلقه و خلق السّموات و الأرض و ما بينهما و من كان كذلك فهو مستّحقٌّ للعذاب بلا كلام.

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَ لَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ

إتّفق المفسّرون على أنّ المراد بالقرين في هذه الأية، الشّيطان الّذي أغواه و أضلّه و على هذا فمعنى الآية أنّ قرين المشرك و هو شيطانه الّذي أغواه في الدُّنيا، يقول يوم القيامة ربّنا ما أطغيته، أي ما أخرجته إلى الطُّغيان و هو تجاوز

الحدّ في الفساد **وَ لٰكِنْ كٰانَ** هو بسوء إختياره **فِي ضَلاٰلٍ** عن الإيمان **بَعِيدٍ** عن إتّباعه.

و أنا أقول أيُّ إشكالٍ يلزم إذا قلنا المراد بالقرين الملك كما حملنا القرين في أية (٢٣) عليه، و توضيح ذلك إجمالاً، أنّ الملكين الموكّلين على الإنسان أحدهما مأمور أن يكتب سيّئاته، و الأخر مأمورٌ أن يكتب حسناته، و قد ورد أنّ الكافر يقول يوم القيامة ربّ أنّه زاد علَّي في الكتابة فيقول الملك ما أطغيتُه أي ما زدت عليه في الكتابة، و أنّ الوليد بن المغيرة يقول للملك الذّي كان يكتب سيّئاته ربّ أنّه أعجلني فيقول الملك ربّنا ما أطغيته أي ما أعجلته و عند ذلك يقول اللّه تعالى:

قٰالَ لاٰ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ

الخطاب في قوله: **لاٰ تَخْتَصِمُوا** للكافر و قرينه نهاهما اللّه عن المخاصمة فيمكن الإستدلال بهذه الآية على أنّ المراد بالقرين هو شيطانه الّذي أغواه في الدّنيا و ذلك لأنّ قوله و قد قدَّمت إليكم بالوعيد، معناه قدَّمت إليكم به في دار التّكليف فلم تنزجروا و خالفتم أمرى.

و من المعلوم أنّ الملك لا يخالف أمر اللّه لعصمته و الّذي يخالفه هو الشّيطان اللّهم إلاّ أن يقال الخطاب لجميع الكفّار و الملك خارج عن الخطاب و المعنى لا تختصموا أيّها الكفّار لدَّي و قد قدَّمت إليكم بالوعيد في الدّنيا بتَّوسط الأنبياء ثمّ قال تعالى:

مٰا يُبَدَّلُ اَلْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مٰآ أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ

معناه أنّ الّذي قدَّمته إليكم في الدُّنيا من الوعيد و هو العقاب على من أنكرني و كذَّب رسلي لا يبدَّل بغيره أي بعدم العقاب و بعبارةٍ أخرى أنّي قدَّمت إليكم أن أعاقب من خالفني و كذَّب رسلي و هذا الحكم لا يتغيّر و لا

يتبدّل فأنّي لست بظالم على أحدٍ من خلقي بل العبد هو الظّالم على نفسه فلا يلوّمن إلاّ نفسه فأنّي قدْ أتّممت عليه حجّتي في الدّنيا بإعطاء العقل و إرسال الرّسل و جعلته مختاراً في أفعاله و أقواله ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيا من حيّ عنها.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

قرأ نافع و أبوبكر، و يوم يقول بالياء إعتباراً بقوله: **لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ** و قرأ الباقون بالنُّون على الخطاب و عليها المصاحف فعلاً و النُّون نُون العظمة.

و قرأ الحسن، يوم أقول، و عن إبن مسعود يوم يقال، و قيل تقدير الكلام و أنذرهم يوم نقول لجهنّم هل إمتلأت، و هذا الإستفهام على سبيل التّصديق لخبره و التّحقّيق لوعده و التّقريع لأعداءه و التّنبيه لجميع عباده (وتقول) جهنّم **هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** فيه وجهان:

أحدهما: معناه ما بقي فيَّ موضعٌ للزّيادة فمعنى الكلام الجحد، كقوله ﷺ: **هل ترك لنا عقيل من ربعٍ أو منزلٍ** أي ما ترك.

الثّاني: أن يكون الإستفهام بمعنى الإستزادة أي هل من مزيدٍ فأزداد، و أنّما صلح هذا للوجهين، لأنّ في الإستفهام ضرباً من الجحد، و من المعلوم أنّه ليس هناك قولٌ باللّفظ و أنّما هو على طريق المثل أي أنّ جهنّم فيما يظهر من حالها بمنزلة النّاطقة بذلك كما قال الشّاعر:

إمتلأ الحوض و قال قطن — مهلاً رويداً قد ملأت بطني

و قيل ينطق اللّه النّار حتّى تقول هذا كما تنطق الجوارح يوم القيامة.

فعلى الأوّل: تقول جهنّم بلسان الحال.

علىٰ الثّاني: بلسان المقال و لا شكّ أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير فهذا تفسير ألفاظ الآية و ما يعجبني في المقام ما نقله القرطبي في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه.

و في صحيح مسلم والبخاري و الترّمذي عن أنس بن مالك عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لا تزل جهنّم يلقى فيها و تقول هل من مزيدٍ حتّى يضع فيها ربّ العزّة قدمه فينزوي بعضها إلى بعضٍ و تقول قطّ قطّ بعزّتك و كرمك و لا يزال في الجنّة فضل حتّى ينشئ اللّه فيها خلقاً فيسكنهم فضل الجنّة إنتهى.

و في رواية أخرى من حديث أبوهريرة و أمّا النّار فلا تمتلئ حتّى يضع اللّه فيها رجله يقول لها، قطّ قطّ، فهناك لك تمتلئ و ينزوي بعضها إلى بعضٍ فلا يظلم اللّه من خلقه أحداً و أمّا الجنّة فينشئ اللّه لها خلقاً، ثمّ أطال الكلام بما لا نحتاج إلى نقله و من أراد الوقوف عليه فعليه بكتابه.

و أنا أقول أنظروا يا أهل العلم و الإنصاف إلى هذه الأخبار الموصوفة المجعولة الّتي وضعها شياطين الإنس أمثال أنس خادم رسول اللّه و أبي هريرة الدُّوسي الكذّاب الجاهل و نسبوها إلى رسول الإسلام الّذي قال اللّه تعالى فيه **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**[1] و ما أقبح بالرّجل الّذي يدّعي العلم و يفسّر كلام اللّه أن يكتب أكاذيب أنس و أمثاله في كتابه يفسّر به كلام اللّه و لم يعلم أنّ هذا من أظهر مصاديق التّفسير بالرّأي الّذي قال رسول اللّه فيه، **من فسّر القرأن برأيه فليتّبوأ مقعده من النّار** و نحن نسأل القرطبي و نقول أيّها الرّجل ما ذنب نبّي الإسلام حتّى ينسب إليه هذه الأكاذيب الّتي يستحي القلم عن تحريره و اللّسان عن ذكره و بيانه أتزعم أنّ الرّسول كان مبعوثاً إلى الخلق من المرسل الّذي له رجل و يضع رجله في النّار و إذا كان كذلك فأيُّ فرقٍ بين الخالق و المخلوق ألم تعلم أنّ الّذي له رجل و يد و أمثال ذلك فهو مركّبٌ من الأجزاء وكلّ مرّكبٍ يحتاج في وجوده و بقاءه إلى أجزاءه بل المرّكب لا وجود له في الحقيقة إلاّ وجود الأجزاء، و كلّ محتاجٍ فهو ممكن

١- النّجم = ٤ / ٣

الوجود و كلّ ممكنٍ فهو مخلوق لغيره و كلّ مخلوقٍ لغيره لا يكون واجب الوجود فينتج أنّ الخالق مخلوق محتاج إلى غيره و العاقل لا يتّفوه بهذا الكلام فضلاً عمّن يدّعي الإسلام و أمّا نحن فنقول، لعنة اللّه ولعنة ملائكته و رسله على من عبد إلهاً له رجلّ و يدٌ و امثال ذلك من الأعضاء و صلوات اللّه و سلامه على من وصف اللّه معبوده بقوله:

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتِهِ، وَ كَمٰالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَ كَمٰالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمٰالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاٰصُ لَهُ، وَكَمٰالُ الْإِخْلاٰصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفٰاتِ عِنْهُ، لِشَهٰادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهٰا غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَ شَهٰادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَّصَفَ اللهُ سُبْحٰانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنّٰاهُ، وَ مَنْ ثَنّٰاهُ فَقَدْ جَزّٰاهُ، وَمَنْ جَزّٰاهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَ مَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشٰارَ إِلَيْهِ و... .

الى آخر الكلام الموجود في نهج البلاغة لمولانا أميرالمؤمنين.

و أن شئت الوقوف على معنى هذه الكلمات و غيرها ممّا هو مسطورٌ في الكتاب فعليك بمراجعة شرحنا الموسوم بمفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة فأنّك تجده بحراً لا ساحل له.

و محصلّ الكلام أنّ اللّه لا يعرف إلاّ من طريق أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت و قد عصمهم اللّه عن الزّلل و الخطأ في القول و الفعل و طهّرهم تطهيراً فنقول:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ثمّ أنّ القرطبي زاد في الطّنبور نغمةً أخرى و قال ما هذا لفظه، و قال علماؤنا رحمهم اللّه أمّا معنى القدم هنا، فهم قومٌ يقدّمهم اللّه الى النّار و قد سبق في علمه أنّهم من أهل النّار و كذلك الرّجل و هو العدد الكثير من النّاس و غيرهم يقال رأيت رجلاً من النّاس و رجلاًمن جراد الى آخر ما قال إنتهى.

أي يقال لهؤلاء المتّقين الّذين أزلفت الجنّة لهم، **أُدْخُلُوهَا** أي أدخلوا الجنّة، بسلامٍ، أي بأمانٍ من كلّ مكروهٍ و سلامةٍ من جميع الأفات **ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ** في الجنّة الى الأبد فلا تخرجون منها أصلاً، ثمّ قال تعالى: **لَهُمْ مَا يَشَآؤُنَ فِيهَا** أي للمتّقين ما يشاؤن في الجنّة من أنواع النِّعم، ولدينا مزيدٌ، لهم زيادةٌ على مقدار إستحقاقهم بعملهم، و نحن نقول ولمثل هذا فليعمل العاملون.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ

كم، تفيد الكثرة و المعنى و كثيره أهلكنا قبلهم، من الكفّار في الأمّم السّالفة كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم بسبب كفرهم و عنادهم و صدَّهم عن سبيل اللّه، و انمّا قلنا، كم، تفيد الكثرة لأنّ، كم، تكون إستفهاماً تارةً في معنى الخبر للتّكثير و أنمّا خرجت من الإستفهام الى التّكثير لتكون نقيضة (ربّ) في التّقليل و كانت أحقّ به لأنّها (إسم) مع إحتمالها للتّقليل فأمّا، ربّ، في الكلام فهي حرف يجري مجرى حرف النّفي لأنّ التّقليل أقرب الى النّفي هكذا قرّره في التّبيان و أمّا قوله: **مِنْ قَرْنٍ** فالقرن المقدار من الزّمان الّذي يقترن بالبقاء فيه أهله على مجرى العادة و قال قوم هو مائة و عشرون سنة، و قيل ثمانون سنة، و قيل سبعون سنة، و قيل أربعون سنة، **هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا** أي الّذين أهلكناهم من الكفّار في الأمم السّالفة كانوا أشدَّ قوّةً و هيبّةً و سطوةً من هؤلاء الكفّار في عهد النّبي و مع ذلك أهلكناهم و لم يتعذّر علينا ذلك و في قوله **فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَادِ** إشارة الى قوّتهم و شدّة بأسهم فأنّ التّنقيب التّفتيح بما يصلح للسّلوك و منه النّقب و هو الفتح الّذي يصلح للمسلك في أعماق الأرض و بطون الأودية و الجبال و مع ذلك لم يقدروا على دفع العذاب من أنفسهم و إلى هذا أشار اللّه بقوله: **مِنْ مَحِيصٍ** و هو الفرار، أو الذّهاب في

ناحيةٍ عن الأمر للهرب منه كلّ ذلك لدفع العذاب عن النّفس و لات حين مناص و إذا كان الأقوى عاجزاً عن دفع العذاب عن نفسه فالأضعف بطريقٍ أولى.

قال الزّجاج هؤلاء الكفّار طوفوا في البلاد فلم يجدوا مخلصاً من الموت ثمّ قال تعالى:

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ

و المعنى أنّ في ذلك، القصص الّتي ذكرناه في القرأن من هلاك الأقوام و نزول العذاب إليهم (لذكرى) أي فيما ذكرناه موعظة و تذكيه **لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ** اي عقلٌ يتدبّر و يعتبر به **أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ** أي إستمع القرأن تقول العرب (ألق إلَّي سمعك أي إستمع).

قال إبن عبّاس معناه، إستمع و لم يشغل قلبه بغير ما يستمع فهو شهيد لما يسمع و يفقهه غير غافلٍ عنه و به قال مجاهد والضّحاك أيضاً و محصلّ الكلام أنّ فيما ذكرناه في هذه السُّورة و غيرها من السُّور من قصص الأنبياء و أممهم عظةٌ لمن إتَّعظ به و عبرة لمن إعتبر أن كان له عقل و فهمٌ و أمّا من ليس له عقل و فهمٌ فلا ملام لنا معه لأنّه كالأنعام بل أضّل منها.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ

أقسم اللّه تعالى أنّه خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات في ستّة أيّام، و قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف و غيرها و فسَّرنا قوله في ستّة أيّامٍ و ذكرنا الأقوال فيها فلا نطيل الكلام بذكره في المقام.

و أمّا قوله: **وَ مٰا مَسَّنٰا مِنْ لُغُوبٍ** فاللُّغوب الإعياء والتَّعب، قيل هذه الآية نزلت في يهود المدينة زعموا أنّ اللّه خلق السّموات و الأرض في ستّة أيّام

الإحياء وإحتمل بعضهم أن يكون المراد بالمنادي الكفّار ينادون بالويل و الثُّبور من مكانٍ قريبٍ أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النّداء، إنتهى.

و الإنصاف أنّ هذا الإحتمال بعيدٌ غاية البعد و الحقّ أنّ الآية إشارة إلى المحشر أو المنادي هو منادي اللّه و يؤيّده قوله تعالى بعد ذلك.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ

كأنّه قال قائل أيُّ يومٍ من الأيام ينادي المناد من مكانٍ قريبٍ، فقال اللّه تعالى في الجواب **يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ** وصفها بالحقّ لأنّ الصَّيحة من جانب اللّه تعالى و في قوله: **ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ** إشارة إلى أنّه يوم الخروج من القبور فهي النَّفخة الثّانية.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنّ الإحياء و الإماتة بيده فقال:

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ

و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ فأنّ الخالق هو اللّه و المحي و المميت هو اللّه و رجوع الخلق إلى اللّه فالخلق مقهورٌ تحت قدرته لا يمكن له الفرار من حكومته و لابدّ له من التّسليم إلى قضاءه و قدره إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فأين المفرّ.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى علائم ذلك اليوم و ذكر منها تشقّق الأرض فقال:

يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعًا ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ

تشقّق الأرض كناية عن شقّ قبورهم و خروجهم منها (سراعاً) أي بسرعةٍ لا تأخير فيها **ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ** أي هو سهلٌ علينا و الحشر الجمع بالسَّوق من كلّ جهةٍ.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ

أي نحن أعلم بما يقولون هؤلاء الكفّار المنكرين للبعث **وَ مٰآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبّٰارٍ** أي بمسلّطٍ تجبرهم على الإسلام، و قيل معناه ما أنت بربّ تجازيهم على أعمالهم و أنّما أنا المجازي لهم، و قيل معناه ما أنت عليهم بفظٍّ في دعائهم إلى توحيد اللّه و إخلاص عبادته.

أقول الحقّ في معنى الجبّار ما ذكرناه و المقصود أنّك لا تجبرهم على قبول الحقّ و ليس عليك إلاّ البلاغ و الدّليل على ما ذكرناه فسّرنا الكلام به هو قوله بعد ذلك **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ** أي ذكّرهم يوم الحشر بالقرأن إتماماً للحجّة عليهم و قوله من يخاف وعيد، معناه أنّ التّذكّر لا ينفع إلاّ لمن يخاف وعيد اللّه و عذابه و أمّا من لا يخاف فلا ينفعه الوعظ و النّصيحة أصلاً.

■

هَلْ أَتيٰكَ حَديثُ ضَيْفِ إِبْراهيمَ ٱلْمُكْرَمينَ ﴿٢٤﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقٰالُوا سَلاٰمًا قٰالَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَراٰغَ إِلىٰ أَهْلِهِ فَجٰآءَ بِعِجْلٍ سَمينٍ
﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قٰالَ أَلاٰ تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلاٰمٍ عَليمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهٰا وَ
قٰالَتْ عَجُوزٌ عَقيمٌ ﴿٢٩﴾ قٰالُوا كَذٰلِكِ قٰالَ رَبُّكِ
إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكيمُ ٱلْعَليمُ ﴿٣٠﴾

◄ اللّغة

وَ ٱلذّٰارِيٰاتِ ذَرْوًا: ذروة السّنام أعلاه و ذرته الرّيح تذروه و تذريه، و ذرواً، بفتح الذّال مصدر منه و المراد بالذّاريات الرّياح سميّت بها لأنّها تذروه الرّياح.

فَالْحٰامِلاٰتِ: جمع حاملة و هى مشتّقة من الحمل و المراد بها هاهنا السّحاب لكونها تحمل المطر.

وِقْرًا: بكسر الواو و ثقل الحمل على ظهرٍ أو في بطنٍ و أكثر ما يستعمل في حمل البغل و الحمار، و أمّا الوَقر بفتح الواو فهو ثقل الأذن.

فَالْجٰارِيٰاتِ: جمع جارية و المراد بها السُّفن الجارية على الماء.

يُسْرًا: أي سهلاً و هو ضدّ العسر.

ٱلْحُبُكِ: هي جمع حباك بكسر الحاء و الحباك الطّريقة.

يُؤْفَكُ: الأفك الصَّرف و المنع.

ٱلْخَرّٰاصُونَ: خراصُون جمع خرّاص الكذّاب.

غَمْرَةٍ: بفتح الغين و سكون الميم الغفلة و السَّهو، و قيل الغمرة ما ستر الشّئ و غطاه و منه غمرات الموت.

يَهْجَعُونَ: الهجوع النّوم.

فَرَاغَ: الرَّوغ الذّهاب في خفاء.

بِعِجْلٍ: العجل واحد البقر الصَّغير.

سَمِينٍ: الكثير الشَّحم على اللَّحم و نقيضه الهزال.

صَرَّةٍ: الصَّرة الصَّيحة.

فَصَكَّتْ: أي لطمت أو ضربت.

◄ الإعراب

ذَرْوًا مصدر العامل فيه إسم الفاعل وِقْرًا هو مفعول الحاملات و يُسْرًا مصدر في موضع الحال و أَمْرًا مفعول المقسّمات يَوْمَ هُمْ هو مبنيّ على الفتح لإضافته إلى الجملة أو موضعه الرّفع أي هو يومهم (هم) مبتدأ ويُفْتَنُونَ الخبر ءَاخِذِينَ حال من الضّمير في الظّرف كَانُوا قَلِيلًا في خبر كان وجهان:

أحدهما: مَا يَهْجَعُونَ و في، ما، وجهان:

أحدهما: هي زائدة.

الثّاني: هي نافية و الوجه الثّاني في خبر، كان، أنّ قليلاً خبره و، ما مصدريّة.

وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ المبتدأ محذوف أي و في أنفسكم أيات مِثْلَ مَآ يقرأن بالرّفع على أنّه نعتٌ لحقّ أو خبر ثان فِي صَرَّةٍ هو حال من الفاعل كَذَٰلِكِ في موضع النّصب بقال الثانيّة.

◄ التّفسير

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا، فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا، فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا، فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا

هذا جواب القسم الّذي هو (و السّماء) فأنّ **الواو** للقسم فالمعنى أقسم بالسّماء ذات الحبك أنكُم في قولٍ مختلف، أي أنكُم يا أهل مكّة في الحّق لفي قولٍ مختلف لا يصّح إلاّ واحدٍ منه و هو أمر النّبي و ما دعاكم إليه و ذلك لأنّ أحد الفريقين في هذا الإختلاف على الباطل لا محالة وتوضيح ذلك إجمالاً أنّ فيكم قولين:

أحدهما: قول النّبى: **و ما دعاكم إليه**.

الثّانى: قولكم بتكذيب النّبي و ما جاء به من عند اللّه و الشُّقوق المحتملة في المقام أربعة: صدق القولين معاً و كذبهما كذلك و صدق قول النّبي و كذب قولهم، و بالعكس، لا سبيل إلى الأوّل و هو صدق القولين لأنّه من إجتماع النَّقيضين و هو محال وجه التّناقض ظاهر لأنّ إنكار الحّق و الإقرار به لا يجتمعان و الكفّار أنكروا التّوحيد و النُّبوّة و النّبي أثبتهما و أقرّ بهما و الإنكار و الإقرار متناقضان لا سبيل إلى الثّاني أيضاً لأنّ القول في الواقع أمّا حقٌّ أو باطل لا يخلو منهما و الحصر عقلّي فالقول بكذبهما يلزم أن يكون الأقوال كلّها، باطلة و هو من إرتفاع النَّقيضين الّذي يحكم العقل بإستحالته كالإجتماع.

لا سبيل إلى القول الرّابع و هو صدق قول الكفّار و كذب قول النّبي لأنّ كذب قول النّبي معناه كذب قول اللّه لأنّه **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** و الكذب قبيح و اللّه تعالى منّزه عن القبائح و من أصدق من اللّه قيلاً.

فَالقَول الثّالث: هو الحّق و هو أنّ النّبي صادق في قوله و الكفّار كاذبون فيه و هو المطلوب.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ

الافك الصَّرف و المنع و المعنى يصرف عنه من صرف، أي يصرف و يمنع عن محمّد ﷺ و الإيمان به من صرف عن الإيمان بسبب قولهم هو أي القرآن سحرٌ و كهانة و أساطير الأوّلين و محمّدٌ ﷺ ساحرٌ أو مجنون أو غير

ذلك ممّا يمنع من أراد الإيمان عن قبوله و فيه إشارة إلى أنّهم مضافاً إلى كفرهم كانوا صادّين عن الحقّ و متابعته.

قُتِلَ ٱلْخَرَّٰاصُونَ

الخرّاص، الكذّاب و أصله الخرص و هو القطع من قولهم خرص فلان كلامه إذا قطعه، و أخترصه إذا إفتراه لأنّه إقتطعه من غير أصلٍ.

قال المفسّرون، قتل، في المقام بمعنى، لعن، و المعنى لعن الخَراصون الكاذبون، و قال إبن عبّاس، الخرّاصون المرتابون يعني الكهنة، و قال الحسن، هم الّذين يقولون لسنا نبعث و معنى، قتل، أي هؤلاء ممّن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين، و قال الفّراء من لعنه اللّه فهو بمنزلة المقتول الهالك هذا ما قالوه في تفسير الكلام.

و أنا أقول أمّا الخرّاصون فلا كلام لنا فيه لظهور معناه، و أمّا قوله: **قُتِلَ** فلا يبعد أن يكون معناه أنّهم سيقتلون في غزوة بدر و أحد و خندق و غيرهما و لمّا كان قتلهم محقّق الوقوع فكأنّهم قتلوا في الماضي فقال، قتل، و هذا كقوله تعالى: **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ** بصيغة الماضي و أمثاله كثيرة في القرآن.

ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ

صفة للخَّراصون و الغمرة ما ستر الشّئ و غطّاه و منه نهرٌ غمرٌ أي يغمر من دخله و منه غمرات الموت و قوله: **سَاهُونَ** أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة، و معنى الآية أنّ هؤلاء الكفّار لجهلهم كأنّهم في سترٍ و غطاء عمّا يجب عليهم من التَّوحيد و الإنقياد بالبعث ساهون أي غافلون عن الحقّ و أمر الآخرة و الدّليل على ذلك أنّهم.

يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ

فيقولون ذلك إستهزاء و شكّاً منهم في القيامة و هذا معنى كونهم في غمرةٍ ساهون.

يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ

أي يقال في جوابهم أي هذا الجزاء يوم هم على النّار يحرقون، فنصب يوم على تقدير الجزاء أي جزائهم ذلك اليوم و على هذا فالدّين في الآية بمعنى الجزاء كما هو أحد معانيه.

يقال فتنت الذَّهب أي أحرقته لتختبره فأنّ أصل الفتنة الإختبار ثمّ يقال لهم كما قال اللّه تعالى:

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

أي ذوقوا عذابكم و منه قول الشّاعر:

كلّ إمرئٍ من عباد اللّه مضطهدٌ ببطن مكّة مقهورٌ و مفتونُ

أي مقتول أو معذّبٌ، هذا أي هذا العذاب هو الّذي كنتم به تستعجلون في الدّنيا و قلتم أيّان يوم الدّين، فهذا يوم الجزاء الّذي لا محيص لكم عنه أبداً فقد وقعتم الآن فيه و عرفتم صحّته إلاّ أنّ النّدم يوم القيامة لا فائدة فيه لأنّهم في الصّيف ضيّعوا اللّبن.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

لمّا بيّن فيما مضى أحوال الكفّار و سوء عاقبتهم، أشار اللّه في هذه الآية و ما يليها إلى أحوال المتّقين و حسن عاقبتهم بعد الموت فقال: **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ** و هم الّذين فعلوا الطّاعات و إجتنبوا المعاصي خوفاً من عقابه **فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ** أي في بساتين تحتها الأشجار و عيون، جمع عين و هو الماء يجري لهم في جنّة الخلد على نهاية ما يتنزّه به.

اٰخِذِينَ مٰآ اٰتيٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ

قوله: **اٰخِذِينَ** نصب علىٰ الحال أي أنّهم في جَنّاتٍ و عيُونٍ حال كونهم أخذين ما أتاهم ربّهم، من الثّواب وأنواع الكرامات والمقام في الجنّة الّتي تجري من تحتها الأنهار **إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ** أي في دار التّكليف **مُحْسِنِينَ** يفعلون الطّاعات و يجتنبون المعاصي و ينعمون على غيرهم بضروب الإحسان ثمّ عدَّ اللّه تعالى من إحسانهم أنّهم:

كٰانُوا قَليلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ، وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَ فيٓ أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰآئِلِ وَ ٱلْمَحْرُومِ

ذكر اللّه تعالى لهم من أنواع إحسانهم ثلاثة هي الأصول:

الأوّل: قوله **كٰانُوا قَليلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ** أي أنّهم كانوا قليل النّوم في الدّنيا و الهجع النّوم و أنّما كانوا قليل النّوم في اللّيل لأجل العبادة و التَّهجد فيه فأنّ صلاة اللّيل من أفضل العبادات و قد روي أنّ عزّ المؤمن في قيامه باللّيل و الصّلاة فيه و قراءة القرأن و الدُّعاء.

الثّاني: قوله **وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**.

إن قلت أليست الآية الأولى مغنية عن الثّانية.

قلت لا، و ذلك أنّ الآية الأولى أشارت إلى مدح قلّة النّوم في اللّيل و الثّانية أشارت إلى الإستغفار بالأسحار و بعبارةٍ أخرى الإستغفار بالأسحار ليس من لوازم قلّة النّوم باللّيل و قد ورد أنّ المؤمن قليل النّوم فهو مدحٌ له.

و محصلّ الكلام أنّ قوله: **كٰانُوا قَليلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مٰا يَهْجَعُونَ** فيه مدح قلّة النّوم باللّيل بقولٍ مطلق، و فى قوله: **وَ بِالْأَسْحٰارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** مدحٌ لهم لأجل الإستغفار بالأسحار و بينهما بونٌ بعيد.

الثّالث: قوله **وَ فيٓ أَمْوٰالِهِمْ حَقٌّ لِلسّٰآئِلِ وَ ٱلْمَحْرُومِ** يؤدّونه إليهم سواء

كان من الواجبات كالزّكوة و الخمس و الصّدقات الواجبة، أم من المندوبات كمطلق الصّدقات و الخيرات و الجامع أنّهم لا يبخلون بالإنفاق و الإطعام بل ينفقون من أموالهم بقدر الإمكان و هذه الأمور المذكورة في الأيات من محاسن الصّفات و مكارم الأخلاق إذا حصلت مع شرائطها.

وَ فِى ٱلْأَرْضِ اٰيٰاتٌ لِلْمُوقِنِينَ

الأيات العلامات و المعنى في الأرض دلالات واضحات على التّوحيد و أنّه لا شريك له تعالى في الملك و هو الّذي يستّحق أن يكون معبوداً لا غيره للموقنين و هم الّذين يريدون الوصول إلى مقام اليقين في باب المعرفة و لا يقنعون بالظنّ لأنّهم علموا أنّ الشكّ و الظنّ لا يغنيان من الحقّ شيئاً و لا سيّما في باب الإعتقادات الّتي لا يجوز التّقليد فيها، و لنعم ما قيل:

وفي كلّ شيءٍ له أيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

و قال الأخر:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكُ

وَ فِىٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

قال بعض المفسّرين معناه و فى أنفسكم أفلا تتفكّرون بأن تروها مصرفة من حالٍ إلى حالٍ و منتقلة من صفةٍ إلى أخرى فكنتم نطفاً فصرتم أحياء ثمّ كنتم أطفالاً فصرتم شباباً ثمّ صرتم كهولاً و كنتم ضعفاء فصرتم أقوياء فهلاّ دلّكم ذلك على أنّ لها صانعاً صنعها و مدبّراً دبّرها يصرفها على ما تقتضيه الحكمة و يدبّرها بحسب ما توجبه المصلحة، المعنى، أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنّه يرى الحقّ بعينه إنتهى ما ذكره في التّبيان.

و قال الزّمخشري في الكشّاف **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** في حال إبتدائها و تنقلها من حالٍ إلى حالٍ و فى بواطنها و ظواهرها من عجائب الفطر و بدائع ما تتحيّر فيه الأذهان و حسبك بالقلوب و ما ركز فيها من العقول و خصّت به من أصناف المعاني و بالألسن و النُّطق و مخارج الحروف و ما في تركيبها و ترتيبها و لطائفها من الأيات السّاطعة و البيّنات القاطعة على حكمة المدبّر دع الأسماع و الأبصار و الأطراف و سائر الجوارح و تأتّيها لما خلقت له و ما سوّى في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف إلى أخر ما قال إنتهى.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** أي في حياتكم و موتكم و فيها يدخل و يخرج من طعامكم.

و نقل عن الحسن أنّه قال و فى الهرم بعد الشّباب و الضّعف بعد القوّة و الشّيب بعد السّواد، و قيل المعنى و فى خلقكم أنفسكم من نطفةٍ و علقة و مضغةٍ و لحمٍ و عظمٍ إلى نفخ الرُّوح و فى إختلاف الألسنة و الألوان و الصُّور إلى غير ذلكً من الأيات الباطنة و الظّاهرة ثمّ نقل كلام الزّمخشري و حسبك بالقلوب إلى أخر ما قال إنتهى.

و قال الرّازي في تفسيره **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** إشارة إلى دليل الأنفس و هو قوله تعالى: **سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَ فِيٓ أَنْفُسِهِمْ**(١) و أنّما إختار من دلائل الأفاق ما في الأرض لظهورها فأنّ أطرافها و أكنافها لا يمكن عدّ أصنافها، فدليل الأنفس في قوله: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** عامٌّ و يحتمل أن يكون مع المؤمنين و أنّما أتى بصيغة الخطاب لأنّها أظهر لكون الإنسان علمه بما في نفسه أتمّ، و قوله تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** يحتمل أن يكون المراد و فيكم، يقال الحجارة في نفسها صلبة و لا يراد بها النّفس الّتي هي منبع الحياة و الحسّ و الحركات و يحتمل أن يكون المراد في نفوسكم الّتي بها حياتكم أيات و قوله **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** بالإستفهام إشارة إلى ظهورها إنتهى.

١- فصّلت = ٥٣

أقول أنّما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية لتعلم أنّهم إمّا أن لم يتدبّروا في كلام اللّه حقّ التدبُّر أم على قلوبٍ أقفالها و ذلك لأنّهم حملوا النَّفس في الآية على الذّات أعني به الهيكل و الجسد الّذي يقال له هذا إنسانٌ أو زيدٌ أو عمروٌ و بالجملة ما يشار إليه في الخارج و لذلك قالوا، فكنتم نطفاً فصرتم أحياءً ثمّ كنتم أطفالاً فصرتم شبّاناً و هكذا، و نحن لا ننكر أنّ ما ذكروه يدلّ على وجود الخالق البصير المدّبر، إلاّ أنّ البحث ليس في مطلق ما يدلّ على وجود الخالق بل البحث في كون الأنفس كذلك و بعبارةٍ أخرى كلامنا في معنى الأنفس و كيفيّة دلالتها على وجود خالقها و أنّه ما المراد بالأنفس في قوله تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** فنقول مستعيناً باللّه و متوكّلاً عليه لا شكّ أنّ الأنفس في قوله: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** جمع نَفس، بفتح النُّون و سكون الفاء و النَّفس تارةً يراد بها الرُّوح و تارةً يراد بها الذّات.

فَمن الأوّل:

قال اللّه تعالى: **أُخْرِجوا أَنْفُسِكُمْ** أي أرواحكم من أبدانكم.

قال اللّه تعالى: **وَ اعْلَمُوٓا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ.**

من الثّاني:

قال اللّه تعالى: **تَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِي وَ لَآ أَعْلَمُ مٰا فِي نَفْسِكَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ**(٢).

فنفسه ذاته إذا عرفت هذا فقوله تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** من قبيل الأوّل و المعنى في أرواحكم دون الثّاني، و ذلك لأنّ الإنسان مركّبٌ من الرُّوح و الجسد و هو الّذي يعبّر عنه بالبدن.

و الجسد و أن كان فيه دلالة على الخالق الحكيم حيث جعل فيه من الأعضاء و الجوارح ما لا يحيط بأسراره و لطائفه إلاّ خالقه الّذي خلقه، إلاّ أنّ

١- المائدة = ١١٦ ٢- أل عمران = ٢٨

دلالة الرُّوح أتمّ و أدقّ من دلالة الجسد و ما فيه من الأعضاء و ذلك لأنّ دلالة الجسد على المدّعي ليس إلاّ كدلالة سائر الموجودات من الحيوان و الجماد و النَّبات فأنّ عجائب الخلقة فيه ليس أكثر من عجائب الخلقة في الحيوان و غيره من الموجودات الخارجيّة أن لم يكن بأقلّ منها ألا ترى أنّ الّله تعالى جعل في جسد الحيوان من اللَّحم و العظم و الدَّم و الشَّرايين و الأوردة من الأجزاء مثل ما جعله في بدن الإنسان و من القوى الحيوانيّة أيضاً كذلك و حاصل الكلام أنّ حال بدن الإنسان حال بدن الحيوان في أسرار الخلقة و الودائع المودّعة فيه، و هذا بخلاف الرُّوح و النّفس فيه فأنّ مظهريّة الرُّوح لخالقها أتَّم و أكمل و أعظم من جميع الموجودات الخارجيّة و لأجل هذا نسبها اللّه تعالى إلى نفسه تشريفاً و تعظيماً فقال: **وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**.

و من المعلوم أنّ اللّه تبارك و تعالى لا روح له و أنّما قال ذلك من جهة التَّشريف و الكرامة و ليس هذا إلاّ من جهة أنّ الرُّوح أشرف و أكرم من كلّ مخلوقٍ خلقه اللّه لأنّه تعالى أودع فيها ما لم يودع في غيرها و لذلك يقال أنّ الإنسان أشرف المخلوقات و هى الّتي يعبّر عنها بتاج الكرامة في قوله تعالى: **وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ** و محصلّ الكلام أنّ شرف الإنسان بروحه لا بجسده و بدنه بل الإنسان في الحقيقة ليس إلاّ الرُّوح و النّفس النّاطقة أو ما شئت فسمّه كما ثبت ذلك بالأدلّة العقليّة و النقليّة و لأجل ذلك صار الإنسان مسجوداً للملائكة في قوله تعالى: **وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأدَمَ**[1] فليس في عالم الوجود أية و علامة لمعرفة الخالق أكبر و أعظم من الرُّوح و إلى هذا المعنى أشار النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بقوله: **مَن عَرف نَفَسه فَقد عَرف ربّه** و قال أميرالمؤمنين عليه السلام على مانسب إليه:

١- البقرة = ٣٤

دوائك فـــيك و لا تـبصر — و داءك مـــنك و لا تشـعر
و أنت الكتاب المبين الّذي — بأحـــرفه يـظهر المـضمر
أتـزعم أنّك جـرمٌ صـغيرٌ — و فيك إنطوى العالم الأكبر

و إليه الإشارة في قوله تعالى: **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَ فِىٓ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ**[١] و ليس تقديم الأفاق في الآية لأجل أنّ الأيات الأفـاقية أدلّ على معرفة اللّه من الأيات الأنفسيّة بل الوجه في تقديمها عليها أنّ الأيات الأفاقية تفصيل مرتبة الإنسان في الوجود العيني و أيضاً رؤيـة الأيـات مـفصّلاً في العالم الكبير لأهل الظّاهر و المحجوب عن رؤية الحقّ أهون و أسـهل مـن رؤيتها في نفسه لأنّها من المحسوسات و المحسوس مقدّمٌ على المعقول و أمّا عند العارف النّاظر إلى حقيقة الأشياء و باطنها فالأمر بالعكس لأنّه يرى المـؤثّر في أثره و حيث إنجّر الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بالإشارة إلى شطرٍ ممّا لابدّ من ذكره توضيحاً للبحث فنقول:

مـعرفة اللّـه تـعالى بكـنهه مـن المـحالات العقليّة و يـويّد ذلك قـول الرّسول ﷺ: **ما عرفناك حقّ معرفتك**، و لأنّ معرفة الشّئ بكنهه لا يمكن إلاّ بإحاطة العلم به و قد ثبت أنّ المخلوق متناهي الذّات و الصّفات و الواجب تعالى غير متناهي الذّات و الصّفات و إحاطة المتناهي بغير المتناهى مستحيلة فمعرفته بالكنه على سبيل الكمال كذالک محال و هـذا مـمّا لا خـلاف فـيه، و هذه الإستحالة ثابتة في الرُّوح أيضاً إذ لم يعرف حقيقة الرُّوح و النّفس أحدٌ من أفراد البشر قال اللّه تعالى: **وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى**[٢] و قد عجز جميع الفلاسفة عن معرفة النّفس بالكنه فهي من أدّل الدّلائل على وجود خالقها و أنّ كنهه في غاية الخفاء.

١- فصّلت = ٥٣ — ٢- الاسراء = ٨٥

و أيضاً قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ اللّه تعالى لا مكان له و مع ذلك هو موجودٌ في كلّ مكانٍ، إمّا أنّه لا مكان له فلكونه منزّهاً عن الجسم و الجسمانيّة و أمّا أنّه في كلّ مكانٍ فلأنّه خالق لجميع الأشياء و منها الأمكنة و قد ثبت عقلاً أنّ العلّة محيطة بالمعلول بل هو رشحٌ من رشحات العلّة و فيضٌ من فيوضاته قال تعالى: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**(١) و قد جعل اللّه النّفس أيضاً كذلك فهي في البدن و لا مكان له بحسب الإشارة و بعبارةٍ أخرى هي داخلة في البدن لا كدخول شيءٍ في شيءٍ و خارجة عنه لا كخروج شيءٍ عن شيءٍ فهي مع جميع الأعضاء و الجوارح و مع ذلك خارجة عنها أي ليست من سنخها.

و أيضاً لا شكّ أنّ بقاء الموجودات و حياتها ببقاء اللّه و حياته لأنّ المخلوق كما يحتاج في وجوده إلى الموجد و المؤثّر كذلك يحتاج في بقاءه إلى موجده و هذا أيضاً ثابت عقلاً، فأنظر كيف جعل اللّه حياة البدن و بقاءه بروحه و نفسه و الفرق بين المقامين، أنّ اللّه تعالى علّة الإيجاد و علّة البقاء، و أمّا النّفس فهي علّة البقاء فقط بجعل خالقه لا من قبل نفسه و بعبارةٍ أخرى بقاء عالم الكبير ببقاء اللّه و بقاء عالم الصّغير ببقاء النّفس بأمرٍ من اللّه.

و أيضاً، أنّ اللّه تعالى لا يرى بالأبصار لأنّه منزّهٌ عن الموضع، و الجهة و الحيّز و غيرها ممّا هو من شئون الجسم، و قد جعل اللّه الرّنوح أيضاً كذلك فأنّها لا يرى بالبصر لتّجردها و تنزّهها عمّا لا يليق بها و هذا دليلٌ على بطلان قول من قال كلّ موجودٍ لابدّ من أن يرى فما لا يرى ليس بموجودٍ ثمّ حكم بأنّ اللّه ليس بموجودٍ لأنّه لا يرى، إذ يقال للمتدلّ أنت لا تشكّ في وجود نفسك في بدنك فلم لا تراها، و مراتب دلائل النّفس على وجود خالقها كثيرة و بالتّدبر و التّعمق فيها ترتفع الشّبهات و هذا معنى قوله تعالى: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** و هذا القدر في الإستدلال بالآية الشّريفة على إثبات المدّعىٰ يكفي لمن كان له قلبٌ و اللّه أعلم.

١- ق = ١٦

وَ فِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ

إختلف المفسّرون في معنى الآية على أقوالٍ:

فقال بعضهم معناه ينزل اللّه إليكم بأن يرسل إليكم الغيث و المطر فيخرج به من الأرض أنواع ما تنتفعون به من الملبوس و المأكول، و المشروب ذلك **وَ مَا تُوعَدُونَ** من العذاب ينزله اللّه عليكم إذا استحققتموه و قيل المراد بالسّماء المطر و المعنى و فى المطر رزقكم لأنّه سبب كلّ خيرٍ و هو من الرّزق الذّي قسّمه اللّه و كتبه للعبد في السّماء.

و قال مجاهد **وَ مَا تُوعَدُونَ** من خيرٍ أو شرٍ، و قيل المراد به الجنّة لأنـها في السّماء الرّابعة و قال إبن كيسان يعني و على ربّ السّماء رزقكم، و قيل أي عند اللّه في السّماء رزقكم، و قيل معناه و فى السّماء تقدير رزقكم و ما فيه لكم مكتوبٌ في أمّ الكتاب و هو اللّوح المحفوظ و الأقوال و الإحتمالات كثيرة و أحسن الأقوال أنّ المراد و تقدير الرّزق في السّماء و هكذا ما توعدون من الثّواب و العقاب يوم القيامة كلّ ذلك مكتوب في أمّ الكتاب و اللّه أعلم.

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ

الواو للقسم أقسم اللّه في هذه الآية بربّ السّماء و الأرض **إِنَّهُ** أي أنّ ما ذكره من الرّزق و الوعد أو جميع ما ذكره في الأيات السّابقة **لَحَقٌّ** لا سبيل للبطلان إليه، أو أنّه ثابتٌ لا يتّغير أن أنّه مطابق للواقع فهو صدقٌ محض لا كذب فيه **مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** بألسنتكم فكما لا تشكّون فيما تنطقون فكذلك لا تشكّوا في صدق ما وعدتكم به و حصوله، و قيل مرجع الضّمير في (إنّه) البعث و ما يتبعه من الثّواب و العقاب و الحساب و المعنى أنّ البعث حقٌّ لا شكّ فيه، أو لا تشكّوا فيه كما لا تشكّون فيما تنطقون، و الحقّ ما ذكرناه إذ لا دليل على إختصاص الضّمير بالبعث فقط مع أنّ ما ذكرناه يشمله أيضاً و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى.

و من ا لمعلوم أنّ الأخذ بالعموم أولى، و أنّما خصَّ النُّطق من بين سائر الحواسّ لأنّ ما سواه من الحواسّ يدخله التَّشبيه كالذّي يرى في المرآة و إستحالة الذَّوق عند غلبة الصّفراء و الدَّوي و الطَّنين في الأذن، و هكذا، و النُّطق سالمٌ من ذلك و لا يعترض بالصَّدى لأنّه لا يكون إلاّ بعد حصول الكلام من النّاطق غير مشوبٍ بما يشكل به قاله بعض المفسّرين.

و قال بعضهم كما أنّ كلّ إنسانٍ ينطق بنفسه و لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كلّ إنسانٍ يأكل رزقه و لا يمكنه أن يأكل رزق غيره.

أقول ما ذكروه لا بأس به إلاّ أنّه من الإستخراجات الظنيّة الّتي لا إعتبار لها فلا يصحّ حمل كلام اللّه عليه و الّذي يختلج بالبال في وجه تخصيص النُّطق بالذّكر من بين سائر الحواسّ و الصّفات هو أنّ النُّطق للإنسان ليس من قبيل الأكل و الشُّرب و المشي و غيرها فأنّ هذه الصّفات موجودة في الحيوان أيضاً و ليست من قبيل اللّوازم التّي لا تنفّك عن الإنسان و هذا بخلاف النُّطق لأنّه فصلٌ يميّزه عن أنواع جنسه الّذي هو الحيوانيّة و لذلك يقال في تصريف الإنسان أنّه حيوان ناطق فالإنسان مع قطع النّظر، عن النُّطق هو حيوان و إذا كان كذلك فهو لا ينّفك عن النُّطق أبداً إذا عرفت هذا فنقول:

وعد اللّه و وعيده حقٌّ له تعالى كما أنّ النُّطق حقّ للإنسان فكما أنّ الإنسان لا يخلو عن النُّطق أعني به النّفس النّاطقة كذلك اللّه لا يخلو عن الحقّ يتّصف بالباطل فكأنّ الحقّ من لوازم ذاته بحيث لا يمكن إنفكاكه عن الذّات كما أنّ النّطق كذلك بالنّسبة إلى الإنسان، وكما أنّ الموجود الّذي ليس له النُّطق ليس بإنسانٍ كذلك الموجود الذّي لا يقول حقّاً ليس خالقاً و معبوداً بل هو كسائر الخلق هذا ما خطر ببالي في وجه الشَّبه و لا أقول أنّه المراد من كلام اللّه و اللّه أعلم بما قال و أراد من كلامه.

هَلْ أَتيٰكَ حَديثُ ضَيْفِ إِبْراٰهيمَ ٱلْمُكْرَمينَ

الخطاب للنّبي يقول اللّه تعالى لنبيّه، هل أتاك، يا محمّد **حَديثُ ضَيْفِ إِبْراٰهيمَ ٱلْمُكْرَمينَ** أي المكرمين عند اللّه لكونهم من الملائكة المقرّبين، أو عند إبراهيم لأنّه أكرمهم و أعظمهم بالإحسان.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقاٰلُوا سَلاٰمًا قاٰلَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

يعني إذ دخلوا على إبراهيم فقالوا له سلاماً، على وجه التحيّة له أي أسلم سلاماً **قاٰلَ** إبراهيم في الجواب **سَلاٰمًا** ثمّ قال إبراهيم **قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** و أنّما قال ذلك لأنّه لم يكن يعرف مثلهم في أضيافه قيل و سمّاهم اللّه أضيافاً لأنّهم جاؤه في صفة الأضياف بصورة البشر، و قيل أنّه رأهم على غير صورة البشر و لذلك قال أنتم قومٌ منكرون أي غرباء لا نعرفكم قيل كان جبرئيل و معه تسعة، و قيل كانوا ثلاثة، جبرئيل و ميكائيل و معهما ملكٌ أخر.

فَراٰغَ إِلىٰ أَهْلِهِ

أي عدل إلى أهله و قيل أي ذهب إلى أهله خفيّاً فالرَّوغ الذّهاب في خفي **فَجاٰءَ بِعِجْلٍ سَمينٍ العِجل** بكسر العَين واحد البقر الصّغير، و **السَّمين** بفتح السّين الكثير الشَّحم على اللّحم و نقيض السّمن الهزال.

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قاٰلَ أَلاٰ تَأْكُلُونَ

أي أنّ إبراهيم بعد ذبحه العجل شوّاه لهم ثمّ قرَّبه أي أدناه لهم و قدَّمه بين أيديهم فلمّا رأهم لا يأكلون منه قال لهم **أَلاٰ تَأْكُلُونَ** من هذا الطّعام فلمّا رأهم إمتنعوا من الأكل خاف منهم كما قال تعالى:

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً قاٰلُوا لاٰ تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلاٰمٍ عَليمٍ

الإيجاس الإحساس بالشّئ خفيّاً، و منه قوله تعالى في قصّة موسى عليه السلام **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ**(١) فلمّا أوجس إبراهيم منهم و ظنّ أنّهم يريدون به سوء، قالوا له.

«لا تخف ياابراهيم و بشّروه عند ذلك بغلامٍ عليم» و هو إسحاق نبيّ اللّه بعد أبيه فأنّه كان عالماً بعد كبره و بلوغه و أمّه سارةٌ و هذه القصّة لسارة لا لهاجر أمّ إسماعيل فقول مجاهد أنّ المبشّر هو إسماعيل لا يصحّ، فلمّا سمعت البشارة إمرأته سارة.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ

الصرّة بفتح الصّاد الصّيحة و الضّجة و منه أخذ صرير الباب و هو صوته، و قيل، أقبلت في صرّةٍ، أي في جماعةٍ من النّساء تسمع كلام الملائكة، و قيل **فِي صَرَّةٍ** أي في شدّةٍ وكربٍ.

أقول قال الجوهري الصرّة الصيّحة و الضجّة، و الصرّة الجماعة، و الصرّة الشدّة من كربٍ و غيره و على هذا فالكلّ محتمل، قال إمرؤ القيس:

فألحقه بالهاديات و دونه   جواهرها في صرّةٍ لم تزيّل

و قوله: **فَصَكَّتْ وَجْهَهَا** قيل معناه لطمت وجهها و قيل ضربت وجهها تعجّباً **وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ** و التّقدير أنا عجوزٌ عقيمٌ، و العقيم الممتنعة من الولادة لكبرٍ أو أفةٍ و قال الحسن العقيم العاقر و أصل العقم الشدّة.

قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ

أي قالت الملائكة كذلك قال ربّك، أي لا نتكلّم من عند أنفسنا بل نتكلّم عن اللّه أنّه قال كذلك و لا شكّ أنّه تعالى عليمٌ بالخفايا لا يخفى عليه شئ، حكيمٌ في أفعاله على ما تقتضيه المصلحة.

١- طه = ٦٧

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ‹٣١› قالُوٓا إِنّآ
أُرْسِلْنآ إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ‹٣٢› لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجارَةً مِنْ طِينٍ ‹٣٣› مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ‹٣٤› فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ‹٣٥› فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ‹٣٦› وَ تَرَكْنا فِيهآ ءايَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ
ٱلْعَذابَ ٱلْأَلِيمَ ‹٣٧› وَ فِي مُوسىٰٓ إِذْ أَرْسَلْناهُ
إِلىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ ‹٣٨› فَتَوَلّىٰ بِرُكْنِهِ وَ
قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ‹٣٩› فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ
فَنَبَذْناهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ ‹٤٠› وَ فِي عادٍ إِذْ
أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ‹٤١› ما تَذَرُ مِنْ
شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ‹٤٢› وَ فِي
ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّىٰ حِينٍ ‹٤٣› فَعَتَوْا
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ
‹٤٤› فَمَا ٱسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا
مُنْتَصِرِينَ ‹٤٥› وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا
قَوْمًا فاسِقِينَ ‹٤٦› وَ ٱلسَّمآءَ بَنَيْناها بِأَيْيدٍ وَ إِنّا
لَمُوسِعُونَ ‹٤٧› وَ ٱلْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ
ٱلْماهِدُونَ ‹٤٨› وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿۴۹﴾ فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ
مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿۵۰﴾ وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهًا
اٰخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿۵۱﴾ كَذٰلِكَ مَآ أَتَى
ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ ﴿۵۲﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ
﴿۵۳﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿۵۴﴾ وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ
ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۵۵﴾ وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ
وَ ٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿۵۶﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
رِزْقٍ وَ مَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿۵۷﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿۵۸﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ
﴿۵۹﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿۶۰﴾

◀ اللّغة

خَطْبُكُمْ: الخطب بفتح الخاء و سكون الباء الأمر الجليل.

مُسَوَّمَةً: أي معلّمةً، و قيل مخطّطةً و السّيماء و السّيمياء العلامة.

فَتَوَلّىٰ: التولّي الإعراض.

بِرُكْنِهِ: أي بقوّته و قدرته فالرُّكن القوّة.

فَنَبَذْنَاهُمْ: النَّبذ الطَّرح.

فِى ٱلْيَمِّ: اليمّ بفتح الياء و تشديد الميم البحر.

مُلِيمٌ: الّذي أتى بما يلام عليه و الملوم الّذي وقع به اللَّوم.

ٱلْعَقِيمَ: أصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر يقال عقمت مفاصله وداء عقام لا يقبل البرء و العقيم من النّساء الّتي لا تلد.

مَا تَذَرُ: أي ما ترك يقال ذره أي أتركه.

الرَّمِيم: الهشيم يقال للنَّبت إذا يبس و تفتَّت، رميمٌ و هشيمٌ.

فَعَتَوْا: العتو الإمتناع عن الحقّ.

ٱلصَّاعِقَةُ: الموت و الباقي واضح.

◀ الأعراب

وَ فِي مُوسَىٰ أي و تركنا في موسى آية و إِذْ ظرف لأية أو نعتٌ لها و بِسُلْطَانٍ حال من موسى أو من ضميره و بِرُكْنِهِ حال من ضمير فرعون و قَوْمَ نُوحٍ بالجرّ عطفاً على ثمود و بالنَّصب على تقديره و أهلكنا، و بالرّفع على الإبتداء، و الخبر ما بعده وَٱلسَّمَآءَ منصوبة بفعلٍ محذوفٍ أي و رفعنا السّماء و الأرض، مثله و بِأَيْيدٍ حال من الفعل وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ متعلّق، بخلقنا، أن يكون نعتاً زَوْجَيْنِ قدّم فصار حالاً ٱلْمَتِينُ بالرّفع على النَّعت للّه سبحانه أو خبر مبتدأ محذوف أي هو المتين.

◀ التّفسير

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ

لمّا ذبح إبراهيم العجل و شوّى من لحمه للضُّيوف و قرّبه اليهم ليأكلوه و امتنعوا من الأكل و بشَّروه بغلامٍ عليم، علم أنّهم رسل ربّه و ليسوا من جنس البشر و لا أضياف قال لهم فما خطبكم أيّها المرسلون من عند اللّه أي ما شأنكم و الخطب هو الأمر الجليل فكأنّه قال قد بعثتم لأمرٍ جليلٍ فما هو فأجابوه و قالوا:

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ

أي أرسلنا اللّه تعالى الى قوم عاصين الّذين إستحقوا العقاب و الهلاك لتمرّدهم و عصيانهم وتكذيبهم النّبي و إعراضهم عن الحقّ.

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ

اي لنرجمهم بها و نهلكهم ثمّ وصفوا الأحجار بقولهم:

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ

أي معلّمةً، و قيل مخطّطةً بسوادٍ و بياضٍ، و قيل بسوادٍ و حمرة، معروفة بأنّها حجارة العذاب و المقصود أنّها لم تكن مثل سائر الأحجار بل لها علائم العذاب و العقاب و قيل على كلّ حجرٍ إسم من يهلك به و قد مضى الكلام فيها في سورة هود فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم فلم يفلت منهم مخبر و قوله: **عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ** معناه أنّها كانت مسوَّمة عند اللّه و قد أعدَّها لرجم من قضى برجمه و قيل كانت مطبوخة طبخ الآجر و هو معنى قوله: **حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** و في قوله: **لِلْمُسْرِفِينَ** إشارة الى أنّهم كانوا كثير المعاصي فأنّ الإسراف التّجاوز عن حدّ الإعتدال فالمسرف المكثر من المعاصي و هو صفة ذمٍّ لأنّه خروج عن الحقّ.

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

و الضّمير في قوله: **فِيهَا** راجع على القرية أي قرية قوم لوط و ذلك لأنّ الملائكة أمروا بالمصير الى قوم لوط لإهلاكهم فلماّ وصلوا اليها و أرادوا إهلاكهم بأمرٍ من اللّه تعالى أخرجوا من كان في القرية من المؤمنين و هم لوط النّبي و من تبعه حقّاً و آمن به فخلّصوهم من العذاب.

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

أي فما وجدنا في القرية إلاّ بيت لوط و من تبعه من المسلمين و المراد بالمسلمين الّذين أطاعوا اللّه و آمنوا به و إنقادوا لإوامره و نواهيه و هذا هو الإيمان بعينه.

وَ تَرَكْنا فيهآ اٰيَةً لِلَّذينَ يَخافُونَ ٱلْعَذابَ ٱلْأَليمَ

الترك في الأصل ضدّ الفعل و المعنى أبقينا فيها، أي في القرية، آيةٌ و علامة **لِلَّذينَ يَخافُونَ ٱلْعَذابَ ٱلْأَليمَ** أي أبقينا آية للنّاظرين فيها ليعتبروا بها و أمّا الّذين لا يعتبرون بها و لا يخافون عذاب اللّه فحكمهم حكم قوم لوط فأنّ حكم الأمثال واحد، روي أنّ جبرئيل أخذ كفّاً من ترابٍ و ضرب به وجوه أهل المدينة فعميت عيونهم كلّهم فلمّا إنتصف اللّيل سار لوط ببناته و لم يرهم أحد من القوم و لم يعلم بهم إلاّ إمرأته و لمّا حان الفجر نزل جبرئيل بأمر ربّه و ضرب بجناحه الأيمن ما حوى شرقيّها و بجناحه الأيسر على ما حوى غربيّها فاقتلعها من الأرض و عرج بها حاملاً لها بين جناحيه و رفعها في الجوّ ثمّ قلّبها فجعل عاليها سافلها و أمطر اللّه عليهم من حجارة سجّيل و هلك القوم عن آخرهم أجمعين و هذا هو الآية الّتي أبقاها للذّين يخافون العذاب الأليم، و أنّما إكتفينا بتفسير ألفاظ الآية و لم نذكر قصّة قوم لوط تفصيلاً لما مرَّ ذكرها في سورة هود مفصّلاً و هكذا الأيات الّتي تتّلوها كما قال تعالى:

وَ في مُوسىٰ إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبينٍ

فالسُّلطان، الحجّة و البرهان و هى العصا و اليد البيضاء و غيرهما من الأيات الّتي مرَّ ذكرها غير مرّةٍ، أرسله اللّه الى فرعون ليرشده، و يهديه الى طريق الحقّ فلم يقبل فرعون و أعرض عن الحقّ كما قال تعالى:

فَتَوَلّىٰ بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

أي أعرض فرعون عن الحقّ بتمام قوّته و قدرته و جنوده و قال أنّ موسى ساحرٌ أو مجنونٌ.

فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ

أي فأخذنا فرعون و جنوده أخذ عزيزٍ مقتدرٍ فطرحناهم و ألقيناهم في البحر كما يلقي الشّيئ في البرّ و هو مليمٌ، أي آتٍ بما يلام عليه من الكفر و الجحود و التجبُّر و التكبُّر، و الملوم الّذي وقع به اللّوم و المليم الّذي أتى بما يلام عليه و فرعون كان كذلك لأنّه إدّعى الربوبيّة و الألوهيّة و بذلك إستحقّ اللّوم أين التُّراب و ربّ الأرباب. ثمّ أشار اللّه تعالى الى قصّة عاد فقال:

وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ

و هم قوم هود النّبي و قد مرَّ قصتّهم في سورة الأحقاف مفصّلاً و قلنا أنّه بعث بعد نوح النّبي و أنّ قومه كذَّبوه و لم يؤمنوا به، و بذلك إستحقّوا العقاب و العذاب في الدُّنيا و الأخرة فلمّا حان اليوم الموعود من اللّه تعالى لإنزال العذاب عليهم أذن اللّه سبحانه بإنطلاق الرِّيح العقيم الّتي هي تحت الأرض و لمّا أذن اللّه لها بالخروج أوحى الى هود بذلك و أمره و من آمن به بالإعتزال عن المشركين و الخروج عن بلادهم فأعتزل هود و من معه كما أمرهم ربّهم و لمّا أحسَّ قوم هود بالرّيح و كان قد وعدهم هود بها أقبلوا عليه يقولون له يا هود أتخوّفنا بالرّيح ثمّ جمعوا ذراريهم و أموالهم و أهاليهم في شعبٍ من تلك الشّعاب الّتي فيها القصور الشّاهقة و أقاموا على أبوابها يردُّون الرّيح عنها و عمّا فيها فأشتدّت الرّياح حتّى قلعتهم عن الأرض و هبَّت بهم تحملهم إلى اللُّجوء إلى تلك القصور ثمّ أزدادت الرّياح عليهم حتّى طحنت تلك القصور و الحصون و الأشجار و الزُّروع و صارت كلّها رملاً دقيقاً تسفيها أقّل ريح و عصفت بها سبع ليالٍ و ثمانية أيّام حسوماً:

قال اللّه تعالى: **وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ، سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهٰا صَرْعىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرىٰ لَهُمْ مِنْ بٰاقِيَةٍ**(١).

و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

مٰا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاّٰ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ

أي ما ترك الرّيح العقيم شيئاً من القصور و الأموال الّتي عصفت عليها إلاّ جعلته كالرّميم، و هو العظم البالي المنسحق:

كأنّ لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا
أنيسٌ و لم يسمر بمكّة سامرُ

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى قصّة قوم ثمود و كان بينهم صالحٌ عليه‌السلام.

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّٰى حِينٍ

كان بنو ثمود بوادي القرى بين المدينة و الشّام و قد أرسل اللّه تعالى إليهم صالحاً و هو إبن ستّة عشرة سنة يدعوهم إلى التّوحيد و رفض الأصنام و كانوا في العدد كالذّر و الحصى و في الغنى و الثّروة و طول أعمارهم أكثر ما يكون و كانوا يبنون في السُّهول قصوراً عالية مزخرفة و ينحتون الجبال بيوتاً لأيّام شتائهم:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰآءَ مِنْ بَعْدِ عٰادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهٰا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ ٱلْجِبٰالَ بُيُوتًا**(٢).

و قد ذكرنا قصّتهم هناك فلا نطيل الكلام بذكرها ثانياً و حاصل الكلام في المقام أنّهم عتوا عن أمر ربّهم و كذّبوا نبيّهم الّذي أرسله اللّه إليهم و فعلوا ما فعلوا من القبائح و المعاصي حتّى عقروا النّاقة الّتي كانت من آيات اللّه على ما

١- الحاقّة = ٨ / ٧ / ٦
٢- الأعراف = ٧٢

مرَّ شرحه و بيانه فلّما فعلوا ذلك إقتسموا لحمها و أكلوه و عند ذلك أوحى اللّه تعالى إلى صالح أنّ قومك قد طغوا و بغوا و قتلوا النّاقة الّتي جعلها حجَّة عليهم و لم يكن عليهم فيها ضررٌ بل كان لهم فيها أعظم النَّفع فقل لهم إنّي ممهلهم ثلاثة أيّام فأن تابوا و رجعوا قبلت توبتهم و إن لم يتوبوا و لم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثّالث فأقبل صالح على قومه مغضباً و قال يا قوم ما دعاكم إلى ما فعلتم ثمّ قال لهم إنّي رسول ربّكم إليكم و هو يقول لكم أن أنتم تبتم و رجعتم و استغفرتم غفرت لكم و تبت عليكم و ألاّ بعثت عليكم عذابي في اليوم الثّالث فلم يزدد القوم في جوابه إلاّ خبثاً و إنكاراً قال لهم صالح يا قوم أنّكم تصبحون غداً و وجوهكم مصفرّة و في اليوم التّالي محمرّة و في اليوم الثّالث مسودَّة و هذا معنى قوله تعالى: **إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتّىٰ حِينٍ** و القائل صالح النّبي بوحيٍ من اللّه إليه و قوله: **حَتّىٰ حِينٍ** معناه إنقضاء الأيّام الثّلاثة، و إليه الإشارة بقوله:

قال اللّه تعالى: **فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا في دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**[١].

و لكن قوم صالح أصرّوا على إنكارهم و كفرهم و عصيانهم كما قال تعالى:

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ

فلمّا إنقضت المدّة المضروبة و هم عتوا عن أمر ربّهم أي إمتنعوا عن متابعة الحقّ عناداً و إستكباراً فأخذتهم الصّاعقة أي أرسل اللّه إليهم الصّاعقة التّي أهلكتهم و أحرقتهم و هم يبصرونها و لكن لم يقدروا على دفعها و رفعها كما قال تعالى:

فَمَا ٱسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ

١- هود = ٦٥

أي أنّهم لم يقدروا على القيام فضلاً عن دفع العذاب و لم يكن لهم معينٌ و لا ناصر، و ليس هذا من الظّالمين ببعيدٍ، ثمّ أشار اللّه تعالى إلى قوم نوح النّبي فقال:

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسِقِينَ

أنّما قال: **مِنْ قَبْلُ** لأنّه كان قبل هود و صالح و هو أوّل نبيٍ بعد جدّه إدريس و كان إسمه عبد الغفّار و سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكاءه مدّة خمس مائة سنة خوفاً من اللّه ثمّ تحسّره على ضلال أمّته و هو أوّل الأنبياء الخمسة أولي العزم المبعوثين إلى الجنّ و الإنس كافّة و هم أفضل الأنبياء و الأربعة بعد نوح، إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد عليهم السّلام.

و المشهور أنّه عاش في الدّنيا (٢٥٠٠) سنة و قد مرّت قصّته مفصّلاً فيما مضى أيضاً أهلك اللّه تعالى قومه بالطّوفان لكفرهم و فسقهم كما مرّ.

وَ ٱلسَّمآءَ بَنَيْناها بِأَيْيدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ

الأيد القوّة و المعنى بنينا السّماء بقوّةٍ و قدرةٍ و قوله: **وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ** قال إبن عبّاس أي لقادرون، و قيل معناه أنّا لذو سعةٍ بخلقها و خلق غيرها لا يضيق علينا شئ نريده.

و قيل معناه أنّا لموسعون الرّزق على خلقنا و قيل المراد التّوسعة في الرّزق بالمطر و قال إبن زيد معناه أنّا لموسعون السّماء و الأقوال كثيرة متقاربة المعنىٰ و الجامع بين جميع الأقوال أنّه لا يضيق علينا شئ فلو أردنا خلق سماء أوسع و أعظم منها لخلقناها ففيه إشارة إلى أنّ اللّه قادرٌ على كلّ شئٍ و أنّه ذو القوّة المتين.

وَ ٱلْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ ٱلْماهِدُونَ

الفرش البسط و المعنى كما أنّ السّماء بنيناها كذلك الأرض فرشناها و بسطناها كالفراش على الماء و مددناها فنعم الماهدون نحن لهم يقال مهدت الفراش مهداً بسطته و وطأته.

وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ أي صنفين و نوعين مختلفين، أي ذكراً و أنثى و حلواً و حامضاً و نحو ذلك قاله إبن زيد.

و قال مجاهد، الذّكر و الأنثى، و السّماء و الأرض و الشّمس و القمر و اللّيل و النّهار و النّور و الظّلام و السّهل و الجبل و الجنّ و الإنس، و الخير و الشّر و العلم و الجهل و كالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم و الأصوات أي جعلنا هذا كهذا دلالةٌ على قدرتنا و من قدر فقد يقدر على الإعادة، و قيل قوله و من كلّ شيءٍ خلقنا زوجين، لتعلموا أنّ خالق الأزواج فرد لا مثل له و لا شبه له و لا نظير له فلا يقدّر في صفته حركة و لا سكون و لا ضياء و لا ظلام و لا قعود و لا قيام إبتداء و لا إنتهاء إذ هو عزّ وجلّ وترٌ ليس كمثله شيء **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** أنّ خالق الأزواج لا زوج له، و يحتمل أن يكون المراد أنّ ما سوى اللّه زوجٌ كائناً ما كان و الموجود الفرد الّذي لا يوجد مثله و لا شبيهه هو اللّه تعالى و هو قريبٌ ممّا ذكرناه من حيث المعنى و إذا كان كذلك.

فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الأيات السّابقة أنّ الأمم كذّبوا أنبيائهم و لم يؤمنوا بهم و لذلك أهلكهم اللّه بالصّاعقة و الطّوفان و الغرق و غيرها من أنواع العذاب أشار في هذه الآية إلى دواء هذا الدّاء أعني به داء الكفر و العصيان و التّمرد و الطّغيان و قال: **فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ** الفاء للتّفريع أي إذا كان كذلك فليس العلاج البقاء على الكفر و الإلحاد بل العلاج الفرار من المعاصي إلى الطّاعة و من الذّنب إلى التّوبة و من الباطل إلى الحقّ و من متابعة الشّيطان إلى متابعة

اللّه بتصديق أنبيائه فلا دواء لهذا الدّاء إلاّ هذا فالمعنى قل لهم يامحمّد توبوا إلى اللّه و بدّلوا الكفر بالإيمان **إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** أي إنّي لكم، منه، أي من قبل اللّه، نذيرٌ، أي منذرٌ ظاهر أخوّفكم من عذاب اللّه في الدّنيا و الأخرة.

تنبيهٌ

إعلم أنّ هذا الكلام أعني قوله تعالى: **فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ** من إعجاز الكلام و ذلك لأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فالإستعانة و الإستمداد من غير اللّه خارج عن وظائف العبوديّة مضافاً إلى أنّه لا ينفع له أي للعبد لأنّه إلتجأ بمن هو مثله في الضّعف و الفقر و ذلك لأنّ المخلوق كائناً ما كان محتاج إلى خالقه فقيرٌ في ذاته فالإلتجاء و الإستمداد من الخلق غير معقول فإذا فرضنا أنّ العبد ندم و تاب عمّا عليه لا ملجأ له إلاّ خالقه إذ لا يمكن لأحدٍ الفرار من حكومته و لا يقدر أحد على قضاء حاجته إلاّ خالقه و مع ذلك و هو تعالى أرحم بعباده من الأمّ إلى ولدها الرَّضيع و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

دست حاجت چو بری پیش خداوندی بر
که کریم است و رحیم است و غفور است ودود
از ثری تا به ثـرّيا بعبودّيت او
همه در ذکر مناجات و قیامند و قعود

ففي هذا الكلام إشارة إلى كمال شفقة الرَّب إلى عبده و أنّ رحمته سبقت غضبه و أنّه يغفر الذّنوب جميعاً.

وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

هذه الآية في الحقيقة تفسير و توضيح للأية السّابقة كأنّه قيل كيف نفرّ إلى اللّه و ما معنى الفرار إليه تعالى فقال تعالى معنى الفرار إلى اللّه أن لا تجعلوا مع اللّه إلهاً أخر لأنّ الشّرك باللّه ينافي الإخلاص في التّوحيد و بعبارةٍ أخرى معنى الفرار إلى اللّه هو الإخلاص في التّوحيد و الإعراض عمّا سواه فمن

جعل مع اللّه إلهاً أخر فلم يفُر إلى اللّه واقعاً بل فرَّ إلى الكفر و الشِّرك، و لذلك قال: **وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَهًا أخَرَ** و حيث أنّ الشّرك باللّه من أعظم الذّنوب قال إنّي لكم منه نذيرٌ مبين، و قد مرَّ معناه.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

ما، نافية، و فى الآية تسلية للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كما كذَّبك قومك و قالوا ساحرٌ أو مجنون كذلك من قبلهم و قالوا مثل قولهم فأنّهم كذّبوا الأنبياء في كلّ عصرٍ و زمانٍ و نسبوهم إلى السِّحر و الجنون فليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ

أي أنّهم لم يقنعوا بتكذيبهم أنبيائهم في زمانهم بل أوصى أوَّلهم أخرهم بالتّكذيب و بعبارةٍ أخرى أوصى السَّلف أخلافهم بذلك فكأنّهم تواطئوا على تكذيب الأنبياء و البقاء على الكفر و على هذا فالهَمزة في **أَتَوَاصَوْا** للتَّعجب و التّوبيخ ثمّ إستدرك و قال: **بَلْ هُمْ**، أي الأمم السّالفة الذّين كذّبوا الأنبياء كانوا من أهل الطّغيان و العصيان، أي لم يوص بعضهم بعضاً بالكفر بل جميعهم على الطّغيان و الكفر ثمّ أمر اللّه نبيّه بالإعراض عنهم فقال:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنْتَ بِمَلُومٍ

أي أعرض عنهم و أصفح فما أنت بملومٍ عند اللّه لأنّك بلَّغت رسالتك و أدّيت ما عليك و ما على الرّسول إلاّ البلاغ.

وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ قوله فتَّول عنهم، نسخ بقوله: **وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**.

أقول ما ذكره من النّسخ لا دليل عليه بل لا وجه له فأنّ الأمر بالتّولي باقٍ على حاله إلى يوم القيامة و ليس قابلاً للنّسخ أصلاً و ذلك لأنّ العقل الّذى يحكم بالإعراض عن الكافر المعاند الّذي لا يقبل الحقّ و الشّرع أيضاً يحكم به فلا موضع للنّسخ في الآية.

و أمّا الآية الثّانية و هى التّي نبحث فيها الأمر تعلّق بالتذكّر لأجل المؤمنين لا للكافرين لقوله تعالى: **فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** و أين هذا من ذاك نعم لو قال ذكّر فأنّ الذّكرى تنفع لهم أي للكفّار صحّ ما ذكره من النّسخ و حاصل الكلام أنّ مورد الأمرين مختلفين و هو واضح و هكذا القول في ردّ من قال أنّها نسخت بآية السّيف.

وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

الأصل **ليعبدُونى** حذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة على حذف الياء و هذا ممّا لا خلاف فيه ثمّ أنّ اللاّم في، ليعبدون، قيل أنّها لام الغرض، و قيل لام العاقبة، و قيل لام التّعليل.

قال الشّيخ في التّبيان أنّها لام الغرض و لا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأنّ كثيراً من الخلق لا يعبدون اللّه و فى الآية دلالة على بطلان مذهب الجبّرية القائلين بأنّ اللّه خلق كثيراً من خلقه للكفر به و الضّلال من دينه و خلقهم ليعاقبهم بالنّيران إنتهى.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه قيل أنّ هذا خاصّ فيمن سبق في علم اللّه أنّه يعبده فجاء بلفظ العموم و معناه الخصوص و المعنى خلقت أهل السّعادة من الجنّ و الإنس إلاّ ليوحّدون.

و قال القشيري و الآية دخلها التّخصيص على القطع لأنّ المجانين و الصّبيان ما أمروا بالعبادة حتّى يقال أراد منهم العبادة و قد قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ**

ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ[١].

و من خلق لجهنّم لا يكون ممّن خلق للعبادة فالآية محمولة على المؤمنين منهم و ساق الكلام، إلى أن قال فأن قيل كيف كفروا و قد خلقهم للإقرار بربوبيّته و التَّذلل لأمره و مشيئته، و قيل قد تذلّلوا لقضاءه عليهم لأنّ قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الإمتناع منه و أنّما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به فأمّا التذلُّل لقضاءه فأنّه غير ممتنع منه و قيل إلاّ ليعبدون، أي إلاّ ليقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف: **وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْاِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** قال فيه، إلاّ لأجل العبادة و لم أرد من جميعهم إلاّ إيّاها.

فأن قلت لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا عبّاداً.

قلت أنّما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرّين إليها لأنّه خلقهم ممكّنين فإختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ولو أرادها على القسر و الإلجاء لوجدت من جميعهم يريد أنّ شأني مع عبادية ليس كشأن السّادة مع عبيدهم فأنّ ملاّك العبيد أنّما يملكونهم ليتعينوا بهم في تحصيل معايشهم و أرزاقهم، فإمّا مجّهز في تجارةٍ ليفئ به ربحاً أو مرتب في فلاحة أو مسلم في حرفة لينتفع بعمله و أجرته إلى أخر ما قال إنتهى.

أقول الأقوال حول الآية كثيرة، و ذلك لأنّ كلّ واحدٍ من المفسّرين يجرَّ النّار إلى قرصته و يقول فيها بما يقتضيه مذهبه و إعتقاده و نحن لسنا بصدد جرح كلماتهم و تعديلها لأنّ المقام لا يقتضي الإطالة و على هذا فنقول:

و لا شكّ لنا أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عن جميع ما سواه بقولٍ مطلق لأنّ الإحتياج مساوقٌ للإمكان و هو ينافي الوجوب فأنّ كلّ محتاج ممكن إذ لا نعني بالإمكان إلاّ الفقر كما لا نعني بالوجوب إلاّ الغنى فالواجب غنيٌّ بقولٍ مطلق و

١- الأعراف = ١٧٨

الممكن فقيرٌ كذلك إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ اللّه تعالى لا يحتاج إلى عبادة الخلق كما لا يحتاج إلى خلقهم و إيجادهم و هذا أصلٌ أصيل من الأصول الإعتقاديّة التّي لا كلام لأحدٍ من العقلاء فيه و من قال أو يقول غير ذلك فهو لم يعرف خالقه قال اللّه تعالى:**يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**(١).

فقوله: **وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ** بتقديم المسند إليه يفيد حصر الغنى فيه بمعنى أنّه لا غنّي في الوجود إلاّ اللّه تعالى و ما سواه محتاج إليه و على هذا فلو فرضنا أنّه خلق الخلق ليعبدوه بمعنى أنّه كان محتاجاً إلى عبادتهم و لذلك خلقهم للزم منه خروج الواجب عن كونه واجباً و دخولهم في سلسلة الممكنات إذ لا نعني بالممكن إلاّ المحتاج و هو كما ترى لا يساعده العقل و لا النّقل اللّهم إلاّ أن يقال أنّ اللّه لم يخلقهم لأجل الإحتياج إلى عبادتهم بل خلقهم بمقتضى جوده و كرمه و نفع العبادة عائدٌ إليهم لا إليه تعالى و توضيحه يستدعي التّكلم فيه إجمالاً:

فنقول لا شكّ أنّ اللّه تعالى متّصفٌ بالجود لكونه دائم الفضل على البريّة و من أسماءه الجواد بل الجواد بقولٍ مطلق هو اللّه تعالى لا غيره و ذلك لأنّ الجود إفادة ما ينبغي لا لعوضٍ و لا لغرضٍ، و الجود بهذا المعنى لا يعقل في حقّ غيره حتّى في الأنبياء لأنّهم كانوا يبتغون العوض من اللّه تعالى في إنفاقهم على الغير و إذا كان كذلك فالجواد المطلق هو اللّه لا غيره.

أمّا عدم العوض فلأنّه غير محتاج إلى الغير و أمّا عدم الغرض فلأنّه لا نقص في ذاته حتّى يكمل بالخلق و هذا بخلاف المخلوق فأنّه محتاج في فعله ناقصٌ في ذاته فلا يعقل أن يكون جواداً مطلقاً و على هذا فإيجاد الخلق كاشف عن جوده و لطفه و عنايته لا عن فقره و إحتياجه و هذا ظاهرٌ لا كلام فيه.

١- فاطر = ١٥

إن قلت إذا ثبت عدم الإحتياج فما الّذي دعاه إلى إيجاد الخلق و المفروض أنّه غير محتاج.

قلت دعاه إلى ذلك حبّه لذاته و أثاره فأنّ من أحبَّ شيئاً أحبَّ أثاره و اللّه تعالى أحبَّ ذاته فأحبَّ أثاره أن توجد في الخارج فخلق الخلق ليعرفوه كما ورد في الحديث، **كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف** فخلق اللّه الخلق لأجل المعرفة و من عرفها عبده و لذلك فسرّت الآية في الأخبار الواردة عن أهل البيت بالمعرفة فقالوا معنى **لِيَعْبُدُونِ** أي ليعرفون، و الدّليل على ذلك أنّ العبادة فرعٌ على المعرفة فمن لا يعرف شيئاً لا يعبده بل الحقّ أنّ العبادة لا تتَّحقق إلاّ بعد المعرفة فالمعرفة حصلٌ و العبادة فرعٌ عليها تدور مدارها قلّةً و كثرةً و قد أشار إلى هذه النُّقطة أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام في بعض كلماته حيث قال عليه السلام: **أنّ اللّـه تبارك و تعالى ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه و إذا عبدوه إستغنوا بعبادته عن عبادة ماسواه الخ.**

يظهر من الكلام أنّ المعرفة علّة للعبادة بمعنى أنّها إذا وجدت وجدت العبادة قطعاً فهي مترتّبة عليها ترتُّب المعلول على علّته و على هذا فذكر العبادة في الآية من قبيل ذكر المسبّب و إرادة السَّبب و يدلّ على ذلك.

ما رواه أبو بصير بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ قال عليه السلام: خلقهم ليأمرهم بالعبادة إنتهى.

كيفيّة الإستدلال أنّه عليه السلام لم يقل خلقهم للعبادة بل قال خلقهم ليأمرهم بالعبادة و من المعلوم أنّ الأمر بالعبادة لا يعقل إلاّ بعد المعرفة ألا ترى أنّ دعوة الرّسول في بدو البعثة كانت الى المعرفة لقوله تعالى: **قُولُوا لا اِلٰه اِلاّ اللّـه تُفلِحُوا** و هكذا كانت دعوة جميع الأنبياء ضرورة أنّ عبادة المجهول غير معقولٍ و اللّه أعلم بما قال:

مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ

هذه الآية دليل على ما حقّقناه و هو أنّ نفع العبادة بعد المعرفة يرجع اليهم لا الى اللّه و أنّه لم يخلقهم إلاّ على قاعدة اللّطف بمقتضى جوده و كرمه و لذلك قال: **مَآ أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** أي يطعموني لأنّي غير محتاج و منّزهٌ عن الأكل و الشّرب و غيرهما ممّا هو من شئون الجسم و إذا كان كذلك فلا أنتفع بهم.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ

لمّا قال في الآية السّابقة، ما أريد منهم الرّزق، الآية علّل ذلك بقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ** و هو صاحب القدرة الّتي يستحيل عليه العجز، و ما سواه كائناً ما كان مرزوقٌ له و المرزوق لا يكون رازقاً كما أنّ الرزّاق لا يكون مرزوقاً فثبت و تحقّق أن فائدة الخلق عائدٌ اليهم لا اليه و هو المطلوب.

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ

ثمّ أخبر اللّه تعالى بأنّ للذّين ظلموا على أنفسهم بإرتكابهم المعاصي ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم أي نصيباً مثل نصيبهم أي لهؤلاء الكفّار من أهل مكّة نصيبٌ من العذاب مثل نصيب الكفّار من الأمم السّالفة، و أصل الذّنوب في اللّغة الدّلو العظيمة و كانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل الذّنوب نصيب من هذا:

قال الراجز:

لنا ذنوبٌ و لكم ذنوبُ ... فأن أبيتم فلنا القليب

و قال آخر:

لعمرك و المنايا طارقات ... لكلّ بني أبٍ منها ذنوبُ

و عن الجوهري، الذُّنوب الفرس الطّويل، و الذُّنوب النَّصيب، و الذُّنوب لحم أسفل المتن، و الذُّنوب الدَّلو الممتّلئ من ماء، و أمّا قوله تعالى: **فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ** فمعناه لا يستعجلون العذاب هؤلاء الكفّار من أهل مكّة فأنّ المستقبل المحقّق الوقوع في حكم الماضي و الى هذا المعنى أشار تعالى بقوله:

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ

و هو يوم القيامة الّذي لا شكّ في مجيئه و قد يعبّر عنه بيوم الحساب و يوم تبلى السّرائر و يوم الجزاء و يوم الموعود و هكذا:

عباراتنا شتّى و حسنك واحدٌ و كلّ الى ذلك الجمال يشير

■

سُورَةُ ٱلطُّورِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَ ٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَ كِتٰابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ
مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَ ٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَ ٱلسَّقْفِ
ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذٰابَ
رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ ﴿٧﴾ مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ
ٱلسَّمٰآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَ تَسِيرُ ٱلْجِبٰالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾
فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلىٰ نٰارِ جَهَنَّمَ
دَعًّا ﴿١٣﴾ هٰذِهِ ٱلنّٰارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هٰذٰآ أَمْ أَنْتُمْ لاٰ تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اِصْلَوْهٰا
فَاصْبِرُوٓا أَوْ لاٰ تَصْبِرُوا سَوٰآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمٰا
تُجْزَوْنَ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي
جَنّٰاتٍ وَ نَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فٰاكِهِينَ بِمٰآ آتٰيهُمْ رَبُّهُمْ وَ
وَقٰيهُمْ رَبُّهُمْ عَذٰابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَ ٱشْرَبُوا
هَنِيٓئًا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلىٰ سُرُرٍ
مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَ ٱلَّذِينَ
آمَنُوا وَ ٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَآ أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَىْءٍ كُلُّ
ٱمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ
وَ لَحْمٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنٰازَعُونَ فِيهٰا كَأْسًا
لٰا لَغْوٌ فِيهٰا وَ لٰا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمٰانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَ أَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قٰالُوٓا إِنّٰا كُنّٰا
قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنٰا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللّٰهُ عَلَيْنٰا وَ
وَقٰينٰا عَذٰابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمٰآ أَنْتَ
بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكٰاهِنٍ وَ لٰا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شٰاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ
تَأْمُرُهُمْ أَحْلٰامُهُمْ بِهٰذٰآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طٰاغُونَ ﴿٣٢﴾
أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لٰا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا
بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كٰانُوا صٰادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا
مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخٰالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ بَلْ لٰا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
عِنْدَهُمْ خَزٰآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ
بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنٰاتُ وَ لَكُمُ ٱلْبَنُونَ
﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ
﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ

يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

◀ اللّغة

وَالطُّورِ: هو الجبل الّذي كلّم اللّه عليه موسى و الواو للقسم.

مَسْطُورٍ: أي مكتوب.

رَقٍّ مَنْشُورٍ: الرّق جلدٌ رقيق يصلح للكتابة و قيل هو الورق.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ: المعمور هو بيت في السّماء الرّابعة بحيال الكعبة.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ: هو السّماء.

الْمَسْجُورِ: المسجور المملّوء و منه سجرت التّنور إذا ملئمه ناراً.

تَمُورُ: المور تردُّد الشّئ ذهاباً و أياباً و قيل معناه يموج موجاً.

خَوْضٍ: الخوض بفتح الخاء الدّخول في الماء بالقدم.

دَعًّا: دعّه يدعّه إذا دفعه.

اِصْلَوْهَا: المصلي الّذي يجئ في أثر السّابق على لزوم أثره و الأصل لزوم الشّئ.

وَقِيٰهُمْ: الوقاية الحفظ.

سُرُرٍ: بضمّ السّين و الرّاء جمع سرير.

مَصْفُوفَةٍ: أي مصطفّة مأخوذة من الصَّف.

أَلَتْنٰاهُمْ: يقال ألته إذا أنقصه.

مُشْفِقِينَ: الإشفاق رقّة القلب عمّا يكون من الخوف على الشّيء.

نَتَرَبَّصُ: التربُّص الإنتظار بالشيء.

رَيْبَ ٱلْمَنُونِ: حوادث الدّهر.

تَقَوَّلَهُ: أي إخترعه و إفتعله.

ٱلْمُصَيْطِرُونَ: المسلّطون، و قيل هو الملك القاهر و قيل هو الجبّار المتسلّط.

كِسْفًا: الكسف القطعة من الغيم.

مَرْكُومٌ: المركوم الموضوع بعضه على بعض.

◀ الإعراب

وَ ٱلطُّورِ الواو للقسم و ما بعدها للعطف فِي رَقٍّ في تتعلّق بمسطور و يجوز أن يكون نعتاً آخر و جواب القسم إنّ عذاب ربّك مٰا لَهُ مِنْ الجملة صفة لواقع و يَوْمَ ظرف لدافع أو لواقع يَوْمَ يُدَعُّونَ هو بدل من يوم تمور أَفَسِحْرٌ هو خبر مقدّم و سَوٰآءٌ خبر مبتدأ محذوف أي صبركم و تركه سواء فٰاكِهِينَ حال و مُتَّكِئِينَ حال من الضّمير في، كلوا أو من الضّمير في وقاهم أو من الضّمير في أتاهم أو من الضّمير في، فاكهين، وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا هو مبتدأ و أَلْحَقْنٰا بِهِمْ خبره و يَتَنٰازَعُونَ حال بِنِعْمَتِ رَبِّكَ الباء في موضع الحال و العامل فيه، بكاهنٍ، نَتَرَبَّصُ صفة شاعر يَوْمَهُمُ مفعول به يَوْمَ لاٰ يُغْنِي بدل من يومهم.

◀ التّفسير

وَ ٱلطُّورِ

الواو للقسم و الطُّور بضمّ الطّاء إسم الجبل الّذي كلَّم اللّه عليه موسى، و قال المبرّد يقال لكلّ جبلٍ طور فإذا أدخلت عليه الألف و اللاّم كان معرفة الشّئ بعينه و منه قوله تعالى: **وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ**(١) و قيل أنّه سرياني و كيف كان فاللّه تعالى أقسم به تشريفاً له و تكريماً و تذكيراً لما فيه من الأيات و قد مرَّ الكلام في سورة الذّاريات بما ينفعك في المقام و هو أنّ اللّه تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه و ليس للعباد أن يقسموا إلاّ به تعالى:

وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ

الواو للعطف أي و أقسم بكتابٍ مسطور أيضاً إختلف المفسّرون في هذا الكتاب فقال بعضهم هو الّذى كتبه على خلقه من الملائكة في السّماء يقرؤون فيه ما كان و ما يكون و قيل هو القرآن مكتوب عند اللّه في اللّوح المحفوظ، و قيل هو صحائف الأعمال، و قيل سائر الكتب المنزلة على الأنبياء و أنمّا وصف الكتاب بكونه مسطوراً لأنّ المسطور المرتّب الحروف على وجهٍ مخصوص يقال سطرته سطراً و ذلك مسطور ثمّ وصفه.

ثانياً بقوله: **فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ**

الرّق بفتح الرّاء قيل أنّه جلدٌ رقيق يصلح للكتابة و عن أبي عبيدة أنّ الرَّق هو الورق و المنشور المبسوط من نشر إذا بسط قيل إنّ المنشور أبهى في العيون قال اللّه تعالى: **وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَيهُ مَنْشُورًا**(٢) و منه قول الشّاعر:

١- البقرة = ٦٣ ٢- الأسراء = ١٣

فكأنّما هي من تقادم أهـلها رَّقُ أتــيح كــتابها مسـطوراً

و أنمّا وصف الرَّق بالنَّشر و قال منشور لأنّ كلّ كتاب يكون في رقٍّ ينشره أهله لقرائته و كان في الأزمنة السّالفة كلّ كتاب مكتوباً على الجلود.

وَ ٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ

الواو للعطف أي و أقسم بالبيت المعمور قالوا هو في السّماء الرّابـعة حـيال الكعبّة يدخله كلّ يومٍ سبعون ألف ملكٍ ثمّ يخرجون منه فلا يعودون اليه أبداً، و قيل هو في السّماء السّادسة.

و عن إبن عبّاس أنّه في السّماء الدُّنيا، و قيل أنّ إبـن الكّـوا سأل علّياً عليه السلام عنه فقال عليه السلام هو بيت فوق سبع سموات تـحت العـرش يقال له الضَّراح.

و عـن الزُّهـري عـن سـعيد بن المسيّب عـن أبـي هـريرة، عـن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم قال البيت المعمور في السّماء الرّابعة و في السّـماء الرّابعة نهرٌ يقال له الحيوان يدخل فيه جـبرئيل كـلّ يـومٍ طلعت الشّمس و إذا خرج إنتفض إنتفاضة جرت عنه سبعون ألف قطرة يخلق اللّه من كلّ قطرةٍ مـلكاً يـؤمرون أن يأتـوا البـيت المـعمور فيصلّون فيه فيفعلون ثمّ لا يعودون اليه أبداً إنتهى.

و الأخبار بهذه المضامين كثيرة من العامّة و الخاصّة و كيف كان لا شكّ في وجودها لدلالة نصّ القرآن عليه و أمّا كيفيّته و مكانه و سائر خصوصيّاته فـاللّه أعلم بها و القدر المسلّم أنّه بحيال الكعبّة لطواف الملائكة حوله.

وَ ٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ

هو السّماء بإجماع المفسّرين أي أقسم بالسَّقف المرفوع.

وَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ

أي أقسم بالبحر المسجور، و المسجور المملّوء و منه سجرت التّنور إذا ملئته ناراً، و قال مجاهد و إبن زيد البحر المسجور، الموقد و قال قتادة هو المملّوء و عن إبن عبّاس، المسجور الّذي ذهب ماؤه و عنه أيضاً أنّه قال خرجت أمّة لتستقي فقالت أنّ الحوض مسجوراً أي فارغٌ، و قيل المفجور، و قيل هو بحرٌ دون العرش أو تحته و فيه ماءٌ غليظ يقال له بحر الحيوان و قيل غير ذلك و اللّه أعلم بما أراد.

إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ لَوٰاقِعٌ

هذا جواب القسم أي أقسم بهذه الأشياء المذكورة الّتي تقدّم ذكرها، أنّ عذاب ربّك، يوم القيامة **لَوٰاقِعٌ** لا محالة على رغم أنوف الكافرين المنكرين.

مٰا لَهُ مِنْ دٰافِعٍ

أي ليس لعذابه دافع يدفعه عن أهله و الوجه فيه ظاهر لأنّ قدرة اللّه إذا تعلّقت بشيءٍ لا مردّ لها و ذلك لأنّ الدّافع لا بدّ من أن يكون أقدر من اللّه و لا قدرة فوق قدرة الخالق.ثمّ أشار اللّه تعالى الى وقت العذاب و زمانه فقال:

يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمٰاءُ مَوْرًا، وَ تَسِيرُ ٱلْجِبٰالُ سَيْرًا

العامل في **يَوْمَ** قوله: **لَوٰاقِعٌ** أي يقع العذاب بهم يوم القيامة و هو اليوم الّذي تمور فيه السّماء و تسير الجبال، قال أهل اللُّغة، مار الشّيء يمور موراً أي تحرّك و جاء و ذهب، و قال الضّحاك يموج بعضها في بعضٍ و قال مجاهد، تدور دوراً، و قيل تجري جرياً و منه قول جرير:

و ما زالت القتلى تمور دماؤها　　　بدجلة حتّى ماء دجلة أثكل

و عن إبن عبّاس تمور السّماء يومئذٍ بما فيها و تضطرب و مور السّماء

إضطراب نظمه و إختلاف سيره و أمّا قوله: **وَ تَسِيرُ ٱلْجِبالُ سَيْرًا** فقال مقاتل أي تسير عن أماكنها حتّى تستوي بالأرض و قيل تسير كسير السّحاب اليوم في الدُّنيا.

قال اللّه تعالى: **وَ تَرَى ٱلْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحابِ**[١].

و قد مضى هذا المعنى في سورة الكهف:

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

قيل، الويل وادٍ في جهنّم و قيل بئرٌ فيها أخبر اللّه تعالى أنّ الويل يوم القيامة للمكذّبين الّذين ينكرون أخبار اللّه تعالى بواسطة أنبياءه و ينسبونهم الى الكذب و الجنون و يتّبعون الشّهوات و الأميال النفسانيّة كما قال تعالى:

ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ

الخَوض بفتح الخاء الدّخول في الماء بالقدم و شبّه به الدّخول في الأمر بالقول و بعبارةٍ أخرى هو الإنغمار في الباطل و الإعراض عن الحقّ قال اللّه تعالى: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[٢] أي في باطلهم، و اللّعب طلب الفرح كالصّبي في إنتفاء العمل على مقتضي العقل، و حيث أنّ الخوض و العمل باللّعب و العبث من شئون الطّفل و الصبيّ الّذي لا يميّز الحقّ من الباطل و هؤلاء الكفّار المشتغلين بالأباطيل أيضاً يعملون في الدُّنيا على خلاف حكم العقل عبّر الله عن أفعالهم و أعمالهم باللّغو و اللّعب و العبث فكما أنّ الصّبي لا ينتفع بما يفعل و يصنع غير تضييع العمر كذلك هؤلاء الكفّار و الفرق أنّ الصّبي لا يعذّب بفعله و هؤلاء يعذّبون يوم القيامة ثمّ أخبر اللّه تعالى عن اليوم الّذي حكم بالويل و العذاب فيه فقال:

١- النّمل = ٨٨
٢- الانعام = ٩١

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا

لدَّفع يقال دعَّه يدعّه دعّاً إذا دفعه و قيل الدعّ الدَّفع بإنزعاج وإرهاقٍ، و المقصود أنّهم يدّعون الى جهنّم بشدّةٍ و عنفٍ، و ذلك لأنّ خزنة جهنّم يغلّون أيديهم الى أعناقهم و يجمعون نواصيهم الى أقدامهم ثمّ يدفعونهم في النّار دفعاً على وجوههم و زحفاً في أعناقهم حتّى يردُّوا النّار، و منهم من قرأ الآية بالتَّخفيف من الدُّعاء و كيف كان فإذا دنوا من النّار قالت لهم الخزنة.

هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

في الدُّنيا و قلتم لا حساب و لا كتاب و لا ثواب و لا عقاب و يقال لهم على وجه التَّوبيخ و التَّقبيح أو على وجه الإنكار.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ

و أنّما يقال لهم ذلك لأنّهم كانوا ينسبون معجزات الأنبياء إلى السِّحر و يعبّرون عنهم بالسّاحر.

ٱصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إصلوها، الضّمير عائد على النّار و الفعل أمرٌ من، أصلى يصلي، و معناه اللُّزوم و منه الصّلاة للزوم الدُّعاء فيها، فمعنى قوله: **ٱصْلَوْهَا** إلزموا النّار فأصبروا أو لا تصبروا، على شدّتها و حرارتها، سواءٌ عليكم، فلا يخفف عنكم العذاب و لا تخرجون منها لانّها جزاء أعمالكم و ذلك لأنّ الجزاء على العمل خيراً كان أو شرّاً فهو بمنزلة المعلول و العمل بمنزلة العلّة أو أنّ العمل سببٌ و الجزاء مسبّبٌ عنه و لذلك أتى بكلمة أنّما، التّي تفيد الحصر ففيه إشارة إلى أنّ عملكم في الدُّنيا يعذّبكم في الأخرة و أنّ اللّه ليس بظلّامٍ للعبيد و إذا كان

كذلك فالصّبر و عدمه سيّان لا ينفع واحد منهما في رفع العذاب من أهل النّار لأنّ المسبّب يترتّب على سببه و هو موجود ثمّ بعد ما أخبر اللّه تعالى عن أحوال الكفّار يوم القيامة و أنّهم في العذاب، أشار إلى أحوال المتّقين المطيعين للّه و رسوله فقال:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَ نَعِيمٍ

أخبر اللّه تعالى أنّ المتّقين و هم الّذين يجتنبون المعاصي و يفعلون الطّاعات و يعتقدون بالتّوحيد و النّبوة و المعاد، في جنّاتٍ و نعيم، أي مقرّهم الجنّة يلتذّون فيها بأنواع النِّعم و يسكنون في أعلى القصور و يأنسون بالأولياء و الصُّلحاء و ذلك لأنّ نعيم الجنّة لا تنحصر بالمأكول و المشروب و غيرهما من اللّذات الجسمانيّة بل تعمّ المحسوسات و المعقولات و أن شئت قلت الجسمانيّات و الرّوحانيات.

فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ

ثمّ فسّر اللّه تعالى نعيم الجنّة و بيّنها فقال، فاكهين بما أتاهم اللّه، أي ذوي فاكهةٍ كثيرةٍ يقال رجلٌ فاكهٌ أي ذو فاكهة كما يقال، لابن و تامر، أي ذو لبنٍ و تمرٍ، و قرأ الحسن، فكهين، بغير ألف و معناه معجبين، يقال فكه الرَّجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيّب النَّفس مزّاحاً، و فيه إشارة إلى سرورهم و نشاطهم في الجنّة بما آتاهم اللّه من أنواع النِّعم، و حيث أنّ السُّرور و الرّاحة و النَّشاط و اللّذة مع الدهشة و الخوف لا يجتمعان.

قال تعالى: **وَ وَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ** أي منع عنهم العذاب إتماماً للنّعمة التّي أنعمهم اللّه بها قال الشّاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منقّضةٌ لذّاته بإدكار الموت و الهرم

و النِّعم الدُّنيوية هكذا و هذا هو الفرق بين النِّعم الدُّنيوية و النِّعم الأخرويّة و لذلك قال أهل المعرفة لا عيش إلاّ عيش الأخرة و لا لذّة إلاّ لذّاتها.

كلوا و ٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الهنيء ما لا تنغيص فيه و لا نكد و لا كدر أي متنعّم بنعيم الجنّة إمتاعاً هنيئاً، و قيل معناه لا أذى فيه و لا غائلة، و معنى الآية كلوا من غذاء الجنَّة و أشربوا من مائها حلالاً طيّباً لا أذى فيه غائلة و لا فناء و لا نقص و لا دثور و لا زوال بّما كنتم تعلمون في الدُّنيا فالباء للسَّبب أي أعمالكم في الدّنيا صارت سبباً لهذه النِّعمة التّي لا زوال لها و لمثل هذا فليعمل العاملون.

مُتَّكِـِٔينَ عَلٰى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ

الإتّكاء الإعتماد و سرر جمع سرير و المعنى حال كونهم متّكئين أي معتمدين على سررٍ مصفوفة أي موصولة بعضها إلى بعضٍ حتّى تصير صفّاً قيل في وصفهما هي سرر من ذرهبٍ مكلّلة بالزَّبرجد و الدرّ و الياقوت و قوله: **وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** قيل، الحور، البيض النّقيات البياض في حسنٍ و كمالٍ و العين، الواسعة الأعين في صفاء و بهاء و المعنى، قرنا هؤلاء المتّقين بالحور العين على وجه التّنعيم لهم و التَّمتيع.

أقول اللّهم إرزقنا بمحمّدٍ و أله.

وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ ٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِاِيمٰانٍ أَلْحَقْنٰا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مٰآ أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ

قرأ العامّة وَ ٱتَّبَعَتْهُمْ بوصل الألف و تشدّيد التّاء و فتح العَين و إسكان التّاء الثّانية من الإتّباع، و قرأ أبو عمرو (و أتبعناهم) بقطع الألف و إسكان التّاء و العَين و نون إعتباراً بقوله. و **أَلْحَقْنٰا بِهِمْ** ليكون الكلام على نسقٍ واحدٍ.

و أمّا قوله: **ذُرِّيَّتَهُمْ** الأولى فقرأها إبن عامر بالجمع و نبعه أبو عمرو و يعقوب و رووها عن نافع إلاّ أنّ أبا عمرو و كسر التّاء على المفعول و ضمَّ التّاء باقيهم و قرأ الباقون (ذريّتهم) على التّوحيد و ضمّ التّاء و هو المشهور عن نافع

و أمّا ذريّتهم، الثّانية فقرأها نافع و إبن عامر و أبو عمرو و يعقوب بكسر التّاء على الجمع و قرأ الباقون على التّوحيد و فتح التّاء هذا كلّه في قراءة الآية إذا عرفت هذا فنقول:

لمّا بيَّن اللّه تعالى في الأيات السّابقة أحوال المتّقين و ما أعطاهم من النِّعم في الجنَّة من أنواع الفواكه و جلوسهم و إتّكائهم على سرر مصفوفة و تزويجهم بحورٍ عين و منع العذاب عنهم، ليتمّ بهم العيش و السُّرُور و بقي شيٌ واحد فراق الأحبَّة فأنّه من أعظم الهموم أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بإلحاق ذريّتهم إليهم يوم القيامة إتماماً للعيش و إكمالاً للنِّعمة بشرط متابعتهم أبائهم في الإيمان و ذلك لأنّ الجنَّة و ما فيها من النِّعم حرامٌ على الكافرين فقال **وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** باللّه و رسوله و عملوا الصّالحات **وَ ٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ** أي أمنوا باللّه و رسوله و عملوا الصّالحات كما هو مقتضى الإيمان كما أمن أسلافهم من قبل و بعبارةٍ أخرى متابعة الخلف عن السّلف في الإيمان **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** في الجنَّة لتقرّ أعينهم برؤيتهم فقال إبن عبّاس و إبن زيد معناه ألحقنا الأولاد بالأباء إذا أمنوا من أجل إيمان الأباء و إن قصرت أعمال الأولاد عن أعمال الأباء تكرمة لأبائهم.

و في رواية أخرى عنه أنّ اللّه ليرفع ذريّة المؤمن معه في درجته في الجنَّة و أن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه و تلا هذه الآية.

قد روى القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن إبن عبّاس أنّ رسول اللّه ﷺ قال: أنّ اللّه عزّ وجّل ليرفع ذريّة المؤمن معه في درجته في الجنَّة و أن كان لم يبلغها بعمله لتقرّ بهم عينه ثمّ قرأ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ ٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ.

قال أبوجعفر فصار الحديث مرفوعاً عن النّبي ﷺ و كذا يجب أن يكون لأنّ إبن عبّاس لا يقول هذا إلاّ عن رسول اللّه لأنّه إخبارٌ عن اللّه عزّ وجلّ بما يفعله و بمعنى أن أنزلها جلّ ثناؤه إنتهى.

و قوله تعالى: **وَ مٰآ أَلَتْنٰاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** معناه ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم و ما نقصنا الأباء أيضاً من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذُّريات بهم هكذا فسَّروا الكلام و الحقّ أنّ الضّمير في قوله: **وَ مٰآ أَلَتْنٰاهُمْ** و فى قوله: **مِنْ عَمَلِهِمْ** عائد على الأباء و المعنى ما نقصنا الأباء من عملهم من شئٍ، لأجل إلحاق الذريّة بهم و فيه إشارة إلى أنّ الأبناء كانوا مستحقّين لدخُول الجنّة بأعمالهم إلاّ أنّهم لم ينالوا مرتبة الأباء حتّى لحقوا بهم و أنّما الحقهم اللّه بهم لتقرّعين الأباء بهم، تفضّلاً منه تعالى و إليه الإشارة بقوله: **كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ** أي أنّا لا ننقص من عمل العامل شيئاً من الثّواب فأنّ كلّ إنسانٍ يثاب أو يعاقب بما يستحقّه و بعبارةٍ أخرى لا يجوز عليه نقصان شئٍ من عمله و جزاءه لأنّه لا يجوز عليه الظُّلم لا قليله و لا كثيره و لا صغيره و لاَ كبيره، و الرّهين و المرهون و المرتهن هو المحتبس على أمرٍ يؤدّي عنه بحسب ما يجب فيه فلمّا كان كلّ مكّلفٍ محتسباً على عمله فأن صحّ له أداؤه على الواجب فيه تخلّص و إلاّ هلك فلهذا قال تعالى: **كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمٰا كَسَبَ رَهِينٌ** قاله الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان إنتهى.

و نعم ما قال، هذا ما إستفدناه من الآية و اللّه أعلم.

وَ أَمْدَدْنٰاهُمْ بِفٰاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمّٰا يَشْتَهُونَ

الآمداد هو الإتيان بالشّئ بعدَ الشّئ و الفاكهة هي الثّمار و المعنى أكثرنا لهم أي للمتّقين، و ذراريهم من النِّعم زيادة على ما أنعمنا عليهم من قبل و بعبارةٍ أخرى أمددنا لهم غير الّذي كان لهم تفضّلاً منّا و رحمةً من أنواع الثّمار و اللّحم ممّا يشتهون فأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ به الأعين و رحمة اللّه واسعة.

يَتَنٰازَعُونَ فيهٰا كَأْسًا لاٰ لَغْوٌ فيهٰا وَ لاٰ تَأْثِيمٌ

أي يتعاطون كأس الخمر و الكأس الإناء المملوء بالشّراب فأن كان فارغاً فلا يسمّى كأساً ذكره الفرّاء و شاهدالتّنازع والكأس في اللُّغة قول الأخطل حيث قال:

و شــاربُ مــربحُ بــالكأس نــادمني   لا بــالحصول و لا فــيها بســوّارٍ
نـازعته طـيّب الرّاح الشُّموب و قـد   صاح الدُّجاج و حانت وقعة السّاري

و قال إمرؤ القيس:

فــلمّا تــنازعنا الحــديث و أســمحت   هــصرت بـغصنٍ ذي شـماريخ مـيّالٍ

و قوله: **لَا لَغْوٌ فِيهَا وَ لَا تَأْثِيمٌ** أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو و لا ما فيه إثم والتّأثيم تفصيل من الإثم أي تلك الكأس لا تجعلهم أثمين لأنّـه مباحٌ لهم و يحتمل أن يكون الضّمير في قوله، فيها، عائداً إلى الجنَّة أي لا لغو في الجنَّة و لا إثم و المآل في الإحتمالين واحد.

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ

الطّوف المشي حول الشّيء و منه الطّائف لمن يدور حول البيوت حافظاً و منه الطّائف حول الكعبة و الغلمان بكسر الغين جمع غلام و قد يجمع على، غلمة، و يطلق على من لم يبلغ الحلم يقال له الشّاب و المكنون المصون، و معنى الآية يطوف، أي يدور، عليهم، أي على أهل الجنَّة غلمان كأنّهم لؤلؤٌ مكنون في صفاءه و بياضه و حسن منظره و قيل ليس على الغلمان مشقّة في خدمة أهل الجنَّة بل لهم في ذلك لذّة لأنّه ليس هناك دار محنةٍ.

و قال بعض المفسّرين ليس في الجنّة نصب و لا حاجة إلى خدمة و لكنّه أخبر بأنّهم على نهاية النّعيم، قيل أنّهم الأطفال من أولادهم الّذين سبقوهم فأقرّ اللّه تعالى بهم أعينهم و قيل أنّهم غلمان خلقوا في الجنَّة لأجل أهل الجنَّة و هذا هو الحقّ إذا عرفت هذا فلا بأس بذكر ما نقله القرطبي في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه:

و عن عائشة رضي اللّه عنها أنّ نبيّ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أنّ أدنىٰ أهل الجنَّة منزلةً من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلّهم لبّيك لبّيك إنتهى.

و عن عبد اللّه بن عمر قال النبيّ ﷺ: ما من أحدٍ من أهل الجنّة إلاّ يسعى عليه ألف غلام كلّ غلامٍ علىٰ عملٍ ليس عليه صاحبه إنتهىٰ. و عن الحسن أنّهم قالوا يارسول اللّه إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم فقال ﷺ ما بينهما القمر ليلة البدر و بين أصغر الكواكب إنتهى.

أقول يظهر من ألفاظها و معانيها صدقها أو كذبها فأقض ما أنت قاض.

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ

أي يسأل بعضهم عن حال بعضٍ و ما هو فيه من أنواع النّعيم فيسرّون بذلك و يزداد فرحهم، و قيل يسأل بعضهم بعضاً عمّا فعلوه في دار الدُّنيا ممّا إستحقُّوا به المصير إلى الثّواب و الكون في الجنان بدليل قولهم.

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ

فهذه الآيات تدلّ على أنّ سؤال بعضهم عن بعضٍ كان ممّا إستحقوا به المصير إلى الثّواب لأنّهم قالوا في الجواب، **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ** أي في دار الدُّنيا **مُشْفِقِينَ** أي خائفين من عذاب اللّه يوم القيامة **فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَىٰنَا** أي منع عنّا عذاب السَّموم و هو الحرّ الّذي يدخل في مسام البدن بما يوجد ألمه و منه ريح السَّموم قوله، منّ اللّه، إشارة إلى أنّهم لم يستحقُّوا ذلك بأعمالهم و أنّما أعطاهم اللّه ذلك تفضّلاً و هو كذلك و لذلك ورد في الدُّعاء إلهنا عاملنا بفضلك و لا تعاملنا به عدلك، و ذلك لأنّ العبد عاجزٌ عن أداء وظائف العبّودية.

إِنَّا كُنَّا قَبْلُ أي في دار الدّنيا، ندعوه، أي ندعو اللّه، أنّه هو البرّ الرّحيم، أي كنّا ندعوه بهذا فيمن فتح الهمزة و أمّا من كسرها فالمعنى إنّا كنّا ندعوه و

نتضرّع إليه، إنّه هو البرّ الرّحيم، أي أنّ اللّه تعالى بارٌّ بعبيده و رحيمٌ بهم و الوجه فيما ذكرناه هو من بفتح الهَمَزة فهو للتّعليل أي لأنّه هو البرّ الرّحيم قرأ بالكسر فهو على الإبتداء و هو الأشهر، و أمّا البرّ فمعناه اللّطيف أي هو لطيفٌ رحيم و معناه واضح.

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَ لَا مَجْنُونٍ

الكاهن الموهم أنّه يعلم الغيب بطريق خدمة الجنّ و المجنون المؤوف بما يغطى على عقله حتّى لا يدرك به في حال يقظة و معنى الآية فذكّر يا محمّد أي عظ و أنصح هؤلاء المكلّفين و بلّغ إليهم رسالة ربّك و لا تحزن ممّا يرمونك به من الجنون و الكهانة و ذلك لأنّك لست بنعمة ربّك التّي أعطاها إيّاك و هى الرّسالة و النّبوة بكاهنٍ و لا مجنونٌ و أنّما يفترون عليك هؤلاء الكفّار كما يفتّرون على اللّه تعالى ففي الآية تسليةٌ للنبيّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولمن تبعه إلى يوم القيامة و ذلك لأنّ الدّاعي إلى الحقّ و الأمر بالمعروف و النّاهي عن المنكر في مظانّ التُّهمة و الإفتراء من ناحية الفسّاق و الكفّار:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ**(٢).

جزء ٢٧

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ

أم، معناه، بل، أي بل يقولون هؤلاء الكفّار نتربّص به ريب المنون، أي نتّوقع و ننتظر في محمّد ريب المنون أي حوادث الدّهر و الموت و أعلم أنّ (أم) في كلام العرب للخروج من حديثٍ إلى حديثٍ أخر فما جاء في كتاب

١- فصّلت = ٣٠ ٢- الشّوریٰ = ١٥

اللّه من هذا فمعناه التّقريع أو التّوبيخ و الخروج من حديثٍ إلى حديث و النحويُّون يمثّلونها، ببل.

قال قتادة قال قوم من الكفّار تربّصوا بمحمّد الموت يكفيكموه كما كفى شارع بني فلان قيل هؤلاء بنو عبد الدّار نسبوه إلى أنّه شاعر و هو يهلك عن قريب كما هلك من قبله من الشّعراء و أنّ أباه مات شاعراً فربّما يموت كما مات أبوه.

و قال الأخفش في الكلام حذف و تقديره (إلى ريب المنون) و المنون الموت و عن إبن عبّاس أنّه قال كلمة (ريب) معناها الشكّ في القرأن و غيره إلاّ مكاناً واحداً في سورة الطُّور **رَيْبَ ٱلْمَنُونِ** يعني حوادث الدَّهر أو حوادث الأمور كما قال الشّاعر:

تربّص بها ريب المنون لعلّها　　　تطلّق يوماً أو يموت حليلها

قال مجاهد، ريب المنون، حوادث الدَّهر و المنون هو الدَّهر قال أبو ذؤيب:

أمن المنون و ريبه نتوجّع　　　و الدَّهر ليس بمعتبٍ من يجزع

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار، تربّصوا أي إنتظروا **فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ** أي من المنتظرين و من المعلوم أنّ تربّص الكفّار بالنبي و المؤمنين قبيح، و أمّا تربّص النّبي و المؤمنين بالكفّار و توقّعهم الهلاك لهم حسن، قيل قوله: **تَرَبَّصُوا** و أن كان بصيغة الأمر فالمراد به التّهديد و التّوبيخ.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ

أي بل تأمر هؤلاء الكفّار أحلامهم و عقولهم بهذا القول بل هم قوم طاغون، كلمة، أم، في الموضعين بمعنى، بل، و المقصود من الآية أنّ عقولهم ناقصة

لأنّ العقل الصّحيح لا يحكم بهذا الحكم ثمّ أضرب عنه بل هؤلاء الكفّار من الطُّغاة والطّاغي حاله معلوم لأنّه طالبٌ للإرتفاع بالظُّلم على من كان من العباد فيقول ما يجري على لسانه من غير تعقُّلٍ و تدبُّرٍ.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ

أي بل يقولون هؤلاء الكفّار، تقوّله أي أنّه إفترى على اللّه ما قال و إخترعه و إفتعله من عند نفسه، لأنّ التقوّل لا يكون إلاّ كذباً لأنّه دخله معنى تكلُّف القول من غير حقيقة معنى يرجع إليه كلّ من تكلّف أمراً لا يقتضيه العقل أنّ له فعله فهو باطل.

ثمّ قال تعالى: **بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ** باللّه و رسوله و لا بأنّ القرأن أنزل من عند اللّه و أنّما قال تعالى ذلك لعلمه بعدم إيمانهم بإختيارهم و ليس المعنى أنّه خلقهم لذلك، فأم الأولى للإنكار، و الثّانية للإيجاب أي ليس الأمر كما يقولون بل لايؤمنون، جحداً و إستكباراً.

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ

أي إن كان هذا القرآن من تقوّله و افترائه فليأتوا هؤلاء الكفّار بحديثٍ مثله أي مثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في قولهم هذا، و ذلك لأنّ فيهم من فصحاء العرب و بلغاءهم عددٌ كثير و حيث أنّهم لا يقدرون على ذلك فكلامهم بأنّ القرآن شعر أو كلام المخلوق عاطل باطل و الباطل لا جواب إذ لا يقول الباطل إلاّ الباطل.

قال بعض المفسّرين، أنّ أعلى طبقات البلاغة كلام قد جمع خمسة أوجه:

تعديل الحروف في التَّجانس، و تشاكل المقاطع ممّا تقتضيه المعاني و تهذيب البيان بالإيجاز في موضعه و الأطناب في موضعه و الإستعارة في موضعها و الحقيقة كذلك، و إجراء جميع ذلك في الحكم العقليّة بالتَّرغيب

فيما ينبغي أن يرغّب فيه و التَّرهيب ممّا ينبغي أن يرهب منه و الحجَّة الّتي يميّز بها الحقّ عن الباطل و الموعظة الّتي تليق للعمل بالحَّق إنتهى.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ

أم، في هذه الآية و ما بعدها من الآيات صلة و التّقدير، أخلقوا و أن شئت قلت، أم، بمعنى الهمزة الإستفهاميّة و الإستفهام للإنكار فقوله تعالى: **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ** تقديره (أخلقوا من غير شئٍ) أم هم الخالقون، و المعنى، أخلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون لنفوسهم فلا يأتمرون لأمر اللّه و لا ينتهون عمّا نهاهم عنه، معنى (أخلقوا من غير شئٍ) أخلقوا لغير شئٍ أي أخلقوا باطلاً لا لغرضٍ، المعنى، أخلقوا من غير أبٍ و لا أمٍّ، فلا يهلكون كما أنّ السّموات و الأرض خلقنا من غير شئٍ فإذا هم أضعف من السّماء الّذي خلق لا من شئٍ فإذا كان ما خلق لا من شئٍ يهلك فما كان دونه بالهلاك أولى ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف، ما هذا لفظه **أَمْ خُلِقُوا** أم أحدثوا و قدّروا التّقدير الّذي عليه فطرتهم **مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ** من غير مقدّرٍ **أَمْ هُمُ** الّذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق إنتهى.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف لا نفهمه و أظنّ أنّه أيضاً لم يفهم ما قال فأقض ما أنت قاضٍ.

و قال البيضاوى، **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ** معناه أم أحدثوا و قدّروا من غير محدثٍ و مقدّرٍ فلذلك لا يعبدونه أو من أجل لا شئ من عبادةٍ و مجازاة إنتهى.

و هو أيضاً في الإجمال مثل سابقه، و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه قوله تعالى: **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ** إتيان شئٍ منكراً بتقدير صفةٍ تناسب المقام و تقديره، من غير شئٍ خلق منه

غيرهم من البشر، و المعنى بل أخلق هؤلاء المكذّبون من غير شيٍ خلق منه غيرهم من البشر فصلح لإرسال الرّسول و الدَّعوة إلى الحقّ و التلبّس بعبوديّته تعالى فهؤلاء لا يتعلّق بهم التَّكليف و لا يتوجّه إليهم أمرٌ و لا نهيٌ و لا تتَّبع أعمالهم ثواباً و لا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم معنى الجملة أقوال أخر ثمّ نقل الأقوال الّتي نقلناها.

و قال في آخر نقل الأقوال، و ما قدَّمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية و أشمل إنتهى كلامه رفع مقامه فهذه هي الأقوال المشهورة حول الآية إنّا لسنا بصدد الجرح و التَّعديل أو النَّقض و الإبرام في الأقوال المذكورة لم نتعرّض بما فيها من الوهن و الضعف نعم قول الأخير الّذي ذكره بعض المعاصرين أقرب إلى الواقع من سائر الأقوال إلاّ أنّه‌ﷺ قدَّر في الجملة (خلق منه غيرهم من البشر) و التَّقدير خلاف الأصل و كون الشّئ منكراً في الآية لا يستدعي التَّقدير و الحاصل أنّ ما ذكره لا يصحّ و قوله في آخر كلامه ما قدَّمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية و أشمل، في غير محَّله.

و الّذي يختلج بالبال في معنى الآية في قوله: **خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ** هو أنّ المراد بالشّئ في كلام اللّه المادَّة و توضيح ذلك إجمالاً أنّ المخلوق إمّا أن يكون في وجوده مستوياً بالمادَّة و المدَّة معاً و هو الكائن.

و أمّا أن لا يكون مسبوقاً بشئ منهما و هو المبتدع، و امّا أن يكون مسبوقاً بالمادَّة دون المدَّة و هو المخترع و أمَّا عكسه فغير متحقّقٍ في الخارج فالأقسام ثلاثة:

كائن، مبتدع، مخترع.

أمّا الكائن، كالعناصر و العنصريّات، و المخترع كالفلك و الفلكيّات، و المبتدع، كالعقول و النفُّوس المجرّدة عن المادَّة و المدَّة، و بذلك قد ظهر لك أنّ الإنسان الّذي هو مورد البحث في الآية من قسم الكائن لأنّه في خلقه مسبوق بالمادّة و المدَّة و ليس من أقسام المبتدع و المخترع إذا عرفت هذا

فنقول المخلوق الّذي خلق من غير شئ منحصرٌ في المجردّات و هى العقول و النُّفوس المجرّدة عن المادَّة و المدّة و من المعلوم أنّها غير محتاجة إلى الرّسول و هكذا الفلكيّات و أن كانت مسبوقة بالمادَّة فأنّ الرّسول من جنس البشر و مبعوث إليهم، و أمّا العنصريّات، من الحيوان و الإنسان و النَّبات و الجماد فالمكلّف فيها هو الإنسان فقط لوجود العقل فيه فما لا عقل له لا تكليف له فالأنبياء مبعوثون إلى البشر و هو محتاج إليهم لا محالة فتكذيبهم النّبي معناه عدم إحتياجهم إليه و حيث أنّ الكفّار كذّبوا النبيّ ﷺ و أنكروا نبوّته فقد أظهروا عدم إحتياجهم إليه فقال تعالى رادّاً عليهم: (أخلقوا من غير شئ) أي من غير مادَّةٍ كالعقول و النُفوس حتّى لا يحتاجون إلى الرّسول و بعبارةٍ أخرى أهم من المجرّدات، و إذا لم يكونوا منها فتكذيبهم لا معنى له ثمّ قال تعالى: **أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ** لأنفسهم و لا خالق لهم ليعبدوه و إذا لم يكن لهم خالق فلا يكون لهم نبيّ و الجواب في المقامين منفيّ، أي لم يكونوا من المجرّدات و لم يكونوا خالقاً لأنفسهم، فطغيانهم و تمرّدهم وتكذيبهم النَّبي لا معنى له هذا ما خطر ببالي في فهم الآية ولست أدَّعي أنّه حقّ فأن كان حقّاً فمن اللّه و أن كان باطلاً فمن نفسي و اللّه أعلم بما قال:

أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ

و من المعلوم أنهّم لم يخلقوهما، و قيل معنى الكلام **أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** و لذلك لا يوقنون و لا يقرُّون بالتَّوحيد و النَّبوة و المعاد ثمّ قال تعالى: **بَل لَّا يُوقِنُونَ** بأنّهم مخلوقون و المخلوق لا يعصي خالقه و لا ينكره.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ

أي أعندهم ذلك فيستغنوا عن اللّه و يعرضوا عن أمره.

قال إبن عبّاس خزائن ربّك المطر و الرِّزق و قيل خزائنه مفاتيح الرَّحمة و

قيل النُّبوّة، و الحقّ أنّها مقدوراته فأنّه تعالى قادرٌ على كلّ شيٍ يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و قوله تعالى: **أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ** يقرأ بالصّاد و السّين و الأصل فيه السّين لأنّه مأخوذ من السَّطر يقال سيطر يسيطر سيطرة و هو (فعيل) من السَّيطرة، قيل المسّيطر الملك القاهر، و قيل هو الجبّار المتسلّط و منه قوله تعالى: **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ** (۱).

و قال أبوعبيدة المسيطرون الأرباب، و قرأ إبن كثير و أبو عمرو و إبن‌عامر و الكسائي (المسيطرون) بالسّين و الباقون بالصّاد و المعنى واحد و معنى الكلام أنّه لا تسلُّط لهم على غيرهم بل هم مخلوقون و العبد و ما في يده كان لمولاه.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ

فالسُّلّم بضّم السّين و فتح اللاّم المشّددة المرتقى إلى العلو و المعنى أيدَّعون أنّ لهم مرتقى إلى السّماء و مصعداً و سبباً يستمعون فيه الوحي و الأخبار و يصلون به إلى عالم الغيب فقد وثقوا بما هم عليه فأن كان كذلك **فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** أي فليأت بحجّةٍ يظهر بها صدقهم و صحّة قولهم إذ ليس لهم ذلك فهم كاذبون في إدّعائهم و أنّما يقولون رجماً بالغيب فأنّ الشّياطين يوحون إلى أوليائهم ما يجري على ألسنتهم.

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَ لَكُمُ ٱلْبَنُونَ

معناه ألكم البنون و للّه البنات غاية الجهل و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى منزّهٌ عن إتّخاذ الولد لأنّه أي إتّخاذ الولد من شئون الأجسام و هو تعالى موجودٌ مجرّد ولو جاز له ذلك كما يزعمون هؤلاء الكفّار لم يكن يختار البنات على البنين فدلّ ما ذكروه على إفراطهم في الجهل و الضّلالة فيما وصفوا اللّه تعالى به من إتّخاذه الملائكة بنات نعوذ باللّه منه.

۱- الغاشية = ۲۲

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ

أم تسألهم يامحمّد أجراً على أداء الرّسالة إليهم بدعائك إيّاهم إلى اللّه فهم لا يقدرون على ذلك لثقله عليهم، فالمغرم إلزام الغرم في المال على طريق الإبذال، و المغرم إنفاق المال من غير إبذالٍ و أصله المطالبة بإلحاح و منه الغريم لأنّه يطالب بالدَّين بإلحاحٍ و محصّل الكلام في معنى الآية أتسألهم أجراً لا يقدرون عليه لثقله علهيم قال اللّه تعالى: **قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا.**

أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

أي يكتبون للنّاس ما أرادوه من علم الغيوب، و قيل معنى الكلام، أم عندهم علم ما غاب عن النّاس حتّى علموا أنّ ما أخبرهم الرّسول من أمر القيامة و الجنَّة و النّار و البعث باطل.

و قال قتادة لمّا قالوا، نتَّربص به ريب المنون، قال اللّه تعالى: **أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ** حتّى علموا متى يموت محمّد أو إلى ما يؤول إليه أمره.

و قال إبن عبّاس أم عندهم اللّوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه، و يخبرون النّاس بما فيه.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ

الكيد هو المكر، و قيل هو فعل ما يوجب الغيظ في خفي هذا في الكيد من الخلق و أمّا الكيد من اللّه فهو التّدبير الّذي يدبّره لأوليائه على أعداءه ليقهروهم و يستعلوا عليهم بالقتل و الأسر.

قال الفرّاء معنى الكلام أيريدون بكفرهم و طغيانهم كيداً فاللّه تعالى يكيدهم بالعذاب في الدّنيا و الأخرة، و قيل: **أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا** أي مكراً بك في دار النَّدوة **فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ** أي الممكور بهم و ذلك أنّهم قتلوا ببدر.

أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحٰانَ ٱللَّهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ

أي أم لهم إله غير اللّه، يخلق و يرزق و يمنع **سُبْحٰانَ ٱللَّهِ عَمّٰا يُشْرِكُونَ** نزَّه اللّه تعالى نفسه أن يكون له شريك، قال الخليل كلّ ما في سورة (والطُّور) من ذكر (أم) فكلمة، إستفهام و ليس بعطفٍ.

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ ٱلسَّمٰاءِ سٰاقِطًا يَقُولُوا سَحٰابٌ مَرْكُومٌ

الكسف جمع كسفة كقولك سدر و سدرة و هى القطعة من الشّئ يقال أعطني كسْفة من ثوبك أي قطعة منه، و قيل الكسْف و الكسفة واحد و قال الأخفش من قرأ، كسفاً جعله واحداً و من قرأ كسفاً، جعله جمعاً و كيف كان فالآية في الحقيقة جواب لسؤالهم حيث سألوا النّبي على ما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله: **أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمٰاءَ كَمٰا زَعَمْتَ عَلَيْنٰا كِسَفًا**[١].

فقال اللّه في جوابهم: **وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا** أي قطعة **مِنَ ٱلسَّمٰاءِ سٰاقِطًا يَقُولُوا سَحٰابٌ مَرْكُومٌ** أي بعضهم فوق بعض سقط عليناسماء و هذا فعل المعاند أو فعل من إستوى عليه التّقليد و من المعلوم أنّ المعاند لا يقبل الحقّ لعناده لا لجهله فأنّ المعاند قد يكون عالماً و مع ذلك ينكره لعناده و الّذي حصل لنا من الآية و غيرها من الأيات المذكورة هو أنّ الكفّار كانوا معاندين و من كان معانداً، فقد حقَّ عليه العذاب و ما له من جواب فإنكار الحقّ تارةً يكون من العالم بالحقّ و تارةً يكون من الجاهل المقلِّد و كيف كان فهو داءٌ لا دواء له و لذلك قال اللّه تعالى لنبيّه: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[٢] و يقال (لقد حَقَّت عليه كلمة العذاب) ما له من جواب و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله:

فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ

١- الإسراء = ٩٢
٢- الانعام = ٩١

الصَّعق بفتح الصّاد و سكون العين و القاف هو الهلاك بصيحةٍ تصدع القلب و **يُصْعَقُونَ** في الآية قد يقرأ بضمّ الياء بصيغة المجهول و قد يقرأ بفتح الياء بصيغة المعلوم على إضافة الفعل إليهم فقرأ عاصم و إبن عامر بالضمّ و قرا الباقون بالفتح و هما لغتان، و قيل الصَّعق في النَّفخة الأولى و معنى الآية أتركهم يا محمّد حتّى يلاقوا، هؤلاء الكفّار يومهم الّذي فيه يهلكون يوم البعث ثمّ وصف اللّه ذلك اليوم بقوله:

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ

و هو يوم القيامة لأنّه اليوم الّذي لا ينفعهم كيدهم و حيلتهم فيه و لا ناصر لهم ينصرهم.

وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

قال إبن عبّاس هو عذاب القبر، و قال مجاهد هو الجوع في الدّنيا و قال إبن زيد هو مصائب الدّنيا و قال قومٌ هو جميع ذلك **وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ما يصيرون إليه من أنواع العذاب ثمّ أمر اللّه نبيّه بالصَّبر فقال:

وَ ٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ

أمر اللّه تعالى نبيّه بالصَّبر فقال و أصبر لحكم ربّك، أي لحكم الرّسالة و ما يتبعها من الأذى من الكفّار، و قيل معناه فأصبر لقضاء ربّك فيما حمَّلك من رسالته و ذلك لأنّ أداء حقّ الرّسالة مشكلٌ جدّاً و قوله: **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** أي بمرأى منّا ندركك و لا يخفى علينا شيءٌ من أمرك فأنّا نحفظك من أذاهم إيّاك و كيدهم و مكرهم ليقتلوك فلا يصلوا إلى ما أرادوا في حقّك ثمّ أمره اللّه تعالى ثانياً بالتَّسبيح فقال: **وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ** قيل حين تقوم من نومك و قيل إذا قمت إلى الصّلاة المفروضة و قيل حين تقوم من نوم القائلة إلى صلاة

الظُّهر، و عندي أنّ معناه حين تقوم بأمر اللّه و ليس المراد بالقيام معناه المصطلح عند العرف الأخبار المرّوية عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد قيامه صلّى الله عليه و آله و سلّم باللّيل للصّلاة فيه.

وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبَارَ ٱلنُّجُوم

عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: إدبار السُّجود أربع ركعات بعد المغرب و إدبار النُّجوم ركعتين قبل صلاة الصُّبح و هو المرّوي عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه عليه السلام و النّجوم هي الكواكب واحدها النَّجم.

والحمد للّه ربّ العالمين.

■

سُورَةُ ٱلنَّجْمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَ ٱلنَّجْمِ إِذٰا هَوٰى ﴿١﴾ مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا
غَوٰى ﴿٢﴾ وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوٰىٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحٰى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوٰى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ
فَاسْتَوٰى ﴿٦﴾ وَ هُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلٰى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنٰا
فَتَدَلّٰى ﴿٨﴾ فَكٰانَ قٰابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى ﴿٩﴾
فَأَوْحىٰٓ إِلٰى عَبْدِهِ مٰآ أَوْحٰى ﴿١٠﴾ مٰا كَذَبَ
ٱلْفُؤٰادُ مٰا رَأٰىٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمٰارُونَهُ عَلٰى مٰا يَرٰى
﴿١٢﴾ وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ
ٱلْمُنْتَهٰى ﴿١٤﴾ عِنْدَهٰا جَنَّةُ ٱلْمَأْوٰىٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى
ٱلسِّدْرَةَ مٰا يَغْشٰى ﴿١٦﴾ مٰا زٰاغَ ٱلْبَصَرُ وَ مٰا طَغٰى
﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأٰى مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرٰىٓ ﴿١٨﴾
أَفَرَأَيْتُمُ ٱللّٰاتَ وَ ٱلْعُزّٰى ﴿١٩﴾ وَ مَنٰوةَ ٱلثّٰالِثَةَ
ٱلْأُخْرٰىٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَ لَهُ ٱلْأُنْثٰى ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزٰىٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمٰآءٌ
سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْتُمْ وَ آبٰآؤُكُمْ مٰآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهٰا مِنْ
سُلْطٰانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ مٰا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ

وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدٰىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسٰانِ
مٰا تَمَنّٰىٰ ﴿٢۴﴾ فَلِلّٰهِ ٱلْآخِرَةُ وَ ٱلْأُولٰى ﴿٢۵﴾ وَ كَمْ
مِنْ مَلَكٍ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ لاٰ تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئًا
إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللّٰهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَرْضٰىٰ
﴿٢۶﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ
ٱلْمَلاٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنْثىٰ ﴿٢٧﴾ وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَ إِنَّ ٱلظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ
ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰىٰ عَنْ
ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا ﴿٢٩﴾ ذٰلِكَ
مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدىٰ ﴿٣٠﴾

◄ اللّغة

وَ ٱلنَّجْمِ: أصل النّجم الكوكب الطّالع.

هَوٰى: الهويّ سقوطٌ من علوٍ إلى سفلٍ.

غَوٰى: الغيّ ضدّ الرُّشد و الغَّي الخيبة.

ذُو مِرَّةٍ: بكسر الميم صفة جبرئيل و هى في الأصل شدّة الفتل و قد تطلق على القوّة.

دَنٰا: الدُّنو بضّم الدّال القرب يقال دنى فلان اى قرب.

فَتَدَلّٰى: أصل التدلّي النُّزول إلى الشّئ حتّى يقرب منه فوضع موضع القرب و قيل التدلّي الزّيادة في القرب.

قٰابَ قَوْسَيْنِ: أي قدر قوسين عربيتّين.

ٱلْفُؤَادُ: القلب.

أَفَتُمَارُونَهُ: مأخوذ من المراء و هو المجادلة أي فتجادلونه.

نَزْلَةً: النَّزلة الدَّفعة أي رأه دفعةً أخرى و نزلة مصدر في موضع الحال أي رأه نازلاً نزلةً أخرى.

سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ: قيل هي شجرة النَّبق و قيل لها سدرة المنتهى في السّماء السّادسة.

جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ: المأوى)جنّة الخلد.

إِذْ يَغْشَى: الغشيان لباس الشّئ ممّا يعمّه.

زَاغَ ٱلْبَصَرُ: الزّيغ الذّهاب.

مَا طَغَىٰ: الطُّغيان طلب الإرتفاع.

ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ: أسماء أصنام كانت العرب تعبدها.

مَنَوٰةَ: كانت صخرة عظيمة لهذيل و خزاعة وكانوا يعبدونها.

ضِيزَىٰٓ: بكسر الضّاد الفساد.

◀ الإعراب

إِذَا هَوَىٰ العامل في الظّرف فعل القسم المحذوف أي أقسم بالنَّجم وقت هواه مَا ضَلَّ جواب القسم و عَلَّمَهُ صفة للوحي وَ هُوَ مبتدأ بِالْأُفُقِ خبره و الجملة حال من فاعل، إستوى قَابَ ألف قاب مبدلة من واو مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ بالتَّخفيف و (ما) بمعنى الّذي، مفعوله نَزْلَةً مصدر و عِنْدَ ظرف لرأي و عِنْدَهَا حال من السِّدرة ٱلْكُبْرَىٰٓ مفعول رأى أو نعتٌ لأيات و ضِيزَىٰٓ أصله ضوضىٰ مثل طوبىٰ فأنقلبت الواو ياء أَسْمَآءٌ يجب أن يكون المعنى ذوات أسماء لأنّ لفظ الإسم لا يسمّى.

◀ التّفسير

وَ ٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ

أقسم اللّه تعالى بالنَّجم و هو الكوكب الطّالع و إختلف المفسّرون في معنى المراد منه في المقام على أقوالٍ:

فقال مجاهد المراد به الثُّريّا إذا سقطت مع الفجر و فى روايةٍ أخرى عنه هو القرأن إذا نزل.

و قال الحسن المراد به عامّة النّجوم إذا هوى أي إذا سقط يوم القيامة.

و قال السُّدي أنّ النّجم هاهنا الزُّهرة، و قيل المراد النّجوم التّي ترمى بها الشّياطين، و قيل هو النّبت الّذي ليس له ساق و قيل هو رسول اللّه إذا نزل من السّماء ليلة المعراج و غيرها من الأقوال و أنّما يصحّ أن يراد به هذه المعاني بإعتبار نوره، فأنّ القرأن نورٌ، و رسول اللّه نور فأنّ النُّور ظاهر بالذّات و مظهرٌ للغير و القرأن و الرّسول كذلك و أحسن الوجوه في المقام أن يراد به رسول اللّه كما هو مقتضى سياق الأيات.

و قوله: **إِذَا هَوَىٰ** أي سقط و نزل من العلو إلى السُّفل و قد نزل رسول اللّه في ليلة المعراج من السّماء إلى الأرض لإرشاد النّاس و هو السَّفر من الحقّ إلى الخلق و هذا النُّزول يليق بأن يقسم به إذ فيه سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين لجميع البشر لو أطاعوه و القرأن أيضاً كذلك إلاّ أنّه صامتٌ و الرّسول قرأن ناطق هذا و أمّا حمل النّجم على ظاهره أيضاً لا إشكال فيه إذ للّه تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَىٰ

هذا جواب القسم و المراد بالصّاحب رسول اللّه بإتّفاق المفسّرين و الخطاب للكفّار أو للمسلمين لأنّ الرّسول كان مصاحباً لجميعهم و قوله: **مَا**

غَوىٰ أي ما غاب عن إصابة الرُّشد و بعبارةٍ أخرى ما صارصاحبكم غاوياً و قيل ما تكلّم بالباطل فيما أخبركم به من قصّة المعراج و غيرها و إليه الإشارة بقوله:

وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ

أي ما ينطق لكم من عند نفسه، يقال فلان تابعٌ لهواه في فعله و كلامه، أي يفعل و يتكلّم بمقتضى أمياله النّفسانية الأمّارة بالسُّوء و هذا هو الفرق بين المعصوم كالنبيّ و الوصيّ و غيرهما من أفراد البشر و لأجل هذه الدّقيقة أمرنا اللّه بمتابعة المعصوم:

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ اٰتيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**(١).

قال اللّه تعالى: **أَطيعُوا ٱللّٰهَ وَ أَطيعُوا ٱلرَّسُولَ وَ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ**(٢).

إذ لو فرضنا أنّ الإمام المقتدى به ينطق عن الهوى و يفعل ما يشاء فهو كغيره من أفراد البشر، و هو من الإغراء بالجهل و اللّه تعالى منّزهٌ عنه مضافاً إلى أنّه من التَّرجيح بلا مرَّجح و هو قبيح عقلاً و لذلك قال:

إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْيٌ يُوحىٰ

إن، نافية أي ليس نطقه و بيانه لكم إلاّ من طريق الوحي من اللّه تعالى إليه أي لا يقول إلاّ بوحيٍ منه فما قال أو يقول هو قول اللّه في الحقيقة إلاّ انّه بلسان نبيّه و يقال للكلمة الإلهيّة التّي تلقى إلى أنبيائه و أوليائه وحيٌ و قد تكلّمنا في أقسام الوحي سابقاً بما لا مزيد عليه.

عَلَّمَهُ شَديدُ ٱلْقُوىٰ

في نفسه و علمه و القوّة هي القدرة قيل المراد به جبرئيل، فأنّه أمين الوحي على الأنبياء و قيل هو اللّه عزّ وجلّ و هذا هو الحقّ فأنّ جبرئيل لا يقول إلاّ من اللّه فقوله قوله فاللّه تعالى هو المعلِّم لأنبيائه بتوسّط جبرئيل.

١- الحشر = ٧ ٢- النّساء = ٥٩

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى

ذو، بمعنى صاحب أي صاحب مرّةٍ و هى القوّة قيل أصل المرّة شدّة الفتل و هو ظاهر في الحبل الّذي يستمرّ به الفتل حتّى ينتهي إلى ما يصعب به الحلّ ثمّ تجري المرّة على القدرة لأنّه يتمكّن بها من الفعل كما يتمكن من الفعل بالألة فالمرّة و القوّة و الشدّة نظائر و قوله: **فَاسْتَوٰى** فالإستواء الإستيلاء و المعنى إستولى عليه، بعظم القوّة فكأنّه إستوت له الأمور، و قيل يعني اللّه عزّ و جلّ إستوى على العرش.

وَ هُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلٰى

و قيل، فإستوى، جبرئيل و محمّد ﷺ **بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلٰى** أي سماء الدُّنيا عند المعراج و قيل **ذُو مِرَّةٍ** مبتدأ و خبره في موضع الحال و تقديره ذو مرّةٍ فإستوى حال كونه بالأفق الأعلى، و قيل أنّه معطوف على الضّمير في إستوى و حسن ذلك كي لا يتّكرر(هو) و أنكره الزّجاج و قال لا يجوز عطف هو على الضّمير من غير تأكيدٍ إلاّ في الشِّعر، و قيل **فَاسْتَوٰى** يعني جبرئيل (و هو) كناية عنه على هذا و فى الوجه الأوّل هو كناية عن النبيّ.

و قال قتادة، الأفق الأعلى، الّذي يأتي منه النّهار و قيل هو مطلع الشَّمس.

و قال الزّمخشري في الكشّاف **ذُو مِرَّةٍ** وصف لجبرئيل أي هو ذو حصافةٍ و عقلٍ في رأيه و متانةٍ في دينه **فَاسْتَوٰى** أي فإستقام على صورة نفسه الحقيقيّة دون الصُّورة التّي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي و كان ينزل في صورة دحية الكلبي، و ذلك أنّ رسول اللّه ﷺ أحبَّ أن يراه في صورته التّي جبّل عليها فإستوى له في الأفق الأعلى و هو أفق الشّمس فملأ الأفق و قيل ما رأه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقيّة غير محمّد ﷺ مرّةً في الأرض و مرّةً في السّماء إنتهى.

أقول و الّذي يقوّي في نفسي في معنى الجملة أنّ (ذو مرّةٍ) وصف لجبرئيل و قوله فإستوى، أيضاً وصف له و قوله: **وَ هُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ** فالواو للحال و المعنى حال كونه أي جبرئيل بالأفق الأعلى فالأوصاف كلّها له.

ثُمَّ دَنَىٰ فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ

قال صاحب الكشّاف **ثُمَّ دَنَىٰ** أي جبرئيل من رسول اللّه **فَتَدَلَّىٰ** أي فتعلّق عليه في الهواء تدلّت الثّمرة إلى أخر ما قال في شرح اللُّغات.

و قال الحسن و قتادة و الرّبيع و فيه تقديم و تأخير و التقدّير ثمّ تدلّى فدنا، و قال الزّجاج معنى دنى و تدلّى، واحدة لأنّ المعنى أنّه قرب و تدلّى، أي زاد في القرب و المعنى، ثمّ دنى، جبرئيل إلى محمّد ﷺ فتدلّى اليه من السّماء.

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ معناه كان بينه و بين جبرئيل مقدار قاب قوسين من القسي العربّية أو أقرب بل أقرب منه و قيل معنى (أو) في الآية معنى الواو كما في قوله تعالى: **وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**(١) أي و يزيدون و قيل أنّه ﷺ رأى جبرئيل في صورة له ست مائة جناح و معنى، قاب قوسين، قدر الوتر من القوس مرّتين أو أدنى منه و أقرب و قد أطال القرطبي في هذا المقام في تفسيره من نقل الأقوال الّتي لا فائدة في نقلها ومن أراد الوقوف عليها فعليه بكتابه: **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ**(٢) أي فأوحى اللّه تعالى الى عبده محمّد ﷺ ما أوحى أي ما شاء و أراد منه، و قيل أوحى جبرئيل الى عبده محمّد ﷺ ما أوحى و إحتمل بعض المفسّرين أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر و التّقدير فأوحى الى عبده وحياً، و القول الأوّل أصحّ و أقرب الى الذّهن فأنّ الوحي من اللّه لا من جبرئيل نعم هو بتوسّط جبرئيل.

١- الصّافات = ١٤٧　　٢- النّجم = ١٠

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ

ما، نافية، و كذب، بالتّخفيف و الفؤاد القلب و الرؤيّة بالعين على قول المفسّرين و على هذا فالمعنى أنّه لم يكذب فؤاد محمّد ما رآه بعينه بل صدق به و يظهر من كلام صاحب الكشّاف أنّ المرئي كان جبرئيل لأنّه قال ما كذب فؤاد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه ببصره من صورة جبرئيل عليه السلام أي ما قال فؤاده لمّا رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنّه عرفه يعني أنّه صلى الله عليه وآله وسلم رآه بعينه و عرفه بقلبه و لم يشكّ في أنّ ما رآه حقّ و قرئ (ما كذّب) أي صدّقه و لم يشكّ أنّه جبرئيل إنتهى.

و قيل معنى الجملة ما كذب فؤاد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ما رآه من جلال اللّه و عظمته، و قيل من آياته السّماوية هذا ما قالوه في تفسير الآية.

و أنا أقول ظاهر الآية يدلّ على أنّ الرّائي هو القلب لا البصر فأنّ قوله: **مَا رَأَىٰ** أي ما رأى القلب و بعبارةٍ أخرى تقدير الكلام **مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** يذكر العين و لا البصر في الآية فإنتساب الرّؤية الى العين لا معنى له و الحقّ أنّ المراد بها الرؤيّة القلبيّة أي ما رآه بقلبه و بصيرته و هو الأيات الدّالة على عظمة الخالق و قد أخبر الرّسول بها بعد المعراج و أنمّا قلنا ذلك لأنّ ما رآه الرّسول ليلة المعراج من أصناف الملائكة و الجنّة و النّار و العرش و الكرسي و غيرها لا يمكن رؤيتها بعين الملكي فأنّها لا ترى إلاّ الأجسام الكثيفة الّتي هي في عالم الملك و أمّا الأجسام اللّطيفة كالملك و العرش و غيرهما ممّا ليس له مادّة فلا تراها إلاّ العين الملكوتي و بعبارةٍ أخرى الإنسان الكامل كالنبيّ يرى الموجودات الملكي بعين الملكي و الملكوتي بعين الملكوتي ألا ترى أنّ الرّسول كان يرى جبرئيل و النّاس حوله لا يرونه و ذلك لأنّ الإنسان الكامل له عينان ملكيّة و ملكوتيّة و لغيره عينٌ واحدة إذا عرفت هذا فالرّسول ليلة المعراج رأى ما رأى بالعين الّتي كان صلى الله عليه وآله وسلم رأى بها جبرئيل في عالم الملك

فأن أراد المفسّرون بقولهم (ما رآه بعينه) هذا المعنى فهو حقّ و أن أردوا بالعين عين النّاظرة الحسّية الّتي رؤيتها بالحدقة المحسوسة ففيه ما قلنا و لتفصيل الكلام في هذا الباب مقام آخر.

و علىٰ هذا فمعنى الآية ما كذب فؤاد محمّد ﷺ ما رآه قلبه بعين البصيرة الّتي لا خطأ فيها أصلاً فأنّ رؤية القلب أكمل و أشرف من رؤية البصر.

أَفَتُمٰارُونَهُ عَلىٰ مٰا يَرىٰ

قرأ حمزة و الكسائي **أَفَتُمرُونَهُ** أي أفتغلبونه في المراء، من ما ريته فمريته و لما فيه من معنى الغلبة و قيل، أفتمرونه، معناه أفتجحدونه يقال مراه حَقه أي جحده قال الشّاعر:

لقد هجرت أخا صدق و مكرمةٍ لقد مريت أخا ما كان يمريكا

و قال المبرّد يقال مراه عن حقّه و على حقّه إذا منعه منه و دفعه عنه، و قرأ الأعرج و مجاهد **أَفَتُمرُونَهُ** بضمّ التّاء من غير ألفٍ من أمريت أي تريبونه و تشكّكونه، و قرأ الباقون، **أَفَتُمٰارُونَهُ** بإثبات ألف أي أتجادلونه و تدافعونه و عليها المصاحف فعلاً و هى الأشهر و أحسن و على هذا فالمعنى، فأتجادلونه و تخاصمونه مأخوذٌ من المراء و هو المجادلة **عَلىٰ مٰا يَرىٰ** يعني على الشّئ الّذي يراه و يخبركم به و أنمّا قال اللّه تعالى ذلك لأنّهم كانوا يجادلون النّبي و يخاصمونه بإنكارهم و كانوا يقولون لرسول اللّه ﷺ إن كنت صادقاً فيما تقول فصف لنا بيت المقدّس و أخبرنا عن عيرنا الّتي في طريق الشّام و على هذا فالهمزة للتّوبيخ و التّقبيح و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

وَ لَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ

أي و لقد رأى رسول اللّه جبرئيل بصورته الّتي خلقه اللّه عليها نزلةً أخرى، نزلة مصدر في موضع الحال كأنّه قال و لقد رآه نازلاً نزلةً أخرى قيل أنّ رسول اللّه ﷺ رأى جبرئيل بصورته الّتي خلقها اللّه عليها مرّتين.

عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهٰى

قيل هي شجرة النّبق و هى في السّماء السّادسة إليها ينتهي ما يعرج إلى السّماء، و قيل لأنّه ينتهي إليه أرواح الشُّهداء.

عِنْدَهٰا جَنَّةُ ٱلْمَأْوٰىٓ

أي عند سدرة المنتهى جنَّة المقام و هى جنَّة الخلد.

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مٰا يَغْشٰى

قيل معناه يغشي السّدرة من النُّور و البهاء و الحسن و الصّفاء الّذي يروق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى، روي القرطبي في تفسيره لهذه الآية عن قتادة عن أنس أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم:

قال لمّا رفعت إلى سدرة المنتهى في السّماء السّابعة رأيت فيها شجرة مثل قلال هجر و ورقها مثل آذان الفيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبرئيل ما هذا قال أمّا الباطنان ففي الجنَّة و أمّا الظّاهران فالنّيل و الفرات لفظ الدّار قطني إنتهى.

أقول ما فهمنا معناه ثمّ أنّه روي بعد أسطرٍ عن التّرمذي عن أسماء بنت أبي بكر قالت سمعت رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول و قد ذكر سدرة المنتهى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

يسير الرّاكب في ظلّ الغصن منها مائة سنة أو يستّظل بظلّها مائة راكب فيها فراش الذّهب كان ثمرها القلال إنتهى.

و ذكر في كتابه أحاديث كثيرة من هذا النّمط إلاّ أنّ فهمها مختّص بناقلها و راويها.

مٰا زٰاغَ ٱلْبَصَرُ وَ مٰا طَغىٰ

الزّيغ الذّهاب و قيل الزّيغ الميل عن الحقّ المطلوب، قال إبن عبّاس أي ما عدل يميناً و لا شمالاً و لا تجاوز الحدّ الّذي رأى، و قيل ما جاوز ما أمر به و قيل لم يمدُّ بصره إلى غير ما رأى من الأيات.

لَقَدْ رَأىٰ مِنْ اٰيٰاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرىٰ

قسمٌ من اللّه تعالى أنّ النبيّ رأى من أيات اللّه و دلائله أكبرها جنّة الخلد و هى في السّماء السّابعة و لنشر إلى بعض الأخبار الواردة في تأويل هذه الأيات من طريق أهل البيت الّذي هم أدرى بما في البيت.

أمّا قوله: وَ ٱلنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ:

فعن أمالي الصّدوق رحمه الله بأسناده إلى إبن عبّاس قال صلّينا العشاء الأخرة ذات ليلة مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا سلّم أقبل علينا بوجهه ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سينقض كوكبٌ من السّماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في دار فهو وصييّ و خلفيتي و الإمام بعدي فلمّا كان قرب الفجر جلس كلّ واحدٍ منّا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره و كان أطمع القوم في ذلك أبىالعبّاس بن عبد المطّلب فلمّا طلع الفجر انقض الكوكب فسقط في دار علّي بن أبي طالب فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لعليٍّ ياعليّ و الّذي بعثني بالنّبوة لقد وجبت لك الوصيّة و الخلافة و الإمامة بعدي فقال المنافقون عبد اللّه بن أبيّ و أصحابه لقد ضلَّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في محبّته إبن عمّه و غوى و ما ينطق في شأنه إلاّ بالهوى فأنزل اللّه تبارك و تعالى: وَ ٱلنَّجْمِ إِذٰا هَوىٰ يقول عزّ و جلّ و خالق النّجم إذا هوى مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوىٰ في محبّة علّي بن أبي طالب و ما

غوى و ما ينطق عن الهوى يعني في شأنه، إن هو إلاّ وحيٌ يوحى إنتهى.

و بأسناده إلى الصّادق عليه السلام عن أبيه عن أبائه قال عليه السلام: لمّا مرض النّبي مرضه الّذي قبضه اللّه فيه إجتمع إليه أهل بيته و أصحابه فقالوا يا رسول اللّه إن حدث بك حدث فمن لنا بعدك و من القائم فينا بامرك فلم يجيبهم عن شئٍ ممّا سألوه فلمّا كان اليوم الثّالث قالوا له يا رسول اللّه إن حدث بك حدث فمن لنا بعدك و من القائم فينا بأمرك فقال صلى الله عليه وآله وسلم لهم إذا كان غداً هبط نجمٌ من السّماء على دار رجلٍ من أصحابي فأنظروا من هو فهو خليفتي علكيم من بعدي و القائم فيكم بأمري ولم يكن فيهم أحد إلاّ و هو يطمع أن يقول له أنت القائم من بعدي فلمّا كان اليوم الرّابع جلس كلّ رجلٍ منهم في حجرته ينتظر هبوط النَّجم إذا إنقبض نجم من السّماء قد غلب ضوءه على ضوء الدّنيا حتّى وقع في حجرة علّيٍ عليه السلام فهاج القوم و قالوا و اللّه لقد ضلَّ هذا الرّجل و غوى و ما ينطقُ عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى إلى أخر السُّورة...و ما ينطق فى ابن عمّه الاّ بالهوى فانزّل اللّه تبارك و تعالى: وَ ٱلنَّجْمِ إِذاٰ هَوٰى، مٰا ضَلَّ صٰاحِبُكُمْ وَ مٰا غَوٰى.

و قوله: عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوٰى الى قوله: بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلٰى.

عن تفسير علّي بن إبراهيم قال: حدَّثني ياسر عن أبي الحسن عليه السلام قال: ما بعث اللّه نبيّاً إلاّ صاحب مرّةٍ سوداء صافية و قوله و هو بالأفق الأعلى، يعني رسول اللّه ثمّ دنى من ربه كان من اللّه كما بين مقبض القوس إلى رأس السِّية أو أدنى، أي من نعمته و رحمته إنتهى.

و عن أمالي شيخ الطّائفة بأسناده إلى إبن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه وآله وسلم: لمّا عرج بي إلى السّماء دنوت من ربّي حتّى كان بيني و بينه قاب قوسين أو أدنى (كناية عن قربه صلی الله علیه وآله وسلم) فقال لي يامحمّد من تحبّ من الخلق قلت ياربّ عليّاً قال إلتفت يا محمّد فالتفتُّ عن يساري فإذاً عليّ بن أبي طالب إنتهى.

و بأسناده، قال رسول اللّه صلی الله علیه وآله وسلم: لمّا أسري بي إلى السّماء كنت من ربّي كقاب قوسين أو أدنى فأوحى اليّ ربّي ما أوحى ثمّ قال يا محمّد إقرأ عليّ بن أبي طالب أميرالمؤمنين فما سمَّيت بهذا أحداً قبله و لا أسمّي بها أحداً بعده إنتهى.

و قوله: مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ الى قوله: مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ.

و عن كتاب علل الشّرائع بأسناده إلى حبيب السّجستاني قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ياحبيب وَ لَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ، عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ يعني عندها وافى جبرئيل حين صعد إلى السّماء فلمّا إنتهى إلى محلّ السّدرة وقف جبرئيل دونها و قال يا محمّد أنّ هذا موقفي الذّي منعني اللّه عزّ وجلّ فيه ولن أقدر على أن أتقدّمه و لكن إمض أنت امامك إلى السّدرة فقف عندها قال عليه السلام فتقدّم رسول اللّه إلى السّدرة و تخلّف جبرئيل قال أبوجعفر عليه السلام أنّما سمّيت سدرة المنتهى لأنّ أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محلّ السّدرة و الحفظة البررة دون السّدرة يكتبون ما يرفع إليهم من أعمال العباد في الأرض قال عليه السلام فينتهون بها إلى محلّ السّدرة قال عليه السلام فنظر رسول اللّه فرأى أغصانها تحت العرش و حوله قال عليه السلام فتجلّى لمحمّد نور الجبّار عزّ وجلّ فلمّا غشى محمّداً شخص بصره و إرتعدت فرائصه

قال عليه السلام فشدّ اللّه عزّ وجلّ لمحمّدٍ قلبه و قوّى له بصره حتّى رأى من أيات ربّه ما رأى و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: وَ لَقَدْ رَاٰهُ نَـزْلَةً أُخْرٰى، عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهٰى، عِنْدَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوٰىٓ قال عليه السلام: يعني الموافاة، قال عليه السلام: فرأى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم مارأى ببصره من أيات ربّه الكبرى يعني أكبر الأيات قال أبو جعفر عليه السلام و أنّ غلظ السّدرة لمسيرة مائة عام من أيّام الدّنيا و أنّ الورقة منها تغطي أهل الدّنيا إنتهى.

و عن بصائر الدَّرجات بأسناده إلى عبد الصَّمد بن بشير قال ذكر أبوعبداللّه بدو الأذان و قصّة الأذان في إسراء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إنتهى إلى سدرة المنتهى قال فقالت السِّدرة ما جازني مخلوق قبل إنتهى.

و الأخبار الواردة في الباب بهذه المضامين كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي البصائر و الإحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين(١).

أَفَرَأَيْتُمُ ٱللّٰاتَ وَ ٱلْعُزّٰى، وَ مَنٰوةَ ٱلثّٰالِثَةَ ٱلْأُخْرٰىٓ

اللاّت و العزّى بضمّ العين، و مناة كلّها أسماء أصنامٍ كانت العرب تعبدها في عهد الجاهلية، فاللاّت إسم صنم كانت ثقيف تعبدها، و العزّى إسم صنم، و كانت غطفان تعبدها، و مَناة بفتح الميم كانت صخرةٌ عظيمة لقوم هذيل و خزاعة و كانوا يعبدونها، و لّما ذكر اللّه تعالى في الأيات المذكورة مسألة الوحي و أنّه تعالى أوحى إلى عبده ما أوحى، و ذكر أيضاً من أثار قدرته ليلة المعراج ما ذكره، حاجّ المشركين الّذين كانوا يعبدون الأصنام التّي لا عقل لها و لا شعور فضلاً عن القدرة فقال لهم أفرأيتم هذه الألهة الّتي تعبدونها أوحين إليكم شيئاً كما أوحيت إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فالهمزة في قوله: **أَفَرَأَيْتُمُ** للتوبيخ و

١- ص ١٤٤ إلى ص ١٥٤ / ج ٥

الإنكار أي ما رأيتم قطعاً و إذا كان كذلك فلم تعبدون ما لا يقدر على شيءٍ و هو جماد.

قال هشام كانت مناة لهذيل و خزاعة فبعث رسول الله ﷺ عليّاً فهدمها عام الفتح، ثمّ إتّخذوا اللاّت بالطّائف و هى أحدث من مناة و كانت صخرة مربّعةٍ و كانت سدنتها من ثقيف و كانوا قد بنوا عليها بناءً فكانت قريش و جميع العرب تعظمها و بها كانت العرب زيد اللاّت و يتمّ اللاّت و كانت في موضع منارة مسجد الطّائف اليسرى فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها و أحرقها بالنّار ثمّ إتّخذوا العزّى و هي أحدث من اللاّت إتّخذها ظالم بن أسعد و كانت بواد نخلة الشّامية فوق ذات عرق فبنوا عليها بيتاً و كانوا يسمعون منها الصَّوت قال إبن‌هشام و حدَّثني أبي عن أبي صالح عن إبن عبّاس أنّه قال كانت العزّى شيطانة فأتى ثالث سمرات ببطن نخلة، فلمّا إفتتح رسول الله ﷺ مكّة بعث خالد بن الوليد فقال رأيت بطن نخلة فأنّك تجد ثلاث سمرات فأعضد لأولى فأتاها فعضدها فلمّا جاء إليه قال هل رأيت شيئاً قال لا، قال فأعضد الثّانية فأتاها فعضدها ثمّ أتى النّبي فقال ﷺ هل رأيت شيئاً قال لا قال ﷺ فأعضد الثّالثة فإذا هو بحبشيّة ناقشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها و خلفها دبيّة السّلمى و كان سادتها فقال:

ياعزّ كفرانك لا سبحانك أنّي رأيت الله قد أهانك

ثمّ ضربها ففلق رأسها فإذا هي حمعة ثمّ عضد الشّجرة و قتل دبيّة السّادن ثمّ أتي النّبي ﷺ فقال تلك العزّى ولن تعبد أبداً.

و قال إبن جبير العزّى حجرٌ أبيض كانوا يعبدونه و قيل أنّ اللاّت أخذه المشركون من لفظ الله، و العزّى من العزيز، و مناة من منى الله الشّيءَ إذا قدّره قال الشّاعر:

لا تنصروا اللاّت أنّ الله مهلكها و كيف ينصركم من ليس ينتصر

و الأقوال في هذه الأصنام كثيرة و نحن لا نحتاج إلى إطالة الكلام فيها بقيّ في المقام كلام لابدّ من ذكره و هو أنّ قوله تعالى: **وَ مَنٰوةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرىٰ** العرب لا تقول للثّالثة الأخرى و أنّما الأخرى نعتٌ للثّانية و قد جعلت في الآية نعتاً للثّالثة ظاهراً و لذلك إختلفوا في وجهها فقال الخليل أنّما قال تعالى ذلك لوفاق رؤوس الأي كقوله، و لم يقل قاربٌ أخر، و قيل في الآية تقديمٌ وتأخير و الأصل، أفرأيتم اللاّت و العزّى الأخرى و مناة الثّالثة، و قيل أنّما قال و مناتة الثّالثة الأخرى لأنّها كانت مرتَّبة عندهم في التَّعظيم بعد اللاّت و العزّى فالكلام على نسقه و أنّما ذكرنا عن إبن هشام أنّ مناة كانت أوّلاً في التّقديم فلذلك مقدَّمة عندهم في التّعظيم و اللّه أعلم.

أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَ لَهُ ٱلْأُنْثىٰ

ردّاً عليهم قولهم أنّ الملائكة بنات اللّه و الأصنام بنات اللّه، الهمزة للإستفهام على وجه الإنكار أي ليس كذلك لوجهين:

أحَدهما: أنّكم نسبتم إلى اللّه تعالى ما يستحيل عليه عقلاً و لا يليق بجنابه لأنّ التّوالد و التّناسل من شئون الجسم و اللّه تعالى منّزهٌ عنه.

الثّانى: أنّكم أضفتم إلى اللّه ما لا ترغبون لأنفسكم فكيف ترضونه للّه تعالى.

قال بعض المفسّرين، أنّما فضّل الذّكر على الأنثى لأنّ الذّكر يصلح لما لا تصلح له الأنثى و ينتفع به فيما لا ينتفع فيه بالأنثى و لهذا لم يبعث اللّه نبيّاً من الأناث و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزىٰ

أي فاسدة باطلة غير جائزة بأن تجعلوا لأنفسكم الأفضل و لربّكم الأدون فلو كان اللّه ممّن يجوز عليه الولد لما إختار الأدون على الأفضل و حاصل الكلام أنّكم متّصفون بالكفر و الجهل.

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ مَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَٰنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ

ان، نافية، و المعنى ما هي يعني هذه الأوثان إلاّ أسماء سمَّيتموها ألهة، أنتم و أبائكم، ما أنزل اللّه بها من حجّةٍ و لا برهانٍ ثمّ عاد من الخطاب إلى الغيبة و هو من محسّنات علم البلاغة فقال: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ** ولم يقل إن تتَّبعون، أي ما يتّبع هؤلاء الكفّار إلاّ الظّن الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً دون العقل **وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ** الواو للعطف أي و ما يتّبعون إلاّ الأميال النّفسانية و الهواس الشّيطانية.

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ أي البيان من جهة الرّسول و الكتاب ففي الآية إشارة إلى أنّ العاقل ينظر إلى المسمّى دون الإسم المجّرد عنه أي وضع اللّفظ له فهي في الحقيقة من قبيل إستعمال اللّفظ في غير ما وضع له، فلفظ الإله أو المعبود موضوعٌ لما يتألّه العبد إليه و يعبده و هو الّذي يجيب العبد إذا دعاه و ينصره إذا انتصر منه فمن لا يقدر على ذلك فلا يقال له، الآلهة و المعبود، و قد ثبت أنّ الآثار مترتّبة على المسمّى لا على الإسم فلفظ الآلهة لا أثر له إلاّ إذا كان حاكياً عن معناه الموضوع له و هو المعبود بالحَق الّذي يستحقّ أن يعبد و الرّحمن على الّذي يرحم و العالم على الّذي يعلم و القادر على الّذي يقدر و هكذا فالألفاظ إذا أستعملت في معناها الموضوع لها فهو الحقّ و امّا إذا أستعملت في غير معناه فهو الباطل إذ لا يترتّب على الإستعمال أثر و هذا مثل أن يستعمل لفظ الدّرهم و الدّينار في الأحجار و الأخشاب إذ لا يترتّب على هذه الإستعمالات أثر فلا تضرّ و لا تنفع و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ المشركين أطلقوا لفظ الآلهة و المعبود على ما شاءوا و أرادوا من الحجر و الخشب و غيرهما و المفروض أنّ اللّفظ لم يوضع له فأيّ نفع فيه و أيّ أثرٍ يترتّب عليه أصار الحجر بعد إطلاق اللّفظ عليه إلهاً و معبوداً و إلى هذا

المعنى أشار بقوله: **إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَ ءَابَآؤُكُمْ** أي أنتم و آبائكم أطلقتم إسم الإله على الأصنام و الأوثان، و لم تعلموا أنّ هذا اللّفظ لم يوضع لها و مجرّد الإستعمال بمقتضى الهوى لا ينفع و لا يترتّب عليه أثر و ليس هذا إلاّ مثل إستعمال لفظ السّكر على الحنظل و الدّرهم على الخشب و العاقل لا يكون كذلك و هذا ظاهرٌ.

و في قوله: **وَ لَقَدْ جَآءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ** إشارة إلى أنّ الإنسان العاقل لا يتّبع الظَّن في الإعتقادات بل يتّبع القطع و اليقين و هو لا يحصل إلاّ من طريق الأنبياء فأنّ أهل البيت أعرف بما في البيت و قد ورد في الآثار الواردة عن مقام العصمة ما يكفي في المقام.

قال الصّادق عليه السلام: كلّما ميزّتموه بأوهامكم فهو مخلوقٌ مثلكم مردودٌ إليكم

و في هذا الحديث و أمثاله إيماءٌ إلى أنّ اللّه لا يعرف إلاّ من طريق الأنبياء و الأوصياء لا من طريق الأوهام و الخيالات و الوساوس الشّيطانية و إلاّ يلزم أن يكون لكلّ شخصٍ من أفراد البشر إلهاً مخصوصاً به غير إله الآخر و هو كما ترى.

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ

قيل معناه بل لمحمّدٍ ما تمنّى من النّبوّة و الكرامة و على هذا فالمراد بالإنسان هو الرّسول، و قيل معناه للانسان ما تمنّى، من غير جزاءٍ، و قيل أم للإنسان ما تمنّى من شفاعة الأصنام هكذا فسرّوا الكلام.

و قال صاحب الكشّاف (أَم) منقطعة و معنى الهَمزَة فيها الإنكار أي ليس للإنسان ما تمنّى، و المراد طمعهم في شفاعة الآلهة و هو تمنٍ على اللّه في غاية البعد و قيل هو تمنّي بعضهم أن يكون هو النّبي، و قيل هو قول الوليد بن المغيرة، و قيل غير ذلك إنتهى.

أقول الظّاهر أنّ الآية من تتمّة الآية السّابقة أو مرتبطة بها و البحث في السّابقة كان في ردّ من إتّخذ الأصنام و الأوثان إلهاً، فالحقّ أنّ معنى الآية ليس للإنسان ما تمنى في إتّخاذ المعبود بمقتضى هواه بل ينبغي له أن يعبد الخالق الّذي خلقه و هو اللّه الخالق الباريء المصوّر الّذي رجوع الخلق اليه كما أشار اليه بقوله:

فَلِلَّهِ ٱلْاٰخِرَةُ وَ ٱلْأُولٰى

لا لغيره كائناً ما كان إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ لَا تُغْنِي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَرْضٰىٓ

كم، تفيد الكثرة و المعنى أنّ كثيراً من ملائكة السّموات لا تغني أي لا تنفع شفاعتهم في حقّ غيرهم إلاّ من بعد أن يأذن اللّه لهم في الشّفاعة لمن يشاء اللّه و يرضى عنه، ليشفعوا فيه، قيل الغرض بذلك الإنكار على عبدة الأوثان و قولهم أنّهم تشفع **هٰٓؤُلَآءِ شُفَعٰآؤُنا عِنْدَ ٱللّٰهِ**[1] و إذا كان الملك شفاعته لا تُغني فغيره من الأصنام و الأوثان بطريقٍ أولى و فى هذا الكلام تحذيرٌ من الإتّكال على الشّفاعة و هذا لا ينافي ما نعتقد به من أنّ النبيّ ﷺ و الأئمّة و المؤمنين يشفعون يوم القيامة في كثيرٍ من أصحاب المعاصي فيسقط عقابهم لمكان شفاعتهم، لأنّ هؤلاء عندنا لا يشفعون إلاّ بإذن اللّه و مع ذلك يجوز أن لا يشفعوا فالزّجر واقع موقعه قاله في التّبيان و هو كذلك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنْثٰى

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الّذين لا يصدّقون بالبعث و لا بالثّواب و لا بالعقاب بالحساب، ليسمّون، الملائكة تسمية الأنثى فيقولون أنّ الملائكة

١- يونس = ١٨

بنات اللّه و لم يعلموا أنّ ذلك يوجب العقاب يوم القيامة لأنّهم جعلوا اللّه بذلك القول من الأجسام و كلّ جسمٍ محتاجٌ الى أجزاءه و كلّ محتاج ممكن و كلّ ممكنٍ مخلوق و المخلوق ليس بخالق كما أنّ الممكن ليس بواجب القول كفرٌ باللّه و هو كما ترى و الى هذا أشار اللّه بقوله:

وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وَ إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً

أنمّا نفى عنهم العلم و قال مالهم به من علم، لأنّ الملائكة لو كانت بنات اللّه فاللّه تعالى أيضاً مولودٌ لغيره و من كان مولوداً لغيره فهو مخلوقٌ حادثٌ و لازم ذلك أن يكون الغير أيضاً مولوداً لغيره إذ حكم الأمثال واحدٌ و هو مستلزم للتّسلسل فلابدّ أن ينتهي إلى من لم يولد دفعاً للتّسلسل و كلّ من لم يولد لم يلد فينتج أنّ اللّه لم يلد و إذا لم يلد فليست الملائكة بنات اللّه و هو المطلوب.

و قوله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ** إلى أخر الأية، كأنّه جوابٌ عن سؤالٍ مقدّر و هو أنّه لو لم يكن لهم علم بما قالوا من أنّ الملائكة بنات اللّه فكيف قالوا ذلك فأجاب اللّه تعالى عنه بأنّهم إتّبعوا الظنّ و لم يعلموا أنّ الظنّ في الإعتقادات من التّوحيد و النبوّة و المعاد باطلٌ و لذلك قال أنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً بل لابدّ للمكلّف من تحصيل الإعتقاد بصورة القطع و اليقين حتّى الإمكان يجوز له الإكتفاء بظنّه.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ اَلْحَيٰوةَ اَلدُّنْيٰا

أمر اللّه تعالى نبيّه بالإعراض عمَّن أعرض عن ذكر اللّه و عبادته و بقي على الكفر و العناد و لم يرد إلاّ الحياة الدُّنيا الفانية الفاسدة و أنّما أمر نبيّه بالإعراض عنه لأنّ من لا يريد إلاّ الدُّنيا و البقاء فيها و لا يؤمن بالأخرة لا يقبل

الحقّ أصلاً كان كذلك فتركه و الإعراض عنه أولى و لذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة**، و قد مرّ الكلام في هذا الباب غير مرّة.

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِۦ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدٰى

و المعنى أنّ علمهم إنتهى إلى أنّ الدّنيا لهم أنفع من الأخرة و البقاء فيها و التّنعم بما فيها أحسن من حياة الأخرة و الإنتفاع بما فيها من أنواع النِّعم التّي لا فناء لها أصلاً و من المعلوم أنّ من رجّح الفاني على الباقي، و الدّار التّي بالبلاء محفوفة على الدّار التّي لا بلاء فيها فالإعراض عنه أولى.

و أمّا قوله: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِۦ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدٰى** فهو تعليلٌ للإعراض عنهم، و المعنى أنّ ربّك الّذي خلقهم أعلم بحالهم من أنفسهم فضلاً عن غيرهم إذ خلقهم على علم منه بحالهم من السّعادة و الشقّاوة و الضّلالة و الهداية قبل خلقهم لا أنّه تعالى خلقهم كذلك ليلزم منه الجبر بل لأنّ اللّه تعالى كان عالماً بمن يختار الكفر أو الإيمان في الدّنيا بإختياره و أنّ مصيره إلى الجنّة أو إلى النّار و العلم لا يكون علّة للكفر أو الإيمان لأنّه عبارة عن إنكشاف المدرك المعلوم لدى العالم و لا ربط له بالكفر و الإيمان و السّعادة و الشقّاوة و أمثالها ممّا يحصل للعبد بسوء سريرته و ما يفعله بإختياره و بعبارةٍ أخرى أنّ السّعادة و الشقّاوة و أمثالهما من أثار الفعل لا من أثار العلم و هو ممّا لا يخفى على من تدّبر في الآية و أمثالها من الأيات إن كان من أعله و إذا كان كذلك فالأمر بالإعراض عنهم في محلّه.

■

وَ لِلّٰهِ مٰا فِی ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِی ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِیَ
ٱلَّذِينَ أَسٰٓـُٔوا بِمٰا عَمِلُوا وَ يَـجْزِیَ ٱلَّـذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى «۳۱» ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰٓائِرَ
ٱلْاِثْمِ وَ ٱلْفَوٰاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وٰاسِعُ
ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَ
إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ فَلٰا تُزَكُّوٓا
أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ «۳۲» أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي
تَوَلّٰى «۳۳» وَ أَعْطٰى قَلِيلًا وَ أَكْدٰىٓ «۳۴» أَعِنْدَهُ
عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرٰىٓ «۳۵» أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمٰا فِي
صُحُفِ مُوسٰى «۳۶» وَ إِبْرٰاهِيمَ ٱلَّذِي وَفّٰىٓ «۳۷»
أَلّٰا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى «۳۸» وَ أَنْ لَـيْسَ
لِلْاِنْسٰانِ إِلّٰا مٰا سَعٰى «۳۹» وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ
يُرٰى «۴۰» ثُمَّ يُجْزٰيهُ ٱلْجَزٰآءَ ٱلْأَوْفٰى «۴۱» وَ أَنَّ
إِلٰى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهٰى «۴۲» وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ
أَبْكٰى «۴۳» وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْيٰا «۴۴» وَ أَنَّهُ
خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثٰى «۴۵» مِنْ نُطْفَةٍ إِذٰا
تُمْنٰى «۴۶» وَ أَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرٰى «۴۷» وَ أَنَّهُ
هُوَ أَغْنٰى وَ أَقْنٰى «۴۸» وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرٰى
«۴۹» وَ أَنَّهُٓ أَهْلَكَ عٰادًا ٱلْأُولٰى «۵۰» وَ ثَمُودَا فَمٰآ
أَبْقٰى «۵۱» وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كٰانُوا هُمْ
أَظْلَمَ وَ أَطْغٰى «۵۲» وَ ٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوٰى «۵۳»
فَغَشّٰيهٰا مٰا غَشّٰىٰ «۵۴» فَبِأَيِّ ٱلْآءِ رَبِّكَ تَتَمٰارٰى

﴿٥٥﴾ هٰذا نَذيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ
ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ كاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفَمِنْ هٰذَا ٱلْحَديثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَ تَضْحَكُونَ وَ
لا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا
لِلّٰهِ وَ ٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

◀ اللّغة

ٱللَّمَمَ: بفتح اللاّم و الميم و هي الصّغائر من الذُّنوب، و قيل هو الهمّ بالمعصية و هو من قولك، ألممت بكذا أي نزلت به و قاربته من غير مواقعة.

أَجِنَّةٌ: جمع جنين و هو الولد مادام في البطن سمّي جنيناً لإجتنانه و إستتاره.

أَكْدىٰ: يقال أكدى يكدي إكداءً إذا منع الخير و الكدي المنع.

وِزْرَ: بكسر الواو الثِّقل.

أَقْنىٰ: الإقتناء و هو جعل الشّيئ للنّفس على اللّزوم.

ٱلشِّعْرىٰ: الكوكب المضيئ.

ٱلْمُؤْتَفِكَةَ: يعني المنقلبة و منه الإفك الكذب لأنّه قلب المعنى عن وجهه.

تَتَمارىٰ: أي ترتاب و تشُك فيه.

أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ: أي دنت القيامة و سمّاها أزفة لقرب قيامها يقال أزف التّرحل أي دنا و قرب.

◀ الإعراب

ٱلَّذينَ يَجْتَنِبُونَ هو في موضع نصب نعتاً، للّذين أحسنوا أو في موضع رفع على تقدير هم إِلَّا ٱللَّمَمَ إستثناء منقطع لأنّ اللّمم الذّنب الصّغير أَلَّا تَزِرُ أن

مخفّفة من الثّقيلة و موضع الكلام، جرّ، بدل من «ما» أو رفع على تقدير، هو أن لا، و وِزْرَ مفعول به و ليس بمصدر وَ أَنْ لَيْسَ أن مخفّفة من الثّقيلة ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ هو مفعول يجزي و ليس بمصدر لأنّه وصف بالأوفى و ذلك من صفة المجزّي لا من صفة الفعل و ثَمُودَا۟ هو منصوب بفعل محذوف أي و أهلك ثمود و لا يعمل فيه، ما أبقى من أجل حرف النّفي و كذلك قَوْمَ نُوحٍ و كَاشِفَةٌ مصدر مثل العاقبة و العافية و الباقي واضح.

◀ التّفسير

وَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى

اللاّم، في، للّه، للملك، أو الإختصاص أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّ له ملك ما في السمّوات و ما في الأرض و ذلك لأنّه تعالى خلقهما و ما فيهما من الموجودات و الخالق مالك خلقه عقلاً ثمّ قال: **لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا** إلى أخر الأية) و اللاّم في قوله: **لِيَجْزِىَ** للغاية و الغرض أي خلقهما اللّه تعالى لأجل الجزاء ثمّ قسّم النّاس على قسمين و هذا الحصر عقليّ، المسئ، و المحسن، و لا ثالث لهما ثمّ أشار إلى جزاء كلّ صنفٍ يوم القيامة، فقال: **لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا** بيّن اللّه تعالى في هذه الجملة حكم المسيئ و أنّه يجزى بما عمل في الدّنيا و فيه إشارة إلى أنّ الجزاء متّرتبٌ على العمل من خيرٍ أو شرٍّ و قد تكلّمنا في هذا المعنى فيما مضى.

و في قوله: **وَ يَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى** أشار إلى حكم المحسن و هو الذّي أحسن في عمله أي عمل عملاً صالحاً و من كان كذلك فلا جرم يجزى بأحسن الجزاء لأنّ الجزاء تابعٌ للعمل خيراً و شّراً و كثيراً و قليلاً، و هكذا من جهة الكيفيّة في مراتب الإخلاص ثمّ وصف الذّين أحسنوا.

ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ

في الآية مسائل:

الأولى: قوله **ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ** الإثم الذّنب و المعصية و هى كبيرةٌ و صغيرة، و إختلفوا في الكبائر منها على أقوالٍ مختلفة زيادةً و نقيصةً.

فقد روى في مشكاة الأنوار عن أبي الحسن عليه السلام حيث سئل عن الكبائر ما ية وكم هي فكتب عليه السلام في الجواب، الكبائر من إجتنب ما وعد اللّه عليه النّار كفّر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً و السّبع الموجبات، قتل النّفس الحرام، و عقوق الوالدين، و أكل الرّبا، و التعرُّب بعد الهجرة، و قذف المحصنة و أكل مال اليتيم، و الفرار من الزّحف إنتهى.

و في بعض الأخبار زيد عليها الزّناء، و اللّواط و شرب الخمر و الغيبة و التُّهمة و غيرها و الحقّ ما قاله بعض المحقّقين من أنّ الكبائر لا تنحصر بعددٍ معيّن فكلّ معصيةٍ كبيرة بالنّسبة إلى ما دونها و صغيرة بالنّسبة إلى ما فوقها فتقبيل المرأة الأجنبيّة صغيرة بالنّسبة إلى الزّناء بها و كبيرة بالنّسبة إلى النّظر إليها و هكذا و كيف كان فالإجتناب من الكبائر واجبٌ شرعاً و أمّا الفواحش فهي جمع فاحشة.

قال في المفردات الفحش و الفحشاء و الفاحشة ما عظم قبحه بين الأفعال و الأقوال فهذا أيضاً يجب الإجتناب عنه و أمّا اللّمم الّذي إستثناه في الآية فأنّه مقاربة المعصية و قد يعبّر عنه بالصّغيرة و يقال فلان يفعل كذا لمّاً أي حيناً بعد حينٍ يقال ألممت بكذا أي نزلت به و قاربته من غير مواقعة و على هذا

الإستثناء منقطعٌ لأنّه ليس من الكبائر و لا من الفواحش فهو من الصَّغائر التّي لا يسلم عن الوقوع فيها إلاّ من عصمه اللّه و حفظه ثمّ أنّهم إختلفوا في معناه فقيل أنّ اللَّمم ما دون الزّنى، و قيل ما دون الوطيء من القبلة و الغمزة و النَّظرة و المضاجعة، و قيل زنى العينين بالنَّظر و زنى اليدين البطش و زنى الرّجلين المشي و أنّما يصدّق ذلك أو يكذّبه الفرج فأن تقدَّم كان زنى و أن تأخَّر كان لمماً، و قال قومٌ، اللَّمم هو الهمّ بالمعصية من جهة مقاربتها في حديث النّفس بها من غير مواقعتها و لا عزم عليها لأنّ العزم على الكبيرة كبيرة و قيل هو مقاربة الشّيء من غير دخولٍ فيه، و قيل الصَّغير من الذّنوب و الأقوال كثيرة و أحسن الأقوال أنّ اللَّمم بالمعصية و ذلك لأنّ العقاب على الفعل لا على النِّية المجرّدة عنه.

المسألة الثّانية: قوله **إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ** و فيه إشارة إلى سعة رحمته و أنّه يغفر الذّنوب جميعاً و أنّه لا حدّ لسعة مغفرته إذ لا نهاية لصفاته تعالى كما لا نهاية لذاته و لذلك قال تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ** و إلىٰ هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

قُلْ يا عِبادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ[١].

المسألة الثّالثة: قوله **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ** أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن علمه تعالى بخلقه قبل الخلق فقال هو، أي اللّه أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، فيه إشارة إلى قوله تعالى: **مِنها خَلَقْناكُم** أي من الأرض خلقناكم و أنّما قال من الأرض لأنّ أدم خلقه من تراب:

١- الزّمر = ٥٣

قال اللّه تعالى: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**[١].

قال اللّه تعالى: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**[٣].

و في قوله: **وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** إشارة إلى عالم الرّحم، و المقصود أنّ اللّه تعالى قبل خروج الإنسان عن بطن أمّه إلى الدّنيا عالم بأحواله و أنّه صالحٌ أو فاسق من أهل الجنّة أو من أهل النّار سعيدٌ أو شقّيٌ كلّ ذلك لا يخفى عليه و على هذا لا ينبغي للإنسان أن يزكّي نفسه كما قال تعالى **فَلَا تُزَكُّوٓا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ** أي لا تقولوا أنا كذا وكذا تجعلوا أنفسكم في زمرة المتّقين بل قولوا اللّه تعالى أعلم بحالي فأنّ العجب من الأفات.

أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ، وَ أَعْطَىٰ قَلِيلًا وَ أَكْدَىٰ

قال اللّه تعالى لنبيّه: **أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ** و أعرض عن الحقّ و أعطى من ماله قليلاً و أكدى أي قطع القليل، قيل أنّ الآية نزلت في وليد بن المغيرة و كان أعطى قليلاً من ماله لمن يتحمّل عنه العذاب في الأخرة ثمّ منع ما ضمن له، و قيل أنّ الّذي أعطى قليلاً و أكدى هو المنافق الّذي يعطي قليلاً في المعونة على الجهاد ثمّ يمنع.

و قال إبن عبّاس، أكدى قطع العطاء و قال بعضهم نزلت الآية في عثمان و قيل في أبي جهل و قيل في عاص بن وائل و قيل لنضر بن الحارث كان فالمقصود من الآية ذمّ البخل أو ذمّ نقض العهد.

١- أل عمران = ٥٩ ٢- الحجّ = ٥
٣- الرُّوم = ٢٠

أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرىٰ

أي أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب فهو يرى ما غاب عنه من أمر الأخرة و ما يكون من أمره حتّى يضمن حمل العذاب عن غيره و كفى بهذا جهلاً و حمقاً.

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمٰا فِي صُحُفِ مُوسىٰ

(أم) بمعنى بل، أي بل لم ينّبأ، و النَّبأ الخبر و منه النبيّ لأنّه يخبر عن اللّه، و **الصُّحُف** بضمّ الصّاد و الحاء جمع صحيفة و المراد بها في الآية مكتوب الحكمة لأنّها كتب اللّه و هى التَّوراة و معنى الآية بل لم يخبر من أعطى قليلاً و أكدى بما هو مسطورٌ في التّوراة.

وَ إِبْرٰاهِيمَ ٱلَّذِي وَفّىٰ

أي و بما في صحف إبراهيم الخليل الذّيبما يجب عليه للّه عزَّ وجلّ:

أَلَّا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ

أي لا يؤخذ أحدٌ بذنب غيره و ملخّص الكلام في هذه الأيات أنّا كتبنا في صحف موسى و إبراهيم عليهما السّلام أن لا تزر وازرةٌ وزر أخرى، أي لا يؤاخذ أحد بذنب غيره فكيف يعطي الوليد أو غيره قليلاً من ماله لمن يتحمَّل عنه العذاب زعم أنّ غيره يتحمَّل عنه العذاب فهو من أحمق النّاس.

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلّٰا مٰا سَعىٰ، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ، ثُمَّ يُجْزٰيهُ ٱلْجَزٰاءَ ٱلْأَوْفىٰ

هذه الأيات معطوفة على قوله: **أَلّٰا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** و على تقدير الكلام في هذه الأيات هكذا، بل لم يخبر هذا المكدي بما في ضعف موسى و إبراهيم و هو أمور:

أحدها: أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى أي لا يعاقب أحد بذنب غيره.

الثّاني: أَنْ لَيْسَ لِلْاِنْسٰانِ إِلَّا مٰا سَعٰى في الدُّنيا أي ليس له من الجزاء إلاّ ما يجزى على عمله دون ما عمله غيره.

الثّالث: وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرٰى أي سعيه في الأعمال سوف يرى في الأخرة فيجزى عليها كما قال تعالى: **ثُمَّ يُجْزٰيهُ ٱلْجَزٰآءَ ٱلْأَوْفٰى** أي الجزاء الكامل التّام الّذي لا نقص فيه، فهذه الأمور مسطورة في صحف موسى و إبراهيم بل في جميع الكتب السّماوية ثمّ قال تعالى:

وَ أَنَّ إِلٰى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهٰى

أي إلى ربّك تنتهي الأمور فهو المرجع و المردّ و إليه المصير فيعاقب و يثيب، و إن شئت قلت، منه إبتداء المنّة و إليه إنتهاء الأمان إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و لا حول و لا قوّة إلاّ به.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكٰى

أي أنّ اللّه أضحك و أبكى قيل في معناه يعني أنّه أفرح و أحزن لأنّ الفرح يجلب الضحك و الحزن يجلب البكاء و على هذا فالمعنى أنّه قضى أسباب الضحك و البكاء و هذا كما يقال أضحكني و أبكاني إذا كان سبب ذلك بما يقع عنده ضحكي و بكائي فأنّ الضّحك و البكاء من فعل الإنسان و من شئون الجسم و اللّه تعالى منزّهٌ عنه و لأجل هذا قال و أنّه هو أضحك و أبكى، أي أضحك غيره و أبكاه و لم يقل و أنّه هو يضحك و يبكي لأنّ الضحك ينشأ من سرور القلب و البكاء من حزنه و تألُّمه فمن لا قلب له لا ضحك له و لا بكاء و القلب من شئون الجسم.

و قال الحسن معناه أضحك اللّه أهل الجنّة في الجنَّة ابكى و أهل النّار في النّار، و قيل أضحك من شاء في الدّنيا بأن سرَّه و أبكى من شاء بأن غمَّه و قيل

أضحك الأرض بالنّبات و أبكى السّماء بالمطر و قيل أضحك المطيعين بالرَّحمة و أبكى العاصين بالسَّخط و هكذا كان لا شكّ في أنّ اللّه تعالى مسبّب الأسباب في جميع الأحوال إذ لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَمٰاتَ وَ أَحْيٰا

أي أنّ الموت و الحياة بيده في جميع الموجودات فأنّ الموت و الحياة في كلّ شئٍ بحسبه، فأنّ اللّه تعالى كما يميت الإنسان في الدُّنيا و يحييه حين البعث للحساب و الجزاء كذلك يميت الأرض بعدم نزول المطر و يحييها بنزوله و هكذا فأنّ لكلّ مخلوقٍ موتٌ و حياة بحسبه و الفاعل هو اللّه لا غيره ألا ترى أنّ القلب يحيه اللّه بنور المعرفة و يميته بزوالها عنه.

وَ أَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذٰا تُمْنىٰ

في الإنسان و النُّطفة هي ماء الرّجل و المرأة التّي يخلق منها الولد و قوله: **إِذٰا تُمْنىٰ** يعني إذا خرج المني منهما و جعل في الرَّحم فأنّ اللّه خلق منها الولد إمّا ذكراً وإمّا أنثى و معنى **تُمْنىٰ** أي تلقى هكذا قيل فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

وَ أَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرىٰ

لمّا بيَّن اللّه أنّه هو الّذي يخلق الذّكر و الأنثى من النُّطفة بيَّن في هذه الآية أنّ عليه النّشأة الأخرى و هى البعثة يوم القيامة فأنّ للإنسان نشأتين، الأولى في الدُّنيا، و الثّانية في الأخرة و كلتاهما تحت قدرته تعالى.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنىٰ وَ أَقْنىٰ

أي أغنى عن غيره من شاء و أفقر من شاء أي أنّ الغنى و الفقر بيده، و قيل معناه أغنى بالمال و أقنى بأصول الأموال، و أصل و أقنى الإقتناء و هو جعل

الشّيْ للنّفس على اللّزوم، و الحقّ أنّ المراد بقوله: **أَقْنَىٰ** أنّه تعالى جعل له قنيةً عن الرّضا و الطّاعة و ذلك أعظم الغنائين و على هذا فمعنى الجملة أنّ اللّه تعالى قد يغني عبده بالمال و قد يقنيه بما قدّر له من الرّزق أعني يجعله راضياً بما أعطاه و لو كان قليلاً.

وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ

الشَّعرىٰ بفتح الشّين الكوكب المضيئ الّذي لا يطلع بعد الجوزاء في شدّة الحرّ و أنّما خصّ اللّه الشّعرى بالذّكر و قال أنّه ربّ الشَّعرى مع أنّه تعالى ربّ العالمين لأنّ العرب كانت تعبده فأعلمهم اللّه عزّ وجلّ أنّ الشِّعرى مربوبٌ و ليس بربّ.

وَ أَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ

لمّا توفّى نوح النّبي بقي قومه و ذريّته المؤمنون دهراً طويلاً يترقّبون هوداً و ينتظرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد و قست قلوب كثيرة منهم و إرتدّوا عن الدّين و أقبلوا على عبادة الأصنام أشدَّهم بأساً و أكثرهم كفراً و طغياناً قوماً منه سكنوا أرض اليمن و بنوا فيها الأبنية و مدَّنوا فيها المدن و كان يقال لهم قوم عاد و كانوا ينسبون إلى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح و كانت بلادهم ما بين عمّان إلى حضر موت و هناك عاد أخرون و هم سابقون على عاد قوم هود و يعبّر عنهم بعاد الأولى كما يعبّر عن قوم هود بعاد الثّانية، و قد مرَّ الكلام في قوم هود و كيفيّة العذاب الّذي نزل عليهم.

و قد أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى عاد الأولى و أنّه تعالى أهلكهم و منهم خرج شدّاد بن عاد الّذي إستولى على البلاد و بنى جنَّة لم يخلق مثلها في البلاد و هى في صحاري عدن و قد أهلكهم اللّه بكفرهم و سيأتي الكلام فيها في المستقبل إن شاء اللّه.

وَ ثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ

و هم قوم صالح أهلكهم اللّه بعد عقرهم النّاقة و عدم توبتهم بعد أن أمهلهم اللّه على ما مرَّ تفصيله فيما مضى.

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَىٰ

قد مضى الكلام في قصّة نوح أيضاً و أنّ اللّه تعالى أهلكهم بالطُّوفان لظلمهم و طغيانهم.

وَ ٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ

يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم أي إنقلبت و صار عاليها سافلها يقال، أفكته أي قلّبته و صرفته و قوله: **أَهْوَىٰ** أي خسف بهم بعد رفعهما إلى السّماء ثمّ أهوى بها جبرئيل إلى الأرض و قد مرَّ الكلام في قوم لوط و كيفيّة عذابهم أيضاً.

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ

أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة المسوّمة التّي رموا بها من السّماء كما قال اللّه تعالى: **جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ**(١).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ

اي بأيّ نعم ربّك ترتاب و تشكّ يابن أدم و المقصود أنّ العبد إذا لم يشكر بنعمة ربّه يقع في النّقمة و العذاب لا محالة.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ

قيل هذا، إشارة إلى الرّسول و قيل إلى القرآن و المعنى أنّ هذا الرّسول أو هذا القرآن نذيرٌ، أي منذرٌ من النُّذر الأولى في صحف إبراهيم و موسى فأن

١- هُود = ٨٢

أطعتموه أفلحتم و إلاّ حلَّ بكم ما حلَّ بمكذّبي الرُّسل السّالفة، و أن كان المراد بالنّذير القرأن فالمعنى أنّه نذيرٌ بما أنـذرت بـه الكتب الأولى، و قـال قـوم أنّ المعنى هذا الّذي أخبرنا به من أخبار الأمـم المـاضية الّـذين هـلكوا، تـخويفٌ لهذه الأمّة أيضاً من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذّر أي مثل النُّذر و النُّذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكر بمعنى الإنكار.

أَزِفَتِ ٱلْاٰزِفَةُ، لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ كٰاشِفَةٌ

أي قربت السّاعة و دنت القيامة و سمّاها آزفـة لقـرب قـيامها عـنده و قـيل سمّاها بها لدنوّها من النّاس و قربها منهم ليستّعدوا لها لأنّ كلّ ما هو آتٍ قريبٍ.

قال الشّاعر:

أزف التَّــرحـل غـير أنّ ركـابنا لمّــا تـزل بـرحـالنا و كـان فـد

قال الجوهري، أزف التَّرحل يأزف أزفاً أي دنا و أفد و قوله:

لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ كٰاشِفَةٌ

أي ليس لها من دون اللّه من يقدّمها أو يؤخّرها و قيل، كاشفة، أي إنكشاف لا يقدر عليه إلاّ اللّه فالكاشفة إسم بمعنى المصدر و الهاء فيها كالهاء في العاقبة و العافية ثمّ قال تعالى:

أَفَمِنْ هٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ

يعني القرآن و الإستفهام للتّوبيخ أي فمن هذا القرآن تعجبون، تكذيباً، به **وَ تَضْحَكُونَ** إستهزاءً **وَ لاٰ تَبْكُونَ** إنزجاراً و خوفاً من الوعيد.

وَ أَنْتُمْ سٰامِدُونَ السّامد اللاّهي يقال للجارية أسمدي، أي غنيّ.

فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ ٱعْبُدُوا

أي و أعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئاً، و يحتمل أن يكون المراد بالسُّجود معناه اللُّغوي أي إخضعوا للّه و الخضوع و الخشوع و المراد به الطّاعة و الإنقياد، و يحتمل أن يكون المراد بالسُّجود معناه عند أهل الشَّرع و هو وضع الجبهة على الأرض في الصّلاة و على هذا فالأمر بالسُّجود أمرٌ بالصّلاة فأنّها خير موضوع من شاء إستقلّ و من شاء إستكثر و على التّقديرين هو أمرٌ من اللّه بالإنقياد و الطّاعة و الإجتناب عن معاصيه و أنمّا ذكر هذه الآية بعد الأيات ليعلم الإنسان أنّ حلاوة النشّأتين و سعادة الّدارين في طاعة الرَّب كما أنّ خسران الدُّنيا و الأخرة في مخالفته، هذا أوّلاً.

ثانياً: أن يعتبر المعتبر بما ذكره اللّه من الأيات الحاكية عن نزول العذاب على الأمم الماضية فأنّ حكم الأمثال واحد و لكن أين الإعتبار.

قد قال رسول اللّه ﷺ: النّاس نيّام إذا ماتوا إنتبهوا، اللّهم وفّقنا لما تحبّ و ترضى و أجعل عواقب أمورنا خيراً بمحمّد و آله الأطهار.

■

سُورَةُ ٱلْقَمَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسّٰاعَةُ وَ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَ إِنْ يَرَوْا
آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا
وَ ٱتَّبَعُوٓا أَهْوٰآءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَ لَقَدْ
جٰآءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبٰآءِ مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ
بٰالِغَةٌ فَمٰا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
ٱلدّٰاعِ إِلٰى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصٰارُهُمْ
يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدّٰاعِ يَقُولُ ٱلْكٰافِرُونَ هٰذٰا يَوْمٌ
عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنٰا
وَ قٰالُوا مَجْنُونٌ وَ ٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعٰا رَبَّهُ أَنِّي
مَغْلُوبٌ فَٱنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنٰآ أَبْوٰابَ ٱلسَّمٰآءِ
بِمٰآءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَ فَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى
ٱلْمٰآءُ عَلٰىٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَ حَمَلْنٰاهُ عَلٰى ذٰاتِ
أَلْوٰاحٍ وَ دُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنٰا جَزٰآءً لِمَنْ كٰانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَ لَقَدْ تَرَكْنٰاهٰآ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ ﴿١٦﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنٰا

ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ
ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ ﴿٢١﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْاٰنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ
﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَفِي
ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ
فَارْتَقِبْهُمْ وَ ٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ
قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَ نُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ
لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ
اٰلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ
ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذُرِ
﴿٣٧﴾ وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾

فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ
ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ
لَكُمْ بَراءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾
بَلِ ٱلسّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ ٱلسّاعَةُ أَدْهٰى وَ أَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ
يُسْحَبُونَ فِي ٱلنّارِ عَلٰى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ
سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَ ما
أَمْرُنا إِلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا
أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَ نَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

اللّغة

ٱقْتَرَبَتِ: الإقتراب مبالغة في القرب.

ٱلْأَنْباءِ: الأخبار.

مُزْدَجَرٌ: بضمّ الميم من الزَّجر إلاّ أنّ التّاء أبدلت دالاً و انمّا قلنا ذلك لأنّ مزدجر معناه متّعظ فهو مفتعل من الزَّجر.

فَتَوَلَّ: أي أعرض و التَّولي الإعراض.

نُكُرٍ: بسكون الكاف و ضمّها و هما لغتان.

خُشَّعًا: الخشوع في البصر الخضوع و الذّلة و هو جمع خاشع.

ٱلْأَجْدَاثِ: جمع جدث و هو القبر.

مُّهْطِعِينَ: أي مسرعين.

عَسِرٌ: أي شدّيد العسر بضمّ العين الشّدة.

مُّنْهَمِرٍ: أي كثير.

و فَجَّرْنَا: التّفجير تشقيق الأرض.

دُسُرٍ: المسامير واحدها دسار و دسير.

صَرْصَرًا: أي شدّيداً لها صوت.

مُّنْقَعِرٍ: المنقعر المنقطع من أصله.

سُعُرٍ: بضمّ السّين و العين معناه الجنون.

أَشِرٌ: بفتح الألف و كسر الشّين المرح و التّجبر و النّشاط.

فَارْتَقِبْهُمْ: الإرتقاب الإنتظار.

وَ ٱصْطَبِرْ: أي إصبر.

كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ: و المعنى كهشيم الإنتظار أي كحشيش يأكله الغنم.

بَطْشَتَنَا: البطش العقوبة و العذاب.

فَتَمَارَوْا: أي شكّوا.

ٱلزُّبُرِ: الكتب المنزلة و منها زبور داود عليه السلام

◀ الإعراب

كُلُّ أَمْرٍ مبتدأ مُسْتَقِرٌّ خبره و يجوز أن يكون فيه الجرّ على أنّه صفة لأمرٍ حِكْمَةٌ بدل من (ما) و هو فاعل جاءهم و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف فَمَا تُغْنِ ما، نافية، أو إستفهاميّة في موضع نصب بتغنى و ٱلنُّذُرُ جمع نذير

نُكُرٍ بضمّ النّون و الكاف صفّة بمعنى منكر و يجوز فيه ضمّ النّون و كسر الكاف على أنّه فعل لم يسمّ فاعله خُشَّعًا حال و العامل فيه، يدعوا و صاحب الحال الضّمير المحذوف و أَبْصَٰرُهُمْ مرفوعٌ بخشّعاً و قيل العامل في الحال يَخْرُجُونَ و كَأَنَّهُمْ حال من الضّمير في (يخرجون) و مُهْطِعِينَ حال من الضّمير في منتشر و قيل هو حال من الضّمير في يخرجون و يَقُولُ حال من الضّمير في مهطعين و ٱزْدُجِرَ الدّال بدل من التّاء و عَلَىٰٓ أَمْرٍ حال أو ظرف و تَجْرِي صفة في موضع جرّ و بِأَعْيُنِنَا حال من الضّمير في، تجري و جَزَآءً مفعول له و مُدَّكِرٍ بالدّال و أصله الذّال و مُسْتَمِرٌّ نعتٌ للنحس و كَأَنَّهُمْ حال مُنْقَعِرٍ نعتٌ لنخل أَبَشَرًا منصوب بفعلٍ يفسّره المذكور أي أتتّبع بشراً و مِنَّا نعت و يقرأ أَبَشَرًا بالرّفع على الإبتداء و مِنَّا نعتٌ له وٰاحِدًا حال من الهاء في، نتّبعه مِنْ بَيْنِنَا حال من الهاء و أَشِرٌ بكسر الشّين و ضمّها لغتان و فِتْنَةً مفعول له أو حال كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ بكسر الظّاء و فتحها إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ هو إستثناء مُنقطع و قيل متصلّ نِعْمَةً مفعول له أو مصدر بِقَدَرٍ حال من الهاء أو من كلّ أي مقدّراً وخَلَقْنَٰهُ نعتٌ لكلّ أو لشيء.

التّفسير

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ

أي و دنت و قربت و فى (إقتربت) مبالغة كما أنّ في (إقتدر) مبالغة على القدرة و ذلك لأنّ أصل (إفتعل) طلب إعداد المعنى بالمبالغة و كذلك (إتّخذ) من أخذ، و السّاعة القيامة.

و قال الطّبري تقديره إقتربت السّاعة الّتي يكون فيها القيامة و جعل اللّه تعالى من علامات دنوّها إنشقاق القمر المذكور معها و فى الآية تقديم و تأخير و التّقدير إنشقّ القمر و إقتربت السّاعة هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول ما ذكره قدس سره لا بأس به و هو الحقّ فأنّ ظاهر الآية يدُّل على ما ذكره و لا خلاف بين المسلمين في وقوع الإنشقاق في عهد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم .

نعم أنكره بعض من لا يعتمد بقوله لأنّه خرقٌ لإجماع المسلمين من العامّة و الخاصّة و قد إتفق المفسّرون منهم على و قوعه في تفاسيرهم.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه

قلت و قد ثبت بنقل الأحاد العدول أنّ القمر إنشقّ بمكّة و هو ظاهر التنزيل و لا يلزم أن يستوي النّاس فيها لأنّها كانت آيةٍ مكية و أنّها كانت بإستدعاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من اللّه تعالى عند التّحدي فروى أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً في إيمانه و قد تقدّم في الصّحيح أنّ أهل مكّة هم الّذين سألوا و طلبوا أن يريهم آية فأراهم إنشقاق القمر فلقتين كما في حديث إبن مسعود و غيره و عن حذيفة أنّه خطب بالمدائن ثمّ قال ألا أنّ السّاعة قد أقتربت و أنّ القمر قد انشقّ على عهد نبّيكم صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

أقول ما ذكره القرطبي حقّ و به قال الطّبري و صاحب الكشّاف و الرّازي و غيرهم من أعيان العامّة و أمّا الشّيعة فلا نعلم فيهم مخالفاً أصلاً لأنّ إنكاره إنكار القرآن و هو في حدّ الكفر.

قال إبن عبّاس أجتمع المشركون إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا أن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إن فعلت تؤمنون قالوا نعم و كانت ليلة بدر فسأل رسول اللّه ربّه أن يعطيه ما قالوا فأنشقّ القمر على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين و رسول اللّه ينادي يا فلان يا فلان إشهدوا.

و قال إبن مسعود إنشقّ القمر شقّتين فقال لنا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إشهدوا و أشهدوا و قد روي حديث إنشقاق القمر جماعة كثيرة من الصّحابة منهم عبد اللّه بن مسعود، و أنس بن مالك، و حذيفة اليمان، و إبن عمر، و جبير بن مطعم و إبن عبّاس و عليه جماعة المفسّرين الاّ ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه

أنّه قال معناه، سينشقّ القمر و روي ذلك عن الحسن البصري و سعد البلخي و حيث أنّ المُلمين أجمعوا على وقوع الإنشقاق في عهد النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فلا يعتمد بخلاف من خالف فيه مع شذوذه لأنّ أشتهاره بين الصّحابة يمنع من القول بخلافه و لا سيّما أنّ المخالفين من جهّال المسلمين لأنّ المسلم العالم العاقل لا ينكر نصّ القرآن و يعلم أنّ إنكار كلام اللّه خبطٌ عظيم.

فقوله: **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ** معناه إقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول اللّه إلاّ القيامة و قد انقضت النبوّة و الرّسالة و أمّا إنشقاق القمر فأنّ قريشاً قد سألت رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يريهم آية فدعا اللّه فأنشقّ القمر حتّى نظروا إليه و يؤيّد وقوع الإنشقاق.

وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ

فلو لم يكن إنشقاق هناك فلا معنى لهذه الآية فأنّها تدلّ على أنّ الإنشاق قد وقع و لكنّ الكفّار أعرضوا عنه و حملوه على السّحر و فى قوله: **مُسْتَمِرٌّ** إشارة إلى عدم بقائه و أنّه يذهب و يفنى كما هو شأن السّحر من قولهم، مرَّ الشّئ و أستمرّ إذا ذهب و قيل معنى **مُسْتَمِرٌّ** محكمٌ قويٌّ شديدٌ و هو من المرَّة بكسر الميم و هى القوّة كما قال الشّاعر:

حتّى إستمرّت على شزرٍ مريرةٍ مرّ العزيمة لا لحماً و لا ضرعاً

و قيل معناه دائم و كيف كان يظهر من الآية أنّهم قالوا ذلك بعد وقوع الإنشقاق و رؤيتهم القمر و أنّه قد إنشّق أنّه سحرٌ مستمرّ فلو لم يكن هناك آية فما معنى أنّه سحرٌ.

وَ كَذَّبُوا وَ ٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ

أي و كذّبوا الآية الّتي رآوها بأعينهم و أتّبعوا بذلك التّكذيب أهوائهم و أميالهم لأنّهم رأوا تصديق الآية على خلاف ما ذهبوا إليه من إنكار النّبوّة و

قوله: وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ قيل معناه و كلّ أمرٍ من خيرٍ أو شرٍّ مستقرٌّ ثابت حتّى يجازي به إمّا الجنّة أو النّار و قرئ (مستقرّ) بفتح القاف أيضاً، أي لكلّ شيءٍ وقت يقع فيه من غير تقدُّمٍ و تأخرٍ، و قيل في الكلام حذف و تقديره و كلّ أمرٍ مستقرٍّ في أمّ الكتاب و هو اللّوح المحفوظ، و على هذا فيكون، مستقرّ صفة، لأمرٍ، و (كلّ) مرفوع بالإبتداء و الخبر محذوف هذا ما قالوه في معنى الكلام و الّذي يقوّي في نفسي هو أنّ قوله: (مستّقر) بفتح القاف و معناه الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدلّ و معنى الكلام أنّ الأمور الواقعيّة ثابتة في الواقع في ظرف وقوعها و وجودها و إنكار المنكر لا يغيّرها عمّا كانت عليه من الثُّبات و الإستقرار و اللّه أعلم.

وَ لَقَدْ جَآءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ

ألأنباء الأخبار و (مزدجر) بفتح الدّال و الجيم أصله (مزدجر) بالتّاء فقلبت التّاء دالاً لأنّ التّاء حرف مهموس و الزّاء حرف مجهور فأبدل من التّاء دالاً توافقها في المخرج و توافق الزّاء في الجهر و مزدجر، من الزَّجر و هو الإنتهاء يقال، زجرته فأنزجر أي كففته فكَّف و معنى الآية قد جاء هؤلاء الكفّار من أخبار الأمم الخالية ما فيه مزدجر، أي ما يزجرهم من الكفر لو قبلوه.

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ

قيل الحكمة البالغة القران و النُّذر جمع نذير، و المعنى أنّ ما جاءهم من الأخبار مذكورة في القرآن الّذي هو حكمةٌ بالغةٌ، فما تغن النّذر، أي فما منعهم من الكفر و العناد النّذر المذكورة في القرآن و هی الآيات الدّالة على أنّ الكفر يوجب العذاب و الهلاك و يحتمل أن يكون المراد بالنّذر الأنبياء و حاصل الكلام أنّهم بقوا على كفرهم و ضلالتهم سواءٌ عليهم الإنذار و عدمه فأنّهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من كان قبلهم.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ

التَّولي الإعراض أي إذا كان أمر هؤلاء الكفّار على هذا المنوال من عدم الإيمان و البقاء على الكفر جهلاً و عناداً و حملهم الآيات و المعجزات على السّحر، فأعرض عنهم و ذرهم في خوضهم يلعبون فأنَّك بلَّغت رسالتك و عملت بما أمرك اللّه به و جادلتهم بالحكمة و الموعظة الحسنة فلا شئ عليك بعد ذلك.

قال بعض المفسّرين هو تمام الكلام ثمّ قال: **يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ** و تقديره و أذكر يوم يدع الدّاع، و هو يوم القيامة.

و قيل فتولّ عنهم فأنّ لهم يوم يدع الدّاع، فيرون فيه ما ينزل بهم من العذاب.

و قيل معناه، أعرض عنهم يوم القيامة و لا تسئل عنهم و عن أحوالهم فأنّهم يدعون إلى شئ نكر و ينالهم عذابٌ شديدٌ، و الدّاعي هو إسرافيل عليه السّلام أو ملك آخر، ثمّ أنّ إبن كثير قرأ، **نُكْر**، بضم النُّون و إسكان الكاف، و الباقون بضمّ الكاف و عليه المصاحف و هو المشهور و هما لغتان مثل، عسْر و عسر و شغْل و شُغُل و معناه الأمر الفظيع العظيم و هو يوم القيامة ثمّ وصف اللّه هؤلاء الكفّار.

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ

خُشّعاً جمع خاشع و الخشوع في البصر الخضوع و الذُّلة، و الخشوع و الخضوع في الأصل من صفات القلب و فى إضافته إلى الأبصار إشارة إلى أنّ أثرهما بعد وجودهما في القلب يظهر في ناظر الإنسان كما أنّ الخوف أيضاً من صفات القلب و أمّا أثره يظهر في العين النّاظرة و قرأ حمزة و الكسائي و أبو عمرو، خاشعاً، بالألف و يجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدّمت على الجماعة التّوحيد نحو **خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ** و التّأنيث نحو **خاشِعَة أبصارَهُم** و يجوز الجمع

نحو! خُشَّعًا أَبْصٰارُهُمْ و قوله: يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدٰاثِ فالأجداث جمع جدث و هو القبر و فيه إشارة إلى يوم البعث حيث يخرجون النّاس من قبورهم كَأَنَّهُمْ جَرٰادٌ مُنْتَشِرٌ و الجراد معناه معلوم و هو بالفارسيّة (ملخ) شبّه اللّه تعالى خروج النّاس من القبور و إنتشارهم في سطح الأرض بالجراد المنتشر من كثرتهم.

مُهْطِعِينَ إِلَى ٱلدّٰاعِ يَقُولُ ٱلْكٰافِرُونَ هٰذٰا يَوْمٌ عَسِرٌ

الإهطاع الإسراع في المشي و الدّاع هو إسرافيل و المعنى أنّهم بعد خروجهم من القبور يسرعون إلى الدّاعي و هو صاحب الصّوت بالإلجاء و الإكراه و الإذلال و يقول الكافرون، بعد رؤيتهم هذا يوم عسر، أي شديد فأنّ العسر الشّدة.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنٰا وَ قٰالُوا مَجْنُونٌ وَ ٱزْدُجِرَ

هذه الآية بمنزلة التّسلية من اللّه تعالى لنبيّه بعد تكذيب الكفّار رسول اللّه في نبوّته و المعنى أنّ تكذيب الأنبياء كان شائعاً في الأمم السّالفة أيضاً فكما كذّبوك هؤلاء الكفّار كذّبت قبلهم قوم نوح في نبيّهم الذّي أرسل إليهم و نسبوه إلى الجنون (و الإزدجار) قيل معناه الزّجر بالشّتم و الرّمي بالقبيح، و قيل بالوعيد لأنّهم توعّدوا بالقتل و قيل معناه أنّه زجر عن دعوى النبوّة بالسّب و الوعيد بالقتل، و الزّجر في الأصل الطّرد بصوتٍ يقال زجرته فإنزجر ثمّ يستعمل في الطّرد تارةً و فى الصّوت أخرى و منه قوله تعالى: **فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْرًا**[١] أي الملائكة التّي تزجر السّحاب، و قوله: **مٰا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**، أي ما فيه طردٌ و منعٌ عن إرتكاب المأثم.

١- الصّافات = ٢

فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ

أي فدعا نوح ربّه عند ذلك و قال: **أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ** أي قد غلبوني بالقهر و السبّ و الشّتم و الضّرب و غيرها من أنواع الأذى لا بالحجّة و البرهان فأنتصر لي منهم بالإهلاك و الدّمار فأجاب اللّه دعوته كما قال:

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَ فَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

فَفَتحنا قرئ بالتّخفيف و التشدّيد و على الثّاني يفيد الكثرة أي فتحنا أبواب السّماء مرّةً بعد مرَّة و شيئاً بعد شيء لأنّه كثر و دام لمّا فار التّنور و المشهور على التّخفيف و عليه المصاحف و قوله: **مُّنْهَمِرٍ** هو صفة الماء النّازل من السّماء و الإنهمار الكثرة يقال ماءٌ منهمر أي كثير أنّه المنصّب المندفق و منه قول إمرؤ القيس يصف غيثاً:

راح تمريه الصَّبا ثمّ إنتحى ... فيه شوبوب جنوبٍ منهمر

أي منصّب مندفق و قوله: **وَ فَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ** فالتّفجير تشقيق الأرض عن الماء و عيون، جمع عين و هو ماءٌ يفور من الأرض مستدير كاستدارةِ عين الحيوان.

فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

معناه أنّ المياه كانت تجري من السّماء و من الأرض على ما أراد اللّه و قدّره إذا عرفت معنى الألفاظ في الأيتين فنشير إلى القصّة إجمالاً و قد ذكرناه فيما مضى مفصّلاً و قلنا أنّه أوّل نبيٍّ بعد جدّه إدريس و كان إسمه عبد الغفّار و سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكاءه مدّة خمس مائة سنة خوفاً من اللّه و تحسُّراً على ضلال أمّته إلى أخر ما قلنا هناك.

إعلم أنّ نوح النّبي كان أوّل الأنبياء الخمسة أولي العزم المبعوثين إلى الجنّ و الإنس كافّة و هم أفضل الأنبياء و الأربعة بعد إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو سيّدهم و أفضلهم قيل لمّا بعث إلى قومه كان عمره ثمان مائة و خمسين سنة و أقام في قومه يدعوهم إلى اللّه تعالى تسع مائة و خمسون سنة، و أقام مشتغلاً بعمل له (٢٠٠ سنة) و عاش بعد هلاك قومه بالطُّوفان (٥٠٠ سنة) و ذلك تمام ٢٥٠٠ سنة) و لم يسقط منه سنّ و لم يظهر عليه أثر شيب و لمّا بعث إلى قومه أخذ يدعوهم إلى اللّه ليله و نهاره و يعظمهم و يحذّرهم العذاب سرّاً و جهاراً و هم لا يزدادون إلاّ كفراً و طغياناً يصكُّون أسماعهم عن أقواله و يهربون فراراً من مواعظه حتّى مضى عليه كذلك ثلاث مائة سنة ثمّ أنّه بعد أن يئس من إيمان قومه دعا على قومه فأجاب اللّه دعاءه و أمهلهم مدّةً إتماماً للحجّة عليهم و هم لا يردادون إلاّ كفراً و عناداً إلى أن تعلّقت المشيّئة القاهرة بإنزال العذاب عليهم فأمره اللّه سبحانه بعمل السَّفينة فلمّا فرغ نوح من عمل السَّفينة في مدّة ثمانين سنة و ركب فيها من ركب كما أمره اللّه تعالى و كان موضع سفينة نوح يومئذٍ مسجد الكوفة من العراق بقرب النَّجف و لمّا كان اليوم الموعود بنزّول العذاب على قومه كانت إمرأته الكافرة على التنُّور و بينما هي مشغولة بالخبز فار التنُّور بالماء بدلاً من لهب النّار فصرخت تعجّباً و صاحت برفيع صوتها فأقبل نوح إلى التنُّور مسرعاً فأخذ من الطّين شيئاً فوضعه فم التّنور و سدّ منفذه و ختم عليه إلى ما أكمل ركوب ما أراد من البهائم ثمّ أتى التنُّور و فضّ الخاتم و دفع الطّين و عند ذلك نزّل العذاب و تفجّرت الأرض عيوناً و انصبّ من السّماء ماء منهمر كأفواه القرب و أوحى اللّه تعالى إليه و من معه بالرُّكوب في السَّفينة فإرتفعت السَّفينة فوق الماء يزل الماء ينصبّ من السّماء و صارت الأرض كلّها عيوناً تنفجر منها

المياه أربعين صباحاً حتّى إرتفعت السَّفينة و غرق كلّ ما على وجه الأرض و ما على رؤوس الجبال و لم يبق شيئ متنفّس و إرتفع الماء على الجبال الشّامخة خمسة عشر ذراعاً و طغى الماء فوق كلّ شيئ و لذلك سمّي طوفاناً.

وَ حَمَلْنٰاهُ عَلىٰ ذٰاتِ أَلْوٰاحٍ وَ دُسُرٍ

أي و حملنا نوح و من معه على ذات ألواح و دسر، و هى السَّفينة فأنّها كانت ذات ألواح مركّبة بعضها إلى بعضٍ و **الدُّسُر** بضمّ الدّال و السّين جمع دسار و دسير و هو المسمار يقال دسرت السَّفينة إذا شدَّدتها بالمسامير أو نحوها و قيل الدُّسر صدر السَّفينة أضلاعها.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنٰا جَزٰآءً لِمَنْ كٰانَ كُفِرَ

أي تجري السَّفينة بمرأى منّا و نحن ندركها و نراها قوله: **كُفِرَ** قرئ بصيغة المجهول و عليه المصاحف و منهم من قرأ بصيغة المعلوم فالمعنى على القراءة الأولى جعلنا ذلك ثواباً و جزاءً لنوح على صبره على أذى قومه و هو المكفور به و على هذا فاللاّم في **لِمَنْ** لام المفعول له.

علىٰ الثّانية: كان الغرق جزاءً و عقاباً لمن كفر باللّه.

وَ لَقَدْ تَرَكْنٰاهٰآ اٰيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

الضّمير في تركناها، للسَّفينة أي و لقد تركنا السَّفينة و فيها دلالة باهرة على قدرة اللّه و أنّ العذاب مترتّبٌ على المعصية و قوله: **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** أي متَّعظٌ خائف و أصله (مُدَّ كِر) و هو مفتعلٌ من الذِّكر فثقلت على الألسنة فقلّبت التّاء دالاًلتوافق الذّال في الجهر و أدغمت الدّال فيها فصار، مدَّكر.

و أنّما قال اللّه تعالى ذلك لأنّ المقصود الأصلي من ذكر القصص القرأنيّة هو الإتّعاظ و الإعتبار و لكن ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار.

فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ

قال الفّراء الإنذار و النُّذر مصدر و قيل، نذر جمع نذير و نذير بمعنى الإنذار و هو الحقّ و فى الآية تهديدٌ للكفّار و تنبيهٌ على عظم ما فعله بأمثالهم في الأُمم السّالفة الّذين أنكروا التّوحيد و النبوّة و المعاد و إتّبعوا أهوائهم و أميالهم النفّسانية.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

التَّيسير للشّي تسهيله و أخذه بما ليس فيه كثير مشقّةٍ على النّفس و اللاّم في، لقد، للقسم و المراد بتسهيل القرأن للذّكر هو القصص و المواعظ و بيان الأحكام و بالجملة كلّ القرآن ذكرٌ لمن تذكّر به و موعظةٌ لمن إتّعظ به قال اللّه.

قال اللّه تعالى: **فَذَكِّرْ بِالْقُرْاٰنِ مَنْ يَخٰافُ وَعِيدِ**(١).

قال اللّه تعالى: **فَذَكِّرْ إِنَّمآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرٰى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**(٣) والأيات كثيرة.

كَذَّبَتْ عٰادٌ فَكَيْفَ كٰانَ عَذٰابِي وَ نُذُرِ

لمّا أشار اللّه تعالى إلى قصّة نوح و إهلاك قومه أشار في هذه الآية إلى قصّة عاد و أنّه تعالى أهلك قوم عاد أيضاً و كان نبيّهم هود عليه السلام و قد مضى الكلام فيها أيضاً و المقصود في المقام الإشارة فقط فقال كيف كان عذابي و نذر ثمّ بيّن ذلك بقوله:

إِنّآ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ

أي أنّا أرسلنا على قوم هود ريحاً صرصراً أي شديدة البرد و قيل شديدة الصّوت في يوم نحس أي شؤم بمعنى أنّه كان مشؤماً عليهم و قوله: **مُسْتَمِرٍّ** أي إستمرّ بهم العذاب إلى نار جهنّم ثمّ وصف اللّه الرّيح و قال:

١- ق = ٤٥ ٢- الغاشية = ٢١

٣- الذّاريات = ٥٥

تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ

أي أنّ الرّيح التّي أرسلناها عليهم كانت تقلعهم عن مواضعهم قيل تقلعهم من تحت أقدامهم إقلاع النَّخلة من أصلها.

و قال مجاهد كانت تقلعهم من الأرض فترمي بهم، و قيل تنزع النّاس من البيوت و قيل أنّهم حفروا حفراً و دخلوها فكانت الرّيح تنزعهم منها و تكسرهم و تبقى تلك الحفر كأنّها أصول نخل قد هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة أي منقطعة من أصلها و لهذا قيل للمنقطع من أصله منقعر يقال إنقعر إنقعاراً أي إنقطع.

فَكَيْفَ كَانَ عَذابِي وَ نُذُرِ

و هو تعظيم للعذاب النّازل بهم.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

مرَّ تفسير الآية و فائدة التّكرار تنبيه الخلف ممّا وقع على السَّلف من العذاب.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ

ثمود قوم صالح عليه‌السلام و المعنى أنّهم كذّبوا نبيّهم كما كذّب الّذين من قبلهم و نزل بهم العذاب كما نزل على من قبلهم من قوم نوح و قوم هود.

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ

دخلت عليهم الشُّبهة فظنُّوا أنّ الأنبياء ينبغي أن يكونوا جماعة و لم يعلموا أنّ النبيّ لا يحتاج في نبوّته إلى غيره لأنّه يخبر من اللّه تعالى و حيث كان صالح النبيّ واحداً لا شريك له في نبوّته و مع ذلك هو كان بشراً مثلهم قالوا أبشراً منّا، أي من قومنا حال كونه واحداً نتّبعه و نطيعه في أمره و نهيه أنّا إذاً، أي لو فعلنا ذلك أنّا لفي ضلالٍ و سعر أي و جنون فأنّ العاقل لا يفعل ذلك.

ءَأُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ

قيل المراد بالذّكر الوحي و يحتمل أن يكون المراد به النّبوّة و كيف كان هو إستفهام من قوم صالح على وجه الإنكار و التّعجّب **ءَأُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ** يعني الوحي أو النّبوّة من جانب اللّه **مِنۢ بَيْنِنَا** أي من بين قومنا و فيهم رجال، عليه أي على صالح و هو ليس بأفضل من غيره **بَلْ هُوَ** أي صالح النّبي **كَذَّابٌ أَشِرٌ** أي هو في دعواه أنّه نبيّ أوحي إليه ليس بصادقٍ بل هو كذّابٌ أشر أي لا يبالي ما قال و ما يقول و أنّما يريد أن يتعاظم و يلتمس التكبُّر علينا من غير إستحقاقٍ و قيل الأشر المرح و التَّجبُّر و النّشاط يقال فرسٌ أشر إذا كان مرحاً نشيطاً قال إمرؤ القيس يصف كلباً:

فـيدركنا فـضمُ داجـنُ ... سـميعُ بـصيرُ طلوبُ نكر

أَلّص الفُروس حنّي الضّلوع ... تـبوعُ أريبُ نشـيطُ أشـر

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ

لمّا رموا قوم صالح نبيّهم بالكذب و البطر قال اللّه تعالى في جوابهم سيعلمون هؤلاء الكفّار من الكذّاب الأشر، هم أم صالح النّبي فقال:

إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَ ٱصْطَبِرْ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يرسل إلى قوم صالح النّاقة و يجعلها لهم، أي لقوم صالح، فتنة، أي إبتلاء و محنة، فأرتقبهم، أي فأنتظرهم و أصطبر، أي إصبر على آذاهم.

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ

أي أخبر القوم أنّ الماء قسمةٌ بينهم و بين النّاقة **كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ** أي كلّ قسم يحضره من حوله و قد ذكرنا فيما مضى قصّة صالح و قومه مفصّلاً و نشير إليها في المقام إجمالاً فنقول:

كان بنو ثمود لوادي القرى بين المدينة و الشّام و قد أرسل اللّه إليهم صالحاً و هو إبن ستّة عشر سنة يدعوهم إلى التّوحيد و رفض الأصنام و أظهر لهم بقدرة اللّه كرامات و آيات بيّنات تدلّ على نبوّته إلى أن بلغ عمره مائة و عشرين سنة و هم لم يألوا جهداً في تكذيبه و طرده و إيذائه و نسبة الجنون و السِّحر إليه ثمّ أنّ القوم بعد المشاجرات التّي وقعت بينهم و بينه إتّفقت كلمتهم على أن يسأل صالح ربّه أن يخرج لهم ناقةً من الجبل فقالوا له يا صالح إسئل ربّك أن يخرج لنا السّاعة من هذا الجبل ناقةً شقراء عشراء قد أتى على حملها عشرة أشهر فأخرجها اللّه من الجبل على ما وصفوها و أوحى إلى صالح أن قل لهم أنّ اللّه تعالى قد جعل لهذه النّاقة شرب يومٍ و لكم شرب يومٍ فكانت النّاقة يوم شربها تشرب الماء كلّه ثمّ يدرُّ لبنها حتّى يستسقي من لبنها جميعهم و كانت مواشيهم تنفر من النّاقة لعظمتها فلمّا طالت المدّة على القوم و هم في سعةٍ و دعةٍ عتوا على ربّهم و جاروا و إستكبروا على اللّه تعالى و قالوا لا نرضى به فأخذوا يجتمعون و يتشاورون فيما بينهم بعقر النّاقة و قتلها ليستريحوا منها فأوحى اللّه إلى صالح و أعلمه بعزمهم فلمّا عقروها و لم يتوبوا حلَّ بهم العذاب على ما حكى اللّه تعالى في كتابه و إلى عقرهم النّاقة أشار اللّه بقوله:

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ

أي فنادوا صاحبهم الذّي واقفوه على عقر النّاقة و هو أحمر ثمود.

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ

قال الضّحاك في معناه هو الحظيرة تتّخذ للغنم يبس فتصير رميماً و قيل الهشيم حشيشٌ يابسٌ متفتّتٌ يجمعه المحتظر لمواشيه، و قيل الهشيم اليبس من الشّجر أجمع الّذي يفتّت و معنى الآية أنّا أهلكناهم بصيحةٍ واحدة فكانوا كهشيم المحتظر كناية عن موتهم بأسوء حال.

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

قد فسّرناه: و قال قتادة هل من طالب علم يتعلّم.

أقول ما ذكره لا بأس به فأنّ طلب العلم مطلوبٌ في نفسه إلاّ أنّ سياق الأيات يقتضي أن يكون المعنى ما قدّمناه من أنّ القرأن و ما فيه من القصص موعظة لمن إتّعظ و عبرة لمن إعتبر ثمّ أنّ اللّه تعالى أشار بعد ثمود إلى قوم لوط و ما نزل بهم من العذاب فقال:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ

كما كذّبت بها قوم نوح و عاد و ثمود و قد مضت قصّته مفصّلاً غير مرّةٍ ثمّ أشار اللّه إلى كيفيّة عذابهم فقال:

إِنَّآ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِبًا إِلآّ اٰلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ

الحاصب الحجارة الّتي يرمى بها القوم، و حصبوا بها إذا رموا و منه الحصباء الأرض ذات الحصى، و ذلك لأنّ جبرئيل أخذ كفّاً من الحصى و قيل من تراب و ضرب به وجوه أهل المدينة فعميت عيونهم كلّهم فلمّا إنتصف اللّيل سار لوط بناته و لم يرهم أحد من القوم و لمّا حان الفجر نزل جبرئيل بأمر ربّه و أقلع البلاد مع أهلها من سطح الأرض و رفعها في الجوّ ثمّ قلّبها فجعل عاليها سافلها و أمطر اللّه عليهم من حجارةٍ سجّيل و أهلك القوم أجمعين.

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ

نعمةً منصوب على أنّه مفعول له و يجوز أن يكون النّصب على المصدر و تقديره أنعمنا بها عليهم نعمةً و قوله: **كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ** و هو لوط و أهله و من أمن به حيث نجّاهم اللّه من العذاب لكونهم من الشّاكرين و فيه إشارة إلى قوله تعالى: **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ**[1]

١- هُود = ٨١

فأنجاهم اللّه بذلك من العذاب.

وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنٰا فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ

أي أنذر لوط قومهم بطشة اللّه و البطشة الأخذ بالعذاب لشدّةٍ **فَتَمٰارَوْا بِالنُّذُرِ** أي تدافعوا على وجه الجدال بالباطل و بعبارةٍ أخرى أنّهم شكّوا فيما أنذرهم به الرّسول و لم يصدّقوه و هو تفاعل من المرية.

وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنٰآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذٰابِي وَ نُذُرِ

أخبر اللّه تعالى بأنّ قوم لوط حاولوا ضيفه و راودوهم على الفساد فالمراودة المحاولة و ذلك لأنّ الرُّسل و هم الملائكة جبرئيل و من معه لمّا دخلوا بيت لوط قامت إمرأته على سطح البيت و أوقدت النّار كعادتها لتعلم قومها فلمّا رأوا النّار أقبلوا إلى بيت لوط من كلّ ناحية فلم يقدر لوط على دفعهم لكثرتهم ولم يزالوا يتهاجمون على دخول البيت و هو يدافعهم إلى أن تكاثروا عليه و كسروا باب داره و دخلوها فتوجّه جبرئيل إلى أصحابه من الملائكة و قال لو علم لوط ماله من القوّة ثمّ صاح جبرئيل و قال يالوط دعهم يدخلوا و لمّا توسّطوا الدّار و قد همّوا بالتعرُّض للرُّسل هوى جبرئيل بإشارةٍ من إصبعه نحوهم فعميت أبصارهم و ذهبت عيونهم من وقتهم و إلى ذلك أشار اللّه بقوله: **وَ لَقَدْ رٰاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ** و قال: **فَذُوقُوا عَذٰابِي وَ نُذُرِ**.

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذٰابٌ مُسْتَقِرٌّ

و قد ذكرنا أنّ جبرئيل أهلكهم و قال: **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**[1] فلمّا قرب الصُّبح فعل بهم ما فعل بأمرٍ من اللّه، و قوله عذابٌ مستّقر، إشارة إلى ما أمطر اللّه عليهم من سجيل بعد موتهم فحقٌّ لهم و لأمثالهم بأن يقال لهم.

۱- هود = ۸۱

فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنّ القرأن مذكرٌ لمن يتذكّر به و يتعظ.

وَ لَقَدْ جٰآءَ الَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ

كغيرهم ممّا ذكر اللّه فأرسل إليهم موسى إبن عمران ليهديهم و يرشدهم إلى الحقّ فأبوا و إستكبروا كما قال تعالى:

كَذَّبُوا بِايٰاتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ

و أغرقناهم في اليمّ أجمعين و قد مرّت قصّتهم مفصّلاً، ثمّ أنّ اللّه تعالى بعد الإشارة إلى قوم نوح و عاد و ثمود و أل فرعون، الذّين أهلكهم اللّه بأنواع العذاب بسبب طغيانهم و كفرهم و تمرّدهم عن الحقّ خاطب أهل مكّة و قيل خاطب العرب و قيل خاطب أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و قال:

أَكُفّٰارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرٰآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ

أي في الكتب المنزلة، من عذاب اللّه، و المعنى أنّ حكم الأمثال واحد فكما أنّ الكفّار في الأمم السّالفة أهلكهم اللّه بنزول العذاب عليهم و كان ذلك بسبب كفرهم و عنادهم فهكذا أنتم، أم لكم براءةٌ من العذاب في الكتب المنزلة من عند اللّه و حيث أنّ الإستفهام للإنكار فالمعنى ليس كذلك أي لا يكون كفّاركم خيراً منهم و ليس لكم مخلصٌ من العذاب و لم ينزل في الكتب المنزلة من براءتكم عن الذعاب شيئاً.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ

أم يقولون هؤلاء الكفّار نحن جميع أي نحن جماعة وفينا قوّة ندفع العذاب عنّا، و ينصر بعضنا بعضاً فلا يقدر أحد على إهلاكنا فقال تعالى في جوابهم.

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ

و المعنى أنّ جميعهم سيهزمون و يولُّون الدُّبر، أي يفرّون على أعقابهم يثبتون للقتال.

أقول صدق اللّه فأنّ المشركين إنهزموا يوم بدر على أدبارهم و قتل منهم من قتل و سبي من سبي.

بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ ٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَ أَمَرُّ

السّاعة القيامة هدَّد اللّه الكفّار بأنّ موعدهم، أي موعد العذاب لهم القيامة و هى أدهى و أمرّ، الأدهى الأعظم في الدُّعاء و الأمرّ الأشدّ في المرارة، أو في إستمرار البلاء و المقصود أنّ عذاب اللّه في القيامة أعظم من عذاب الدّنيا و أشدَّ مرارةً كمّاً و كيفاً بل لا يقاس عذاب الأخرة بعذاب الدّنيا كما لا يقاس نعمها، و اللّه أعلم.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أحوال المجرمين و المتّقين يوم القيامة، فقال:

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سُعُرٍ

و المعنى أنّ المجرمين و هم الذّين إرتكبوا معاصي اللّه و تركوا طاعته و ماتوا على كفرهم و طغيانهم في ضلالٍ عن الحقّ لمتابعتهم الشّيطان و النّفس الأمّارة بالسُّوء و سعر، يعني في عذاب النّار تسعرهم، و قيل السُّعر الإحتراق، و قيل معناه الجنون.

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ

السَّحب الجرّ و المعنى يوم يجرّون في النّار على وجوههم يقال لهم ذوقوا مسَّ سقر، أي مسَّ جهنَّم و قيل سقر بابٌ من أبوابها، و قيل دركٌ من دركاتها ثمّ قال تعالى:

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

قال في التّبيان، أي العذاب على مقدار الإستحقاق الذّي تقتضيه الحكمة و كذلك غيره في كلّ خصلة نصب كلٌّ ثلاثة أوجه:

أحدها: على تقدير أنّا خلقناه بقدر.

الثّاني: أنّه جاء على زيداً ضربته.

الثّالث: على البدل الذّي يشتمل عليه كأنّه قال: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** أي مقدّر هو في اللُّوح المحفوظ إنتهى كلامه.

و قال صاحب الكشّاف **كُلَّ شَيْءٍ** منصوب بفعلٍ مضمر يفسّره الظّاهر، و قرئ كلّ شيئ بالرَّفع، و القدر و القدر التّقدير و قرئ بهما أي خلقنا كلّ شيئٍ مقدّراً محكماً مرتّباً، على حسب ما أقتضته الحكمة أو مقّدراً مكتوباً في اللُّوح معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله و زمانه إنتهى كلامه.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما لفظه و الآية في مقام التّعليل لما في الآيتين السّابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنّه قيل لماذا جوزي المجرمون بالضّلال و السّعر يوم القيامة و أذيقوا من سقر، فأجيب بقوله: **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** و محصلّه أنّ لكُّل شيئ قدراً و من القدر في الإنسان أنّ اللّه سبحانه خلقه نوعاً فتكاثر الأفراد بالتّناسل إجتماعيّاً في حياته الدُّنيا يتزوّد من حياته الدّنيا الدّاثرة لحياته الآخرة الباقية و قدّر أن يرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى سعادة الدّنيا و الآخرة فمن إستجاب الدّعوة فاز بالسّعادة و دخل الجنّة و جاور ربّه و من ردّها و أجرم فهو في ضلالٍ و سعر و من الخطأ أن يقال أنّ الجواب عن السّؤال بهذا النُّحو من المصادرة الممنوعة في الإحتجاج فأنّ السّؤال عن مجازاته تعالى إيّاهم بالنّار لإجرامهم في معنى السّؤال عن تقديره ذلك فمعنى السّؤال لم قدّر اللّه للمجرمين المجازاة بالنّار و معنى الجواب أنّ اللّه قدّر للمجرمين المجازاة بالنّار أو معنى السّؤال لم

يدخلهم النّار و معنى الجواب أنّ اللّه يدخلهم النّار و ذلك مصادرة بيّنة، ثمّ أجاب عن لزوم المصادرة بما يطول الكلام بذكره و لذلك أعرضنا عن نقل جوابه و من أراد الوقوف على ما ذكره فعليه بمراجعة تفسيره لهذه الآية[١].

أقول لا نعلم كيف إستفاد من الآية المصادرة و من أين ظهر له أنّ الآية في مقام التّعليل للأيتين السّابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة، و الظّاهر أنّ الآية غير مرتبطة بالأيات السّابقة أصلاً و أنّها بصدد بيان حكم من الأحكام العقليّة التّي عليها المدار في جميع الأبحاث و هو أنّ اللّه تعالى بمقتضى عدله جعل كلّ شيءٍ في موضعه و خلق كلّ شيءٍ على ما إقتضته الحكمة و المصلحة و أيّ ربطٍ بينهما و بين الأيتين السّابقتين و بعبارةٍ أخرى أيّ ربطٍ بين عذاب المجرم يوم القيامة و بين خلقه كلّ شيءٍ بقدر، أيكون العذاب ممّا خلقه اللّه للمجرمين يوم القيامة حتّى يقال أنّه بقدرٍ أو غير قدر، أليس العذاب من أثار العمل و مترتبٌ عليه قلّةً و كثرةً و زيادةً و نقيصةً و كمّاً و كيفاً و إذا كان كذلك فالإنسان يجزى يوم القيامة بما كسبت في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍّ و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد و نحن تكلّمنا في هذا الباب بما لا مزيد عليه غير مرّةٍ.

و محصّل الكلام أنّا لا نفهم من الآية السّؤال و الجواب و المصادرة فلا تحتاج إلى الجواب فأن فهم هذا المعنى غيرنا فلا بحث لنا فيه فانّ العقول مختلفة و الأفهام متفاوتة فلعلّه ﷺ فهم من الآية غير ما نفهم منها قل كلٌّ يعمل على شاكلته و اللّه أعلم.

و حيث إنجرّ الكلام إلى معنى القدر فلابدّ لنا من التّكلم فيه ليتضّح معنى الآية و أمثالها فنقول.

إعلم أنّ القدر و التّقدير يتبيّن كميّة الشّيء يقال قدرته و قدّرته فتقدير اللّه الأشياء على وجهين:

١- الميزان ج ١٩ ص ٨٥ و ٨٦

أحدهما: بإعطاء القدرة غيره.

الثّاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص و وجه مخصوص حسب ما إقتضت الحكمة و ذلك أنّ فعل اللّه ضربان، ضربٌ أوجده بالفعل و معنى إيجاده بالفعل أن أبدعه أي خلقه و أوجده على سبيل الإبداع كاملاً دفعةً لا تعتريه الزّيادة و النقصان إلى أن يشاء أن يفنيه او يبدّله كالسّموات و ما فيها.

و ضربٌ جعل أصوله موجودة بالفعل و أجزاءه بالقوّة و قدَّره على وجه لا يتأتّى منه غير ما قدّره فيه كتقديره في النّواة أن ينبت منها النّخل دون التّفاح و الزّيتون، و تقدير منيّ الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات و على هذا فتقدير اللّه على وجهين:

أحدهما: بالحكم من اللّه أن يكون كذا أو لا يكون كذا إمّا على سبيل الوجوب و أمّا على سبيل الإمكان و على ذلك قوله: **قَدْ جَعَلَ ٱللَّـهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**(١) و ما نحن فيه من هذا القبيل.

الثّاني: بإعطاء القدرة عليه مثل قوله: **فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ**(٢) إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله: **إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** معناه حكمنا لكلّ شيءٍ خلقناه أن يكون كذا و كذا، مثلاً حكمنا بأنّ المنيّ يصير إنساناً و النّواة تصير نخلاً و هكذا و على هذا فأن قلنا بإرتباط الآية المبحوثة عنها بسابقتها، فالمعنى أنّا حكمنا بأنّ الكفر تتّبعه النّار و الإيمان تتّبعه الجنّة بمعنى أنّ الكفر مولّد النّار و الإيمان مولّد الجنَّة لأنّ الجزاء مترتّبٌ على نفس العمل بجعل الجاعل كما أنّ الحرارة من لوازم النّار و البرودة و الرُّطوبة من لوازم الماء فالجعل أعني به الحكم تعلّق بإيجاد الملزوم و اللاّزم تابعٌ لملزومه لا أنّه مجعولٌ بنفسه هذا ما فهمناه من الآية بعون اللّه و توفيقه و العلم عند اللّه و أمّا إعراب الآية فقد نقلناه عن المفسّرين في صدر المبحث.

١- الطّلاق = ٣
٢- المرسلات = ٢٣

وَ مَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ

الأمر من اللّه تعالى على ضربين:

تكوينيّ و تشريعيّ:

و نعني بالأوّل الإيجاد في الخارج و بالثّاني تشريع الحكم، فاللّه تعالى أوجد الخلق بالأمر التّكويني و جعل الأحكام الشرعيّة بالأمر التّشريعي فقال أقيموا الصّلاة و أتوا الزّكوة و هكذا ثمّ أنّ الأوامر التّشريعيّة قد يتخلّف المراد فيها عن الإرادة كما أنّ المأمور بالصّلاة و الزّكوة و غيرهما من الأحكام قد يعصي و لا يعمل بما أمر به و ذلك لأنّ إرادة العبد و إختياره في الفعل واسطة بين إرادة اللّه و مراده و هذا أيضاً بإرادة اللّه لأنّه أراد من العبد الطّاعة بإختياره لا بالجبر و لذلك لم يخلقه مجبوراً في فعله و قوله و لو شاء أن يعبد بالجبر لخلقه مجبوراً على الفعل و هذا هو السّر في تخّلف المراد عن الإرادة في التَّشريعيات.

و أمّا الأمر التّكوينيّ فليس كذلك فإذا أراد اللّه إيجاد الشّئ يوجد قطعاً و إليه الإشارة بقوله:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذا قَضىٰ أَمْرًا فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **إِنَّمآ أَمْرُهُۥٓ إِذآ أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**(٣).

و غيرها من الأيات إذا عرفت فقوله: **وَ مَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** من قبيل الأوّل يعني الأمر التّكويني الإيجادي و اللَّمح خطف البصر و هو كناية أو إشارة إلى سرعة العمل و إلاّ أمره بالشّيْ إيجاده لا أنّه تعالى يأمر بالألفاظ ثمّ يوجد ما أمر به إذ ليس هناك لفظٌ أصلاً و أنّما أمره ارادته.

١- البَقرة = ١١٧ ٢- الأنعام = ٧٣

٣- يٰس = ٨٢

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيٰاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ

ثمّ قال تعالى مخاطباً لكفّار قريش و غيرهم ممّن حذى حذوهم **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيٰاعَكُمْ** يعني أتباع مذهبكم في كفرهم بعبادة الأوثان تتابعوا قرناً بعد قرنٍ في الإهلاك، و الشّيعة أتباع القائد إلى أمرٍ، و قيل المعنى أهلكنا أشياعكم ممّن هو منكم كما أخبر النبيّ، **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** أي من يتذكّر و يتّعظ به.

وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ

يعني كلّ عملٍ عملوا به فأنّه في الزُّبر أي في الكتاب و هو القرأن أو في الكتب الإلٰهيّة إن كانت اللاّم للجنس، محفوظٌ موجودٌ و قيل المراد به اللّوح المحفوظ.

وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ

أي مكتوبٌ قال مجاهد و قتادة لأنّه من أعظم العبرة في علم ما يكون قبل أن يكون على التّفصيل ثمّ أنّ اللّه تعالى لمّا بيَّن أحوال المجرمين أشار إلى أحوال المتّقين يوم القيامة فقال:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ نَهَرٍ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ

و المعنى أنّ المتّقين و هم الّذين كانوا في الدّنيا متّصفين بصفة التّقوى باتيانهم الواجبات و تركهم المحرّمات **فِي جَنّٰاتٍ** أي بساتين تحتها الأنهار **وَ نَهَرٍ** أي الأنهار الجارية فيها من الماء و الخمر و العسل و اللّبن (في مقعد صدقٍ) أي في مجلس حقٍّ لا زوال له و لا دثور **عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** أي بالمكان الّذي أعدّه اللّه لأوليائه و قوله: **عِنْدَ** هاهنا عنديّة القربة و الزّلفة و المكانة و الرُّتبة و الكرامة و المنزلة و غيرها من المقامات فأنّ مقام العنديّة من أعلى المقامات للعبد و لا مقام فوقه فأنّ إلى ربّك المنتهى و إن شئت قلت جميع المقامات موجودٌ فيه و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

■

﴿ سُورَةُ ٱلرَّحْمٰنِ ﴾

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْاٰنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْاِنْسٰانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ ٱلْبَيٰانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ ﴿٥﴾
وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ ﴿٦﴾ وَ ٱلسَّمٰاءَ رَفَعَهٰا
وَ وَضَعَ ٱلْمِيزٰانَ ﴿٧﴾ أَلاّٰ تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزٰانِ ﴿٨﴾
وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تُخْسِرُوا ٱلْمِيزٰانَ
﴿٩﴾ وَ ٱلْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ ﴿١٠﴾ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ
وَ ٱلنَّخْلُ ذٰاتُ ٱلْأَكْمٰامِ ﴿١١﴾ وَ ٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ
وَ ٱلرَّيْحٰانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿١٣﴾
خَلَقَ ٱلْاِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ ﴿١٤﴾ وَ خَلَقَ
ٱلْجٰانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا
تُكَذِّبٰانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ
﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ
﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ
مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجٰانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا
تُكَذِّبٰانِ ﴿٢٣﴾ وَ لَهُ ٱلْجَوٰارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ

كَالْأَعْلامِ ﴿۲۴﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۲۵﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ﴿۲۶﴾ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو
الْجَلالِ وَ الْاِكْرامِ ﴿۲۷﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما
تُكَذِّبانِ ﴿۲۸﴾ يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَ
الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ ﴿۲۹﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۳۰﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ
﴿۳۱﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۳۲﴾ يا مَعْشَرَ
الْجِنِّ وَ الْاِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ
أَقْطارِ السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطانٍ ﴿۳۳﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۳۴﴾
يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا
تَنْتَصِرانِ ﴿۳۵﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۳۶﴾
فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمآءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ
﴿۳۷﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۳۸﴾ فَيَوْمَئِذٍ لا
يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جانٌّ ﴿۳۹﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۴۰﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ
بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصي وَ الْأَقْدامِ ﴿۴۱﴾
فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴿۴۲﴾ هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتي
يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿۴۳﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ
بَيْنَ حَميمٍ انٍ ﴿۴۴﴾ فَبِأَيِّ الْآءِ رَبِّكُما
تُكَذِّبانِ ﴿۴۵﴾

◄ اللّغة

بِحُسْبَانٍ: حسبان بضمّ الحاء مصدر يقال أحسب حساباً و حسباناً و الحساب إستعمال العدد.

يَسْجُدَانِ: السُّجود الخضوع.

ٱلْأَكْمَامِ: جمع «كم» و هو وعاء ثمر النَّخل.

وَٱلْحَبُّ: بفتح الحاء حبُّ الحنطة و الشّعير و نحوهما.

ذُو ٱلْعَصْفِ: التّين و قيل هو ما لا يؤكل من الزّرع.

وَٱلرَّيْحَانُ: ما لا يؤكل و قيل بالعكس.

صَلْصَالٍ: الطّين اليابس الذّي يسمع له صلصلة.

كَٱلْفَخَّارِ: و هو الّذي طبخ و قيل هو طينٌ خلط برملٍ.

ٱلْجَآنَّ: واحد الجنّ و قيل هو إبليس.

مَارِجٍ: المارج اللَّهب.

مَرَجَ: أصل المرج الإهمال.

ٱلْجَوَارِ: بفتح الجيم جمع جارية السَّفينة.

ٱلْمُنْشَآتُ: بكسر الشّين السَّير أضيف الفعل إليها على التَّجوز و الإتّساع.

ٱلْأَعْلَامِ: جمع علم و هو الجبل الطّويل.

سَنَفْرُغُ: فرغ أي قصد و المعنى سنقصد.

ٱلثَّقَلَانِ: الإنس و الجنّ.

تَنْفُذُوا: أي تخرجوا.

شُوَاظٌ: بضمّ الشّين اللَّهب الذّي لا دخان له.

نُحَاسٌ: بضمّ السّين الدُّخان الّذي لا لهب فيه.

وَرْدَةً: قال الفرّاء الوردة الفرس الوردة و قال الزّجاج يتلوّن كما يتلوّن الدّهان المختلفة.

كَالدِّهَانِ: جمع دهن.

حَمِيمٍ ءَانٍ: الحميم الماء الحارّ و (آنٍ) الذّي بلغ نهايته أي نهاية حرّه من أنىٰ يأنى إنياً فهو آن، و منه قوله: **غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَيٰهُ**[١] يعني نضاجه و بلوغه أنايتة.

◀ الأعراب

ٱلرَّحْمَٰنُ أن قلنا أنّها آية فالتّقدير اللّه الرّحمن ليكون كلاماً تامّاً و إن قلنا ليست بآيةٍ فيكون الرّحمٰن مبتدأ و ما بعده الخبر بِحُسْبَانٍ أي يجرمان بحسبانٍ وَ ٱلسَّمَآءَ بالنّصب بفعلٍ محذوف يفسّروه المذكور لِلْأَنَامِ اللاّم متعلّقة بوضعها وَ ٱلْحَبُّ بالنّصب أي خلق الحبّ و بالرّفع عطفاً على النّخل كَالْفَخَّارِ نعتٌ لصلصالٍ و مِنْ نَارٍ نعتٌ لمارج رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ أي هو ربُّ المشرقين و قيل هو مبتدأ و الخبر مَرَجَ و يَلْتَقِيَانِ حال وَبَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ حال من الضّمير في يلتقيان و لَا يَبْغِيَانِ حال أيضاً فِي ٱلْبَحْرِ متعلّق بمنشآت كَالْأَعْلَامِ حال من الضّمير في المنشآت ذُو ٱلْجَلَالِ نعتٌ للوجه شُوَاظٌ بالضّم و الكسر لغتان مِنْ نَارٍ صفة يَطُوفُونَ حال من المجرمين.

◀ التّفسير

ٱلرَّحْمَٰنُ

إختلف المفسّرون فقال بعضهم أنّها آية و قال الأخرون ليست بأيةٍ، فمن قال إنّها أية جعلها مبتدأ و ما بعده الخبر و من قال ليست بأيةٍ قال تقدير الكلام اللّه الرّحمن ليكون الكلام تامّاً، ثمّ أنّ الرّحمن مشتقّ من الرّحمة و هي رقّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم و قد تستعمل في الرّقة المجرّدة تستعمل في الإحسان المجرّد عن الرّقة نحو رحم اللّه فلاناً و إذا وصف به البارئ تعالى فلا

١- الأحزاب = ٥٣

يراد به إلاّ الإحسان المجرّد دون الرّقة و على هذا روي أنّ الرّحمة من اللّه إنعامٌ و إفضال و من الأدميّين رقّةٌ و تعطُّفٌ و على هذا قول النّبي ﷺ: **أنّه تعالىٰ لمّا خلق الرَّحم قال له أنّا الرّحمٰن و أنت الرَّحم شقّقتُ إسمك من إسمي فمن وصلك وصلته و من قطعك قطعته إنتهىٰ.**

و إذا كانت الرَّحمة منطوية على معنيين الرّقة و الإحسان فأعلم أنّ اللّه ركّز في طبائع النّاس الرّقة و تفرّد بالإحسان و لا يطلق الرّحمن إلاّ على اللّه تعالى من حيث أنّ معناه لا يصّح إلاّ له إذ هو الذّي وسع كلّ شيٍ رحمةً و أمّا الرّحيم فهو يستعمل في غيره و هو الّذي كثرت رحمته، و قيل أنّ اللّه تعالى هو رحمن الدّنيا و رحيم الأخرة و ذلك أنّ إحسانه في الدّنيا يعمّ المؤمنين و الكافرين و فى الأخرة يختصُّ بالمؤمنين دون الكافرين.

عَلَّمَ ٱلۡقُرۡاٰنَ

إن قلت لم قدَّم تعليم القرأن على خلق الإنسان مع أنّـه مؤخّر عن خلق الإنسان إذ لو لم يكن الإنسان موجوداً في الخارج فلا معنى لتعليمه القرأن هذا إذا كان المراد بقوله علّم القرأن، علّمه الإنسان و أن كان المراد بتعليم القرأن بغير الإنسان فمن هو.

قلت المراد تعليم الإنسان قطعاً لأنّ اللّه تعالى أنزله ليتعلّم البشر ليرشده و يهديه به بواسطة النبيّ و هذا ممّا لا شكّ فيه و أمّا وجه تقديم التعلّيم على خلق الإنسان فلأنّ الإنسان خلق لتّعلم القرأن فهو العلّة الغائية لخلق الإنسان و العلّة الغائية و أن كانت في وجودها الخارجي مؤخّرة إلاّ أنّها في الوجود العلمي مقدّمة على الوجود الخارجي و لتوضيح ذلك نقول:

قال اللّه تعالى: **وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلإِنْسَ إِلَّا لِـيَعْبُدُونِ**(۱) أي ليعرفون لأنّ

۱– الذّاريات = ۵۶

العبادة بدون المعرفة لا معنى لها، فيصير المعنى ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعرفون أي ليعرفون اللّه ثمّ أنّ معرفة اللّه لا تحصل إلاّ من طريق الأنبياء و أن شئت قلت من الكتاب و السُّنة و على هذا فخلق الإنسان لمعرفة الكتاب و السُّنة و لا نعني بالكتاب إلاّ القرأن و لا نعني بالدّين إلاّ معرفتهما و العمل بهما و لا شكّ أنّ العمل بالكتاب فرعٌ على تعلّمه فتعلُّم القرأن غاية لخلق البشر و الغاية مقدّمةٌ على ذي الغاية واقعاً و مؤخّرة عنه خارجاً فالغاية أشرف من ذي الغاية لأنّ ذي الغاية يوجد ببركة الغاية فإذا كانت الغاية في خلق الإنسان الّذي هو ذو الغاية، هي الدّين و الدّين لا يحصل إلاّ بفهم القرأن و تعلُّمه فتعليم القرآن مقدّم على خلقه في علم اللّه و أن كان مؤخّراً في وجوده الخارجي فقدَّم اللّه الأشرف و الأهمّ و أخَّر الأخسّ و هو مطابق للقاعدة العقليّة و حيث أنّ اللّه تعالى في هذه السُّورة بصدد بيان نعمه الّتي أنعم اللّه بها على خلقه و لا نعمة أشرف من نعمة الدّين الّذي لا يحصل إلاّ ببركة القرأن إفتتح كلامه به مشعراً بأنّ القرآن هو الأصل و ما سواه فرعٌ عليه و محصلّ الكلام فيه إشعار بأنّ القرأن و العلم به الّذي يحصل بالتّعليم و التعلّم من أفضل النِّعم الّتي أنعم بها على عباده فأفهم ذلك أن كنت أهلاً له.

خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ

و فيه إشارة إلى نعمة الخلق و الإيجاد و هذه النِّعمة بعد نعمة الدّين، أفضل النِّعم و لذلك ذكرها اللّه بعد نعمة الدّين.

قال بعضهم المراد بالإنسان في الآية هو أدم و لا مشاحة فيه فأنّ اللّه خالق الكلّ، ثمّ بعد خلق الإنسان الّذي هو الموصوف بالصّفات أشار إلى نعمة النُّطق و البيان لأنّ البيان أفضل صفات الإنسان و أشرفها.

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ

و أنّما قلنا أنّه أشرف الصّفات و أفضلها لأنّ البيان لا يوجد إلاّ بالنُّطق الذّي هو الفصل المميّز للإنسان عن الحيوان و الجماد و النّبات و لذلك يقال في تعريف الإنسان أنّه حيوانٌ ناطق، و لا يقال حيوانٌ عالمٌ أو ضاحكٌ أو غيرها من الصّفات.

ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ

أي يجريان بحسبان فإضمر يجريان و حذفه لدلالة الكلام عليه و المعنى أنّهما يجريان بحساب معلوم و قلنا في شرح اللُّغات أنّ حسبان بضمّ الحاء مصدر يقال حسبت و أحسبت أو حسب حساباً و حسباناً و الأصل في الحساب إستعمال العدد:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰى عٰادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ**[٢].

تكلّمنا في الشّمس و القمر هناك فلا نعيد الكلام ثانياً مخافة الإطالة و ذكرنا أيضاً منازل القمر و أشرنا إلى أسمائها و ما يتعلّق بهما.

وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدٰانِ

السُّجود في الأصل التّطامن و التذلُّل و جعل ذلك عبارة عن التذلُّل للّه و عبادته و هو عامٌّ في الإنسان و الحيوانات و الجمادات و ذلك ضربان، سجودٌ بإختيارٍ و هو مختصٌّ بالإنسان و به يستحقّ الثّواب و سجود بتسخير و هو عامّ للإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ ظِلاٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْآصٰالِ[٣].

١- يٰس = ٣٨
٢- يٰس = ٣٩
٣- الرّعد = ١٥

و النَّجم من النّبات ما طلع يقال نجم ينجم نجماً إذ اطلع و به سمّي نجم السّماء و هو الكوكب لطلوعه، و المراد بالنّجم في الآية النّبت الطّالع من الأرض و هو النّبات الّذي ليس له ساق.

و قال مجاهد هو نجم السّماء و به قال قتادة قيل و الأوّل أقوى لمصاحبة الشَّجر و هو عند أهل اللُّغة النّبات الّذي له ساق و ورق و أغصان، و الأحسن عندي حمل اللّفظ على العموم و المعنى أنّ النّجم و الشَّجر يسجدان للّه أي يخضعان و يتذلّلان بغير إختيارٍ منهما على سبيل التّسخير كما دلَّت عليه الآية صريحاً حيث قال طوعاً و كرهاً، و أنّما يثاب الإنسان و يعاقب على سجوده و عدم سجوده لوجود العقل فيه و هما أعني الثّواب و العقاب يترتّبان على العقل و لذلك لا يعاقب المجنون على ترك السُّجود، و الحقّ أنّ السُّجود يرجع في الحقيقة إلى الشُّكر على النِّعمة في الإنسان.

وَ ٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَ وَضَعَ ٱلْمِيزَانَ

و السّماء منصوب بفعلٍ مقدّر يفسّره المذكور و التّقدير رفع اللّه السّماء هذا على قراءة النّصب فيهما و أمّا من قرأ بالرَّفع فقد عطفها على قوله: **وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** فجعل المعطوف مركّباً من مبتدأ و خبر و عليه فالسّماء مبتدأ و ما بعده الخبر.

و أمّا قوله: **وَ وَضَعَ ٱلْمِيزَانَ** فقال المفسّرون المراد بالميزان العدل أي أنّه تعالى رفع السّماء و وضع العدل في الأرض، و قيل الميزان القرآن لأنّ فيه بيان ما يحتاج إليه البشر و قيل المراد به الميزان المحسوس الّذي يعرفه النّاس الّذي يوزن به كلّ جنسٍ موزون لينتصف به النّاس بعضهم من بعضٍ، و يدلّ عليه قوله تعالى:

وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لاَ تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ

و القسط العدل و قيل أراد وضع الميزان في الآخرة، و أصل ميزان، موزان أبدلت **الواو** ياء إعتباراً بالكسرة.

و أقول حمل اللّفظ على معناه العّام الشّامل لجميع المصاديق أحسن من حمله على معنى واحد لأنّ الميزان إسم لكلّ ما يوزن به الشّئ سواء كان من الأجناس أو الأعمال فأنّ الميزان في كلّ شئٍ بحسبه و قوله: **وَ لَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزانَ** أي و لا تنقصوا الميزان و لا تبخسوا الكيل و الوزن و قيل المعنى لا تخسروا ميزان حسابكم يوم القيامة.

قال قتادة في هذه الآية إعدل يا بني آدم كما تحَب أن يعدل لك و أوف كما تحَب أن يوفى لك فأنّ العدل صلاح النّاس.

وَ ٱلْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ

و الإعراب فيه كالإعراب في قوله: **وَ ٱلسَّمٰآءَ رَفَعَهٰا** و قد مرَّ الكلام فيه، و الأنام النّاس، و قيل الجّن و الإنس و قيل كلّ ما دبَّ على وجه الأرض و هو الأقوى لأنّه عامّ يشمل الكلّ و معنى الآية أنّ اللّه تعالى جعل الأرض لكلّ ما دبَّ عليها من خلقه لينتفعوا بها و بما فيها من أنواع النّعم كما.

فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ ٱلنَّخْلُ ذٰاتُ ٱلْأَكْمٰامِ

و الفاكهة أنواع الثّمار الّتي تؤخذ من الأشجار المختلفة و غيرها و بالجملة كلّ ما يتفكّه به الإنسان من أنواع الثّمار و قوله و النَّخل ذات الأكمام **الواو** للإستئناف و النَّخل مبتدأ و ذات الأكمام خبره، و الأكمام جمع كمّ، بكسر **الكاف** و هو وعاء الطَّلع أي وعاء ثمر النَّخل يقال تكمّم في وعائه إذا إشتمل عليه و قيل الأكمام ليف النَّخلة الّتي تكمَّم فيه.

قال الزّجاج كمَّ القميص من هذا لأنّه يغطّي اليد.

إن قلت ما وجه تخصيص النَّخل بالذّكر من بين الأشجار الموجودة في الأرض أليس قوله: **فِيهٰا فٰاكِهَةٌ** مغنٍ عن ذكره.

قلت لعلّ الوجه في تخصيصه بالذّكر من بين الأشجار المثمرة أنّه أشبه شئٍ بالإنسان في ثمره لإحتياجه إلى التّلقيح كما أنّ الإنسان أيضاً كذلك و على هذا فالنَّخل من أعجب الأشجار في الثِّمار و ليس كغيره من الأشجار فالتأمُّل و التدبُّر فيه يرشد الإنسان إلى أعظم الدّلائل على قدرة اللّه و حكمته و اللّه أعلم.

وَ ٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَ ٱلرَّيْحَانُ

الحَّب بفتح الحاء الحنطة و الشّعير و نحوهما، و **العَصف** بفتح العَين و سكون الصّاد و الفاء.

قال الحسن العصف التّين، و قال مجاهد هو ورق الشَّجر و الزَّرع، و قيل تبن الزَّرع و ورقه الّذي تعصفه الرّياح، و قيل هو أوّل ما ينبت من الزَّرع.

و قال إبن عبّاس العصف ورق الزَّرع الأخضر إذا قطّع رؤوسه و يبس الكلبي العصف الورق الّذي لا يؤكل و الرّيحان هو الحبّ المأكول.

و قال الفّراء بالعكس، و الحَق أنّ الرّيحان كلّ بقلةٍ طيّبة الرّيح لأنّ الإنسان يراح منها رائحة طيَّبة أي يشمّ فهو فعلان، روحان من الرّائحة، و هو أي الرّيحان نبتٌ معروف عند جميع النّاس.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

الخطاب في، ربّكما، للإنس و الجنّ لأنّ الأنام الّذي وضعت الأرض له واقعٌ عليهما وَ **ءَالَآءِ** النِّعم الّتي أنعم اللّه بها على عباده و المعنى فبأيّ نعمةٍ من نعمه الّتي أنعم بها عليكم تكذِّبان، و يقولون أنّه ليس كذلك و بعبارةٍ أخرى تكذّبان اللّه و توضيح ذلك بحسب الإجمال، و هو أنّ اللّه تعالى إفتتح السُّورة بإسم الرّحمٰن من بين أسمائه ليعلم العباد أنّ جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله و من ملكه و قدرته خرج إليهم من الرّحمة العظمى من رحمانيَّته فقال: **اَلرَّحْمٰنُ** ثمّ

أعطاكم أفضل النّعم العقليّة و المعنويّة الّتي خلق الإنسان لأجله و هو نعمة الدّين فقال: عَلَّمَ ٱلْقُرْاٰنَ ثمّ أعطاكم نعمة الوجود فقال: خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ ثمّ أعطاكم نعمة النُّطق و البيان فقال: عَلَّمَهُ ٱلْبَيٰانَ ثمّ خلق لكم الشّمس و القمر فقال: اَلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ بِحُسْبٰانٍ ثمّ خلق لكم السّماء و وضع الميزان، ثمّ خلق الأرض و جعل فيها ماتحتاجون إليه من أنواع الفواكه إلى آخر ما قال، فإذا كان كذلك فبأيّ نعمةٍ ممّا أشرنا إليه تكذّبان،مخاطباً اللّه هذين الثّقلين من الجنّ و الإنس حين رأوا ما أعطاهم اللّه من النّعم و قال ما قال و يحتمل أن يكون هذا الكلام أعني قوله: فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ للتّوبيخ لمن كفر بالنّعم و أشرك باللّه فكأنّه قال أخرج من القدرة و الملك برحمانيّته الّتي رحمهم بها من غيرمنفعةٍ و لا حاجة إلى ذلك فأشركوا به الأوثان و كلّ معبودٍ إتّخذوه من دونه و جحدوا الرّحمة الّتي خرجت هذه الأشياء بها إليهم فقال سائلاً لهم فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ و قيل أنّ اللّه تعالى عدّد في هذه السّورة نعمائه و ذكر خلفه آلائه ثمّ اتبع كلّ نعمةٍ وضعها بهذه الكلمة و جعلها فاصلة بين كلّ نعمتين لينبّههم على النّعم و يقرّرهم بها كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك و هو يكفره و ينكره ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا، ألم تكن خاملاً فعزّزتك أفتنكر هذا ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا و التّكرير حسن في مثل هذا كما قال الشّاعر:

لا تقتلي مسلماً إن كنت مسلمةً	إيّاك من دمه إيّاك إيّاك

و هذا هو الوجه في تكرير قوله: فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ إلى آخر السّورة و اللّه أعلم.

خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ

المراد بالإنسان في هذه الآية هو آدم عليه السّلام و الصّلصال هو الطّين اليابس الّذي يسمع له صلصلة و الفخّار هو الطّين الّذي طبخ بالنّار حتّى صار خزفاً و يقال له بالفارسية (آجر).

وَ خَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ

الجّان واحد الجنّ و المارج اللَّهب، و قيل مارج النّار خالصها.

و قيل المارج الشُّعلة السّاطعة ذات اللَّهب الشّديد.

و قال الجوهري المارج نارٌ لا دخان لها خلق منها الجنّ و الجّان **فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** و أيّ نعمةٍ أعظم من نعمة الإيجاد و الخلق و هذا واضح.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ

قيل المراد مشرق الشّتاء و مشرق الصّيف و هكذا المغرب و قال تعالى في الصّافات (و رَّب المشارق) بصيغة الجمع مضى الكلام في ذلك هنالك.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰانِ، بَيْنَهُمٰا بَرْزَخٌ لاٰ يَبْغِيٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

المرج الإرسال و الإحمال يقال مرج السُّلطان النّاس إذا أهملهم و قيل المرج اللخلط يقال مرج هذا بهذا أي خلط (البحرين) قال إبن عبّاس، يعني بحر السّماء و بحر الأرض، و قيل بحر فارس و الرُّوم، و قيل البحران الملح و العذب، و قيل مرج البحرين خلط طرفيهما عند إلتقائهما من غير أن يختلط جملتهما **بَرْزَخٌ** أي حاجزٌ و مانعٌ **لاٰ يَبْغِيٰانِ** البغي الطُّغيان أي لا يبغي أحد البحرين على الآخر فيغلبه فيغرقانهم و معنى الآية أنّ اللّه تعالى خلط البحرين بقدرته عند إلتقاء طرفيهما و جعل بين البحرين مانعٌ يمنعهما عن الطُّغيان و غلبة أحدهما على الآخر فأنجاكم اللّه بذلك عن الغرق و قيل المراد بالحاجز هو الأرض الّتي جعلها صالحة للسكونة و الزّراعة و غيرهما ممّا يحتاج إليه البشر في إدامة حياته و بقائه.

فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ يعني أليس الأمر كما وصفناه **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ**

مِهاداً(١) و الجبال أوتاداً، ألم نجعل الأرض للأنام، فيها فاكهة و النّخل ذات الأكمام، و النّعمة بتسخير الشّمس أنّها تجرى دائبةً بمنافع الخلق في الدُّنيا و الدّين و هكذا.

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ

أي يخرج من البحرين اللُّؤلؤ و المرجان.

قال إبن عبّاس المرجان عظام اللُّؤلؤ و اللُّؤلؤ صغاره و قيل بالعكس المرجان الحرز الأحمر.

و قال بعض المفسّرين اللُّؤلؤ معروف و يقع على الصّغار و الكبار و المرجان ضربٌ من الجوهر كالغضبان يخرج من البحر و الأقوال كثيرة.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أليس هذا من النّعم التّي أنعم اللّه بها، ثمّ أنّ هذا الّذي ذكرناه و نقلناه عنهم هو تفسير الألفاظ بحسب التّنزيل و أمّا بحسب التأوّيل.

فقد روي سيف إبن عميرة عن إسحاق بن عمّار عن أبي بصير قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ قال عليه السلام: المشرقين رسول اللّه و أميرالمؤمنين صلوات اللّه عليهما و المغربين الحسن و الحسين عليهما السّلام و قوله: فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ قال عليه السلام: محمّد و علّي عليهما السّلام.

و بسناده عن يحيى إبن سعيد العطّار قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول في قول اللّه: مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ قال عليه السلام: عليٌّ و فاطمة بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ قال عليه السلام: الحسن و الحسين إنتهى.

١- النباء = ٦

و في مجمع البيان، و قد روي عن سلمان الفارسي و سعيد بن جبير و سفيان الثّوري أنّ البحرين عليٌّ عليه السلام و فاطمة عليها السلام بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ محمّد صلى الله عليه و آله و سلم يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ يعني الحسن و الحسين إنتهى.

و الأخبار من أهل البيت في هذا الباب كثيرة.

و أمّا العامّة:

فقد روي السيّوطي في الدُّر المنثور في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و أخرج إبن مردويه عن إبن عبّاس في قوله تعالى: مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ قال: عليٌّ و فاطمة بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم: يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ قال: الحسن و الحسين عليهما السّلام إنتهى.

و أخرج إبن مردويه عن أنس بن مالك في قوله تعالى: مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ قال: عليٌّ و فاطمة يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ قال: الحسن و الحسين إنتهى.

و العجب من الألوسي حيث قال في تفسيره لهذه الآية بعد نقل الأقوال الّتي لا فائدة في ذكرها ما هذا لفظه، و من غريب التّفسير ما أخرجه إبن مردويه عن إبن عبّاس في قوله تعالى: **مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** عليّ و فاطمة رضي اللّه عنهما **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ** النّبي صلى الله عليه و آله و سلم **يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَ ٱلْمَرْجَانُ** الحسن و الحسين رضي اللّه عنهما.

و أخرج عن أنس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ و ذكر الطّبرسي من الإماميّة في تفسيره مجمع البيان الأوّل بعينه عن سلمان الفارسي و سعيد بن جبير و سفيان الثّوري و الّذي أراه أنّ هذا إن صحّ ليس من التّفسير في شيءٍ بل هو تأويلٌ كتأوّيل المتصوّفة لكثيرٍ من الأيات و كلٌّ من عليٍ و فاطمة رضي اللّه

عنهما أعظم من البحر المحيط علماً و فضلاً و كذا كلٌّ من الحسنيين رضي اللّه عنهما أبهى و أبهج من اللُّؤلوء و المرجان بمراتب جاوزت حدّ الحسبان إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الألوسي يدلّ على تعصُّبه و جهله، أمّا التَّعصب فلأنّه عبَّر عنه بغريب التّفسير، و لم يقدر على بيان وجه الغرابة كأنّه تخيَّل أنّ نزول آيةٍ أو آيات في شأن أهل البيت عليهم السّلام من الغرائب و العجائب لأنّه لا يساعد مذهبه و مسلكه، و أمّا الجهل، فلقوله أنّه ليس من التّفسير في شئ بل هو تأويل كتأويل المتصوّفة لكثيرٍ من الأيات، و لم يعلم أنّ التأويل ممّا لا إشكال فيه إذا كان بحقٍّ و ذلك لأنّ كثيراً من الآيات يحتاج الى التأويل و الفرق بين التّفسير و التأويل، أنّ التّفسير عبارة عن بيان معاني الألفاظ بحسب اللُّغة، و هذا بخلاف التأويل لأنّه عبارة عن بيان ما هو المراد من اللّفظ و بعبارةٍ أخرى بيان ما أراد المتكلّم من اللّفظ لا ما يدلّ عليه اللّفظ و أنمّا قلنا ذلك لأنّه مشتقّ من الاوّل و هو الرُّجوع فالتأويل إرجاع المعنى الى مراد المتكلّم ألا ترى أنّ المفسّرين إتّفقوا على أنّ كثيراً من الخطابات القرآنيّة ظاهرها الى النّبي و المراد بها الأمّة و لا نعني بالتأويل إلاّ هذا و حيث لم يعلم الفرق بينهما، قال ما قال نعم بعض الأيات لا يحتاج الى التأويل كقوله تعالى: **اقِيمُوا الصَّلاٰة وَ آتُوا الزَّكاٰة، كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ** و أمثالها.

و أمّا ما نحن فيه فهو محتاج اليه ضرورة أنّ اللُّؤلوء و المرجان و غيرهما من النِّعم الدُّنيوية ليسا ممّا يمنّ بهما على النّاس لأنّهما من متاع الدُّنيا الّتي لا بقاء له و حيث أنّ اللّه تعالى خصّهما بالذِّكر على سبيل الإمتنان علمنا أنّ المراد بهما شئ أخر أعلى و أشرف من الدّنيا و ما فيها و هو نعمة الولاية و الإمامة و ليس هذا التّأويل من سنخ تأويلات الصُّوفية كما زعمه الألوسي و اللّه أعلم بما قال:

وَ لَهُ ٱلْجَوارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ، فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الجوار جمع جارية و هى السَّفينة التّي تجري في البحر، كما أنّ الجارية المرأة الشّابة التّي يجري فيها ماء الشّباب، و المنشأت المبتدأت للسَّير برفع القلاع.

قال مجاهد رفع له القلاع فهو منشأ و ما لم يرفع قلاعه فليس بمنشأ فجعل الإنشاء برفع القلاع، و الأعلام الجبال واحدها علم سمّي بذلك لإرتفاعه كإرتفاع الأعلام المعروفة، و قيل كالأعلام في العظم و معنى الآية **وَ لَهُ** أي للّه تعالى: **ٱلْجَوارِ ٱلْمُنْشَآتُ** أي السُّفن التّي رفع قلعها إذ لو لم يرفع قلعها فليست بمنشأت **فِى ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ** أي كالجبال في إرتفاعها في البَرّ شبَّه اللّه تعالى المنشأت في السُّفن بالأعلام أي الجبال في الأرض و وجه الشّبه فيهما إرتفاعهما و لازم ذلك أن تكون السَّفينة كالأرض و أن شئت قلت شبَّه اللّه السَّفينة بالأرض، و شبَّه المنشأت فيها بالأعلام و الجبال الرّاسيات فيها هذا التّشبيه سرٌّ لطيف و هو أنّ الأرض متحركة كالسَّفينة فكما أنّ للسَّفينة منشأت كذلك للأرض منشأت و هى الجبال و اللّه أعلم ثمّ قال: **فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ** و أنتم تعلمون قدرته و تنظرون إلى ما خلق اللّه لكم.

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ، وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَ ٱلْإِكْرامِ، فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

قيل في تفسير الآية أنّ فيها إخبارٌ من اللّه تعالى على أنّ جميع من على وجه الأرض من العقلاء يفنون و يخرجون من الوجود إلى العدم و إذا ثبت ذلك و كانت الجواهر لا تفنى إلاّ بفناء يضادّها على الوجود فإذا وجد الفناء إنتفت الجواهر كلّها فالآية دالّة على عدم جميع الأجسام على ما قلناه لأنّه إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت عدم غيرهم لأنّه لم يفرّق أحدٌ من الأمّة بين الموضعين، إنتهى ما قاله الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الأية، الضّمير في **عَلَيْهَا** للأرض و قد جرى ذكرها في أوّل السُّورة في قوله تعالى: **وَ ٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ** يقال هو أكرم من عليها، يعنون الأرض و أن لم يجر لها ذكرٌ و لمّا نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت كلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه فأيقنت الملائكة بالهلاك قاله إبن عبّاس و مقاتل و وجه النّعمة في فناء الخلق التّسوية بينهم في الموت و مع الموت تستوي الأقدام و قيل وجه النّعمة أنّ الموت سبب النّقل إلى دار الجزاء و الثّواب إنتهى كلامه.

أقول أمّا ما ذكره القرطبي فهو من قبيل تفسير اللّفظ بلفظٍ أخر و أنّ مرجع الضّمير في **عَلَيْهَا** هو الأرض و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في التّعبير بالفناء و إختصاصه بذوي العقول بدليل قوله: **مَنْ** دون (ما) أي قال كلّ من عليها، و لم يقل ما عليها، ليشمل جميع الموجودات إذ قد ثبت أنّ كلمة (من) تستعمل لذوي العقول، و كلمة، ما، تستعمل لهم و لغيرهم من الموجودات و لعلّ الشّيخ‌قدس‌سره لأجل هذا خصّ الفناء بذوي العقول أوّلاً و بسائر الموجودات ثانياً على أساس الأوّلوية و قال إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت عدم غيرهم لعدم الفرق بين المؤمنين، فأنّه‌قدس‌سره و أن لم يصرّح بالأولويّة إلاّ أنّ كلامه يرجع إليها و أن شئت قلت بتساويهما في الحكم و الحاصل أنّه حكم بفناء الموجودات بتبع فناء ذوي العقول و إستدلّ على ذلك بأنّ الأمّة لم تفرق بين الموضعين.

و نحن نقول لا نحتاج في إستفادة العموم من الآية إلى هذه التكلّفات و أنّ الأمّة لم تفرق بين الموضعين و ذلك لأنّ كلمة (من) قد تطلق على جميع الموجودات من باب التّغليب أي تغليب ذوي العقول على غيرهم و ما نحن فيه من هذا القبيل فلا نحتاج في إثبات العموم إلى الأمّة و أنّهم لم يفرقوا بين الموضعين هذا مضافاً إلى أنّ الحكم عقليّ أي أنّ العقل يحكم بأنّ كلّ من عليها فانٍ، و الحكم العقّلي لا يثبت بالنّقل، و أنّما قلنا أنّ الحكم عقليٌّ، لأنّ

قوله: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** يشمل جميع الموجودات من باب التّغليب كما إخترناه أو من باب التّساوي كما إختاره‌قدّس سرّه و على التّقديرين فالمراد به جميع الخلق، و قد ثبت عقلاً أنّ المخلوق كائناً ما كان فهو حادث و كلّ حادثٍ مسبوق بالعدم و كلّ مسبوقٍ به ملحوقٌ به أيضاً و إلاّ يلزم أن يكون أبديّاً، غير معقولٍ إذ كيف يعقل أن يكون الموجود الحادث أبديّاً و المفروض أنّ الأزل و الأبد متقابلان فلا يوجد أحدهما بدون الأخر و إذا كان كذلك فلا يكون الخلق أبديّاً لعدم كونه أزليّاً، و لا نعني بجواز الفناء عليه إلاّ هذا فوجود الخلق و فناءه بيد خالقه لأنّ وجوده منه و ما كان وجوده من غيره ففناءه أيضاً منه بل نقول أنّه في حدّ ذاته فأن كما هو شأن الممكن كما قيل الممكن من شأنه أن يكون ليساً و من علّته أن يكون أيساً أي موجوداً و لا يبعد أن يكون قوله: **فَانٍ** إشارة إلى مقام ذات المخلوق أي أنّه، فان، في حدّ ذاته و أن كان موجوداً بوجود خالقه و مشّيئته و لهذا قال تعالى: **فَانٍ** و لم يقل (يفنى) مثلاً ولو كان الأمر كما فهمه المفسّرون و ذكروه في تفاسيرهم من أنّ المعنى كلّ من على الأرض يموت، أي في المستقبل لقال، يفنى أو يموت مثلاً ألا ترى أنّ المتكلّم إذا قال أنا ضاربٌ زيداً أو هو ضاربٌ أو هو أكل أو شاربٌ أو نائمٌ يدلّ على التلبّس بالفعل على ما هو المستفاد من صيغة الفاعل، فقوله تعالى: **فَانٍ** بصيغة الفاعل يدّل علي تلبُّس الخلق بالفناء فعلاً لا أنّه سيموت و سيفنى، فثبت و تحقّق أنّ قوله: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** معناه أنّه فان في حدّ ذاته فعلاًحكمٌ عقليّ يشمل جميع المخلوق و لا يحتاج إلى تكلُّفٍ زائد هذا ما خطر ببالي بل هو ممّا ألهمني اللّه تعالى و لم يتفطّن إلى هذه الدّقيقة أحدٌ من المفسّرين فيما نعلم و أن كان عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود.

و أمّا قوله تعالى: **وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلاٰلِ وَ ٱلْإِكْرٰامِ** فهو معركة الأراء بين المفسّرين، فمنهم من قال، معناه و يبقى ربّك الظّاهر بأدلّته كظهور الإنسان بوجهه يذكر على وجهين:

أحدهما: بعض الشّئ كوجه الإنسان.

الثّاني: بمعنى الشّئ المعظم في الذِّكر كقولهم هذا وجه الرّأي و هذا وجه التدبّير، أي هو التّدبير و هو الرّأي، و الإكرام و الإعظام بالإحسان فاللّه تعالىٰ يستحقّ الإعظام بالإحسان الّذي هو في أعلى مراتب الإحسان و معنى ذو الجلال ذو العظمة بالإحسان، قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف **وَجْهُ رَبِّكَ** ذاته و الوجه يعبّر به عن الجملة و الذّات إنتهى.

و قال القرطبي في قوله: **وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** أي و يبقى اللّه فالوجه عبارة عن وجوده و ذاته و هذا الّذي إرتضاه المحقّقون من علمائنا.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال الوجه عبارة عنه و قال أبو المعالي و أمّا الوجه فالمراد به عند معظم أئمّتنا وجود الباريْ تعالى و هو الّذي إرتضاه شيخناالدّليل على ذلك قوله: **وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** إذا عرفت هذا فنقول:

لا شكّ أنّ الوجه في الأصل الجارحة:

قال اللّه تعالى: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذاٰ قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرافِقِ**[1].

قال اللّه تعالى: **قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضٰاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**[2].

فالمراد بالوجه في هاتين الأيتين الجارحة المخصوصة و هى الّتي يقال لها بالفارسيّة (صورت) و نظائره في الأيات و الأخبار و الأثار كثيرة بل يراد بالوجه هذا المعنى عند الإطلاق عرفاً و لغةً.

و أمّا في المقام و هو قوله: **وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** فلا يمكن إرادة هذا المعنى

١- المائدة = ٦ ٢- البَقَرة = ١٤٤

منه لأنّ اللّه تعالى منّزهٌ عن الأعضاء و الجوارح التّي هـي مـن لوازم الأجسـام فلابدّ لنا من إرجاعه إلى ما يـجوز فـي اللّـه تـعالى و لذلك صـارت الآيـة مـن المعضلات لأنّ الوجه في الآية أضيف إلى الرَّب فقال: **وَجْهُ رَبِّكَ**، و قد أشرنا إلى بعض الأقوال الواردة فيه و إكتفينا بذلك حذراً عن الإطالة فأنّ الأقوال كثيرة جدّاً فنقول:

الوجه في القرآن على أربعة أوجه:

الأوّل: بمعنى الدِّين، و إليه الإشارة بقوله:

قال اللّه تعالى: **بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**(١) أي من أخلص دينه للّه.

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ**(٢) و المعنى ممّن أسلم دينه للّه.

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللّٰهِ**(٣) أي و من يسلم دينه إلى اللّه، و الإسلام في هذه الأيات الإخلاص و هو ظاهر.

الثّاني: أنّه جاء بمعنى، اللّه، أي ذاته تعالى و منه.

قال اللّه تعالى: **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللّٰهِ**(۴) يعني فثمّ اللّه.

قال اللّه تعالى: **لَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ ٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**(۵) أي يريدون اللّه.

قال اللّه تعالى: **كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلّٰا وَجْهَهُ**(۶) أي إلاّ هو.

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللّٰهِ**(٧) أي تريدون اللّه.

١- البقرة = ١١٢
٢- النّساء = ١٢۵
٣- لقمان = ٢٢
۴- البقرة = ١١۵
۵- الأنعام = ۵٢
۶- القصص = ٨٨
٧- الرّوم = ٣٩

قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللّٰهِ**(١) يعني نُطعِمكم لِلّه تعالىٰ.

الثّالث: بمعنى أوّل الشّئ و منه:

قال اللّه تعالى: **وَ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ اٰمِنُوا بِ الَّذِىٓ أُنْزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ**(٢) يعني أوّل النّهار.

الرّابع: بمعنى الجارحة، و منه:

قال اللّه تعالى: **قَدْ نَرٰى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ**(٣).

يعني الوجه المعروف و قد مضى الكلام فيه إذا عرفت هذا فاعلم أنّ الوجه الثّالث و الرّابع فلا يمكن حمل الوجه في الآية عليهما.

أمّا الوجه الرّابع فظاهرٌ لأنّ اللّه تعالى ليس بجسم فلا جارحة له.

و أمّا ثالث الوجوه فلأنّ الأوّل إن أريد به أنّه لا ثاني له أو أنّه خالق الموجودات و موجدها فلا إشكال فيه كما وصف اللّه به نفسه في قوله: **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَ ٱلْاٰخِرُ وَ ٱلظَّاهِرُ وَ ٱلْبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**(٤) وإن أُريد به غير هذا المعنى فلا يمكن حمل الوجه عليه.

و أمّا القسم الأوّل و الثّاني، فحمل الوجه على كلّ واحدٍ منهما لا إشكال فيه قطعاً و على هذا فقوله: **وَ يَبْقٰى وَجْهُ رَبِّكَ** أي يبقى دينه، أو يبقى ذاته أو تبقى أوّليته بالمعنى الّذي ذكرناه، و الكلّ محتمل لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً و خير الأمور أوسطها و اللّه أعلم هذا ما فهمناه من الآية: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**(٥).

و إن أريد به الدِّين فهو أيضاً معقول و يؤيّده النَّقل أيضاً لما ورد في أخبار أهل البيت عليهم السّلام أنّهم وجه اللّه لأنّهم حملة دينه و ممّا يدلّ على أنّ المراد بالوجه في الآية الدِّين.

١- الإنسان = ٩
٢- آل عمران = ٧٢
٣- البقرة = ١٤٤
٤- الحديد = ٣
٥- الاسراء = ٨٥

ما رواه في كتاب الاحتجاج عن أميرالمؤمنين عليه السلام في حديثٍ طويل و فيه، و أمّا قوله كلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه، فالمراد كلّ شيءٍ هالك إلاّ دينه لأنّ من المحال أن يهلك اللّه كلّ شيءٍ و يبقى الوجه هو أجلّ و أعظم من ذلك و أنّما يهلك من ليس منه ألاً ترى أنّه قال كلّ من عليها فان و يبقى وجه ربّك ففصل بين خلقه و وجهه إنتهى.

و ممّا يدلّ على أنّ المراد بالوجه، أنبياء اللّه و رسله و حججه فى درجاتهم.

ماروواه في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرّضا عليه السلام في التّوحيد، حديث طويل، و فيه، فقلت يابن رسول اللّه فما معنى الخبر الّذي رووه أنّ ثواب لا إله إلاّ اللّه النّظر الى وجه اللّه فقال عليه السلام: يا أباالصّلت من وصف اللّه عزّ وجلّ بوجهٍ كالوجوه فقد كفر ولكن وجه اللّه أنبيائه و حججه صلوات اللّه عليهم الّذين بهم يتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ و إلى دينه و معرفته و قال اللّه، عزّ وجلّ، كلّ من عليها فانٍ و يبقى وجه ربّك، و قال عزّ وجلّ كلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه فالنّظر إلى أنبياء اللّه تعالى و رسله و حججه في درجاتهم ثوابٌ عظيم للمؤمنين يوم القيامة و قد قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من أبغض أهل بيتي و عترتي لم يرني و لم أره يوم القيامة إنتهى.

و أيضاً عن علّي بن الحسين عليه السلام نحن الوجه الذّي يؤتى اللّه منه إنتهى.

و الأخبار بهذه المضامين كثيرة و أمّا قوله: **ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَ ٱلْإِكْرَامِ** فمعناه واضح لأنّه تعالى ذو العظمة بالإحسان فكلّ إحسانٍ من أيّ شخصٍ صدر فهو منه لأنّه يرجع إليه كما أنّ المحامد ترجع إليه **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** و تقولون أنّها ليست منه.

يَسْئَلُهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَبِأَيِّ اٰلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبٰانِ

أمّا أنّه تعالى يسأله من في السّموات و الأرض فلأن المخلوق لا ملجأ و لا معاذ له في جميع حوائجه إلاّ خالقه الذّي خلقه و أوجده ثمّ أنّ السُّؤال قد يكون بلسان التّشريع كما في الإنسان و قد يكون بلسان التكوين كما في سائر الموجودات من الحيوان و النَّبات و الجماد و قد ثبت أنّ المعلول رشحٌ من رشحات العلّة و فيضٌ من فيوضاته و هو كما يحتاج في وجوده إلى العلّة كذلك يحتاج في بقاءه إليها لأنّ الخالق هو القيُّوم الذّي هو قائمٌ بذاته سواه قائمٌ به و الحاصل أنّه تعالى هو الغنيّ المطلق و ما سواه محتاج إليه لفقره ذاتاً وصفةً و فى قوله تعالى: **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** إشارة إلى أنه تعالى لا يشغله شأنٌ من شأنٍ لأنّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فهو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون لأنّه تعالى يحيي و يميت و من كان كذلك فهو الفاعل لما يشاء و بما يشاء و هو على كلّ شئٍ قدير و بالإجابة جدير **فَبِأَيِّ اٰلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبٰانِ**.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلاٰنِ، فَبِأَيِّ اٰلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبٰانِ

المخاطب في هذه الآية الجنّ و الإنس و أنّما سمّيا ثقلين لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما فهما أثقل وزناً لعظم الشّأن بالعقل و التّمكين و التّكليف لأداء الواجب في الحقوق و منه قول النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم: **إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي الحديث.**

يعني عظيمي المقدار فلذلك وصفهما بأنهما ثقلان، قاله الشّيخ في التّبيان و معنى الآية سنقصد لمجازاتكم أو لمحاسبتكم، و هذا وعيدٌ و تهديدٌ لهم و على هذا، ففرغ بمعنى قصد ففي الآية هدّد الثّقلين بالحساب و المجازاة يوم القيامة.

قال في المفردات الفراغ خلاف الشُّغل و من المعلوم أنّ اللّه تعالى ليس له شغلٌ يفرغ منه و لذلك فسّر اللّفظ بالقصد أي سنقصد و هذا ممّا لا إشكال فيه ففي الكلام إشارة إلى أنّ الحساب و المجازاة من النِّعم لأنّه يصل كلّ ذي حقٍّ إلى حقّه و مع ذلك فيها تهديدٌ للخاطئ المذنب.

و من المعلوم أنّه لا وجه لتكذيب الحساب الّذي هو نعمة للمحسن و نقمةٌ للمذنب و لذلك قال: **فَبِأَيِّ آلٰاءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ**.

يٰا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنِ اِسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطٰارِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ، فَبِأَيِّ آلٰاءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

هذا خطابٌ ثان و تهديدٌ كذلك للجنّ و الإنس و المعنى يامعشر الجنّ و الإنس إن إستطعتم أن تهربوا و تخرجوا من قضائي و أرضي و سمائي فأعلوا، ثمّ قال تعالى: **لاٰ تَنْفُذُونَ إِلاّٰ بِسُلْطٰانٍ** أي لا تقدرون على النُّفوذ من نواحيها إلاّ بسلطانٍ، أي بقوّةٍ و قهرٍ و غلبةٍ و أنّى لكم ففي الآية إشارة إلى عجز المخلوق و قدرة الخالق، و أنّه لا يمكن لأحدٍ الفرار من حكومته و لا على تغيير قضائه و قدره و إذا كان كذلك فالتمرُّد و الطُّغيان و العصيان لأوامر اللّه و نواهيه لا معنى له عقلاً و حيث أنّ أمر العباد يدور بين الطّاعة و العصيان و الثّواب و العقاب فالعقل السّليم يحكم بأنّ الطّاعة أولى من المعصية قال أميرالمؤمنين، «و لا يمكن الفرار من حكومته» و قيل أنّ فائدة الآية أنّ عجز الثّقلين عن الهرب عن الجزاء لعجزهم عن النّفوذ من الأقطار، **فَبِأَيِّ آلٰاءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** بقدرته تعالى، أو بعجزكم و ضعفكم.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمٰا شُوٰاظٌ مِنْ نٰارٍ وَ نُحٰاسٌ فَلاٰ تَنْتَصِرٰانِ، فَبِأَيِّ آلٰاءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

الشّواط لهب النّار كما قال الشّاعر:

أنّ لهم من وقعنا إيقاظاً	و نار حربٍ تسعر الشّواظا

والنُّحاس بضمّ النُّون الصُّفر المذاب للعذاب و قيل هو الدُّخان و قال الفرّاء هو دهن الزَّيت و قيل هو دهن السّنام و القول الأوّل أشهر و أقوى و المعنى يرسل من جانب اللّه عليكما لهب النّار و الصُّفر المذاب للعذاب **فَلَا تَنْتَصِرٰانِ** أي لا تقدران على دفع العذاب عنكما و ليس لكما ناصرٌ و لا معينٌ يقدر على ذلك و إذا كان مألكما و مرجعكما إلى القيامة **فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** في دار التكليف.

فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمٰآءُ فَكٰانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهٰانِ، فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

الإنشقاق فكّ بعض الشّيء عن بعضٍ، و الوردة، قال الفرّاء، الوردة الفرس الوردة.

و قال الزّجاج يتلّون كمايتلّون الدّهان المختلفة فكان كلون فرسٍ ورد، و الوردة واحد الورد و المعنى تصير السّماء بعد الإنشقاق كالوردة في الإحمرار ثمّ تجري كالدُّهان و هو جمع دهن.

قال قتادة لون السّماء حينئذٍ الحمرة كالدُّهان في صفاء الدُّهن و إشراقه.

قال الرّاغب فى المفردات قيل في صفة السّماء إذا إحمرّت إحمراراً كالورد إمارة للقيامة، و قال قومٌ أنّ السّماء تذوب يوم القيامة من حرّ نار جهنّم فتصير حمراء ذائبة كالدُّهن، قالوا وجه النّعمة في إنشقاق السّماء حتّى وقع التّقرير بها في قوله: **فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** هو ما في الأخبار من الزّجر والتّخويف بإنشقاق السّماء فوقع في السَّبب و لا يصلح في السَّبب أن يكون منفعة و لكن لسبب النَّفع الّذي هو الزَّجر في دار الدّنيا فلذلك وقع التّقرير بقوله: **فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** هكذا فسّروا الآية و اللّه أعلم.

فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لاٰ جَاۤنٌّ، فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

و المعنى أنّ يوم القيامة لا يسأل عن ذنب المذنب و فى معنى الكلام ذكروا وجوهاً:

أحدها: أنّ عدم السُّؤال في ذلك اليوم لما يلحقه من الدّهش و الذُّهول الّذي تحار له العقول و أن وقعت المسألة في وقت غيره بدلالة قوله: **وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**[1].

الثّانى: ما قاله قتادة و هو أنّ المسألة وقعت قبله ثمّ يختم الأفواه عند الجحد فتنطق الجوارح.

الثّالث: أنّ معناه أنّ يومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنسٌ و لا جانّ ليعرف المذنب من المؤمن المخلص لأنّ اللّه تعالى قد جعل عليهم علامة كسواد الوجوه و قبح الخلق و لم يدخل في ذلك سؤال المحاسبة للتّوبيخ و التّقريع و تقدير الآية فيومئذٍ لا يسأل إنسٌ عن ذنبه و لا جانٌّ عن ذنبه.

الرّابع: أنّ المراد أنّه لا يسأل أحد من إنسٍ و لا جانّ عن ذنب غيره.

الخامس: أنّهم لا يسألون إذا إستقرّوا في النّار و الإحتمالات حول الآية كثيرة.

أقول معنى الآية يظهر من الآية اللاّحقة و هى قوله:

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمٰـهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوٰاصِي وَ ٱلْأَقْدٰامِ، فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

و المراد بالمعرفة معرفة الملائكة و المؤمنين لا معرفة اللّه لأنّه تعالى أعلم بحال العبد منه نفسه فلا يحتاج إلى السُّؤال و حيث أنّه سؤال الملائكة لأجل معرفة عمل المجرم و المفروض أنّ أثار الجرم تعرف من سيماهم فلا يحتاج

۱– الصّافات = ۲۴

النّاظر إلى وجوههم إلى السُّؤال عنهم لأنّه من تحصيل الحاصل إذ المقصود حصل من الرُّؤية و على هذا فالإتيان مرتبطتان إحدايهما بالأخرى و ذلك لأنّ اللّه تعالى لمّا أخبر بعدم السُّؤال عنهم يوم القيامة في الآية السّابقة كأنّه سأل سائل و قال لم لا يسأل عنهم و قد حكم اللّه بالسُّؤال في غيرها من الأيات، فقيل في الجواب لأنّ المقصود و هو المعرفة بحالهم قد حصل من النّظر إلى سيماهم فلا يحتاج إلى السُّؤال و لذلك أتى بالفاء التّي تفيد التّفريع فقال **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ ٱلْأَقْدَامِ** أي إذا كان المجرم يعرف بسيماه فيؤخذ، أي المجرم، بالنّواصي و الأقدام، فالنّواصي جمع ناصية و الأقدام جمع قدم و هو الرّجل و المعنى، يجمع بين ناصيته و قدمه بالغلّ فيسحب إلى النّار، و قيل يأخذهم الزّبانية بنواصيهم و أقدامهم فتسحبهم إلى النّار أي تأخذهم تارةً، بذا و تارةً بذا، و قيل يعرفُن بأنّهم مسوّد الوجوه زرق العيون كما قال تعالى: **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ**[1] ثمّ قال: **فَبِأَيِّ ٱلْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبٰانِ** إذا كانت نتيجة التّكذيب العذاب يوم القيامة فقد ظهر وجه عدم السُّؤال عن الأية.

هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَ حَمِيمٍ اٰنٍ، فَبِأَيِّ ٱلْآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

هذه جهنّم التّي يكذّب بها المجرمون، في دار الدُّنيا (يطوفون بينها) أي بين أطباقها في النّار و الحميم الماء الحارّ، و الآن، الّذي بلغ نهايته أي بلغ نهاية حرّه.

■

١- أل عمران = ١٠٦

وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ ﴿۴۶﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ
رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۴۷﴾ ذَوٰاتٰآ أَفْنٰانٍ ﴿۴۸﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ
رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۴۹﴾ فِيهِمٰا عَيْنٰانِ تَجْرِيٰانِ ﴿۵۰﴾
فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۵۱﴾ فِيهِمٰا مِنْ كُلِّ
فٰاكِهَةٍ زَوْجٰانِ ﴿۵۲﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ
﴿۵۳﴾ مُتَّكِـئِينَ عَلٰى فُرُشٍ بَطٰآئِنُهٰا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ
جَنَى ٱلْـجَنَّتَيْنِ دٰانٍ ﴿۵۴﴾ فَـبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُـمٰا
تُكَذِّبٰانِ ﴿۵۵﴾ فِـيهِنَّ قٰـاصِرٰاتُ ٱلطَّـرْفِ لَـمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جٰانٌّ ﴿۵۶﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ
رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۵۷﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيٰاقُوتُ وَ ٱلْمَرْجٰانُ
﴿۵۸﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۵۹﴾ هَلْ جَزٰآءُ
ٱلْاِحْسٰانِ إِلَّا ٱلْاِحْسٰانُ ﴿۶۰﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا
تُكَذِّبٰانِ ﴿۶۱﴾ وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ ﴿۶۲﴾ فَبِأَيِّ
اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۶۳﴾ مُدْهٰآمَّتٰانِ ﴿۶۴﴾ فَبِأَيِّ
اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۶۵﴾ فِيهِمٰا عَيْنٰانِ نَضّٰاخَتٰانِ
﴿۶۶﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۶۷﴾ فِيهِمٰا فٰاكِهَةٌ
وَ نَخْلٌ وَ رُمّٰانٌ ﴿۶۸﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ
﴿۶۹﴾ فِيهِنَّ خَيْرٰاتٌ حِسٰانٌ ﴿۷۰﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا
تُكَذِّبٰانِ ﴿۷۱﴾ حُورٌ مَقْصُورٰاتٌ فِى ٱلْخِيٰامِ ﴿۷۲﴾
فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ ﴿۷۳﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ
قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جٰانٌّ ﴿۷۴﴾ فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ
﴿۷۵﴾ مُتَّكِئِينَ عَلٰى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَـبْقَرِيٍّ

حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

◀ اللُّغة

أَفْنَانٍ: جمع فن، و هو الغصن.

فُرُشٍ: بضّم الفاء و الرّاء جمع فراش الموطئ الممّهد للنّوم عليه.

بَطَآئِنُهَا: جمع بطانة و هى باطن الظّهار فالبطانة من أسفله و الظّاهرة من أعلاه.

إِسْتَبْرَقٍ: الإستبرق الغليظ من الدِّيباج.

جَنَى: الجنى الثّمرة التّي قد أدركت في الشَّجرة.

دانٍ: أي قريب.

قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ: القاصر المانع من ذهاب الشّيئ إلى جهةٍ من الجهات و الطَّرف جفن العين.

(يطمثهنّ) الطَّمث المسَّ.

مُدْهَآمَّتَانِ: معناه خضراوتان.

نَضَّاخَتَانِ: أي فوّارتان بالماء و النَّضخ بالخاء أكثر من النَّضح بالحاء.

رَفْرَفٍ: الرَّفرف فصول المجالس للفرش و قيل هو المرافق.

عَبْقَرِيٍّ: الزّرابي، أو الدِّيباج.

◀ الإعراب

ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ الألف قبل التّاء بدل من ياء و قيل من، واو و هو صفة لجنّتان أو خبر مبتدأ محذوف مُتَّكِئِينَ حال من خاف و العامل فيه الظَّرف لَم يَطْمِثْهُنَّ وصفٌ لقاصرات لأنّ الإضافة غير محضة و كذلك كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ و

ٱلْإِحْسٰانِ خبر جزاء **حُورٌ** بدل من خيرات و قيل الخبر محذوف **مُتَّكِئِينَ** حال و صاحب الحال محذوف و دلَّ عليه الضّمير في قبلهم و **رَفْرَفٍ** في معنى الجمع و لذلك وصف، بخضر **ذِى ٱلْجَلاٰلِ** نعتٌ لربّك و هو أقوى من الرَّفع لأنّ الإسم لا يوصف و اللّه أعلم.

◀ التّفسير

وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

المقام بفتح الميم الموضع الّذي يصلح للقيام فيه و بضّم الميم الموضع الّذي يصلح للإقامة فيه، لمّا ذكر اللّه في الأيات السّابقة أوصاف المجرمين و أحوالهم يوم القيامة بيَّن في هذه الآية و ما بعدها أحوال المتّقين الخائفين من العذاب فقال: **وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ** أي خاف من ذنبه فلم يذنب و عمل صالحاً **جَنَّتٰانِ** قيل هما جنَّة عدنٍ و جنّة النَّعيم، و قيل إحدايهما داخل قصره و الأخرى خارج قصره ثمّ وصف الجنَّتين.

ذَوٰاتٰآ أَفْنٰانٍ

و **الأفنان** جمع فنّ و هو الغصن، الورق و معنى، ذواتا أفنان، ذواتا ألوان، و قيل ظلّ الأغصان على الحيطان، **فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** و قد بيَّناه.

فِيهِمٰا عَيْنٰانِ تَجْرِيٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

أي في الجنَّتين اللَّتين أعطاهما اللّه لمن خاف مقام ربّه، عينان، من الماء تجريان بين أشجارها **فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ**.

فِيهِمٰا مِنْ كُلِّ فٰاكِهَةٍ زَوْجٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

و المعنى أنّ في تلك الجنَّتين من كلّ ثمرةٍ نوعين متشاكلين كتشاكل الذّكر و الأنثى فلذلك سمّاها زوجين، و أنّما قال ذلك لأنّ كلّ ثمرة من الأثمار لها رطبٌ

و يابس كالعنب و الزَّبيب و التّين الرّطب و اليابس و هكذا و قيل المراد بقوله: **زَوْجَانِ** في الآية ضربان من كلّ نوعٍ من الفواكه، ضربٌ معروف، و ضربٌ من شكله غريب و كلّ ذلك للأطراف و الإمتاع.

قال إبن عبّاس ما في الدُّنيا شجرة حلوة و لا مرّة إلاّ و هى في الجنّة حتّى الحنظل إلاّ أنّه حلوٌ، و قيل أراد تفصيل هاتين الجنّتين على الجنّتين اللّتين دونهما.

مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ، فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

الإتّكاء الإستناد للتّكرمة و منه المتكئ الّذي يطرح للإنسان في مجالس الأشراف و الملوك للإكرام و الإجلال و الإتّكاء شدّة التَّقوية للإكرام و الإمتاع و **فُرُشٍ** بضّمتين جمع فراش و هو الموطّئ الممهّد للنّوم عليه، و البطائن جمع بطانة و هى باطن الظّهار فالبطانة من أسفله و الظّاهرة من أعلاه قاله في التّبيان.

و **الإستَبرق** ما غلظ من الدّيباج و خشن، أي إذا كانت البطانة الّتي على الأرض هكذا فما ظنّك بالظّهارة.

و قال إبن عبّاس أنّما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم فأمّا الظّواهر فلا يعلمها إلاّ اللّه، و قوله تعالى: **وَ جَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ** فالجني ما يجتنى من الشَّجرة و قوله: **دَانٍ** معناه قريب من دنى يدنو إذا قرب و المعنى ما يجتنى من الشَّجرة قريبٌ لأهل الجنَّة، فمعنى الآية أنّ هؤلاء الأبرار مستندين في الجنّة على فرشٍ من الدّيباج الّذي بطائنه من إستبرقٍ مع قرب الأثمار إليهم.

و ما ذكره اللّه في هذه الآية و ما قبلها و ما بعدها من النِّعم المعدّة في الجنَّة للأبرار، إكراماً و إجلالاً لهم و لا فناء لها و لا زوال، جديرٌ بأن يطيع الإنسان ربّه و لا يعصيه في دار الدّنيا فأنّ العاقل لا يأخذ بما هو في معرض الفناء و الزَّوال و يترك ما يبقى مضافاً إلى أنّ النّعم الدنيويّة محفوفة بالبلاء و الهموم بخلاف

النّعم الأخرويّة و الحاصل أنّ ما في الجنَّة من النّعم كالقياس بغيره كمًّا و كيفاً و نحن نقول، هنيئاً لأرباب النَّعيم نعيمهم.

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

لمّا بيَّن اللّه تعالى فيما سبق من الآيات أوصاف الجنَّة و ما فيها من أنواع النّعم، و أشار فيها بأنّ الجنَّة و ما فيها للأبرار يأكلون فيها و يشربون و يتَّكئون على فرش كذا وكذا، ذكر في هذه الآية و الآيات بعدها أوصاف الحور القصور إتماماً للنعمة فقال: **فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** قيل أي في الجنَّتين المذكورتين و إنّما أتى بضمير الجمع و لم يقل، فيهما، لأنّه تعالى عنى الجنَّتين و ما أعدّ اللّه لصاحبهما من النّعيم، و قيل **فِيهِنَّ** يعود على الفرش الّتي بطائنها من إستبرقٍ أي في هذه الفرش قاصرات الطَّرف، و قيل أقلّ الجمع إثنان، و الّذي نقول به أنّ الضّمير يعود على الجنّات الّتي تستفاد من الآيات، من جنَّة النّعيم و جنَّة الخلد، و جنَّة رضوان و غيرها فأنّ هذه النِّعم موجودة في جميعها و كيف كان فالمراد بقاصرات الطَّرف نساء أهل الجنَّة فأنَّهن قصرن أعينهنّ على أزواجهُّن فلا يرين غيرهم و ذلك لأنّ القصر الحبس أي يحبسن أعينهنّ على أزواجهنّ و وحّد الطَّرف مع الإضافة إلى الجمع لأنّه في معنى المصدر، و الطَّرف جفن العين لأنّه طرفٌ لها فينطبق عليها تارةً و ينفتح تارةً و يستفاد من هذا الكلام أنّ خير النّساء من كان كذلك فإذا كان هذا الوصف مدحٌ لها في الآخرة فهو بالوصف في الدُّنيا أولى لأنّها دار التَّكليف دون الآخرة ثمّ وصفهنّ اللّه تعالى بوصفٍ آخر و هو قوله: **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ** الطَّمث بفتح الطّاء و سكون الميم و الثّاء مصدر و هو في الأصل دم الحيض و الإفتضاض و الطّامث الحائض، يقال طمث المرأة إذا إفتضّها قاله في المفردات.

قال مجاهد و عكرمة و إبن زيد معناه لم يمسَّهن بجماعٍ، و على هذا فهو كناية عن الجماع و قيل أنّه كناية، كأنّه قال هُن أبكار لم يفتضهنّ أحد قبلهم و الأصل المسّ كأنّه ما مسّها دم الحيض، و إنّما نفى الجانّ أيضاً، لأنّ للمؤمنين منهم لهم أزواجاً من الحور.

و قال البلخي المعنى أنّ ما يهب اللّه لمؤمني الجّن من الحور العين لم يطمثهنّ جان، و ما يهب اللّه لمؤمني الإنس لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم، **فَبِأَيِّ ٰالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبٰانِ** ثمّ ذكر اللّه وصفاً آخر لهُن فقال:

كَأَنَّهُنَّ ٱلْيٰاقُوتُ وَ ٱلْمَرْجٰانُ، فَبِأَيِّ ٰالَآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

شبهّهن اللّه بالياقوت في الحسن و الصّفا و النُّور أوّلاً و بالمرجان الّذي أشدّاللُّؤلؤ بياضاً و هو صغاره ثانياً **فَبِأَيِّ ٰالَآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** و لَما كان في المقام مظنّة سؤال و هو أنّه كيف يعطي اللّه الأبرار هذه النّعم العظيمة في الجنَّة، فأجابهم اللّه بقوله:

هَلْ جَزٰآءُ ٱلْاِحْسٰانِ إِلَّا ٱلْاِحْسٰانُ، فَبِأَيِّ ٰالَآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

الإستفهام للإنكار أي ليس جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، و ذلك لأنّهم أحسنوا بطاعاتهم و عباداتهم و أعمالهم في الدّنيا و كانوا مطيعين منقادين لأوامر ربّهم و نواهيه، فجزيناهم في الآخرة كذلك.

أقول هذا من الأحكام العقلّية العامّة الّتي لا تخصيص فيها أصلاً فأنّ العقل يحكم حكماً قطعيّاً بأنّ جزاء الإحسان احسان سواء كان المحسن كافراً أو مسلماً صغيراً أو كبيراً عالماً أو جاهلاً فأن من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، و إذا كان اللّه تعالى أمر عباده به تأييداً لحكم العقل.

قال اللّه تعالى: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**[١].

١– أل عمران = ١٧٢

قال اللّه تعالى: **ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنٰى وَ زِيٰادَةٌ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**(٣).

و غيرها من الآيات الواردة في الباب فما ظنّك باللّه في جزاء الإحسان:

قال اللّه تعالى: **لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(٤).

و من أصدق من اللّه قِيلاً **فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ**.

وَ مِنْ دُونِهِمٰا جَنَّتٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ، مُدْهٰامَّتٰانِ، فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

أخبر اللّه تعالى أنّ من دون الجنّتين اللّتين ذكرناهما في قولنا: **وَ لِمَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ جَنَّتٰانِ** لهم أيضاً جنّتان غير ما أعطيناهم أوّلاً و أنّهما أقرب إلى قصورهم ليتضاعف لهم السُّرور من التّنقل من جنَّةٍ إلى جنَّةٍ كما هو مركوزٌ في طبع البشر و المراد بها البساتين و هو ظاهر.

و أمّا قوله: **مُدْهٰامَّتٰانِ** فمعناه خضراوتان تضرب خضرتهما إلى السَّواد من كثرة الأشجار، قال بعض المفسّرين في دونهما، دون مكان قريب من الشّئ بالإضافة إلى غيره ممّا ليس له مثل قربه و هو ظرف مكان إنتهى.

أقول فعلى هذا معنى الآية و من قربهما جنّتان و قال بعضهم معنى **وَ مِنْ دُونِهِمٰا** أي من دونهما في الفضل فيكون في الأوّلين النّخل و الشّجرالأخريين الزَّرع و النَّبات بدليل قوله: **مُدْهٰامَّتٰانِ**.

أقول فعلى هذا تكون الجنَّتان الأوّليان للأكل و الأخريان للنّزاهة و السياحة و كيف كان تدلّ الأيات على أنّ اللّه أغرقهم في النِّعم أكلاً و شرباً و نزاهةً و استراحة **فَبِأَيِّ آلاٰءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ** ثمّ وصف اللّه تعالى هاتان الجنّتان بقوله:

١- المائدة = ٩٣
٢- يُونُس = ٢٦
٣- النَّجم = ٣١
٤- النَّحل = ٩٧

فِيهِمٰا عَيْنٰانِ نَضّٰاخَتٰانِ، فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

يعني أنّ الجنّتين اللّتين وصفهما بأنّهما مدهامّتان، فيهما عينان نضّاختان، أي فوّارتان بالماء و قيل نضّاختان بكلّ خير، و أنّما قال في الجنّتين الأوّليين **فِيهِمٰا عَيْنٰانِ تَجْرِيٰانِ** و قال في المقام **نَضّٰاخَتٰانِ** لأنّ الجري غير النَّضخ، فأنّ النَّضخ فوران الماء إلى الفوق و يعبّر عنه بالفوّارة، و الجري جريان الماء على الأرض **فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ**

فِيهِمٰا فٰاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمّٰانٌ، فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

هذا وصف ثانٍ لهما و هو أنّ فيهما فاكهةٌ و هى الثّمار و نخلٌ و رمّان، قيل أنّ النّخل و الرّمان ليسا من الفاكهة لأنّ الشّئ لا يعطف على نفسه و لذلك أفردهما بالذّكر، أنّهما منها و الوجه في إفرادهما بالذّكر هو فضلهما على غيرهما من الفواكه، كما أفرد ذكر جبرئيل و ميكائيل بعد ذكر الملائكة في قوله:

مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَ مَلآئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكٰالَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكٰافِرِينَ(١).

فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ.

فِيهِنَّ خَيْرٰاتٌ حِسٰانٌ، فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ

هذا وصف ثالث و الكلام في قوله: **فِيهِنَّ** كالكلام في قوله: **فِيهِنَّ قٰاصِرٰاتُ ٱلطَّرْفِ** و قد مرَّ هناك أي أنّه فيهنّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

قال الفرّاء أنّما قيل للمرأة في الجنّة، خيرة، لأنّها ممّا ينبغي أن تختار لفضلها في أخلاقها و أفعالها و هى مع ذلك حسنة الصُّورة فقد جمعت الأحوال التّي تجلّ بها النّعمة **فَبِأَيِّ اٰلآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ.**

١- البقرة = ٩٨

حُورٌ مَقْصُوراٰتٌ فِي ٱلْخِيام، فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّباٰنِ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لاٰ جاٰنٌّ، فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّباٰنِ

وصف اللّه تعالى الحور و قال مقصورات في الخيام، أي محبوسات فيها قصرن على أزواجهنّ فلا يردن بدلاً منهم و المراد بالخيام القصور على ما قيل و قيل المراد بها الحجال، و قيل الخيام على معناها فأنّ لكلّ واحدةٍ منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلاً و قيل غير ذلك و أمّا قوله: **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ** فقد مرَّ تفسيره أنفاً **فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّباٰنِ** ثمّ ذكر اللّه وصفاً أخر لأهل الجنّة و قال:

مُتَّكِئِينَ عَلىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِساٰنٍ، فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّباٰنِ

قد مرَّ نظير هذه الآية إلاّ أنّه قال هناك **مُتَّكِئِينَ عَلىٰ فُرُشٍ** و قال في المقام **مُتَّكِئِينَ عَلىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ** الرَّفرف فضول الفرش و البسط المجالس يتّكئون على فضولها و قيل هي البسط و قيل هي الزّرابي الصّحاح الرَّفرف ثياب خضر تتَّخذ منها المجالس و معنى الآية أنّهم، أي أهل الجنّة متّكئين على ثيابٍ خضر **عَبْقَرِيٍّ حِساٰنٍ** قيل العبّقري ثيابٌ منقوشة تبسط فإذا قال خالق النُّقوش أنّها حسان فما ظنّك بتلك العباقر، **فَبِأَيِّ اٰلاٰءِ رَبِّكُما تُكَذِّباٰنِ**.

ثمّ قال تعالى **تَباٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلاٰلِ وَ ٱلْإِكْراٰمِ** تبارك تفاعل من البركة و ذي الجلال أي ذي العظمة و المعنى أنّ هذا الإسم الّذي إفتتح به السُّورة من بركات اللّه كأنّه يعلمهم أنّ هذا كلّه من رحمتي الّتي وسعت كلّ شيءٍ و من المعلوم أنّ جميع البركات منه تعالى.

﴿ سُورَةُ ٱلْواقِعَه ﴾

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذاٰ وَقَعَتِ ٱلْواٰقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهاٰ كاٰذِبَةٌ ﴿٢﴾
خاٰفِضَةٌ راٰفِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذاٰ رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَ
بُسَّتِ ٱلْجِباٰلُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكاٰنَتْ هَبآٰءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَ
كُنْتُمْ أَزْواٰجًا ثَلاٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحاٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مآٰ
أَصْحاٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَ أَصْحاٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مآٰ
أَصْحاٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَ ٱلسّاٰبِقُونَ ٱلسّاٰبِقُونَ
﴿١٠﴾ أُولٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنّاٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَ قَلِيلٌ مِنَ ٱلْاٰخِرِينَ
﴿١٤﴾ عَلٰى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهاٰ
مُتَقاٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْداٰنٌ مُخَلَّدُونَ
﴿١٧﴾ بِأَكْواٰبٍ وَ أَباٰرِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لاٰ
يُصَدَّعُونَ عَنْهاٰ وَ لاٰ يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَ فاٰكِهَةٍ مِمّاٰ
يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمّاٰ يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَ
حُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثاٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزآٰءً بِماٰ كاٰنُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهاٰ
لَغْوًا وَ لاٰ تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلّاٰ قِيلًا سَلاٰمًا سَلاٰمًا ﴿٢٦﴾

وَ أَصْحٰابُ ٱلْيَمِينِ مٰآ أَصْحٰابُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي
سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَ ظِلٍّ
مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَ مٰآءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَ فٰاكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لٰا مَقْطُوعَةٍ وَ لٰا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَ
فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنّٰآ أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰآءً ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْكٰارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرٰابًا ﴿٣٧﴾
لِأَصْحٰابِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَ
ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْاٰخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَ أَصْحٰابُ ٱلشِّمٰالِ مٰآ
أَصْحٰابُ ٱلشِّمٰالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لٰا بٰارِدٍ وَ لٰا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
إِنَّهُمْ كٰانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَ كٰانُوا
يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَ كٰانُوا
يَقُولُونَ ءَإِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰابًا وَ عِظٰامًا أَئِنّٰا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ اٰبٰآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَ ٱلْاٰخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلٰى
مِيقٰاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضّٰآلُّونَ
ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَاٰكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمٰالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشٰارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشٰارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هٰذٰا
نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنٰاكُمْ فَلَوْلٰا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مٰا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخٰالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنٰا

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ
أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ
نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ
﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ
﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ
شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا
تَذْكِرَةً وَ مَتَٰعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ
لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ
﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَ تَجْعَلُونَ
رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ
إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِنْ كُنْتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾

فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَ أَمَّآ إِن كَانَ
مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ
أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَ أَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَ
تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

◀ اللُّغة

خَافِضَةٌ: الخفض ضدّ الرَّفع.

رُجَّتِ: الرَّج التّزلزل و الإضطراب.

بُسَّتِ: البَّس الفتّ أي فتَّت فتّاً.

هَبَآءً: الهباء غبار كالشّعاع في الرِّقة.

مُنْبَثًّا: الإنبثاث إفتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة.

ٱلْمَيْمَنَةِ: من اليمن و البركة.

ٱلْمَشْـَمَةِ: من الشُّؤم و النّكد.

ثُلَّةٌ: [illegible]

مَخْضُودٍ: هو الّذي لا شوك فيه و أصل الخضد عطف العود اللّين يقال خضد شوكه أي قطع.

طَلْحٍ مَنْضُودٍ: الطَّلح شجر الموز و قيل كلّ شجرٍ عظيم كثير الشّوك و قيل شجر أمّ غيلان و المنضود، هو الّذي نضد بعضه على بعضٍ.

مَسْكُوبٍ: أي جارٍ لا ينقطع و منه سكب الدُّموع.

عُرُبًا أَتْرَابًا: العرب بضمّتين جمع عروب، مثل رسل و رسول العواشق لأزواجهنّ أَتْرَابًا على ميلاد واحد في الإستواء، يقال في النّساء أترتب و فى الرّجال أقران.

ثُلَّةٌ: بضمّ الثاء و ضمّ اللاّم الجماعة.

سَمُومٍ: بفتح السّين و ضمّ الميم الرّيح الحّارة الّتي تدخل في مسام البدن.

حَمِيمٍ: الحاّر الشدّيد الحرارة من الماء.

يَحْمُومٍ: بفتح الياء الأسود الشدّيد السَّواد.

مُتْرَفِينَ: المترف بضمّ الميم المتنعّم.

ٱلْحِنْثِ: بكسر الحاء الذّنب.

زَقُّومٍ: بفتح الزّاء و ضمّ القاف المشدّدة ما يبتلع بتّعصبٍ و مشقّةٍ.

شُرْبَ ٱلْهِيمِ: الهيم الابل الّتي لا تروي من الماء لداءٍ يصيبها واحدها، أهيم، و الأنثى، هيماء، و قيل هو داء الهيام.

لَمُغْرَمُونَ: المغرم الّذي ذهب ماله بغير عوض عنه و أصله ذهاب المال.

ٱلْمُزْنِ: بضمّ الميم السّحاب.

أُجَاجًا: الأجاج الّذي إشتدّت ملوحته.

تُورُونَ: أي تظهرون.

لِلْمُقْوِينَ: بضمّ الميم قيل معناه المسافرين.

مُدْهِنُونَ: أي مكذّبون.

تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ: أي إحـراق بـنار جـهنّم يـقال صـلاه اللّـه تـصليةً إذا ألزمـه الاحراق بها.

فَسَبِّحْ: التَّسبيح التنزيه عمّا لا يليق به

◀ الإعراب

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ العامل في، إذا، الفعل المقدّر و هو، أذكر، فهو مفعول له **خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ** خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة و قرئ بالنَّصب على الحال من الضّمير في كـاذبة أو مـن الواقـعة **إِذَا رُجَّتِ** إذا بـدل مـن إذا الأولى **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** مبتدأ **أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** مبتدأ و خبر و الجملة خبر الأوّل **وَالسَّابِقُونَ** الأوّل مبتدأ و الثّاني خبره و قيل الثّاني نعتٌ للأوّل أو تكرير توكيداً و الخبر (أُولئك) **فِي جَنَّاتِ** أي هم في جنّات، أن يكون حالاً من الضّمير في المقرّبون **ثُلَّةٌ** مبتدأ و **عَلَىٰ سُرُرٍ** خبره و **مُتَّكِئِينَ** حال من الضّمير في، على، و **مُتَقَابِلِينَ** حال من الضّمير في، متّكئين، يطوف عليهم حال، و **بِأَكْوَابٍ** يتعلّق بيطوف و **حُورٌ عِينٌ** معطوف على ولدان **إِلَّا قِيلًا** هو إستثناء منقطع و **سَلَامًا** بدل أو صفة **لَا مَقْطُوعَةٍ** نعتٌ لفاكهة و قيل معطوفٌ عـليها **مِنْ زَقُّومٍ** نـعتٌ لشجر **فِي كِتَابٍ** صفة أخرى للقرآن أو حال من الضّمير في كريم أو خبر مبتدأ محذوف **تَنْزِيلٌ** أي هو تنزيلٌ **فَنُزُلٌ** أي فله نزلٌ وَ **تَصْلِيَةُ** بالرّفع عطفاً على نزل و بالجرّ عطفاً على حميم.

◀ التّفسير

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ

قلنا في شرح اللُّغات و الإعراب أنّ، إذا، مفعول أذكر، أي أذكر يا محمّد أو أذكروا إذا وقعت الواقعة، و قال الجرجـاني، إذا صـلة أي وقت الواقـعة كـقوله

تعالى: **اَقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ** و قيل هو ظرفٌ لما دلَّ عليه **لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** أي إذا وقعت لم تكذَّب و قيل ظرفٌ لخافضة أو رافعة، أي إذا وقعت خفضت و رفعت و غيرها من الأقوال و المراد بالواقعة القيامة بإجماعٍ من المفسّرين و قوله: **كَاذِبَةٌ** قيل هي مصدر مثل العاقبة و العافية و معناها الكذب و العرب قد تضع الفاعل أو المفعول موضع المصدر و منه قوله تعالى: **لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً**(١) أي لغواً و على هذا فالمعنى ليس لها أي للقيامة كذبٌ.

و قال قوم في الكلام حذف وتقديره ليس لها نفسٌ كاذبة في الخبر بها أو حال كاذبة أي كلّ من يخبر عن وقتها فهو صادق، و على هذا فقوله كاذبة صفة لموصوفٍ محذوف.

إن قلت كيف قال ليس لوقعتها كذبٌ و قد كذَّبها كثيراً من النّاس لولا أكثرهم.

قلت معنى الكلام أنّه لا ينبغي لأحدٍ من النّاس أن يكذّب بها لأنّ القرأن ناطق بوقوعها و الرَّسول أخبرنا بها و هذا يكفي من جهة النّقل.

و أمّا العقل فهو أيضاً لا يكذّبها إذ لا حكم له بالنّسبة إلى ما وراء الطّبيعة و ذلك لأنّ حكمه مختصّ بالمحسوسات أو بواسطتها فما لا سبيل للحسّ و الإدراك إليه لا حكم للعقل فيه ألا ترى أنّك لا تقدر أن تحكم بحسن الصّوت أو قبحه قبل الإدراك بالحسّ أعني به الإستماع فإذا لم تسمع صوت زيد كيف حكمت بحسنه أو قبحه و هكذا الأمر في جميع المعقولات فأنّ تعقُّل الشّئ و الحكم به فرعٌ على إدراكه و لذلك لا حكم للعقل لما لا يدرك بالحواس، كسئوال القبر و الحساب و الميزان و الصّراط و الجنّة و النّار و بالجملة كلّ ما غاب عن الحوّاس و هذا ممّا لا خلاف فيه و لأجل ذلك أرسل اللّه رسله إلى الخلق و أنزل الكتب السّماويّة و أخبر عباده بواسطة الرّسول و الكتاب بوقوع القيامة و ما يتعلّق بها إذا عرفت هذا فنقول:

١- الغاشية = ١١

لا شكّ أنّ اللّه تعالى أخبر به في كتابه و على لسان رسوله، فمن كذّب القيامة كذّبها من طريق هواه لا من طريق عقله فليس للمنكر أن يستند حكم الإنكار إلى عقله فأنّ عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود و بعبارةٍ أخرى العقل في هذا المقام معزولٌ عن الحكم إثباتاً و نفياً، فترجيح جانب النّفي على الإثبات و الحكم بكذب القيامة من التّرجيح بلا مرجّح الذّي حكم العقول السليمة ببطلانه فالمكذّب لا دليل له على تكذيبه بل ينبغي له أن يرجّح جانب الإثبات لأنّه مؤيّدٌ بالنّقل و هو الكتاب و السنّة، و بالعقل لأنّ دفع الضّرر المحتمل واجب عقلاً و لذلك قال الشّيخ إبن سينا، كلّما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم تردّك عنه قائمة البرهان، و أيُّ برهانٍ أقيم للمكذِّب على إمتناع القيامة و إستحالتها و إذا كان كذلك فهي في حيّز الإمكان لا محالة و الحكم ما ذكرناه و هذا معنى قولنا في صدر البحث أنّ العاقل لا ينبغي أن يكذّب بها عقلاً.

خَافِضَةٌ رافِعَةٌ

أي أنّ الواقعة التّي لا يكذّب و هى القيامة موصوفة بالخفض و الرّفع أي أنّها تخفض قوماً و ترفع قوماً بسبب أعمالهم و ذلك لأنّ القيامة يوم الجزاء فمن عمل صالحاً في الدُّنيا و أطاع ربّه يرفع و من أنكر ربّه و عصاه يخفض و يذلّ و أنّما نسب الخفض و الرّفع إليها مجازاً للسّببية لأنّها يومٌ تبلى فيها السّرائر، فالكلام من قبيل ذكر السّبب و إرادة المسبّب و إن شئت قلت الأعمال خافضة رافعة فمن عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها.

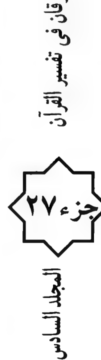

إِذا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا، وَ بُسَّتِ ٱلْجِبالُ بَسًّا، فَكانَتْ هَبآءً مُنْبَثًّا

أشار اللّه تعالى في هذه الأيات إلى علاماتها، فكأنّه قيل كيف تكون الواقعة و متى تجئ وقتها، فذكر اللّه في الجواب أنّ من علاماتها كذا و كذا، فقال: **إِذا**

رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا هذه إحدى العلامات يقال رجَّه يرجّه رجّاً أي حرَّكه و زلزله، و قيل ترتجّ الأرض بمعنى أنّه يتهدّم كلّ بناء على الأرض و معنى الآية إذا زلزلت الأرض و تحرّكت حركةً شديدة بحيث لا يبقى عليها بناء.

و العلامة الثّانية: قوله تعالىٰ: **وَ بُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا** أي فتَّت فتّاً، كما يبس الدّقيق أي يلتّ و البسيس السَّويق أو الدَّقيق يلَّت و يتَّخذ زاداً و طعاماً، قال الرّاجز:

لا تخبز خبزاً و بسّاً بسّاً و لا تطيلا بمناخٍ حبساً

فَكَانَتْ هَبَآءً مُنْبَثًّا الهَباء بفتح الهاء الشّعاع الّذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار قاله مجاهد و إبن عبّاس، و قيل هو ما تطاير من النّار إذا إضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً، و أمّا قوله: **مُنْبَثًّا**، فالإنبثاث إفتراق الأجزاء الكثيرة في الجهات المختلفة و فى تفرُّق الجبال على هذه الصّفة عبرة لمن إعتبر به و معجزة لا يقدر عليها إلاّ اللّه تعالى و معنى الآية أنّ من علاماتها أنّ الجبال تصير مثل الغبار منبثّاً أي متشتّتاً متفرّقاً ذرّاته في الهواء و الأصل في هذه الأمور هو الأرض ففي قوله (رجّاً) إشارة إلى الرَّج الّذي يجعل الجبال هباءً منبّثاً.

وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً، فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ، وَ أَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ، وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ

قال الرّاغب في المفردات لكلّ واحدٍ من الفريقين من الذَّكر و الأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوجٌ و لكلّ فريقين فيها و فى غيرها زوجٌ كالخفّ و النَّعل و لكلّ ما يقترن بأخر مماثلاً له أو مضّاداً زوجٌ و جمع الزَّوج أزواج، و أنّما يطلق الزَّوج على الواحد لأنّ الأشياء كلّها مركبّة من جوهر و عرض و مادّة و صورة و أنّ لا شئ من المخلوق يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً و أنّه لابدّ له

من صانع تنبيهاً على أنّه تعالى هو الفرد المنزّه عن التّركيب إذا عرفت هذا فقوله: **كُنْتُمْ أَزْوٰاجًا ثَلاٰثَةً** هو من باب المماثلة و المشاكلة لأنّ كلّ صنفٍ يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزَّوج الزَّوجة و لذلك يقال لكلّ واحدٍ منهما الزَّوج و يقال لهما الزَّوجان و على هذه المزاوجة، يقال فلان زاوج بين الكلامين أي شاكل بينهما.

و من المعلوم أنّ بني أدم يشاكل بعضهم بعضاً فصحّ إطلاق الأزواج عليهم و لذلك قال تعالى فخاطباً لهم، **كُنْتُمْ أَزْوٰاجًا ثَلاٰثَةً** أي كنتم في علم اللّه فكذلك خلقتم ليطابق المعلوم العلم ثمّ أنّ اللّه تعالى قسَّمهم في الآية إلى أقسام ثلاثة لأنّ لكلّ صنفٍ منهم مقامٌ مخصوص و جزاءٌ مخصوص كما سيتّضح ذلك إن شاء اللّه و إلاّ فالسّابقون داخلون في أصحاب الميمنة و ليسوا بخارجين عنهم و على هذا ففي الحقيقة الحصر عقليّ دائر بين النّفي و الإثبات، فالنّاس على صنفين، أصحاب الميمنة و أصحاب المشئمة ثمّ أنّ السّابقين قسمٌ من أصحاب الميمنة فأنّ أصحاب الميمنة على قسمين، سابقٌ و لا حقٌ، و توضيح ذلك بحسب الإجمال أنّ الإنسان إمّا أن يكون منشأ للخيرات و البركات فهو من أصحاب الميمنة و أمّا أن لا يكون كذلك بل هو منشأ الشّرور و الأفات فهو من أصحاب المشئمة و ذلك لأنّ الميمنة من اليمن و البركة و المشئمة من الشُّؤم و اللّئامة و هذا هو المراد بقولنا الحصر عقليّ إذ لا واسطة بين البركة و الخباثة و الإيمان و الكفر و الصِّدق و الكذب و هكذا.

و من المعلوم أنّ السّابقين من أصحاب الميمنة اللّهم إلاّ أن يقال أنّ السّابقين عبارة عن الأنبياء و الأوصياء و أنّهم لمكان عصمتهم لا يمكن قياسهم بغيرهم و أن كانوا ظاهراً في صورة البشر و لذلك جعلهم اللّه قسماً ثالثاً ممّا لا كلام فيه لأنّ النّبي و الوَّصي لا يقاس بغيره و لذلك وصف السّابقين بالتَّقرب إلى اللّه.

و قال: وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ و من المعلوم أنّ المقرّب لا يقاس بغيره و كيف كان فكلمة (ما) في الموضعين بصورة الإستفهام و المراد بهم تعظيم شأن أصحاب الميمنة في الخبر عن حالهم و تعظيم شأن أصحاب المشئمة في الشّر و سوء الحال ثمّ انّهم إختلفوا في تعريف أصحاب الميمنة و المشئمة، فقيل أصحاب الميمنة هم الّذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة و أصحاب المشئمة الّذين يؤخذ بهم ذات الشّمال إلى النّار، و قيل أصحاب الميمنة هم الّذين يعطون كتبهم بأيمانهم و لذلك قد يعبّر عنهم بأصحاب اليمين و أصحاب المشئمة هم الّذين يأخذون كتبهم بشمالهم.

و قال إبن عبّاس و السُّدي أصحاب الميمنة هم الّذين كانوا عن يمين أدم عليه السلام حين أخرجت الذّرية من صلبه فقال اللّه لهم هؤلاء في الجنّة و لا أبالي، و أصحاب المشئمة هم الّذين كانوا عن يسار أدم عليه السلام حين أخرجت الذّرية فقال اللّه لهم هؤلاء في النّار و لا أبالي، و قيل أصحاب الميمنة هم الّذين أخذوا من شقّ أدم الأيمن يومئذٍ و أصحاب المشئمة هم الّذين أخذوا من شقّ أدم الأيسر، و قيل أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات و أصحاب المشئمة هم أهل السَّيئات.

و قال الحسن أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصّالحة و أصحاب المشئمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السَّيئة و المختار عندنا في الأقوال المذكورة هو الأخير منها.

و أمّا السّابقون، فقال في التّبيان معناه الّذين سبقوا إلى إتّباع الأنبياء فصاروا أئمّة الهدى، و قيل السّابقون إلى طاعة اللّه السّابقون إلى رحمته إنتهى.

و نقل القرطبي عن محمّد بن كعب القرظي أنّه قال أنّهم الأنبياء.

و عن الحسن و قتادة السَّابقون إلى الإيمان من كلّ أمّةٍ، و عن إبن سيرين هم الّذين صلُّوا إلى القبلتين، و قيل هم السّابقون إلى الجهاد و أوّل النّاس رواحاً

إلى الصّلاة و ساق الكلام إلى أن قال، أنّهم أربعة منهم سابقٌ في أمّة موسى حزقيل مؤمن أل فرعون و سابق في أمّة عيسى و هو حبيب النّجار صاحب إنطاكية و سابقان في أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و هما أبو بكر و عمر رضي اللّه عنهما إنتهى كلامه.

و نحن نقول لا كلام لنا فعلاً في الأمم السّابقة و مع ذلك ما ذكره في أمّة موسى و عيسى لا نعلم وجهه و لا يبعد أن يكون حقّاً و أنّما الكلام في تعيين المراد منهم في هذه الأمّة، فأن قلنا المراد بالسّبق هو السّبق إلى الإيمان باللّه و رسوله، فعليٌّ عليه السّلام أوّل من أمن باللّه و رسوله من بين الرّجال بإتّفاق العامّة و الخاصّة و أن كان المراد السّبق إلى الصّلاة فهو أوّل من صلّى مع رسول اللّه و أن كان المراد السّبق إلى الجهاد فهو أوّل من جاهد في سبيل اللّه و أن كان المراد السّبق إلى الهجرة فهو أوّل من هاجر معه إلى الشّعب و أن كان المراد نصرة الدّين فهو أوّل من نصر الدّين بعد رسول اللّه و أن كان المراد السّبق إلى الخيرات فهو أسبق من غيره بعد الرّسول، فكيف لا يكون عن السّابقين في هذه الأمّة، و أبو بكر و عمر كانا سابقان في أمّة محمّد على وجه الإختصاص مع أنّهما لم يكونا سابقين أصلاً في شئ ممّا ذكرناه بشهادة التّواريخ و ما ذكرناه أظهر من الشّمس و أبين من الأمس و لا ينكره إلاّ المعاند الّذي ينكر ضوء الشّمس في النّهار و أنّي لا أظنّ أنّ أبابكر و عمر كانا يدّعيان ذلك في حياتهما و كان القرطبي زعم أنّ المراد بالسّابقين في الآية الكريمة السّبق إلى الخلافة و الحكومة في الأمّة فأن زعم ذلك فما ذكره حقٌّ بزعمه إذ لا شكّ لأحدٍ أنّهما سبقا إلى السّقيفة على أميرالمؤمنين و غيره فهما من هذه الجهة من السّابقين و مع ذلك كلّه أنّ الحديث مشهور بين العامّة و الخاصّة و هو على خلاف ما نقله القرطبي و نسبه إلى إبن عبّاس و قال حكاه الماوردي و ذلك لأنّ الجعل حذف من الحديث شيئاً و زاد فيه شيئاً أخر منه علّي إبن أبي‌طالب و أثبت فيه أبابكر و عمر و الدّليل على ذلك نقل العامّة و الخاصّة.

فمن الأوّل أعني نقل العامّة ما رواه الحافظ الحسكاني و هو من أعيان العامّة في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل في قوله تعالى: وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ بأسناده عن إبن عبّاس قال: السُّبّاق ثلاثة، سبق يوشع بن نون إلى موسى و سبق صاحب ياسين إلى عيسى و سبق عليّ إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن مجاهد عن إبن عبّاس قال: رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم السّبّاق أربعة، سبق يوشع إلى موسى، و سبق صاحب ياسين إلىٰ عيسى و سبق عليّ إلى محمّد، و سبق إبراهيم إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن مجاهد عن إبن عبّاس قال: السَّبق ثلاثة فالسّابق إلى موسى يوشع بن نون، و السّابق إلى عيسى مؤمن أل ياسين، و السّابق إلى النّبي عليٌّ عليه السلام إنتهى.

أقول و راوه الطّبراني أيضاً في مسند عبد اللّه بن العبّاس من المعجم الكبير، و رواه في الرّوض النّظير[1] عن إبن مردويه و الطّبراني.

و رواه أيضاً في مجمع الزّوائد[2] و لنرجع إلى ما قاله الحسكاني، قال حسين إبن أبي السَّري فذكرته لحسين الأشقر فقال سمعناه عن إبن عينية، رواه أيضاً شعيب بن ضحّاك عن سفيان و شعيب بن صالح المدائني عن سفيان في العتيق.

و رواه أيضاً الضّحاك عن إبن عبّاس مسنداً.

ثمّ قال أخبرنا أبو عبد الرّحمن أحمد بن عبد اللّه بن إبراهيم الصُّوفي و ساق الأسناد إلى إبن نعيم عن مقاتل بن سليمان عن الضّحاك عن إبن عبّاس قال سألت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن قول اللّه: وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ قال صلى الله عليه وآله وسلم: حدَّثني جبرئيل بتفسيرها ذاك عليٌّ و شيعته إلى الجنّة إنتهى.

١- ج ٥ ص ٣٦٨ ٢- ج ٩ ص ١٠٢

و أيضاً بأسناده عن السُّدي في قوله تعالى و السّابقون السّابقون، قال: نزلت في علّي إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أبي مالك الغفّاري عن إبن عبّاس في قوله تعالى: ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ قال سابق هذه الأمّة علّي بن أبىطالب.

و أيضاً بأسناده عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عن ابن عبّاس في قوله: وَ ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ، أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ قال: نزلت في علّي إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن عطا إبن أبي رياح عن عبد اللّه بن عبّاس في قوله ٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ قال: يوشع بن نون إلى موسى و شمعون بن يوحنّا إلى عيسى و علّي بن أبي طالب إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلم إنتهى.

ثمّ قال و راواه أيضاً في العتيق.

أقول هذا ما ذكره الحافظ الحسكاني في كتابه و الأحاديث الدالّة على المدّعى كثيرة في كتب القوم و لسنا بصدد إستقصائها في المقام، لأنّه يقتضي كتاباً مستقلاًّ كما لا يخفى على من مارس خلال هذه الدّيار، أمّا كتب الخاصّة فهو مشحونة بذكر الأحاديث الواردة في الباب إذ لم يختلف منهم أحد من أنّ السّابق في هذه الأمّة هو علّي إبن أبي طالب و مع ذلك نشير إلى شطرٍ منها تيمّناً و تبرُّكاً بها فأنّ ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه.

فنقول في روضة الكافي، علّي بن إبراهيم عن إبن أبي عمير عن عمرو بن أبىالمقدام قال: سمعت أباعبداللّه عليه السلام يقول: قال أبي لأناسٍ من الشّيعة اللّه و أنتم أنصار اللّه و أنتم السّابقون الأوّلون و السّابقون الأخرون و السّابقون في الدّنيا و السّابقون في الأخرة إلى الجنّة و الحديث طويل أخذنا من موضع الحاجة إنتهى.

و في أمالي الطوسي شيخ الطّائفةﷺ بأسناده إلى إبن عبّاس قال: سألت رسول اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ فقالﷺ: قال لي جبرئيلعليه السلام ذلك علّي و شيعته هم السّابقون إلى الجنّة المقرّبون إلى اللّه بكرامته لهم إنتهى.

و في عيون الأخبار فيما جاء عن الرّضا من الأخبار المجموعة بأسناده عن علّيعليه السلام قال: وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فيَّ نزلت إنتهى.

و في كتاب الخصال بأسناده قال علّي بن أبي طالب، السُّباق خمسة، فأنا سابق العرب و سلمان سابق الفرس و صهيب سابق الرُّوم و بلال سابق الحبش و خباب سابق النَّبط إنتهى.

و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[1].

أقول و لنذكر في ختام البحث حديثاً من هذا الكتاب نقله عن أصول الكافي بيّن الإمام فيه وجه تسميتهم بالسّابقين.

في أصول الكافي محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد عن الحسين بن سعيد عن حماد بن عيسى عن إبراهيم العمر اليماني عن جابر الجعفي قال: قال أبو عبد اللّهعليه السلام: يا جابر أنّ اللّه تبارك و تعالى خلق الخلق ثلاثة أصناف و هو قوله عزّ وجلّ (كنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة و أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة وَ ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فالسّابقون هم رسل اللّه و خاصّة اللّه من خلقه جعل فيهم خمسة أرواح أيَّدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء و أيَّدهم بروح الإيمان

١- ج ٥ ص ٣٠٩ و ٣١٠

فبه حافوا اللّه عزّ وجلّ، و أيّدهم بروح القوّة فبه تداروا على طاعة اللّه و أيَّدهم بروح الشَّهوة فبه إشتهوا طاعة اللّه عزّ وجلّ و كرهوا معصيته، و جعل فيهم روح المدرج الّذي به يذهب النّاس و يجيئون و جعل في المؤمنين و أصحاب الميمنة روح الإيمان، فبه خافوا اللّه و جعل فيهم روح القوّة فبه قدروا على طاعة اللّه و جعل فيهم روح الشَّهوة فبه إشتهوا طاعة اللّه و جعل فيهم روح المدرج الّذي به يذهب النّاس و يجيئون إنتهى.(۱)

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ أصحاب الميمنة ليس فيهم روح القدس و هو مختصّ بالسّابقين و ذلك لأنّه منشأ العصمة و على هذا فالسّابقون في الآية هم المعصومون أعني بهم الأنبياء و الأوصياء و قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام أفضل الأوصياء و هو أفضل من جميع الأنبياء أيضاً بعد إبن عمّه محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و ليس أحد من الأنبياء و الأوصياء أفضل منه إلاّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فهو أسبق النّاس بالإيمان و التَّقرب الى اللّه بعد بنيّ الإسلام و أمّا في هذه الأمّة فهو أوّل من آمن باللّه و رسوله و قد صرَّح عليه السّلام بذلك حيث قال أنّي ولدت على الفطرة و سبقت النّاس الى الإيمان و الهجرة و لنعم ما قيل في الباب:

أنّ رسول اللّه مصباح الهدى ... و حجّة اللّه على كلّ البشر
جاء لقرآنٍ مبينٍ ناطقٍ ... بالحقّ من عند مليكٍ مقتدر
فكان أوّل من صدَّقه ... وصيَّه و هو بسنّ من صغر
ولم يكن أشرك باللّه و لا ... دنّس يوماً بسجودٍ لحجر
فذاكم أوّل من آمن باللّه ... و من جاهد فيه و نصر
أوّل من صلّى من القوم و من ... طاف و من حج بنسكٍ و أعتمر

۱- ص ۲۰۵

فهذا هو المراد بالسّابقين في الآية الشّريفة و أنمّا طوّلنا الكلام في تفسير الكلام مع أنّ كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث، توضيحاً للأية الشّريفة و إداءً لبعض الحقوق الواجبة علينا من اللّه و رسوله فأنّ من نصر مؤمناً مظلوماً بيده و لسانه و قلمه فقد نصر اللّه و رسوله و أيُّ مؤمنٍ بعد رسول اللّه أفضل و أعظم من علّي إبن أبي طالب ثمّ أيُّ مظلومٍ في الإسلام يقارنه و يساويه بعد موت الرّسول و الحقّ أن يقال أنّه عليه السّلام كما كان سابقاً بالإيمان و الهجرة كان سابقاً في الشِّدة و المحنة فهو أوّل مؤمنٍ باللّه و أوّل مظلومٍ في الإسلام فمن نصره نصره اللّه و من خذله خذله اللّه و من ضيَّع حقّه فعليه لعنة اللّه و من أنكره أنكره اللّه و من أحبَّه أحبَّه اللّه فأنّه العروة الوثقى الّتي لا إنفصام لها.

فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ، ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَ قَلِيلٌ مِنَ ٱلْاٰخِرِينَ.

أي أنّ السّابقين في جنّات النّعيم يوم القيامة و النَّعيم من نعم نعيماً إذا إنتفع إنتفاعاً، و النّعمة تقتضي شكر المنعم، فقوله: **جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ** معناه جنّات الحظوظ و اللّذائذ ممّا جعل اللّه فيها من أنواع النِّعم فأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذّ به الأعيُن والحاصل أنّها من أعلى المقامات و أمّا قوله: **ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ** فالثلّة الجماعة و أصله القطعة و المعنى جماعة من الأمم الماضية وَ **قَلِيلٌ مِنَ ٱلْاٰخِرِينَ** أي قليلٌ من أمّة محمّد صلّی الله علیه وآله وسلّم، أي أنّهم في جنّات النّعيم لكونهم من السّابقين و بعبارةٍ أخرى السّابقون الّذين هم في جنّات النّعيم، أكثرهم من الأمم السّالفة و قليل منهم من هذه الأمّة و ذلك لأنّ الّذين سبقوا الى إجابة النّبي من هذه الأمّة بالنّسبة الى الأمم الماضية قليلٌ من كثير و هو ظاهر ثمّ بعد ذلك أشار اللّه تعالى الى أحوالهم فيها و بيَّن ما أعدَّه لهم من النِّعم فقال:

عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ

أي منسوجة مشبّكة بالذَّهب و الجوهر، و قيل موضونة بالذَّهب.

و قال عكرمة مشبّكة بالدُّر و قال إبن عبّاس، موضونة، أي مظفورة، و الوضين حبلٌ منسوج من سينور، و سرر جمع سرير.

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهٰا مُتَقٰابِلِينَ

الإتّكاء الإستناد و المعنى أنّهم مستندون على السرُّر حال كونهم متحاذيّن أي كلّ واحدٍ منهم بإزاء الأخر مقابلاً له فأنّ ذلك أعظم في باب السُّرور و قيل معناه لا يرى بعضهم فوق بعضٍ بل تدور بهم الأسرة و هذا في المؤمن، و زوجته و أهله قال الكلبي طول كلّ سرير ثلاث مائة ذراع فإذا أراد العبد أن يجلس عيلها تواضعت و إذا جلس عليها إرتفعت و اللّه أعلم.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوٰابٍ وَ أَبٰارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

الطَّوف الزّيارة بالتنقُّل في المكان و منه الطّائف الّذي يطوف في البلد على وجه الحرس و منه الطّوف حول الكعبة، **والوِلدان** بكسر الواو جمع وليد الصّبي، و مخلّدون، معناه باقون لهم لا يموتون، و قيل معناه أنّهم على حالةٍ واحدة لا يهرمون، و قال الفرّاء، معناه مقرّطون و الخلد القرط، قال الشّاعر:

و مخلّدات باللُّجين كأنّما أعجازهنّ أقاوز المتبان

و قيل معنى مقرّطون، منطقون من المناطق ثمّ قيل الولدان ها هنا ولدان المسلمين الّذين يموتون صغاراً لا حسنة لهم و لا سيّئة و قيل هم أطفال المشركين لم يكن لهم حسنات يخرجون بها و لا سيّئات يعاقبون عليها فوضعوا في هذا الموضع و المقصود أنّ أهل الجنّة على أتمّ السُّرور **بِأَكْوٰابٍ وَ أَبٰارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ** فالأكواب جمع كوب و هى الأنية الّتي لا عرى لها و لا خراطيم بخلاف الأباريق الّتي لها عرى و خراطيم، واحدها إبريق لأنّه يبرق لونه من صفاءه، و قوله: **وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ فالكأس** بفتح الكاف الظَّرف الّذي فيه من خمير معين أي ظاهرٌ للعيون جار، فأنّ **المعين** بفتح الميم الجاري من ماءٍ أو خمرٍ إلاّ أنّ المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون و قيل الظّاهرة للعيون، فيكون **مَعِينٍ** مفعولاً من المعاينة و قيل هو من المعنّ و هو الكثرة.

لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ

أي لا يلحقهم الصداع من شربها ينزفون أي لا ينزف عقولهم يعني لا تذهب بالسُّكر و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ الخمر حرام لأجل سكره كما ورد في الخبر أنّ الخمر حرام لأنّه مسكر، فما لا سكر فيه لا حرمة فيه مضافاً الى أنّ الدّار الأخرة ليست بدار التّكليف و أنّ نعمها غير نعم الدُّنيا كمّاً و كيّفاً، و قيل معنى **لا يُنْزِفُونَ** لا يسكرون.

وَ فاكِهَةٍ مِمّا يَتَخَيَّرُونَ

الواو للعطف أي و يطاف عليهم بأكوابٍ و أباريق و كأس من الخمر و فاكهةٍ ممّا يتخيّرون و يشتهونه.

وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمّا يَشْتَهُونَ، وَ حُورٌ عِينٌ، كَأَمْثالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ

أي و يطاف عليهم ممّا يشتهونه من لحم الطُّيور للتّغذي بها و أمّا قوله **وَ حُورٌ عِينٌ** فقد قرئ بالرّفع و النّصب و الجرّ، فمن رفعه حمله على المعنى لأنّهن لا يطاف بهنّ و أنمّا يطاف بالكأس فالتّقدير ولهم حورٌ عين، و من نصبه فهو على تقدير إضمار فعل كأنّه قال و يزوجّون عِيناً، و من جرَّ و هو حمزة و الكسائي عطفه على قوله: **بِأَكْوابٍ** و هو أيضاً محمول على المعنى لأنّ المعنى يتنعمُّون بأكوابٍ و فاكهةٍ و لحمٍ و حورٍ و قوله: **كَأَمْثالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ** معناه لم تمسّه الأيدي و لم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاءً و تلألوءاً كما قال الشّاعر:

كأنّما خلقت في قشر لؤلوءةٍ   فكلّ أكنافها وجهُ لمرصاد

جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ نصبه على المفعول له أي أنمّا أعطيناهم ذلك من النِّعم لأجل الجزاء على ما عملوه في دار الدُّنيا من الطّاعات و إجتناب

المعاصي و فى الكلام إشارة الى أنّ الجزاء يترتّب على العمل إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و قد مضى الكلام فيه غير مرّةٍ.

لَا يسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْثِيمًا

أي لا يسمعون فيها أي في الجنّة، لغواً و لا تأثيماً، أي باطلاً و لا كذباً، و اللّغو ما يلغي من الكلام و التّأثيم مصدر يقال اثّمته تأثيماً.

و قيل معنى الكلام لا يأثم بعضهم بعضاً في الجنّة.

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا

قيلاً، منصوب بيسمعون أن كان الإستثناء متصّلاً و قيل أنّه منقطع أي لكن يقولون قيلاً أو يسمعون، **سَلَامًا سَلَامًا** منصوبان بالقول أي إلاّ أنّهم يقولون الخير أو على المصدر أي إلاّ أن يقول بعضهم لبعضٍ سلاماً، أو يكون وصفاً، لقيلاً، و السّلام الثّاني بدل من الأوّل و قيل، نصب سلاماً على التّقدير سلّمك اللّه سلاماً بدوام النّعمة و حال الغبطة و جاز أن يعمل فيه سلام لأنّه يدلّ عليه و قيل غير ذلك.

وَ أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ، وَ مَآءٍ مَسْكُوبٍ، وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ، وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ

لمّا بيّن اللّه تعالى أحوال السّابقين في جنّة النّعيم، شرع في بيان أحوال أصحاب اليمين و عدّ ممّا أعطاهم ستّة أوصاف:

الأوّل: **فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ** قيل السِّدر بكسر السّين شجر النّبق و المخضود هو الّذي لا شوك فيه و خضد بذهاب شوكه، و المعنى أنّ النّعيم الّذي هم فيه كذلك و المقصود أنّهم في مكانٍ كذا.

الثّانى: **وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ** الطَّلح شجر الموز واحده طلحة قاله أكثر المفسّرين.

قال الحسن ليس هو موز و لكنّه شجر له ظلٌّ باردٌ رطب.

و قال الفرّاء شجر عظام له شوك و المنضود المتراكب الّذي قد نضد أوّله و آخره بالجمل.

الثّالث: **وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ** أي دائم باقٍ لا يزول و لا تنسخه الشّمس فأنّ الجنّة كلّها ظلّ لا شمس معه.

الرّابع: **وَ مٰآءٍ مَسْكُوبٍ** أي جارٍ لا ينقطع و أصل السَّكب الَّصب سكب الدُّموع.

الخامس: **وَ فٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لاٰ مَقْطُوعَةٍ وَ لاٰ مَمْنُوعَةٍ** أي لا مقطوعة في وقتٍ من الأوقات كأنقطاع فواكه الصَّيف في الشّتاء في الدُّنيا **وَ لاٰ مَمْنُوعَةٍ** أي لا يحظر عليها كثمار الدُّنيا و بعبارةٍ أخرى لا مانع من أكل الثّمار في الجنّة لاهلها متى شاؤوا و أرادوا، و قيل معنى الكلام إذا إشتهاها العبد دنت منه و قربت حتّى يأخذها، و قيل معناه ليست الفاكهة هناك مقطوعة بالأزمان و لا ممنوعة بالأثمان.

السّادس: **وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ** أي عالية و قيل هو كناية عن النّساء أي نساء مرتفعات القدر في عقولهنّ و حسنهنّ و كمالهّن، و قال الحسن فرش مرفوعة بعضها فوق بعض و الكلّ محتمل إلاّ أنّ خير الأمور أوسطها فأنّ العرب تسمّى المرأة فراشاً و لباساً و إزاراً و اللّه أعلم.

إِنّآ أَنْشَأْنٰاهُنَّ إِنْشٰآءً، فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْكٰارًا، عُرُبًا أَتْرٰابًا، لِأَصْحٰابِ ٱلْيَمِينِ، ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْاٰخِرِينَ

الإنشاء الإيجاد أي إنّا خلقناهنّ خلقاً و أبدعنا إبداعاً يختّص بنا، و قوله: **فَجَعَلْنٰاهُنَّ أَبْكٰارًا**، فالبكر الّتيلم يفتّضها الرّجل و لم تحتض و هي على

خلقتها الأولى، و قوله: **عُرُبًا أَتْرَابًا** فالعُرُب بضمّ العين و الرّاء جمع هروب، مثل الرُّسل جمع رسول و هى اللّعوب مع زوجها أنساً به راغبة فيه كأنس العربي بكلام العرب، و الأتراب جمع ترب و هو الوليدة الّتي تنشأ مع مثلها في حال الصبي و هو مأخوذ من لعب الصّبيان بالتراب أي هم كالصّبيان الّذين على سنٍّ واحدٍ.

و قال إبن عبّاس الأتراب المستويات على سنٍّ واحدٍ، و المعنى أنّ أزواج أصحاب اليمين في الجنّة عواشق لأزواجهنّ أتراباً يعني على ميلاد واحد في الإستواء **لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ، ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ** فقوله: **لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ** يعني جميع ما تقدَّم ذكره من النعّم و الحور و القصور لأصحاب اليمين جزاءً و ثواباً على طاعتهم، الثلّة الجماعة كأنّه قال لجماعةٍ من الأوّلين و جماعة من الأخرين و المقصود أنّ ما ذكرناه ليس لجيمع الأوّلين و الأخرين، و أنمّا هو لجماعة من الأوّلين و جماعة من الأخرين و هو ظاهر.

وَ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ، وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ، وَ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ

لمّا بيّن اللّه تعالى أحوال أصحاب اليمين بعد أحوال السّابقين شرع في بيان أحوال أصحاب الشّمال فقال: **وَ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ** عبّر اللّه تعالى عن أصحاب المشأمة بأصحاب الشّمال كما عبّر عن أصحاب الميمنة و قلنا سابقاً أنّ كلمة، ما، بصورة الإستفهام و المراد تعظيم شأنهم في الشّر و سوء الحال و قوله: **فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ** فالسَّموم الرّيح الحارّة الّتي تدخل في مسام البدن، و الحميم الحّار الشّديد الحرارة من الماء **وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ** فاليحموم الأسود الشّديد السّواد بسبب إحتراق النّار و هو، يفعول من الحمّ و المراد بالظّلّ الدُّخان و المعنى أنّهم في دخانٍ شديد السّواد

و قوله: **لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ** قيل معناه لا بارد كبرد ظلال الشّمس لأنّه دخان جهنّم و لا كريم، إذ كلّ ما لا خير فيه فليس بكريم.

و قال قتادة لا بارد المنزل و لا كريم المنظر و قوله: **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ** معناه أنّهم كانوا في الدُّنيا متنعّمين منغمرين في الشّهوات و الأميال النّفسانية.

وَ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ فالحنث الذّنب العظيم قيل المراد به في المقام الشّرك باللّه أي أنّهم كانوا مشركين.

و قال قتادة الّذنب العظيم هو الّذي لا يتوبون عنه و قال الشُّعبي هو اليمين الغموص و هى من الكبائر يقال حنث في يمينه أي لم يبرّها و رجع فيها.

وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ، قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَ ٱلْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و المعنى أنّهم كانوا منكرين للبعث إذ **كَانُوا يَقُولُونَ** في الدُّنيا، **إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا** في القبور **أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** الهمزة للإنكار أي لسنا بمبعوثين و أظنّ أنّ المراد بالحنث العظيم هو هذا أي إنكارهم البعث و أنّهم لا يحشرون فلا ثواب عقاب و لا حساب و لا كتاب و لا فرق بيننا و بين الحيوانات في عدم البعث و الحساب لنا و لم يعلموا أنّ الإنسان مكلّفٌ بالتّكاليف لمكان العقل فيه بخلاف الحيوان.

و قوله: **أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ** الواو في قوله: **أَوَ** متحرّكة لأنّها واو العطف دخل عليها الألف الإستفهام و المعنى أو يبعث واحدٌ من أباؤنا الّذين ماتوا قبلنا و يحشرون و يرّدون إلى كونهم أحياء أنّ هذا البعيد و لم يعلموا أنّ الإحياء بعد الموت مع بقاء المادّة التّرابية أسهل و أهون من الإيجاد أوّلاً، من غير مادّة **قُلْ** لهم يامحمّد **إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَ ٱلْآخِرِينَ** أي الأباء و الأبناء **لَمَجْمُوعُونَ إِلَى**

مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ أي أنّهم يحشرون جميعاً في ذلك اليوم الّذي لا ريب فيه ليجزون بما كانوا يعملون به في الدُّنيا و في قوله: **مَّعْلُومٍ** إشارة إلى أنّ اليوم الموعود معلومٌ عند اللّه ثمّ خاطب اللّه أصحاب الشّمالٍ بعد ما هدّدهم و أوعدهم بالعذاب يوم القيامة.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ

أي العادلون عن طريق الحقّ و المكذّبون بالبعث و القيامة.

لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ

أي أنتم تأكلون يوم القيامة من شجرٍ من زقُّومٍ، الزَّقوم ما يبتلع بتصعّبٍ و مشقّةٍ يقال تزَّقتم هذا الطّعام تزقّماً إذا إبتلعته يتصعّبٍ.

فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ

أي تمتلؤن بطونكم يوم القيامة في نار جهنّم و يكون هذا غذائكم.

فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

أي تشربون على الزَّقوم أو على الأكل أو على الشَّجر من الحميم و هو الماء المغلّى الذّيإشتدّ غليانه و هو صديد أهل النّار.

فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ

الْهِيم بكسر الهاء الإبل العطاش التّي لا تروي لداء يصيبها و قال عكرمة هي الإبل المراض و قيل هي الإبل التّي يصيبها داء العطش، و المعنى أنّكم تشربون في جهنّم من الماء المغلّى الذّي إشتدّ غليانه مثل شرب الإبل التّي أصابها داء العطش فلا تروي من شرب الماء، شرابكم في جهنّم ثمّ قال تعالى:

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ

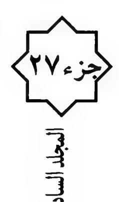

النُّزل الأمر الّذي ينزل عليه صاحبه و أهل الضّلال قد نزلوا على أنواع العذاب في النّار، و قيل معنى الكلام هذا رزقهم الّذي يعدّ لهم كالنُّزل الّذي يعدّ للأضياف مكرمةً لهم و فيه من التهكُّم ما لا يخفى كما في قوله: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ**[١].

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ

لولا بمعنى هلاّ، و المعنى نحن خلقنا هؤلاء الكفّار فهلاّ تصدّقون بالبعث هكذا فسّروا الكلام، و يحتمل أنّ يكون المعنى نحن خلقناكم فهلاّ تصدّقون به و ذلك لأنّ من صدّق الخلق الأوّل لم ينكر الخلق الثّاني و هو البعث و حيث أنّهم أنكروا البعث فكأنّهم أنكروا الخلق الأوّل إذ لا فرق في الإيجاد و الإحياء بين المقامين بل الثّاني أسهل من الأوّل و من أنكر خلقه أنكر وجوده و هو كما ترى ثمّ إستدلّ على قوله: **نَحْنُ خَلَقْناكُمْ**.

أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ، ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخالِقُونَ

كأنّه قيل أي دليلٍ دلّ على أنّ اللّه خلقنا، و أنّما خلقنا من نطفةٍ التّي تسمّى بمنّي فقال تعالى: **أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ** أي ما تصّبونه من المنّي في أرحام النّساء **ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ** أي المنّي أم نحن الخالقون، أي سلّمنا أنّكم تخلقون من المنّي و نحن نسأل عنكم من أين وجد المنّي و من خلقه فأن قلتم أنتم خلقتموه فهو محال لأنّه منه يلزم تقدّم الشّيء على نفسه و هو محالٌ فلا محالة خلقه غيركم و هو اللّه تعالى فثبت المطلوب.

نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ

التَّقدير ترتيب الأمور على مقدارٍ خاصّ و اللّه تعالى أجرى الموت بين العباد على مقدار ما تقتضيه الحكمة و قوله: **وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** ما نافية،

١- آل عمران = ٢١

أي لسنا بمسبوقين في تقديرنا فأنّ الأمور كلّها بيد اللّه و تحت قدرته، و يحتمل أن يكون المراد أنّ الّذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق أيضاً و إذ قدر على الخلق قدر على البعث و قوله: **وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** أي لم يسبقنا أحد بالإحياء و الإماتة، معناه و ما نحن بمغلوبين و قال الطّبري معناه و ما نحن بمسبوقين في أجالكم.

عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ

التّبديل جعل الشّئ موضع غيره فتبديل الحكمة بالحكمة صواب و تبديلها بغيرها خطا و سفه و الظّاهر أنّ قوله: **عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ** مُتعلّق بمسبوقين و تقدير الكلام و ما نحن بمسبوقين على أن نبّدل أمثالكم بعد موتكم بأخرين من جنسكم، قاله الطّبري.

و قال في التّبيان الحكمة توجب إنشاء قوم في وقتٍ و إماتتهم في وقتٍ أخر و إنشائهم بعد ذلك للحساب و الثّواب و العقاب، و قيل معنى **عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ** أي لنبدّل أمثالكم و بين، على، و اللاّم، فرق لأنّه يجوز أن يقال عمله على قبحه و لا يجوز أن يقال لقبحه و تعليم الإستدلال بالنّشأة الأولى على النّشأة الثّانية تعليم القياس إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف: **وَ مٰا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثٰالَكُمْ** أنّا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه، و **أمثالكم** جمع مثل، أي على أن نبّدل منكم و مكانكم أشباهكم من الخلق و على أن ننشأكم في خلقٍ لا تعلمونها عهدتم بمثلها إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول الّذي نفهم من الآية هو أنّ اللّه بصدد بيان قدرته و أنّه كما خلقكم أوّلاً و قدّر بينكم الموت كذلك قادرٌ على تبديلكم أي تبديل صوركم بصورةٍ أخرى مثل أن يجعلكم قردة و خنازير كما فعل ذلك بأقوام قبلكم.

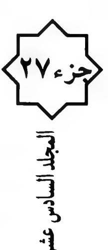

و محصلّ الكلام أنّه بعد ما ثبت عموم قدرته و أنّه على كلّ شيءٍ قدير فالتّبديل لا إشكال فيه إذا كان على طبق المصلحة و الحكمة و إذا كان تبديل صورةٍ بصورةٍ أخرى مقدوراً للخالق فالإحياء بعد الإماتة أيضاً مقدورٌ له هذا ما خطر ببالي في معنى الآية و اللّه أعلم بما قال:

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولٰى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

الخطاب للكفّار الّذين أنكروا النّشأة الثّانية و هى الحياة بعد الموت للحساب و الجزاء، و المعنى لا شكّ لكم في النّشأة الأولى و ذلك لأنّكم أحياء و الموجود لا يشكّ في وجوده فلا يعقل أن يكون الكافر منكراً لوجوده و شاكّاً فيه و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّه من الضّروريات و بعبارةٍ أخرى الإنسان الموجود عالمٌ بوجوده قطعاً لأنّ ثبوت الشّيء لنفسه من الضّروريات و إذا كان كذلك فلا وجه لإنكار الحياة الثّانية فأنّ حكم الأمثال واحد فلا يعقل أن تكون النّشأة الأولى أي الخلق الأوّل ممكناً و النّشأة الثّانية و هى الحياة بعد الموت محالاً ممتنعاً و المفروض أنّه لا فرق بينهما و إلى هذا أشار اللّه بقوله: **فَلَوْلَا** أي فهلاّ، **تَذَكَّرُونَ** و تفكّرون و تعتبّرون و كلّ عقلٍ يحكم بأنّ حكم الأمثال واحدٌ.

أَفَرَأَيْتُمْ مٰا تَحْرُثُونَ

الحرث إلقاء البذر في الأرض و تهيّؤها للزّرع و تسمّى المحروث حرثاً:

قال اللّه تعالى: **أَنِ ٱغْدُوا عَلٰى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**(٢).

و لذلك يقال الحرث فعل العبد و المعنى أنّكم تحرثون في أرضكم فتطرحون فيها البذر من الحنطة و الشّعير و غيرها.

١- القلم = ٢٢

٢- الشّورىٰ = ٢٠

ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ

أي ءأنتم تنبتونه و تحصّلونه زرعاً فيه السُّنبل و الحبّ أم نحن نفعل ذلك و أنّما منكم البذر و شقّ الأرض فاذا أقررتم أنّ إخراج السُّنبل و الحبّ ليس إليكم فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض و إعادتهم و أنّما أضاف اللّه الحرث في الآية إليهم و الزَّرع إليه تعالى لأنّ الحرث إلقاء البذر و شقّ الأرض و هو فعلهم و يجري على إختيارهم، و أمّا الزَّرع فهو ليس من فعل العبد بل هو فعل اللّه و لذلك يكون الإنبات و عدم الإنبات تحت قدرة اللّه و إختياره للعبد فيه نصيبٌ فتبت و تحقّق أنّ الحرث من العبد و الزَّرع من اللّه المطلوب.

ثمّ أنّ اللّه إستدلّ على المدّعى و هو أنّ الزّرع له بقوله:

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ

أي و الدّليل على أنّ الإنبات لنا لا لكم أنّه لو نشاء لجعلناه حطاماً، أي منكسراً يعني الزَّرع و الحطام الهشيم الهالك الّذي لا ينتفع به في مطعمٍ و لا غذاء ففي الحقيقة نبّه اللّه تعالى في هذا الكلام عباده على أمرين:

أحدهما: ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً، لسكروه.

الثّاني: ليعتبروا بذلك في أنفسهم كما أنّه يجعل الزّرع حطاماً إذا شاء و كذلك يهكلهم إذا شاء و الحاصل أنّ الإحياء و الإماتة بيد اللّه في جميع الموجودات فهو الّذي يحيي و يميت و هو على كلّ شيءٍ قدير.

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

أي يقولون الكفّار إنّا لمغرمون أي معذّبون و الغرام العذاب كما قال الشّاعر:

وثقت بأنّ الحفظ منّي سجّيةُ و أنّ فؤادي مبتلُ بك مغرمُ

و قيل المغرم الّذي ذهب ماله بغير عوضٍ عنه و أصله ذهاب المال بغير عوض و منه الغريم لذهاب ماله بالإحتباس على المدين من غير عوضٍ منه

في الإحتباس و الغارم الّذي عليه الدَّين الّذي يطالبه به الغريم و على هذا فمعنى قوله: **إِنَّا لَمُغْرَمُونَ** أنّهم أي الكفّار بعد أن جعل اللّه الزَّرع حطاماً يقولون، إنّا لمغرمون أي ذهب مالنا بلا عوض و صار حطاماً.

و أمّا على القول الأوّل و هو أنّ الغرام معناه العذاب فالمعنى أنّهم يقولون إنّا لمعذّبون إذ لم ننتفع بحرثنا أصلاً.

و المعنى الثّاني: أوفق بسياق الآية لأنّهم وقعوا في الغرم ظاهراً و أن كان الغرم سبباً للعذاب روحاً فالمعنى الأوّل ناظرٌ إلى المسبّب و الثّاني إلى السَّبَب و المأل فيهما واحد، و منهم من قرأ أإنّا لمغرمون، على الإستفهام، و المشهور خلافه إذا لا حاجة إلى الإستفهام بعد أن جعل اللّه الزَّرع حطاماً في كونهم من المغرمين و قوله: **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** كلمة، بل، للإضراب أي بل نحن ممنوعون من رزقنا لأنّ حرثنا صار حطاماً، ثمّ أنّ اللّه تعالى أشار إلى حجّةٍ أخرى فقال.

أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ

الإستفهام للإنكار أي رأيتم الماء الّذي تشربون بلا شكّ فيه و ريب.

ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ، لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ

المُزن بضّم الميم السّحاب و الهمزة للإستفهام صورةً و للتّقبيح و التّقريع واقعاً و المعنى ءأنتم أنزلتم الماء من السّحاب أم نحن المنزلون، و فى هذا الكلام إشارة إلى أنّ الماء الموجود في الأرض أصله من المطر المنزل من السّحاب و هذا ممّا لا شكّ فيه إلاّ أنّ نزول المطر ليس تحت إختيار البشر و قدرته بل هو تحت قدرة خالقه الّذي خلقه فإذا أراد الخالق منعه من النُّزول أو أراد أن يجعله أجاجاً غير قابل للشُّرب فمن يقدر على منعه عمّا شاء و أراد

فلولا تشكرون، أي فهلاّ تشكرون على هذه النِّعمة و غيرها من النِّعم و هذا عجيبٌ ثمّ أشار اللّه تعالى إلى حجّةٍ أخرى من النِّعم التّي أنعمها على عباده و هى النّار فقال:

أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ

من أورى يوري إيراء إذا قدح و لذلك لا يجوز فيه الهَمَزة و معنى تورون تظهرون و أصل النّار مأخوذٌ من النُّور و جمع النُّور أنوار و جمع النّار نيران، قالوا النّار على ضربين، نارٌ محرقة و نارٌ غير محرقة، فالتّي لا تحرق النار الكامنة بما هي مغمورة به، كنار الشَّجر و نار الحجر و نار الكبد، و أمّا المحرقة فهي النّار الظّاهرة فيما هي مجاورة له من شأنه الإشتعال معروفة، و قلنا أنّ معنى تورون، تظهرون بسبب القدح و قيل معنى تورون تقدحون و لا فرق بين القولين مآلاً لأنّ القدح سبب الظّهور فلا ظهور لها قبل القدح.

ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْشِئُونَ

المراد بالشَّجرة، الشَّجرة التّي تقدح منها النّار قال بعض المفسّرين هي شجرة المرخ و العفار و منه قول العرب، في كلّ شجرٍ نار، و إستمجد المرخ و العفار، أي إستكثر منها كأنّهما أخذا من النّار ما هو حسبهما و يقال لأنّهما يسرعان الورى قاله القرطبي في تفسيره. و من المعلوم أنّ منشئ الشَّجرة و خالقها هو اللّه.

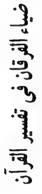

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ

الظّاهر أنّ الضّمير في جعلناها، عائد على النّار و المعنى نحن جعلنا النّار تذكرةً، يتذكّر بها الإنسان و يتفكّر فيها و يعتبر بها فيعلم أنّه تعالى قادرٌ على النّشأة الثّانية كما قدر على إخراج النّار من الشَّجر الرّطب و قوله: **مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ** أي للمسافرين يعني ينتفع بها المسافرون الّذين نزلوا الأرض التّي هي قفر و قيل المقوين، من أقوات الدّار إذا خلت من أهلها.

و قال بعض المفسّرين في معنى الآية يعني جعلنا نار الدّنيا موعظة للنّار الكبرى يعني نار جهنّم نقله عن قتادة و لا بأس به.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ

أي نزّه ربّك عمّا لا يليق بشأنه و أدعه بإسمه العظيم، و قيل معناه نزّه اللّه عمّا أضافه إليه المشركون من الشّرك و الضّعف و العجز عن البعث.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ

قيل، لا، صلة و عليه أكثر المفسّرين و التّقدير، أقسم بمواقع النّجوم.

و قال الفرّاء لا، نافية، بمعنى ليس و ليست بزائدة يعني ليس الأمر كما تقولون ثمّ إستؤنف **أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ** مواقع النّجوم مساقطها و مغاربها في قول قتادة و من تبعه، و منازلها في قول الحسن و أنكسارها و إنتشارها يوم القيامة في قول الأخر.

و قلناسابقاً أنّ اللّه تعالى يقسم بما يريد و ليس لنا أن نقسم بغير اللّه وصفاته.

وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْاٰنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أخبر اللّه تعالى أنّه، أي القسم بمواقع النّجوم، لقسمٌ عظيمٌ لو تعلمون عظمه لإنتفعتم بعلمه **إِنَّهُ لَقُرْاٰنٌ كَرِيمٌ** قيل الضّمير عائد على عظيم أي أنّ العظيم هو القرأن الكريم، و قيل معناه أنّ الّذي تلوناه عليكم لقرأنٌ كريمٌ، أمّا أنّه قرأن، لأنّه يفرق بين الحقّ و الباطل و أمّا أنّه كريم، فلأنّ الكريم من شأنه أن يعطي الخير الكثير و القرأن كذلك.

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ فالمكنون المصون عند اللّه تعالى، و قيل معناه المحفوظة من الباطل و الكتاب هنا كتابٌ في السّماء و هو اللّوح المحفو التّوراة و الإنجيل فيهما ذكر القرأن و من ينزل عليه و الحقّ أنّ الكتاب هو اللّوح

المحفوظ فأنّ الكتاب المكنون الذّي مصونٌ عن الخطأ و التّغيير و الكتاب في الآية بمعنى المكتوب و المعنى أنّ القرآن مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ أي هو مصون عن الخطأ و غيره من الأفات.

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ إختلف المفسّرون في معنى المسّ في الآية فقال بعضهم المراد بالمسّ هو المسّ بالجارحة.

و قال الأخرون المراد به المسّ بحسب المعنى، و هكذا في المطهّرون، فمن حمل المسّ بالجارحة حمل التّطهير على الطّهارة من الحدث و الخبث و على هذا فالمعنى لا يجوز للحائض و الجنب و المحدث أن يمسّ القرأن المكتوب في الكتاب الّذي فيه القرأن أو اللّوح، و أمّا من حمل المسّ على المعنى فقد حمل المطهّرون، على الملائكة لأنّهم مطهّرون عن الذُّنوب و أضاف إليهم إبن زيد الأنبياء و الرُّسل لمكان عصمتهم فجبرئيل النّازل بهم مطهّر و الرُّسل الذّين يجيئهم بذلك مطهّرون، و قيل المراد بهم السَّفرة الكرام البررة، و قيل الضّمير في **لَّا يَمَسُّهُۥٓ** عائد على اللّوح المحفوظ أي لا يمسّ اللّوح إلاّ المطهّرون من الملائكة و المراد بالمسّ النُّزول به أي لا ينزّل به إلاّ المطّهرون، من الملائكة على الرُّسل من الأنبياء و الأقوال في الباب كثيرة و أحسن الأقوال ما قاله في التّبيان و هو أنّ الضّمير في قوله: **لَّا يَمَسُّهُۥٓ** عائد على القرأن و لذلك وصفه بأنّه مصون.

و قال الزّمخشري في الكشّاف **فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ** أي مصون من غير المقربين من الملائكة لا يطّلع عليه من سواهم و هم المطهّرون من جميع الأدناس أدناس الذّنوب و ما سواها إن جعلت الجملة صفة، لكتابٍ مكنون، و هو اللّوح و إن جعلتها صفة للقرأن فالمعنى لا ينبغي أن يمسّه إلاّ من هو على الطّهارة من النّاس يعني مسَّ المكتوب منه و من النّاس من حمله على القراءة أيضاً إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنا أقول إختلاف الأقوال في معنى الآية و أنّه ما المراد بالمَس يرجع إلى كلمة لا، أهي نافية أم ناهية فعلى القول بأنّها نافية و هو المشهور بين المفسّرين فلابدّ من حمل المسّ على المعنى دون الجارحة ضرورة أنّ القرأن قد يمسُّه من لا يتّصف بالطّهارة من الحدث و الخبث حتّى أنّ الكافر قد يمسّه بجارحته أي يده و هذا غير مناسبٍ للنّفي لأنّ اللّه نفى عنه المسّ مع أنّ المسّ بدون الطّهارة موجودٍ في جميع الأوقات حتّى بين الكفّار فضلاً عن المسليمن و إذا كان كذلك فلابّد من حمل المَس على المعنى و هو العلم بالقرأن بقدر الإمكان و إن شئت قلت المسّ معناه ليس مسَّ ألفاظه و حروفه و من المعلوم أنّ المسّ بهذا المعنى لا يتحصل إلاّ للمطهّرين من الذّنوب و هم الملائكة و الأنبياء و الأوصياء من البشر الّذين أذهب اللّه عنهم الرِّجس و طهّرهم تطهيراً و على هذا فعلم القرأن عند الرّسول و أهل بيته المشار إليهم في الآية و هم الأئمّة الأثنى عشر الذّين جعلهم الرّسول عدلاً للقرن في الحديث المتّفق عليه و هو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي الحديث.**

فنفي المسّ بهذا المعنى أمرٌ معقول لا ريب فيه هذا بناءً على أن تكون لا نافية كما هو المشهور عندهم و أمّا إذا قلنا أنّها أي «لا» ناهية فالمعنى أنّ اللّه نهى عن مسَّ الكتاب بغير الطّهارة فالجنب و الحائض و المحدث لا يجوز لهم أن يمَّسوه و من المعلوم أنّ المراد من المسّ على هذا مسّ حروفه و ألفاظه و بعبارةٍ أخرى مسّ كتابة القرأن فعلى هذا مدلول الآية هو تحريم مسّ كتابة القرأن بعير طهارةٍ، و يمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون (لا) نافية أيضاً بأن تكون الجملة إخباراً أريد به الإنشاء و هو أبلغ من الإنشاء على ما قيل فثبت و تحقَّق من جميع ما ذكرناه أنّ المراد بالمسّ أن كان العلم به و أن شئت قلت مسّ المعنى الذّي هو كناية عن العلم به بقدر الإمكان، فكلمة لا، نافيّة إذ لم يتَّحصل ذلك إلاّ للمعصوم من الملائكة و الأنبياء و الأوصياء.

و أن كان المراد المسّ مسّ كتابة القرأن، فيحمل، لا، على النَّهي أي منع اللّه تعالى مسّ كتابة القرأن أي ألفاظه و حروفه عن غير المطَّهر من الحدث و الخبث و الكفر و هذا هو الأقوى في النَّظر و أن كان النَّفي أقوى عند التَّأمل و الجمع مهما أمكن أولى من الطَّرح و هو أن يقال أنّ الآية ظاهرة في الأخبار و لكن أريد به الإنشاء كما إحتمله بعض المفسّرين و اللّه أعلم بما قال و أراد قال اللّه تعالى: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**(١).

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أي هو تنزيلٌ من ربّ العالمين و يحتمل أن يكون رفع التّنزيل على أنّه صفة، لقرآن أي أنّ القرأن الّذي وصفناه بأنّه في كتابٍ مكنون، لا يمسّه إلاّ المطهّرون، تنزيلٌ من ربّ العالمين أي أنّه منّزلٌ من عند ربّ العالمين على عبده و رسوله.

أَفَبِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ

أي مكذّبون و المدهن الّذي يجري في الباطل على خلاف الظّاهر و هو بعينه معنى النّفاق فالمدهن، المنافق و أن كان هو أيضاً يرجع إلى المكذّب لأنّ المنافق يكذب فيما يقول لأنّه يقول بلسانه ما ليس في قلبه، و المراد بالحديث في الآية القرأن لقوله تعالى: **ٱللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا**(٢) و مَعناه، معنى الحدوث شيئاً بعد شيئ، و منه الحادث في مقابل القديم فمن قال معنى الحديث الخبر، و ذلك لأنّ اللّه أخبر فيه بما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة، يرجع قوله هذا إلى ما ذكرناه لأنّه تعالى أخبر فيه بشيءٍ بعد شيئ أي حكم بعد حكم، و الهمزة للإستفهام على سبيل التّوبيخ و التّقريع فكأنّه تعالى و بّخهم على تكذيبهم القرأن و قال أفبهذا الحديث، أعني به القرأن الّذي لا شكّ في صحتّه و أنّه منزلٌ من عند اللّه، مدهنون، أي مكذّبون على سبيل النّفاق.

١- الاسراء = ٨٥ ٢- الزُمر = ٢٣

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ

قيل المراد بالرّزق في الآية الحظّ و النّصيب أي و تجعلون حظّكم من الخير الّذي هو كالرّزق لكم أنّكم تكذّبون، و قيل التّقدير تجعلون شكر رزقكم، و قيل الرّزق بمعنى الشّكر أي و تجعلون شكركم تكذيب القرأن.

أقول و الّذي عندي في المقام هو أنّ الرّزق بمعناه المصطلح عند العقلاء و هو غير مختصٍّ بما يصل إلى الجوف من المأكول و المشروب كما هو كذلك عند العوام، بل هو يقال للعطاء الجاري دنيّوياً كان أم أخرويّاً، و يقال للنّصيب تارةً، ولما يصل إلى الجوف و يتّغذى به تارةً أخرى، يقال أعطى السّلطان رزق الجند، فالمراد به ما يصل إلى الجوف و يتّغذى به، و يقال رزقت علماً، فالرّزق تارةً يراد به ما يتّغذى به و تارةً يراد به ما يتحلّى به الإنسان كالعلم و الحلم و الزُّهد و أمثالها فأن هذه الأمور كلّها من العطاء الجاري من عند اللّه فكما أنّ البدن محتاج إلى الغذاء و هو رزقه كذلك الرُّوح محتاج إلى الغذاء.

و من المعلوم أنّ غذاء الرُّوح ليس من الماديّات إذا عرفت هذا فالرِّزق من اللّه تارةً يكون لأجل تغذية الجسم و نعبّر عنه بالمأكول و المشروب و الأولاد و المال و غيرها و تارةً يكون لأجل تغذية الرُّوح و هو الفضائل النفسانيّة و أشرفها و أفضلها العلم و أفضل العلوم هو العلم بكتاب اللّه و سنّة نبيّه لأنّ في الكتاب علم الأخرين كما أنّ فيه علم الأوّلين إذ به حياة القلب كما أنّ الرّزق المادّي سبب حياة البدن، و على هذا فمعنى الآية و تجعلون حظّكم و نصيبكم من الرّزق المعنوّي العقليّ الّذي به حياتكم و بقاءكم واقعاً في الدّنيا و الأخرة، تكذيب القرأن الّذي بالعمل بأحكامه تحصل سعادة الدّارين و بتركه شقاوتهما و على هذا فلا تقدير في الآية و لا تأويل.

فَلَوْلَآ إِذاَ بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ، وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ، وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ

لولا، بمعنى هلاّ، أي هلاّ إذا بلغت النّفس أو الرُّوح، الحلقوم و هو كناية عن حالة الإحتضار قريباً من الموت و أنتم، **الواو** للحال أي و الحال أنتم **حِينَئِذٍ** أي حين الإحتضار تنظرون ما أنتم فيه من شدّة النّزع بلوغ أمري و سلطاني أو تنظرون إلى الأهل و العيال، أو إنّهم ينظرون إليكم و يرونكم على تلك الصُّورة.

وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أي نحن أقرب إلى المحتضر منكم و لكن لا تبصرون ذلك.

فَلَوْلَآ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، تَرْجِعُونَهَآ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أي غير مجزيّين بثواب اللّه أو عقابه على ما تدعونه من إنكار البعث و النُّشور **تَرْجِعُونَهَآ** أي تردُّون هذه النّفس إلى موضعها **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في قولكم، و إدّعائكم فقوله: **تَرْجِعُونَهَآ** جواب لقوله: **فَلَوْلَآ** هكذا فسَّروا الكلام.

و قال صاحب الكشّاف في تفسيره هذه الأيات، و تجعلون شكركم لنعمة القرأن أنّكم تكذّبون به و قيل نزلت في الأنواء و نسبتهم السُّقيا إليها و الرّزق المطر يعني و تجعلون شكر ما يرزقكم اللّه من الغيث أنّكم تكذّبون بكونه من اللّه حيث تنسبونه إلى النّجوم و هو قولهم في القرأن شعرٌ و سحرٌ و إفتراء المطر هو من الأنواء ثمّ قال ترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم أن كنتم غير مدينين و **فَلَوْلَآ** الثّانية مكرّرة للتّوكيد و الضّمير في **تَرْجِعُونَهَآ** للنّفس و هي الرّوح، و فى **أَقْرَبُ إِلَيْهِ** للمحتضر **غَيْرَ مَدِينِينَ** غير مربوبين من دان السّلطان الرّعية إذا ساسهم و نحن أقرب اليه منكم يا أهل البيت بقدرتنا و علمنا أو بملائكة الموت، و المعنى في جحودكم أفعال اللّه تعالى و آياته في كلّ شئ، و إن أنزل عليكم كتباً معجزاً قلتم سحر و إفتراء، و أن أرسل اليكم رسولاً قلتم ساحرٌ كذّاب و أن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهبٍ يؤدّي الى الإهمال و التّعطيل، فمالكم لا ترجعون الرُّوح الى البدن بعد بلوغه الحلقوم أن لم يكن ثمّ قابضٌ و كنتم صادقين في تعطيلكم و كفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف حقٌّ بل هو أحسن ما قيل في المقام و الفرق بين قوله و قولنا هو أنّه حمل الرزّق على معناه العرفي الّذي يحصل بسبب الغيث و المطر و نحن حملناه على الرزّق العقلي المعنّوي و هو العلم و الأمر سهلٌ بعد ثبوت إنكارهم الرزّق بكلا المعنيين.

فَأَمَّآ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ

عند اللّه بسبب الطّاعات و ترك المحرّمات.

فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّتُ نَعِيمٍ

قرأ يعقوب، فَرُوحٌ بضمّ الرّاء و الباقون بفتحها و هما لغتان قال الرَّوح بفتح الرّاء الرّاحة و بضمّها، حياة دائمة لا موت معها، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ للمقرّبين، روحٌ و ريحان و جنّة نعيم، فالرَّوح الرّاحة و الرَّيحان الرزّق، و قيل الرّيحان المشموم و كلّ نباتٍ طيّب الرّيح و قيل الرَّوح الفرح، و قيل هو النَّسيم الّذي تستريح اليه النّفس، و جنّة نعيمٍ، فالجنّة البستان و النَّعيم أنواع الفواكه و الثّمار أي‌لهم جنّة فيها أنواع النِّعم.

فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ

قيل دخلت كاف الخطاب كما يدخل في، ناهيك به شرفاً، و حسبك به كرماً، أي لا تطلب زيادة جلالة على جلالةٍ ذكره في التّبيان و قيل معناه لست ترى منهم إلاّ ما تحبّ من السّلامة فلا تهمّ لهم و لا تغتمّ فانّهم يسلمون من عذاب اللّه، و قيل معناه سلام لك منهم أي أنت سالمٌ من الإغتمام لهم و قيل أنّ أصحاب اليمين يدعون لك يا محمّد بأن يصلّي اللّه عليك و يسلم و الأقوال المحتملة كثيرة و الّذي يخطر بالبال في معنى الكلام هو أنّهم أي أصحاب اليمين يسلمون عليك لأنّك هديتهم و أرشدتهم الى طريق الحقّ في الدُّنيا فهم لم يبلغوا الى هذا المقام إلاّ بهدايتك إيّاهم و أنمّا قلنا ذلك لأنّ العبد

لا يصل الى هذا المقام إلاّ ببركة النبّوة و متابعة النّبي قولاً و فعلاً، و إذا كان كذلك فحقٌّ لهم أن يسلموا عليه.

وَ أَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ عن طريق الحقّ.

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ أي نزلهم الّذي أعدَّ لهم يوم القيامة من الطّعام و الشّراب هو من ماء حميمٍ أي الماء الحارّ.

وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ أي إحراقهم بنار جهنّم يقال صلاّه اللّه تصليّةً إذا ألزمه الإحراق بها فالتّقدير، فله نزلٌ من حميمٍ (إنّ هذا) الّذي ذكرناه من الثّواب و العقاب.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ الّذي لا شكّ فيه.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ أي نزِّهه عمّا لا يليق به و أذكره بإسمه العظيم، و العظيم صفة اللّه إذا ما سواه حقير في جنب عظمته.

■

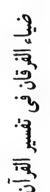

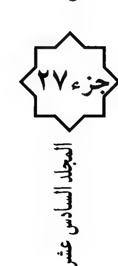

سُورَةُ ٱلْحَدِيدِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ
يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَ ٱلْآخِرُ وَ ٱلظّٰاهِرُ وَ ٱلْبٰاطِنُ وَ هُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ
ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ
يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا
يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ هُوَ مَعَكُمْ
أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهٰارَ فِي ٱللَّيْلِ
وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِٱللّٰهِ وَ
رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمّٰا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
فَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَ
مٰا لَكُمْ لٰا تُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَ ٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا
بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثٰاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلىٰ عَبْدِهِۦٓ اٰياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ إِنَّ ٱللّٰهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴿۹﴾ وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ لِلّٰهِ مِيراثُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلًّا وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلْحُسْنىٰ وَ ٱللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿۱۰﴾ مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿۱۱﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِناتِ يَسْعىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْرٰيكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿۱۲﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنافِقُونَ وَ ٱلْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱنْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرٰآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذابُ ﴿۱۳﴾ يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلىٰ وَ لٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ٱرْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمانِيُّ حَتّٰى جاءَ أَمْرُ ٱللّٰهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ ﴿۱۴﴾ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوٰيكُمُ ٱلنّارُ هِيَ مَوْلٰيكُمْ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿۱۵﴾

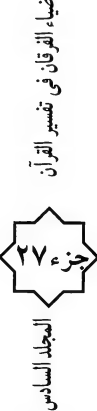

◀ اللّغة

سَبَّحَ: التَّسبيح التَّنزيه.

ٱسْتَوَىٰ: الإستواء الإستيلاء.

يَلِجُ: يقال وَلَج يَلج وُلوُجاً، الوُلُوج الدُّخول.

يَعْرُجُ: العرُوج الصُّعُود إلىٰ الفَوق يقال عَرَج به إذا صَعد.

يُولِجُ: الإيلاج الإدخال.

لَرَءُوفٌ: الرّأفة الرِّقة و الرّحمة.

نَقْتَبِسْ: الإقتباس الأخذ.

وَ ٱرْتَبْتُمْ: الإرتياب الشّك.

ٱلْأَمَانِيُّ: جمع واحدها أمنيّة الآمال.

مَأْوَىٰكُمُ: المأوى المقام و المكان.

بِئْسَ: من أفعال الذَّم.

◀ الإعراب

يُحْيِ وَ يُمِيتُ يجوز أن يكون حالاً من الضّمير المجرور و العامل الإستقرار و يجوز فيه الإستئناف وَ ٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ الجملة حال من الضّمير في تؤمنون يَوْمَ تَرَى هو ظرف ليضاعف و يَسْعَىٰ حال و بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ظرف ليسعى أو حال من النُّور، بُشْرَىٰكُمُ مبتدأ و جَنَّٰتٌ خبره وَرَآءَكُمْ إسم الفعل فيه ضمير الفاعل أي إرجعوا إرجعوا بَاطِنُهُ الجملة صفة، لبابٍ أو لسورٍ يُنَادُونَهُمْ حال من الضّمير في بينهم أو مستأنف مَوْلَىٰكُمْ قيل المعنى أولى بكم و قيل هو مصدر مثل المأوى، و قيل هو مكان.

◀ التّفسير

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

قد مرَّ الكلام في معنى التَّسبيح غير مرّةٍ و قلنا أنّ السَّبح في الأصل مرّ السَّريع في الماء و في الهواء و أستعير لمرّ النُّجوم في الفلك نحو قوله تعالى: **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**(۱) و لجري الفرس نحو قوله: **وَ ٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا**(۲) و لسرعة الذّهاب في العمل نحو **إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا**(۳) و التَّسبيح تنزيه اللّه تعالى عمّا لا يليق بشأنه و أصله المرّ السَّريع في عبادة اللّه تعالى ثمّ أنّه أي التَّسبيح جعل علماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّةً و منه قوله تعالى في يونس النّبي **فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ**(۴).

إذا عرفت هذا فنقول أنّ الأشياء كلّها تسبّح له تعالى بعضها بالتَّسخير و بعضها بالإختيار فقوله تعالى: **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** إشارة إلى ما ذكرناه من العموم و الدّليل على ذلك كلمة (ما) التّي تطلق على ذوي العقول و غيرهم فلو كان التَّسبيح مختصّاً بذوي العقول لقال من في السّموات و الأرض و الفرق بين تسبيح ذوي العقول و غيرهم أنّ ذوي العقول يسبّحون اللّه بالإختيار و غير ذوي العقول من الجماد و النّبات و الحيوان و النُّجوم و غيرها لا بالإختيار و يعبّر عن هذا القسم من التّسبيح بلسان التّكوين و كيف كان لا شكّ أنّ التّسبيح تشريعاً أو تكويناً حاصل لجميع الموجودات قال اللّه تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**(۵) و قوله: **وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** معناه هو القادر الذّي لا يعجزه شئ و العليم بوجوه الصّواب في التّدبير و لا تطلق صفة العزيز الحكيم على غيره تعالى إذ كلّ موجودٍ غيره مقهورٌ مغلوبٌ.

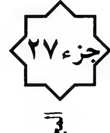

۱- الانبياء = ۳۳
۲- النّازعات = ۳
۳- المزمّل = ۷
۴- الصّافات = ۱۴۳
۵- الاسراء = ۴۴

لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

كأنّه قيل لم سبّح له ما في السّموات و الأرض، فأجاب اللّه بقوله: **لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** و ما سواه مملوكٌ له كائناً ما كان و حقّ المملوك أن ينزّه خالقه بلسان حاله أو بلسان مقاله عمّا لا يليق بشأنه و حيث أنّ ملك السّموات و الأرض له تعالى فجميع الخلق مملوكه و اللاّم في، له، للملك أو الإختصاص، ثمّ قال تعالى: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** أي الحياة و الممات بيده و هو على كلّ شيءٍ قدير، و الدّليل على عموم قدرته عموم الجعل و ذلك لأنّ المجعوليّة عامّة لجميع الممكنات لعموم ما هو مناطها و هو الإمكان و إذا كان الكلّ لابدّ من مجعوليّتها لإمكانها و لا يصلح لإعطاء الوجود إلاّ واجب الوجود لأنّ غيره لا يخلو عن ملابسة قوّة سواء كانت القوّة إمكاناً ذاتيّاً أو إستعداديّاً مع عدم إفادة العدم للوجود و نفي إعطاء القوّة للفعل ثبت عموم قدرته على كلّ شيءٍ هكذا قرّر الدّليل بعض الفلاسفة.

و نحن نقول لا نحتاج إلى ما ذكروه في المقام في إثبات المرام من طريق العقل و ذلك لأنّ الضّعف مقابلٌ للقدرة بمعنى أنّهما متقابلان، و على هذا فعدم القدرة على شيءٍ مساوق للضّعف بل هو عينه كما أنّ عدم الضّعف مساوق للقدرة و على هذا فالخالق أن كان قادراً على كلّ شيءٍ فهو المطلوب و إن لم يقدر كلاًّ أو بعضاً فهو ضعيف بالنّسبة إلى ما لا يقدر على إيجاده و الضّعف من شئون الممكن لأنّ الضّعيف محتاجٌ إلى غيره في رفع ضعفه و الإحتياج مساوق للإمكان بل هو عينه و قد فرضناه واجباً دفعاً للدّور و التّسلسل وللبحث في هذه المسائل مقامٌ أخر بل لا نحتاج إلى الأقوال بعد ثبوت القدرة العامّة بنصّ الكتاب و إجماع المسلمين.

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَ ٱلْاٰخِرُ وَ ٱلظّٰاهِرُ وَ ٱلْبٰاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

قال صاحب الكشّاف **هُوَ ٱلْأَوَّلُ** أي هو القديم الّذي كان قبل كلّ شيءٍ **وَ ٱلْآخِرُ** الّذي يبقى بعد هلاك كلّ شيءٍ **وَ ٱلظَّاهِرُ** بالأدلّة الدّالة عليه (والباطن) لكونه غير مدركٍ بالحوّاس إنتهى.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ماهذا لفظه أختلف في معاني هذه الأسماء و قد بيّناها في الكتاب الأسنى و قد شرحها رسول اللّه شرحاً يغني عن قول كلّ قائل.

فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، اللّهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء و أنت الأخر فليس بعدك شيء، و أنت الظّاهر فليس فوقك شيءٍ، و أنت الباطن فليس دونك شيء إقض عنّا الدّين و أغننا عن الفقر، عني بالظّاهر الغالب و بالباطن العالم و اللّه أعلم.

أقول أمّا قوله: **هُوَ ٱلْأَوَّلُ** بتقديم المسند إليه على المسند و هو يفيد الحصر فالمعنى أنّ الأوليّة منحصرة به تعالى و هكذا في قوله: **وَ ٱلْآخِرُ وَ ٱلظَّاهِرُ وَ ٱلْبَاطِنُ** كما هو مقتضى العطف و التّقدير و هو الأخر و هو الظّاهر و هو الباطن أي أنّ هذه الصّفات منحصرة به تعالى لا يتّصف بها غيره فقوله: **هُوَ ٱلْأَوَّلُ** لأنّ المفروض أنّه خلق جميع الموجودات و الخالق مقدّم على مخلوقه فلا يعقل أن يكون شيئاً قبله من الموجودات و إلاّ يلزم تقدّم المعلول على علّته و هو محال و إذا إستحال تقدُّم شيءٍ عليه فهو الأوّل فالمطلوب ثابت.

و أمّا أنّه تعالى هو الأخر، معناه أنّه أخر الأشياء و أنّها ترجع إليه فلو لم يكن أخراً لها فلا محالة يكون الأخر موجوداً غيره إذ لا يعقل أن تكون سلسلة الموجودات لا أخر لها فالأخر أن كان الأوّل فهو المطلوب و أن كان غيره فهو محالٌ فأنّ من كان إبتداء الخلق منه فالإنتهاء أيضاً يرجع إليه فأنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله فهو الأخر كما هو الأوّل فأن إلى ربّك المنتهى و إليه الرُّجعى.

و أمّا أنّه هو الظّاهر، فلأنّ ظهور جميع الأشياء بـه إذا لا نـعني بـالظُّهور إلاّ الوجود فأن المعدوم لا ظهور له و هو الّذي أوجد الأشياء و أظهرها في الخارج و من كان ظهور الغير به فهو أظهر منه ضرورة أنّ الظُّهور الذّاتي، مقدّمٌ على الظّهور الغيري و قد ثبت أنّ معطي الشّئ لا يكون فـاقداً له و عـلى هـذا فـمن أعـطى الظُّهور بغيره هو أظهر من الغير و بعبارةٍ أخرى الظُّهور مختصٌّ به ظهور واقـعاً لغيره إلاّ بتبع ظهوره و الظّهور التَّبعي كالعدم و إن شئت قلت هو كالظلّ بالنّسبة إلى ذي الظلّ قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَ لَـوْ شَآءَ لَـجَعَلَهُ سَاكِنًا**[1] فالأشياء ظاهرة به و هو تعالى ظاهرٌ بذاته فهو الظّاهر حقيقةً لا غيره.

و أمّا أنّه هو الباطن، فلقصور بصائرنا عن إكتناه نوره إذ المحيط الحقيقي لا يصير محدوداً فالحجاب مرجعه إلى أمرٍ عدميّ و هو الإدراك و بـعبارةٍ أخـرى أنّه تعالى ظاهر بصفاته و أثاره و باطنٌ بحقيقة ذاته فهو الظّاهر و الباطن أي في عين ظهوره باطنٌ أيضاً لما علمت من قصور المدارك و قد أشار السَّبزواري إلى هذا المعنى في منظومته حيث قال:

يامن هو إختفى لفرط نوره	الظّاهر البـاطن فـي ظـهوره
بنور وجهه إستتار كلّ شئٍ	و عند نور وجهه سواه فـئ

و قال مولانا الحسين الشّهيد عليه السّلام في دعاء عرفة، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك أيكون لغيرك من الظُّهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك متى غبت حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدُّل عليك و متى بعدت حتّى تكون الأثار هي التّي توصل إليك عميت عينٌ لا تراك و لا تزال عليها رقيباً و خسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً.

وقال أيضاً تعرَّفت لكلّ شئٍ فما جهلك شئ، و قال تعرَّفت إلّي في كلّ شئٍ فرأيتك ظاهراً في كلّ شئٍ فأنت الظّاهر بكلّ شئٍ.

١- الفرقان = ٤٥

و الأخبار و الأثار في الباب كثيرة جدّاً و فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب و أمّا قوله: **وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فمعناه واضح و قد أثبتنا عموم علمه في مواضع كثيرة فيما مضى من الأيات فلا نطيل الكلام في المقام.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أي أنّ اللّه الّذي سبَّح له ما في السّموات و الأرض و هو الأوّل و الأخر و هو الّذي خلق السّموات و الأرض على جهة الإختراع و الإنشاء **فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** أي في مدّة ستّة أيّام قال المفسّرون لما في ذلك من إعتبار الملائكة بظهور شيءٍ بعد شيءٍ على سبيل التّدريج و لما في الإخبار به من المصلحة للمكلّفين ولولا ذلك لخلقها في لحظةٍ واحدة لأنّه تعالى قادر على ذلك من حيث أنّه قادرٌ لنفسه **ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** أي إستولى عليه و منه قول الشّاعر:

قد إستوى بشرٌ على العراق — من غير سيفٍ و دم مهراقٍ

أمّا أنّه تعالى خلق السّموات و الأرض في ستّة أيّام فقد تكلّمنا فيه في سورة الأعراف و غيرها و قلنا أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى المراد بالستّة و المفروض أنّه كان قادراً على خلقهما في لحظةٍ واحدة لعموم قدرته و ذكرنا أقوالهم و قلنا أنّ أحسن الوجوه في ذلك الإخبار به من المصلحة للمكلّفين و ذلك لأنّ التّدريج في الخلق من لوازم عالم الأسباب و لا يختّص بالسّموات و الأرض فقط بل جميع الموجودات المركَّبة كذلك ألا ترى أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة و هكذا إلى قوله فكسوناه لحماً فتبارك اللّه أحسن الخالقين و هكذا الحيوان و النّبات و لا شكّ أنّ اللّه كان قادراً على إيجاد الإنسان و غيره في لحظةٍ واحدة و هكذا الأمر في السّموات و الأجرام.

نعم في المجرّدات كالعقول و النّفوس فالإيجاد دفعيّ غير تدريجيّ لخروجها عن عالم الأسباب و المادّة و في بعض الأخبار الواردة عن أهل البيت معنى ستَّة أيّام ستَّة أوقات، و هو الحقّ إذ لم يكن قبل خلق السّموات ليلٌ نهارٌ لأنّهما من آثار الشّمس و لم يكن هناك شمس فلم يكن هناك نهاراً و لا ليلاً فأوّل الإمام عليه السلام اليوم بمقداره.

و عن كتاب التّوحيد و العيون بأسناده عن أبي الصّلت الهروي قال سأل المأمون علّي بن موسى الرّضا عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجّل: هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فقال عليه السلام أنّ اللّه تبارك و تعالى خلق العرش و الماء و الملائكة تستدل بأنفسها و بالعرش و بالماء على اللّه عزّ وجّل ثمّ جعل عرشه على الماء ليظهر بذلك قدرته للملائكة فتعلم أنّه على كلّ شيٍ قدير ثمّ رفع العرش بقدرته و نقله فجعله فوق السّموات السّبع ثمّ خلق السّموات و الأرض في ستَّة أيّامٍ و هو مستولٍ على عرشه و كان قادراً على أن يخلقهما في طرفة عينٍ و لكنَّه عزّ وجلّ خلقهما في ستَّة أيّامٍ ليظهر للملائكة ما يخلقه منها شيئاً بعد شيٍ فتستدلّ بحدوث ما يحدث على اللّه تعالى ذكره مرَّةً بعد مرَّةٍ و لم يخلق اللّه العرش لحاجةٍ به إليه لأنّه غنّيٌ عن العرش و عن جميع ما خلق لا يوصف بالكون على العرش لأنّه ليس بجسمٍ تعالى عن صفة خلقه علّواً كبيراً إنتهى[1].

و في خبر إبن الإسلام قال: للنَّبي أخبرني عن أوّل يوم خلق اللّه عزّ و جّل قال النَّبي صلى الله عليه و آله و سلم يوم أحد قال لم سمّي يوم الأحد قال عليه السلام: لأنّه أحدٌ محدودٌ، قال فالإثنين قال ـ هو اليوم الثّاني من الدُّنيا قال: و الثّلثاء قال صلى الله عليه و آله و سلم هو الثّالث من الدُّنيا، قال فالأربعاء قال صلى الله عليه و آله و سلم هو

١- بحارالأنوار ط قديم ج ١٤ ص ١٨

يوم الرّابع من الدُّنيا قال فالخميس قال صلى الله عليه وآله وسلم هو يوم الخامس من الدُّنيا و هو يومٌ أنيسٌ لعن فيه إبليس و رفع فيه إدريس قال فالجمعة قال صلى الله عليه وآله وسلم هو يومٌ مجموعٌ له النّاس و ذلك يومٌ مشهود ويوم شاهد و شهود قال فالسَّبت قال صلى الله عليه وآله وسلم مسبوت و السَّبت معَّطل الخبر[١].

قال في القاموس السَّبت القطع، و قال في النّهاية قيل سمّي السَّبت لأنّ اللّه تعالى خلق العالم في ستَّة أيّامٍ آخرها الجمعة و أنقطع العمل فسمّي يوم السّابع يوم السَّبت إنتهى.

و في بعض الأخبار خلق السّماء و جنّاتها و الملائكة يوم الخميس و خلق الأرض يوم الأحد و خلق دوابّ البرّ و البحر يوم الإثنين و خلق الشّجر و نبات الأرض و أنهارها و ما فيها من الهوام في يوم الثّلثاء و خلق الجانّ و هو أبو الجنّ يوم السَّبت و خلق الطّير في يوم الأربعاء و خلق آدم في ستَّة ساعات من يوم الجمعة ففي هذه السَّتَّة أيّام خلق اللّه السّموات و الأرض و مابينهما، و أمّا العرش فهو في الأصل السَّرير، و أمّا عرش الرّحمن فلا علم به إلاّ لخالقه الّذي خلقه.

يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا

فهو إشارة إلى أنّه تعالى عالمٌ بجميع الأشياء لأنّه قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً، إذ لا يعقل أن يكون خالق الشّيء جاهلاً به مضافاً إلى أنّ الجهل نقص و النَّقص من شئون الممكن، فالواجب منّزهٌ عنه إذ لو كان جاهلاً فهو محتاج إلى رفع نقصه و كلّ محتاج ممكن الوجود، ثمّ أنّ الولوج الدّخول فمعنى قوله ما يلج في الأرض ما يدخل فيها من مطرٍ و غيره و يحتمل أن يكون المراد به الأموات لأنّ الإنسان بعد موته يدخل في القبر و حمل اللّفظ على العموم أولى.

١- ج ١۴ ص ١٨

و قوله: **وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا** قيل هو النّبات و الأولى حمل اللّفظ أيضاً على العموم ليشمل النّبات و المعادن و الكنوز و الأجساد من القبور يوم البعث ذلك فأنّه تعالى عالمٌ بها، و قوله و ما ينزل من السّماء قيل هو المطر و الملك و الرّزق و غيرها.

و قوله: **مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا** فالعروج الصُّعود قيل المراد به الملائكة و أعمال العباد لقوله تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ**[١].

و قوله: **وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مٰا كُنْتُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** المراد بالمعيّة معيّة العلّة مع معلولها و الخالق مع مخلوقه و ذلك لأنّ المعلول كما يحتاج إلى العلّة كذلك محتاج إليها في بقاءه فلا يعقل إنفكاك المعلول من علّته و اللّه تعالى خلق الخلق أي أوجدهم و أخرجهم من العدم إلى الوجود و هذا لا يكفي في بقاء الخلق بعد الوجود بل يلزم دوام الفيض من الفيّاض على الإطلاق على المستفيض و هو الخلق فلو قطع الإفاضة لم يبق من الخلق عينٌ و لا أثر و هذا معنى قولهم الممكن الباقي مفتقرٌ إلى المؤثّر، فالمعيّة في الآية عبارة عن داوم الفيض من الفيّاض و عدم إنقطاعه عن المستفيض كما ورد في الدّعاء «يادائم الفضل على البّرية» و هذه القاعدة ثابتة في العلّة التّامة و أمّا العلّة النّاقصة كالبنّاء بالنّسبة إلى البناء فلا تجري القاعدة فيها و لذلك يبقىٰ البناء بعد موت البنّاء و السّرير بعد موت صانعها و الخطّ بعد موت كاتبها، نعم النّار علّة تامّة لوجود الحرارة فوجود الحرارة موقوفٌ على وجود النّار و بقاءها على بقاءها و من هذا القبيل الزّوجية للإربعة و البرودة للماء و السُّكر للخمر و أمثال ذلك، و قوله: **وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** معناه واضح إذ هو من فرُوع المعيَّة و اللّه أعلم.

لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ

١- فاطر = ١٠

أمّا أنّ له ملك السّموات و الأرض، فلأنّه تعالى خلقهما و أوجدهما فهو المالك لما خلقه حقيقةً بل لا مالك لهما إلاّ هو و قد مرَّ الكلام فيه مراراً و أمّا أنّ الأمور ترجع إليه فلأنّ المراد بالأمور أمور الخلق و قد ثبت عقلاً أنّ كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، و أنّ إلى ربّك الرُّجعى و هو المبدء و المنتهى و له الأخرة و الأولى.

يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

الإيلاج الإدخال أي يدخل اللّيل في النّهار، و يدخل النّهار في اللّيل، قيل في معناه أنّ ما ينقص من اللّيل يزيده في النّهار و ما ينقص من النّهار يزيده في اللّيل بحسب ما قدّره على علم من مصالح عباده، و قيل معناه أنّ كلّ واحدٍ منهما يتّعقب صاحبه و هو علّيم ذات الصُّدور، أي هو تعالى عالم بأسرار خلقه و ما تخفونه في قلوبهم من الضّمائر و الإعتقادات لا يخفي عليه شيءٌ منها.

اٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ

أمر اللّه المكلّفين من النّاس بالإيمان باللّه و رسوله أوّلاً و بالإنفاق في سبيل اللّه ممّا أعطاهم من النّعم ثانياً ثمّ أخبر بأنّ من أمن و أنفق فله أجرٌ كبيرٌ أي كثيرٌ يوم القيامة و أنّما أمر اللّه المكلّفين أوّلاً بالايمان و ثانياً بالإنفاق لأنّ الإيمان في رأس جميع الأمور و قد قال اللّه تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**[1] فالإنفاق و هكذا غيره من الأعمال و الأقوال إذا صدر عن المكلّف المؤمن باللّه و رسوله يترتّب عليه الثّواب يوم القيامة و أمّا إذا لم يكن كذلك فلا يترتّب

۱- المائدة = ۲۷

عليه شيءٍ ضرورة أنّ العمل إذا كان للّه فالثّواب منه و إذا كان لغيره فالأجر على الغير.

و في قوله: **مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ** إشارة إلى نقطةٍ لطيفة ينبغي التّوجه إليها و هى أنّ الأموال التّي بأيديكم وصلت إليكم بسبب الوراثة عمَّن كان قبلكم من الأباء و غيرهم من النّاس فكما أنّها نقلت منهم إليكم بالوراثة و غيرها كذلك تنتقل إلى من بعدكم بعد موتكم أو في حياتكم بالبيع و الشّراء و الحاصل أنّ أموال الدّنيا للدُّنيا وللّه ميراث السمّوات و الأرض و إذا كان كذلك فينبغي لصاحب المال أن يغتنم الفرصة في الدُّنيا و ينفق منها في سبيل اللّه فأنّ المال في الحقيقة مال اللّه و الفقراء عيال اللّه، و صاحب المال أمين اللّه في الدّنيا قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **إغتنموا الفُرص فأنّها تَمُر مَرَّ السّحاب.**

و لذلك قال تعالى: **فَالَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** أي ثوابٌ عظيم.

و أعلم أنّ المفسّرين فسَّروا الإنفاق في الآية بالإنفاق بالمال فقط و الآية ساكتة عنه فأنّ اللّه لم يقل و أنفقوا من أموالكم بل قال و أنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه و كلمة (ما) في قوله: **مِمَّا** تفيد العموم أي أنفقوا من كلّ شيءٍ جعلكم مستخلفين فيه من النِّعم، من المال و العلم و القدرةو بالجملة أنفقوا من جميع النِّعم التّي جعلكم مستخلفين فيه و أنّما قلنا ذلك لأنّ الإنفاق لا يختصّ بالمال فالعالم ينفق من علمه و القادر من قدرته فكما أنّ صاحب المال لا يجوز له الإمساك و البخل من انفاق ماله كذلك لا يجوز للعالم أن يضُن بعلمه في تعليم الجاهل وكذا لا يجوز للقادر على إعانة المظلوم أن لا ينصره و هو واضح.

وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ما إستفهاميّة و معناها التّوبيخ و التّقريع و المعنى أيُّ شيءٍ لكم معاشر المكلّفين.

لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ أي مالكُم لا تعترفون بوحدانيّة اللّه و أنّه لا شريك له و الحال أنّ الرّسول يدعوكم إلى الإيمان و هو ينفعكم في الدُّنيا و الأخرة كما أنّ الكفر يضرّكم فيهما و العاقل لا يقدم على ضرر نفسه بل العقل يحكم بوجوب دفع الضَّرر المحتمل فضلاً عن المقطوع به.

وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قال بعض المفسّرين معناه أنّه لمّا ذكر تعالى دعاء الرّسول إلى الإيمان باللّه و رسوله و رغبّكم فيه و حثّكم عليه و زهّدكم في خلافة و هو معنى قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** أي إن كنتم مؤمنين بحقٍّ فالإيمان قد ظهرت أعلامه و وضحت براهينه إنتهى.

و قال بعضهم **وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ** على غير مسمّى الفاعل على قراءة أبي عمرو و على مسّمى الفاعل على قراءة غيره و هو المشهور أي أخذ اللّه ميثاقكم.

أقول الحقّ أنّ أخذ الميثاق من بني أدم من اللّه.

قال مجاهد هو الميثاق الأوّل و هم في ظهر أدم بأنّ اللّه ربّكم لا إلٰه لكم غيره، و قيل أخذ ميثاقكم أن ركّب فيكم العقول و أقام عليكم الدّلائل و الحجج التّي تدعوا إلى متابعة الرّسول و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** أي إذ كنتم مؤمنين، و قيل إن كنتم مؤمنين بالحجج و الدّلائل، و قيل إن كنتم مؤمنين بحقّ يوماً من الأيّام فالآن أحرى الأيّام أن تؤمنوا لقيام الحجج و الاعلام ببعثة محمّد صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد صحّت براهينه.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير قوله: **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** و لا يبعد أن يكون المعنى إن كنتم مؤمنين، بالميثاق الّذي أخذناه عنكم في عالم الذّر و أمّا إن

كنتم من المكذّبين به كتكذيبكم اللّه و رسله فلا كلام لنا معكم و حسابكم على اللّه يوم القيامة هذا ما خطر ببالي في معنى الكلام و اللّه أعلم.

هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ

يعني أنّ اللّه تعالى هو الّذي ينّزل على عبده، و هو محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيات بيّنات، و حججاً واضحات التّي لا خفاء فيها **لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** اللاّم في قوله: **لِيُخْرِجَكُم** لام الغاية أو لام الغرض و المعنى أنّ المقصود الأصلي من بعث الرُّسل و إنزال الكتب السّماوية و الأيات البيّنات التّي لا خفاء فيها من المعجزات و الكرامات و خوارق العادات هو إخراجكم من ظلمات الجهل و الضّلالة إلى نور العلم و الهداية و طريق الحقّ **وَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** فيه إشارة إلى أنّ الباعث على هذه النّعمة و الرَّحمة هو رأفة خالقكم بكم، و لأجل هذا قال المتكلمون أنّ جعل الأحكام التكلفيّة و إرسال الرُّسل على أساس قاعدة اللُّطف، و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ اللّه تعالى غنّيٌ بذاته عن جميع ما سواه فلا يحتاج إلى شئٍ يصل إليه من غيره و ذلك لأنّ الإحتياج مساوقٌ للفقر بل هو هو الفقر من شئون الموجود الممكن و إلى هذا المعنى أشار اللّه في كتابه حيث قال: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** و إذا ثبت الغنى بقولٍ مطلق في حقّه و أنّه لا غنّي إلاّ هو فما سواه فقيرٌ كائناً ما كان و إذا كان كذلك فهاهنا مظنّة سؤالٍ و هو أنّه لمَ خلق الخلق أوّلاً و لم كلَّف الإنسان ثانياً بالتّكاليف الشّرعية من الصّوم و الصّلاة و الجهاد و الحجّ و غيرها ثمّ هدَّدهم بالعذاب يوم القيامة في صورة المخالفة، فأجاب اللّه تعالى بأنّ الباعث على جعل التّكاليف و إرسال الرُّسل رأفة الحقّ بكم فأنّ الخالق يحبّ مخلوقه كما أنّ الصّانع يحبّ مصنوعه لأنّ المخلوق من أثار قدرة الخالق و المصنوع من أثار صنعة الصّانع و من أحبَّ شيئاً أحبَّ أثاره

و كلّ موجود يحبّ ذاته فلا محالة يحبّ أثاره و هذه الرَّأفة و المحبّة المكنونة في ذات الخالق بالنّسبة إلى خلقه دعته إلى جعل التّكليف و إرسال الرُّسل و إنزال الكتب ليخرج بذلك عباده عن ظلمة الجهل و الغواية و يرشده إلى طريق الحقّ فنفع العبادة يرجع إلى العبد لا إلى خالقه كما أنّ ضرر الكفر و العصيان أيضاً يرجع إليه لا إلى اللّه فلا تنفع اللّه طاعة من أطاعه و لا تضُّره معصية من عصاه.

وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ اَلْفَتْحِ وَ قٰاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ اَلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قٰاتَلُوا وَ كُلاًّ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلْحُسْنىٰ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

ما، إستفهاميّة وفيها التّوبيخ على عدم إنفاقهم في سبيل اللّه و أنّما و بّخهم على ذلك لأنّ المال في الحقيقة ليس لهم بل المال مال اللّه و العبد أيضاً مملوكٌ له تعالى و العقل يحكم بأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه هذا من جهة حكم العقل و أمّا من حيث الحسّ و المشاهدة و العيان، فلا شكّ لأحدٍ أنّ الإنسان يموت و المال يبقى بعده لمن يرثه و الوارث أيضاً يموت و المال لمن بعده و هكذا إلى أن لا يبقى منهم أحدٌ على كرة الأرض كما قال تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ** و هكذا الأمر في الموجودات السّماوية من حيث الفناء فأنّ المخلوق كائناً ما كان لا بقاء له دائماً و قد جرت سنّة الإلهيّة بذلك إلى أن لا يبقى من المخلوق أحد، فيقول تعالى: **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْم** فلا يجيبه أحد، فيقول تعالى: **اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ** و هذا معنىٰ قوله: **وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ** و إذا كان الأمر على هذا المنوال فما بال العبد أن لا ينفق في سبيل اللّه من شيءٍ لا بقاء له.

ثمّ بعد ذلك أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّ الإنفاق و أن كان حسناً في نفسه محبوبٌ عند اللّه و قد وعد اللّه له بالثّواب و الأجر يوم القيامة، إلاّ أنّه يتفاوت أجراً و مثوبةً بإعتبار الزّمان و المكان بمعنى أنّها يزيدان على الثّواب إذا وقع فيهما، و هذا الحكم لا يختّص بالإنفاق فقط بل يجري في جميع الأفعال من العبادات و غيرها خيرها و شرّها و الأصل في ذلك أنّ لبعض الأمكنة و الأزمنة شرفٌ و فضلٌ على بعضٍ أخر لا بإعتبار نفي الزّمان و المكان فأنّ الزّمان بما هو هو لا فضل و لا شرف له على زمانٍ أخر و هكذا المكان فأنّ الزّمان و المكان مكان بل بإعتبار ما وقع فيهما من الحوادث. فإذا قلنا أنّ شهر الصّيام أفضل الشهور في السَّنة ليس معناه أنّ زمانه بما هو هو مع قطع النَّظر عن كونه شهر اللّه الّذي أنزل فيه القرأن و وجب فيه الصّيام، أفضل من سائر الشهور ضرورة أنّ الزّمان بما هو هو في جميع الأزمنة واحد و أنّما تثبت الفضيلة له بإعتبار الصّوم و نزول القرأن فيه و لذلك كلّ عملٍ فيه من خيرٍ أو شّرٍ غير العمل في غيره ثواباً و عقاباً، و لذلك حكم الشّارع بأنّ ثواب تلاوة القرأن فيه أكثر منها في غيره و عقاب الزّنا و شرب الخمر و غيرهما من المعاصي فيه أشدّ منه في غيره، و هكذا الإنفاق و الإطعام فيه أكثر ثواباً منه في غيره الكلام في جميع الأزمنة المتبركة.

و الحاصل أنّ البركات أو مطلق الحوادث عارضة على الزّمان و صار الزّمان ظرفاً لها و الظَّرف يكسب الشَّرف من مظروفه إذا عرفت هذا في الزّمان فقس عليه المكان و قل أنّ الذّنب و العصيان في المسجد أكثر عقاباً و قبحاً منه في غيره و هو في المسجد الحرام أكثر عقاباً و قبحاً منه في غيره من بقاع الأرض حتّى المساجد و ليس ذلك إلاّ من جهة أنّ الأرض في المسجد الحرام صارت مكاناً للكعبة و لذلك خصّ الشَّرف بهذه القطعة من الأرض لا بغيرها من بقاع الأرض، حتّى أنّ المسافر مخيّرٌ في صلاته من حيث القصر و الإتمام فيه فمن

شاء أتمّ و هكذا مسجد النبيّ و مسجد الكوفة و الحائر الحسيني عليه‌السلام فأنّ المكان فيها و فى أمثالها غير سائر الأمكنة فالإنفاق فيها و الصّلاة فيها و جميع العبادات فيها أكثر ثواباً منها في غيرها و هكذا المحرّمات و المعاصي فيها أكثر عقاباً منها في غيرها.

فقوله تعالى: **لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ.**

أي من بعد الفتح، على أساس ما ذكرناه و حقّقناه و المراد بالفتح قيل فتح الحديّبية و الحقّ أنّ المراد به فتح مكّة و توضيح ذلك إجمالاً أنّ قبل فتح مكّة كان المسلمون في نهاية الشِّدة و الخوف من الأعداء و الفقر من جهة المال و أمّا بعد الفتح فقد زال الرُّعب و الخوف من الأعداء عنهم و صاروا من الأغنياء من جهة المال لكثرة الغنائم الموجودة في بيت المال، و ذلك لأنّ فتح مكّة كان آخر الفتوح، و من المعلوم أنّ الإنفاق على الفقراء في حال الفقر أكثر ثواباً منه عليهم حال عدم الفقر و هكذا الإنفاق في سبيل اللّه لإعلاء كلمة التّوحيد في زمان غربة الإسلام و إحتياجه الى المال في تجهيز الجيوش و العساكر، أكثر ثواباً منه في زمان شوكة الإسلام و لذلك يقال ما نفع في الإسلام مالٌ مثل مال خديجة الكبرى و إذا كان الأمر في الإنفاق على هذا المنوال فيكون الأمر كذلك في الجهاد أيضاً فأنّ نصرة الإسلام في زمان غربته بالسّيف و السَّنان و القتال مع الكُّفار غير القتال في زمان شوكته و عزّته و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **وَ قَاتَلَ** بعد ذكر الإنفاق بالمال و أن كان هو أيضاً من مصاديق الإنفاق بل من أعظم مصاديقه فأنّ الإنفاق بالنّفس أشدّ من الإنفاق بالمال و على هذا فمن أنفق من ماله قبل الفتح و جاهد بنفسه و قتل في الجهاد، لا يقاس بمن أنفق المال بعده أو جاهد أحياناً و قتل بعده و لذلك فضّل اللّه شهداء بدر على سائر الشُّهداء و هذا الّذي ذكره اللّه في الآية هو ميزان الفضيلة في جميع

الأزمنة، ثمّ قال اللّه تعالى في آخر الآية **وَ كُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** قرأ إبن عامر (و كلٌّ وعد اللّه الحسنى) بالرّفع و على هذا فهو مبتدأ و خبره وعد و فى الخبر ضمير يرجع الى المبتدا و تقديره (و كلّ وعده اللّه الحسنى) و قرأ الباقون بالنّصب و عليه المصاحف و على هذا فقوله: **وَ كُلًّا** مفعول قدّم على فعله مثل زيداً ضربته و تقديره **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ** و يكون الحسنى في موضع نصب بأنّه مفعول ثانٍ إذا عرفت هذا فالمعنى أنّ من أنفق أو قاتل قبل الفتح أو بعده وعده اللّه الحسنى يوم القيامة فأنّ اللّه لا يضيع أجر المحسنين و بعبارةٍ أخرى أنّه تعالى سوّى بين الكلّ في وعد الخير و الثّواب و أنمّا التّفاضل في مقاديره لا في أصله، و اللّه بما تعملون خبير، معناه لا يخفى عليه شئ ممّا تعملونه و أنّه تعالى جعل الثّواب على العمل الصّالح قلَّ أو كثر.

مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ

القَرْض بفتح القاف و سكون الرّاء و الضّاد في الأصل ضربٌ من القطع و سمّي قطع المكان و تجاوزه قطعاً و ضرباً و فى العرف يطلق على ما يدفع الى الإنسان بشرط ردّ بدله قالوا العرب تقول لكلّ من فعل فعلاً حسناً قد أقرض كما قال الشّاعر:

و إذا جوزيت قرضاً فأجزه　　　أنمّا يجزي الفتى لبس الجمل

و سمّي قرضاً لأنّ القرض أخرج لاسترداد البدل و معنى الآية من ذا الّذي ينفق في سبيل اللّه حتّى يبدله اللّه بالأضعاف الكثيرة فقوله: **قَرْضًا** أي صدقةً و قوله: **حَسَنًا**، أي محتسباً من قلبه بلا منٍّ و لا أذىً **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ما بين السّبع الى سبع مائة الى ما شاء اللّه من الأضعاف هكذا قالوا.

و الحقّ أنّ إقراض اللّه مثل لتقديم العمل الّذي يطلب ثوابه فالمراد الأمر و ليس بقرض حاجةٍ، على ما ظنّه اليهود كما حكى اللّه تعالى عنهم.

بقوله: **لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَآءُ**[١].

بل سمّي الإنفاق قرضاً تلطُّفاً للدُّعاء الى فعله و تنبيهاً على أنّه يرجع اليهم و لا يفوتهم و فيه حثٌّ لهم على فعله حيث كان هو سبحانه المطالب له، و القرض الحسن للّه تعالى هو المقروض بالإخلاص الّذي لا ينبغي به سوى اللّه، و قيل هو ما تستره و تصغّره عندك و ما كان من الحلال و لا نعيده بمنٍّ أذىً و ما نوى به وجه اللّه و يكون طيّباً به نفسه أو ما كان حسن الموضع عند الإنفاق، و إرادة الأعمّ ممكنة و يندرج فيه جميع الطّاعات الواقعة لوجهه تعالى البدَّنية و الماليّة و من ذلك إقراض المؤمنين المحتاجين المال فتدُّل الآية على مشروعيّة القرض و رجحانه و على شدّ التّحريص عليه

فعن الصّادق عليه السلام: لمّا نزلَت آية: مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ربِّ زدني فأنزل اللّه سبحانه: مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ربِّ زدني فأنزل اللّه تعالى من ذا الّذي الأية، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الكثير من اللّه لا يحصى وليس له منتهى.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَيٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

قوله: **يَوْمَ تَرَى** يتعلّق بقوله: **أَجْرٌ كَرِيمٌ** كأنّه قيل أي يومٍ هذا فقال تعالى: **يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** و على هذا فالمؤمنون و المؤمنات الّذين يسعى نورهم بين أيديهم و بايمانهم، هم الّذين أقرضوا اللّه في الدُّنيا قرضاً حسناً بالأعمال الصّالحة و الإنفاق الخالص من شوب الرّياء و هم الّذين يقال لهم بشراكم اليوم

١- آل عمران = ١٨١

جنّات تجري من تحتها الأنهار الّتي فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذُّ الأعين لا زوال فيه و لا فناء و لا نقص و أيُّ فوزٍ أعظم منه و هذا هو الأجر الكريم الّذي أشار اللّه اليه في الآية السّابقة.

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنٰافِقُونَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتُ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱنْظُرُونٰا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرٰآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بٰابٌ بٰاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَ ظٰاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذٰابُ

قيل يجوز أن يتعلّق **يَوْمَ** بقوله: **ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** أي في يوم و يجوز أن يكون على تقدير و أذكر يوم يقول المنافقون، الآية و المعنى يوم يقول المنافقون من الرّجال و المنافقون من النّساء **لِلَّذِينَ اٰمَنُوا** في الدُّنيا باللّه و رسوله و أقرضوا اللّه قرضاً حسناً **ٱنْظُرُونٰا** أي أنظروا بوجوهكم إلينا و ذلك لأنّ نور المؤمنين بين أيديهم و بايمانهم، فأراد المنافقون أن يستضيئوا به و لذلك يقولون: **ٱنْظُرُونٰا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ** أي ناخذ قبساً منه **قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرٰآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا** القائل هو الملائكة و قيل القائل هو المؤمن يقول لهم أي للمنافقين أرجعوا وراءكم، أي إرجعوا الى خلفكم، فألتمسوا النُّور فأنّه لا نور لكم عندنا و أنمّا يلتمسون النُّور لأجل الظُّلمة الّتي تغشى النّاس يوم القيامة.

قال بعض المفسّرين أنّ اللّه تعالى يعطي المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، و قال إبن عبّاس أنّ اللّه يعطي النُّور لجميعهم دون الكافر ثمّ يسلب المنافق نوره لنفاقه و معنى قولهم: **ٱرْجِعُوا وَرٰآءَكُمْ** أي إرجعوا الى الموضع الّذي أخذنا منه النُّور فأطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فأنّكم لا تقتبسون من نورنا أبداً فلمّا رجعوا و أنعزلوا الى طلب النُّور **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ** يعني بين المؤمنين و المنافقين قيل الباء زائدة و

هو المضروب بين الجنّة و النّار **لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ** الضّمير في، له، عائد على السُّور أي للسُّور باب باطنه فيه الرّحمة لأنّ فيه الجنّة و هو الّذي يلى منه المؤمن وَ **ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ** يعني ما يلي المنافقين العذاب لأنّ جهنّم هناك.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَ لَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ٱرْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ

أي ينادون المنافقون، المؤمنين و يقولون لهم أي للمؤمنين **أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ** في دار الدُّنيا مخالطين معاشرين، نصلّي مثل ما تصلّون و نغزوا مثل ما تغزون و نفعل مثل ما تفعلون و نشهد باللّه كما تشهدون **قَالُوا بَلَىٰ** أي يقول المؤمنون في جوابهم، بلى، قد كنتم معنا في الظّاهر وَ **لَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** أي إستعملتموها في الفتنة، و أهلكتموها بالنّفاق، و إرتكاب المعاصي و إتّباع الشَّهوات **تَرَبَّصْتُمْ** بالنبيّ الموت و التربُّص الإنتظار وَ **ٱرْتَبْتُمْ** الإرتياب الشكّ أي شككتم في التّوحيد و النبوّة و المعاد وَ **غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ** أي و غرَّتكم الأباطيل كنتم تمنُّون من موت النّبي و محو الإسلام و كنتم كذلك حتّى جاء أمر اللّه الموت، و قيل معناه حتّى جاء أمر اللّه في نصرة نبيّه، و قيل أمر اللّه إلقاؤهم في النّار و إدخاله المؤمنين الجنّة وَ **غَرَّكُمْ** أي خدعكم **بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ** أي خدعكم باللّه الشّيطان، أو الدُّنيا و حبّ الشَّهوات و إذ كنتم في الدُّنيا كذلك.

فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

الفِدية بكسر الفاء ما تفدى به النّفس و المعنى فاليوم أي يوم القيامة لا يؤخذ منكم فدية أي لا يؤخذ منكم ما تفدون به أنفسكم من عذاب النّار و لا

من الّذين كفروا، لا يقبل منهم أيضاً ما يفدون به أنفسهم **مَأْوىٰكُمُ** أيّها المنافقون و الكافرون، النّار هي مولاكم، أي أنّ النّار ينصركم لا غيرها و بئس المصير النّار أي بئس المأوى و الموضع و من هذه الأيات التّي مرَّ ذكرها ينبغي أن يعتبر المعتبر قبل الموت.

■

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَ مَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ فَاسِقُونَ «۱۶» اِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۱۷» إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَ ٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ «۱۸» وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَ ٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ «۱۹» اِعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَ ٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ «۲۰» سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَ ٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ «۲۱» مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ
يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلٰى مٰا فٰاتَكُمْ وَ لٰا
تَفْرَحُوا بِمٰآ اٰتيٰكُمْ وَ ٱللّٰهُ لٰا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ
فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ ٱلنّٰاسَ
بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ
﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ
ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ ٱلنّٰاسُ بِـالْقِسْطِ وَ
أَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ
لِيَعْلَمَ ٱللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللّٰهَ
قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحًا وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ
جَعَلْنٰا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتٰابَ فَـمِنْهُمْ
مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنٰا عَلٰىٓ
اٰثٰارِهِمْ بِرُسُلِنٰا وَ قَفَّيْنٰا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ اٰتَيْنٰاهُ
ٱلْاِنْجِيلَ وَ جَعَلْنٰا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَ رَحْمَةً وَ رَهْبٰانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهٰا مٰا كَتَـبْنٰاهٰا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغٰآءَ رِضْوٰانِ ٱللّٰهِ فَمٰا رَعَوْهٰا حَقَّ
رِعٰايَتِهٰا فَاٰتَيْنَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ
مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّقُوا
ٱللّٰهَ وَ اٰمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتٰابِ أَلَّا
يَقْدِرُونَ عَلٰى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللّٰهِ وَ أَنَّ ٱلْفَضْلَ

بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿۲۹﴾

◀ اللّغة

يَأْنِ: مضارع و ماضيه، أنى يقال أنىٰ يأني إذا قرب وحان.

تَخْشَعَ: الخشوع الخضوع.

ٱلْأَمَدُ: بفتح الميم المدّة و الوقت.

غَيْثٍ: بفتح الغين المطر.

يَهِيجُ: هاج يهيج، هيجاً إذا يبس.

حُطَامًا: الحطام بضمّ الحاء الهشيم.

قَفَّيْنَا: التّقفية جعل الشّئ في أثر الشّئ على الإستمرار فيه و لهذا قيل لمقاطع الشّعر قوافي و هي جمع قافية.

كِفْلَيْنِ: بكسر الكاف و فتح اللاّم أي مثلين و الكفل المثل

◀ الإعراب

أَنْ تَخْشَعَ هو فاعل، يأن، و اللاّم للتّبين و (ما) بمعنى الّذي و فى نَزَلَ ضمير يعود عليه و لا تكون مصدريّة لئلا يبقى الفعل بلا فاعل وَ أَقْرَضُوا ٱللَّهَ فيه وجهان:

أحدهما: أنّه معترض بين إسم (إنّ) و خبرها و هو، يضاعف لهم و أنّما قيل ذلك لئلاّ يعطف الماضي على إسم الفاعل.

الثّاني: أنّه معطوف عليه لأنّ الألف و اللاّم بمعنى، الّذي أي أنّ الذّين تصدّقوا يُضَاعَفُ لَهُمْ الجار و المجرور هو القائم مقام الفاعل فلا ضمير في الفعل عِنْدَ رَبِّهِمْ هو ظرفٌ للشّهداء فِي ٱلْأَرْضِ يجوز أن يتعلّق الجار بمصيبة

لأنّها مصدر و أن يكون صفة لها على اللّفظ أو الموضع **فِي كِتٰابٍ** حال أي إلاّ مكتوبة و **مِنْ قَبْلِ** نعتٌ لكتاب أو متعلّقٌ به **فِيهِ بَأْسٌ** حال من الحديد **رَهْبٰانِيَّةً** هي منصوب بفعلٍ دلّ عليه **ٱبْتَدَعُوهٰا** لا بالعطف على الرّحمة **لِئَلاّٰ يَعْلَمَ** قيل لا، زائدة و المعنى ليعلم أهل الكتاب.

◀ التّفسير

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ اٰمَنُوٓا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللّٰهِ وَ مٰا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَ لاٰ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلُ فَطٰالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ فٰاسِقُونَ

الإستفهام للتّوبيخ و المعنى **أَلَمْ يَأْنِ** أي ألم يقرب **لِلَّذِينَ اٰمَنُوٓا** ظاهراً باللّه و رسوله **أَنْ تَخْشَعَ** و تخضع **قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللّٰهِ** كما هو شأن المؤمن و فيه إشارة إلى أنّ كثيراً من النّاس يدّعون الإيمان و قلوبهم خاليةٌ عن الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَتِ ٱلْأَعْرٰابُ اٰمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوٓا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ ٱلْإِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ**(١).

و الوجه فيه أنّ الإيمان لو دخل في القلب واقعاً يؤثّر فيه و يجعله خاضعاً متخشّعاً متواضعاً و قد ثبت عقلاً أنّ الأثر يوجد بوجود المؤثّر و ينتفي بإنتفاءه و المؤثّر في القلب هو الإيمان الواقعي و الأثر خشوع القلب و خضوعه في جنب خالقه فهذا هو الملاك في وجود الإيمان الحقيقي و عدمه فمن لم يخشع قلبه لذكر اللّه كيف إدّعى الإيمان أليس إنتفاء الأثر كاشفاً عن عدم وجود المؤثّر، و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ ٱللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰانًا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢).

١- الحجرات = ١۴   ٢- الأنفال = ٢

فأنّ كلمة **إِنَّمَا** تفيد الحصر و اللّه تعالى حصر الإيمان في هذه الآية للّذين إذا ذكر اللّه وجلت أي خافت و إضطربت قلوبهم من خشية اللّه و لازم ذلك الإنقياد له في جميع أوامره و نواهيه و عدم متابعة الشّيطان و معنى الحصر أنّ من ليس كذلك فلا يكون مؤمناً حقّاً و أن مدّعياً له ظاهراً و قوله: **مَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ** معطوفٌ على ذكر اللّه أي تخشع قلوبهم لذكر اللّه و ما نزل من الحقّ على نبيّه في كتابه من الأحكام و الأيات الدّالة على توحيده.

وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ أي من قبل القرأن أو من قبل الإسلام و المراد بهم اليهود و النّصارى و أمثالها من الأمم السّالفة بما أنزل اللّه على أنبيائهم بعد موتهم و حرّفوا الكتاب و قلّبوا الأحكام و تابعوا الهوى و تركوا الهدى بعد طول المدّة كما قال تعالى: **فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ فَاسِقُونَ** أي فطالت المدّة عليهم بعد نبيّهم فقست قلوبهم بسبب المعاصي فأنّ المعصية توجب قساوة القلب لو إستّمرت نعني بالفسق إلاّ هذا.

أقول هذه الآية نزلت في المسلمين بدليل قوله: **وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ** أي من قبل الإسلام، و يستفاد منها أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا على صنفين، صنفٌ كانوا مؤمنين حقّاً و كانت قلوبهم خاشعة خاضعة لذكر اللّه و كانوا مطيعين، منقادين في طاعة اللّه و رسوله كالمقداد و سلمان و عمّار و حذيفة و أبي ذرّ الغفاري و أمثالهم و هم قليلون جدّاً كما قال تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[1].

و لا كلام لنا فيهم فعلاً لأنّ الآية نزلت في غيرهم ممّن لم يخشع قلوبهم لذكر اللّه و هم الصّنف الثّاني و أكثر المسلمين كانوا منهم و هو الّذين لم تخشع قلوبهم لذكر اللّه أصلاً و أعرضوا عمّا نزل من الحقّ على النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلموا

۱- سباء = ۱۳

به و طال عليهم الأمد فقست قلوبهم بسبب المعاصي و الإستمرار عليها فنبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم و فسَّروه على طبق أميالهم و أهوائهم و لم يقنعوا بذلك حتّى سبُّوا وصيّ الرَّسول على منابرهم و قتلوا أولاد الرَّسول و شرَّدوهم في أكناف الأرض و منعوا الحسن عنهم و بالجملة فعلوا بالكتاب و السنّة و أولاد الرَّسول و صلحاء الأمّة ما عجزت الألسن عن بيانه و الأقلام عن تحريره و كتابته و اللّه أعلم.

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و ذلك لأنّ المخلوق أيّ مخلوق كان له حياةٌ و موت إلاّ أنّ الحياة و الموت في كلّ مخلوقٍ بحسبه، فموت الأرض بعدم نزول المطر و حياتها بنزوله فالمطر للأرض بمنزلة الرُّوح في بدن الإنسان، ثمّ أنّ الأثار المترتّبة على الأرض كالإنبات مثلاً، في مرحلة القوّة و بعد نزول المطر تخرج من القوّة إلى الفعل، كما أنّ الأثار المترتّبة على وجود الإنسان، موجودة في المني أيضاً إلاّ أنّها فيه بالقوّة و بعد تعلّق الرُّوح به تصير بالفعل تدريجاً، فقوله تعالى: **أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** يخرج ما فيها بالقوّة إلى الفعل بسبب المطر معناه أنّ الأرض قبل نزول المطر عليها ليست متّصفة بالوجود و على هذا فالإحياء في كلّ شيءٍ معناه إخراج ما بالقوّة إلى الفعل بسببٍ من الأسباب و لذلك نقول كلّ حيٍّ موجود و ليس كلّ موجود حيّاً، فالحياة غير الوجود مفهوماً و عينه مصداقاً فمن زعم أنّ الحياة عين الوجود مفهوماً بمعنى أنّها من الألفاظ المترادفة كالإنسان و البشر وقع في الخبط و الإشتباه.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي لكي تعقلون و تتفكّرون في قدرة اللّه و أنّه على كلّ شيءٍ قدير.

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَ ٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ

أي أنّ متصدّقين و المتصدّقات، فأدغمت التّاء في الصّاد في الموضعين و المعنى أنّ الّذين يتّصدقون من الرّجال و النّساء، و أقرضوا اللّه قرضاً حسناً بلا منٍّ و لا أذى و أخلصوا نيّاتهم للّه **يُضَاعَفُ لَهُمْ** أي يجزون بأضعاف ذلك يوم القيامة ولهم أجرٌ كريمٌ و قد ورد في الأخبار أنّ اللّه تعالى يعطي بالواحد عشراً إلى سبع مائة ولهم أجرٌ كريمٌ و هو إكرام اللّه لهم و إجلاله إيّاهم بما شاء و أراد و هو أعلم بما أراد.

وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ رُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَ ٱلشُّهَدَآءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ

و الّذين أمنوا باللّه و رسله، قد مرَّ الكلام في معنى الإيمان غير مرّةٍ و قلنا أنّه عبارة عن الإقرار بالتّوحيد و النّبوة و المعاد لفظاً و الاعتقاد بما ذكرناه قلباً و العمل بمقتضاه أركاناً و جوارحاً فهذا هو الإيمان حقّاً **أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَ ٱلشُّهَدَآءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ** وصف اللّه تعالى المؤمنين بأنّهم، الصّديقون و الشُّهداء عند ربّهم.

قال الرّاغب في المفردات الصّديق من كثر عنه الصَّدق و قيل بل يقال لمن لا يكذب قطّ و قيل بل لمن لا يتأتّى منه الكذب لتعوّده الصِّدق، و قيل بل لمن صدق بقوله و إعتقاده و حقّق صدقه بفعله قال اللّه تعالى في كتابه: **وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا**[۱] إنتهى.

أقول يظهر من كلام الرّاغب أنّ الصِّديقين ذو مراتب أقلّها من كثر صدقه و أكثرها من صدق بقوله و إعتقاده و حقَّق صدقه بفعله أو لا يكذب قطٌّ و على

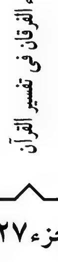

۱- مريم = ۴۱

هذا فالأنبياء و الأوصياء في رأس الصدّيقين ثمّ الأمثل فالأمثل حتّى تصل النَّوبة إلى من كثر صدقه أمثال سلمان و مقداد و عمّار و غيرهم.

أمّا قوله: **وَ ٱلشُّهَدَآءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ** فقيل هو منفصلٌ ممّا قبله و مستأنف و المراد بهم الأنبياء قاله إبن عبّاس و غيره.

و قيل هو متّصلٌ بما قبله و الواو للعطف أي أولئك هم الصدّيقون و أولئك هم الشُّهداء عند ربّهم و هذا هو الأقوى في النَّظر و الدّليل على الإتّصال أنّ الشُّهداء ليسوا بخارجين عن الصدّيقين بل هم داخلون في زمرتهم و كيف كان حكم اللّه في الآية بأنّ لهم أجرهم عند ربّهم و نورهم و المراد بالنُّور في الآية هو نور الايمان ثمّ أشار اللّه إلى أحوال الكفّار فقال: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ** أي و الّذين كفروا باللّه و لم يوَّحدوه و كذّبوا بأيات اللّه، و قالوا أنّها أساطير الأوّلين أولئك أصحاب الجحيم، أي أصحاب النّار فيبقون فيها دائمين ليس لهم دافع و لا ناصرٌ ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أحوال الدّنيا فقال:

ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَ ٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الدُّنيا و بيَّن حقيقتها و ماهيّتها لا أنّه وصفها بهذه الأمور المذكورة كما زعمه المفسّرون و قالوا بأنّها أوصاف الدُّنيا و الدّليل على ما ذكرناه أنّه قال أنّما الحياة الدُّنيا لعبٌ و لهوٌ إلى أخر و قد ثبت أنّ (أنّما) للحصر أي ليست الدُّنيا و حياتها إلاّ اللّعب و اللّهو و بعبارةٍ أخرى يستفاد من الآية أنّ الدُّنيا و حياتها نفس اللّهو و اللّعب لا أنّ الدُّنيا شئ متّصفٌ بها، يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً ثمّ عبَّر عنها

باللّهو، و هو ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه و يقصده ثمّ عنها بالزّينة و التّفاخر إلى آخر الآية مشعراً بأنّ الدُّنيا ليست إلاّ هذه الأمور و لا وجود لها مع قطع النَّظر عمّا فيها و حيث أنّها لا بقاء لها كما هو المشاهد المحسوس فالدُّنيا لا بقاء لها و ما كان كذلك لا يعتمد عليه عقلاً.

قال الشّاعر:

كلّ ما في الكون و همٌ أو خيال أو عكوسٌ في المرايا أو ظلال

و قال الآخر:

إنّما الدُّنيا كظلٍّ زائلٍ أو كضيفٍ بات فيها و أرتحل

و قال الآخر:

ما أنعم اللّه على عبده بنعمةٍ أوفى من العافية
و كلّ من عوفي في جسمه فأنّه في عيشةٍ راضية
والمال خلقٌ حسنٌ جيّدٌ على الفتى لكنّه عارية
ما أحسن الدُّنيا و لكنّها مع حسنها غدّارة فانية

و الآيات و الأخبار و الآثار و الأشعار في ذمّ الدُّنيا كثيرة و على ما حقّقناه من أنّ الدُّنيا ليست إلاّ هذه الأمور المذكورة في الآية فالذمّ يرجع إليها لا بإعتبار وجودها بل بإعتبار زوالها و فنائها لا يصحّ الإعتماد عليها فليس المراد أنّ الأولاد و الأموال و هكذا كلّ موجودٍ في العالم بإعتبار أنفسها و وجودها مذمومة إذ لو كانت مذمومة لا تعدّ من النّعم و قد قال اللّه تعالى: **اَلْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**[1] و لكنّ الإعتماد عليها مذمومٌ و لذلك قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **حبُّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة** ولم يقل الدُّنيا و ما فيها خطيئة و حاصل الكلام أنّ حبّ الدُّنيا و الركون عليها مذموم لعدم بقائها و نحن قد تكلّمنا فيها و بيّنّا منافعها و مضارّها سابقاً بما لا مزيد عليه.

۱- الكهف = ۴۶

و قوله تعالى: **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ** معناه أنّ الدُّنيا كمثل غيثٍ اي مطراً أعجب الكفّار نباته شبَّه اللّه تعالى الدُّنيا و متاعها بالمطر الّذي أعجب الكفّار نباته الّذي نبت بذلك الغيث و المراد بالكفّار الزرّاع، و قيل المراد بهم الكفّار باللّه لأنّهم أشدّ إعجاباً بالدُّنيا من غيرهم و على التّقديرين فالمقصود أنّهم تعجَّبوا من النَّبات الّذي وجد في الأرض ثمّ أنّهم يرونه بعد أيّام و شهور أنّ النَّبات الّذي أعجب الكُفّار به صار مصفرّاً يابساً ثمّ حطاماً و هشيماً تذروه الرّياح فأنّ النَّبات و أن كان في باديْ الأمر على ظاهر الحسن و النّضارة إلاّ أنّ عاقبته إلى الهشيم، و هذا من تشبيه المحسوس بالمحسوس للخوّاص و من تشبيه المعقول بالمحسوس للعوام ثمّ قال تعالى: **وَ فِى ٱلْأٰخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ** للكفّار بل لكلّ محبّ للدُّنيا.

وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ رِضْوٰانٌ للمؤمنين الّذين أعرضوا عنها و أقبلوا إلى الأخرة **وَ مَا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتٰاعُ ٱلْغُرُورِ** لمن اغترّبها و إعتمد عليها و لأجل هذا ترى الأنبياء و الصُّلحاء و العقلاء لم يعتمد عليها.

سٰابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

أي إذا كانت الدُّنيا كما وصفناها لكم و علمتم أنّه لا بقاء لها ولكم و لابدّ لكم من الموت، فسابقوا إلى مغفرة من ربّكم، أي سابقوا على أبناء جنسكم بالأعمال الصّالحة التّي توجب المغفرة من ربّكم و إجتهدوا في تقديم طاعة اللّه على كلّ عملٍ كما يجتهد المسابق لغيره و من المعلوم أنّ المسابقة إلى المغفرة تحصل بترك المعاصي و العمل بالطّاعات و هذا ممّا يحكم به العقل و الشّرع.

وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ فالواو للعطف أي سابقوا إلى مغفرة ربّكم و سابقوا إلى جنّةٍ عرضها كذا و المقصود أنّ في هذه المسابقة يحصل لكم رضى الرَّب و مغفرته و خلودكم في الجنّة الّتي عرضها كعرض السّماء و الأرض أي سعتها كذلك فلا يعلمها إلاّ اللّه كما أنّ عرض السّماء و الأرض أيضاً كذلك يعني العلم به مختصٌّ بخالقه.

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أي أنّ الجنّة التّي عرضها كعرض السّماء و الأرض، أعدّت لمن أمن باللّه و رسله و أمّا غير المؤمن فلا حظّ له فيها و لا نصيب.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ الظّاهر أنّ قوله: **ذَٰلِكَ** هو إشارة إلى ما أعطاهم اللّه من المغفرة و الدّخول في الجنّة التّي عرضها كعرض السّماء و الأرض أي ما أعطاهم اللّه هو فضل اللّه و رحمته لا أنّهم إستحقّوا ذلك و بعبارةٍ اخرى أعطاهم اللّه من فضله زائداً على إستحقاقهم و ثوابهم، و اللّه تعالى ذو الفضل العظيم، و أمّا على مذاق المتكلّمين من أنّ العبد لا يستحقّ شيئاً لأنّه عمل بوظائفه المقرّرة لانّ شكر المنعم واجب عقلاً فالمعنى أنّ ما أعطيناهم هو من فضلنا لا من جهة أخرى و الأمر سهل بعد وضوح المعنى.

مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ

ما، نافية، بمعنى، ليس، و المعنى ليس يصيب أحداً مصيبة في الأرض في المال و النّفس و الأولاد و غير ذلك إلاّ و هو ثابتٌ مذكورٌ في كتابٍ، و هو اللّوح المحفوظ أثبته اللّه فيه قبل الخلق و قوله: **مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ** قيل الضّمير عائد على النّفس أي من قبل أن نبرأ النّفس و قيل عائد إلى الأرض و قيل إلى المصيبة و قيل إلى الجميع.

و قال إبن عبّاس من قبل أن يخلق المصيبة و قال صاحب الكشّاف، يعني الأنفس أو المصائب، ثمّ قال تعالى: **إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** يعني أنّ إثبات ذلك في اللّوح قبل الخلق على اللّه سهلٌ يسيرٌ لأنّه قادر على كلّ شيءٍ ثمّ بيَّن اللّه تعالى لم فعل ذلك فقال:

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَيٰكُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

الحقّ أنّ هذه الآية متصلّة بما قبلها و ذلك لأنّ اللّه تعالى ذكر في الآية السّابقة أنّ جميع الحوادث و المصائب مكتوبة في اللّوح المحفوظ قبل خلقها فكأنّه قال قائلٌ لم كان ذلك فقال تعالى: **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** من الرّزق و غيره و لا تفرحوا بما أتاكم من النِّعم الدُّنيوية و ذلك لأنّه كان مقدّراً محتوماً و إذا كان كذلك فالعبد تسليم لقضاءه و قدره و يعلم أنّ ما فات منه من الدّنيا و ما أتاه فهو على أساس المصلحة التّي إقتضتها الحكمة الإلهيّة و العبوديّة تقتضي أن يكون العبد راضياً بما قدَّره اللّه له فمن كان كذلك وصل إلى مقام العبوديّة الّذي لا مقام فوقه و العجب أنّ هذين الحكمين من الأحكام العقلّية و ذلك لأنّ الحزن على ما مضى وفات لا يحكم به العقل السّليم لأنّ ما مضى مضى، و هكذا الفرح بما أتاه لأنّه أيضاً في معرض الفناء و ما كان كذلك فوجوده كالعدم، و الحقّ أنّ هذه الآية في الحقيقة من معجزات الكلام لأنّها مع إختصارها من حيث اللَّفظ مبيّنةٌ لحقيقة الزُّهد الّذي فيه سعادة الدّارين إذ لا نعنى بالزُّهد إلاّ الرّضا بقضاء اللّه و قدره و تسليم العبد لخالقه في جميع ما قدَّر له.

قال ربيع إبن صالح لمّا أخذ سعيد بن جبير (أخذه الحجّاج لعنه اللّه) بكيت فقال لي سعيد إبن جبير ما يبكيك، قلت أبكي لما أرى بك و لما تذهب إليه قال فلا تبك فأنّه في علم اللّه ألم تسمع قول اللّه تعالى: **مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَا فِىٓ أَنْفُسِكُمْ.**

و قال إبن عبّاس لمّا خلق اللّه القلم قال له أكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

عن حفص بن غياث قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام جعلت فداك فما حدّ الزُّهد في الدُّنيا فقال عليه السلام: قد حدَّه اللّه في كتابه قال اللّه عزّ و جلّ: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتيٰكُمْ.

روي أنّه جاء رجلٌ إلى علّي بن الحسين فقال له فما الزُّهد قال عليه السلام: عشرة أجزاء فأعلى درجات الزُّهد أدنى درجات اليقين ألاّ و أنّ الزُّهد في أيةٍ من كتاب اللّـه: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتيٰكُمْ.

و قال أميرالمؤمنين في بيان الزُّهد، فأمّا الزُّهد فقد خرجت الأحزان و الأفراح من قلبه فلا يفرح بشيءٍ من الدّنيا و لا يأسى على شيءٍ منها فاته فهو مستريح.

و قال عليه السلام: في نهج البلاغة الزُّهد كلّه بين كلمتين من القرأن قال اللّه تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما أتاكم و من لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزُّهد بطرفيه.

و عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: لمّا أدخل علّي بن الحسين عليه السلام على يزيد بن معاوية و أدخل عليه علّي بن الحسين مقيّداً مغلولاً قال يزيد يا علّي بن الحسين (ما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم) الآية فقال عليّ بن الحسين عليه السلام كلّا، ما نزلت هذه الآية فينا أنّما نزلت فينا، ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض و لا في أنفسكم إلاّ في كتابٍ من قبل نبرأها، الآية فنحن الّذين لا نأسى على ما فاتنا و لا نفرح بما أوتينا منها إنتهى.

أقول و الأحاديث في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية.

و أمّا قوله: **وَ ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** فالمختال المتّكبر المتّجبر و الفخور، الّذي يفتخر على غيره بما أتاه اللّه من النِّعم و أنّما أبغضه اللّه لمكان كبره فأنّ المتّكبر مبغوضٌ للّه تعالى:

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ

قيل في هذه الآية بيّن اللّه صفة المختال الفخور، كأنّه قيل من المختل الفخور فقال اللّه تعالى هم الّذين يبخلون و يأمرون النّاس بالبخل.

إختلف المفسّرون في معنى المراد بالبخل في هذه الآية فقال بعضهم المراد به البخل بما أوجب اللّه عليهم من الحقوق في أموالهم و يأمرون النّاس به أيضاً و لا شكّ أنّ البخل مذمومٌ عقلاً و شرعاً.

و قال الأخرون نزلت الآية في اليهود الّذين بخلوا بذكر صفة النّبي على ما وجدوه في كتبهم و أمروا غيرهم أيضاً به.

أقول هذا حقٌّ لا مرية فيه إلاّ أنّ البخل ظاهرٌ في البخل بالمال و العرف يفهم من اللّفظ هذا المعنى، و ما فعله قوم اليهود من عدم ذكر صفة النّبي فهو كتمان الحقّ و ليس منشأه البخل و كيف كان لا شكّ في ذمّ البخل و أقبح منه أمر الغير به أيضاً و الأيات و الأخبار في ذمّه كثيرة و قد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ و كفى في ذمّه:

قال اللّه تعالى: **وَ لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَيٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**[1].

۱- أل عمران = ۱۸۰

و قوله: **وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** فالتولّي الإعراض أي و من يعرض عمّا ذكره اللّه في ذمّ البخل في كتابه و خلفه فأنّ الّله هو الغنيّ الحميد أي أنّ اللّه غنيٌّ عن جميع خلقه محمودٌ في جميع أفعاله هذا كلّه بناءً على التولّي بإتّصال الآية بما قبلها و أمّا على الإنفصال و أنّ الآية مستأنفة فجوابه قوله: **ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ** محذوف و تقديره الّذين يبخلون فهم يستّحقون العذاب و العقوبة و قيل جوابه جواب **وَ مَنْ يَتَوَلَّ** و اللّه أعلم.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ

اللاّم في قوله تعالى: **لَقَدْ** للقسم أقسم اللّه تعالى في هذه الآية و قال: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ** يعني الدّلائل و البراهين الواضحة الدّالة على صدق دعواهم من المعجزات و الكرامات و خوارق العادات و فى هذا الكلام إشارة إلى أنّ الدّعوى بلا بينةٍ و برهان غير معقول و إلاّ يلزم قبول جميع الدّعاوي من أيّ شخصٍ صدر و العقل يحكم ببطلانه و لذلك **قال رسول اللّه** صلّى اللّه عليه و آله و سلّم **البيّنة على المدّعى و اليمين على من أنكر** و هذه القاعدة عقليّة قبل أن تكون شرعيّة ثبت أنّ حكم الأمثال واحدٍ يعني أنّ هذه القاعدة تجري في جميع الدَّعاوي و على هذا فالنبيّ الّذي يدّعي النبوّة و هى من أهمّ الأمور و أفضلها و أعلاها لأنّه يدّعي أنّه مخبرٌ من اللّه تعالى و هو أمرٌ عظيم كيف يعقل أن لا يكون له شاهد و بيّنة يثبت مدّعاه و أنّه في قوله صادق و لذلك ما بعث اللّه نبيّاً و لا رسولاً الى خلقه إلاّ و جعل له من المعجزات و الكرامات ما أثبت مدّعاه إلاّ أنّ المعجزات على حسب مقتضيات الزّمان متفاوتة مختلفة كمّاً و كيفاً.

و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ** أوّلهم أدم و أخرهم رسول الإسلام محمّد بن عبد اللّه صلّی الله علیه و آله وسلّم و هو أفضلهم و **أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَ ٱلْمِيزَانَ** فالكتاب معجزةٌ باقية و مع ذلك فيه جميع الأحكام لإستفادة الأمّة منه بعد موت الرّسول و فی حياته و أمّا الميزان فهو الفارق بين الحقّ و الباطل.

قال بعضهم هو العدل و قيل المراد به الميزان المحسوس المعروف بين النّاس و هو ذوالكفّتين و الّذي يخطر بالبال هو أنّ المراد به إمّا نفس الكتاب و عليه فالعطف تفسيريٌّ أي أنزلنا معهم الكتاب الّذي هو الميزان الفارق بين الحقّ و الباطل و إمّا المراد به السُّنة أي سنّة النّبي من قوله و فعله و تقريره.

لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِـالْقِسْطِ اللاّم للغاية و المعنى أنّ الغرض و المقصود الأصلي من بعث الّرسل و إنزال الكتب هو أن يقوم النّاس بالقسط أي بالعدل و هو وضع الشّئ في محلّه و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ اللّه تعالى متّصفٌ بالعدل كما قال: **شَـهِدَ ٱللَّـهُ أَنَّـهُ لَآ إِلٰـهَ إِلَّا هُـوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ**[1].

و العدل من أعلى الصّفات و أشرفها إذ به قامت السّماوات و الأرض أمر عباده به و قال: **اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى**، و لمّا كان الإنسان أشرف الخلق و أفضله في كرة الأرض أراد أن يبسط العدل فيهم بلسان التّشريع لا بلسان التّكوين لأنّه تعالى جعله مختاراً في فعله و قوله فالحكمة إقتضت تشريع الأحكام و إرسال الرُّسل لتبليغ أحكام اللّه و تبيين مواضعها للنّاس لأنّ المكلّف إذا لم يعرف موضع الحكم يضعه في غير موضعه و هو الظُّلم لأنّه وضع الشّئ في غير محلّه فيتعيّن المحلّ ببركة الدّين و معرفة الدّين بوجود النبيّ فالعدل في الإجتماع لا يتحقق إلاّ ببركة الشّرع المقدّس و أمّا معرفة

١- أل عمران = ١٨

أحكامها من ثمرات النّبوة و لأجل هذا جعل اللّه القسط في الآية من فروع الرّسالة ثمّ إنّ نفع القسط يعود إلى الخلق لا إلى الحقّ.

و قوله: **وَ أَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ** إختلف المفسّرون في معنى إنزال الحديد على أقوال لا تليق بالذّكر و لا يقبلها العقل السَّليم و لذلك أعرضنا عن نقل الأقوال مثل ما رووه عن إبن عبّاس أنّه قال ثلاثة أشياء نزلت مع أدم عليه‌السلام الحجر الأسود و كان اشدَّ بياضاً من الثّلج و عصا موسى و كانت من اى الجنَّة طولها عشرة أذرع مع طول موسى و الحديد أنزل معه ثلاثة أشياء، السَّندان و الكلبتان و الميقعة و المطرقة و الإبرة، نقله القرطبي في تفسيره عن القشيري و امثال هذه الرّواية كثيرة في تفاسيرهم و الّذي نختاره في المقام تبعاً لبعض المحقّقين من أصحابنا هو انّ الإنزال من اللّه تعالى تارةً يكون من السّماء كإنزال المطر و تارةً يكون في الأرض كقوله تعالى: **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**(١) و ما نحن فيه من هذا القبيل و الإنزال إذا كان في الأرض فمعناه الإنشاء و الخلق أي خلقنا لكم من الأنعام كذلك.

و خلقنا الحديد و أنشأناه فهو من الأرض غير منزل من السّماء و قوله: **فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ** إشارة إلى صلابته و إستحكامه **وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ** و فيه منافع للنّاس و منافع الحديد ممّا لا يخفى على أحدٍ و لا سيّما في زماننا هذا و الحقّ أنّ منافعه في هذا الزّمان خارج عن حدّ الإحصاء.

وَ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ أي ليميز اللّه من ينصر دينه و ينصر رسله عمَّن ليس كذلك و قوله بالغيب أي في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه، و قيل معناه ينصر اللّه و رسله ظاهراً و باطناً ثمّ ختم الآية بقوله: **إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** أي قادر على كلّ مقدرو و لا يقدر أحدٌ على قهره على منعه.

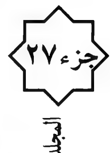

١- الزّمر = ٦

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَ إِبْرٰاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتٰابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ

نوح و إبراهيم عليهما السّلام من أولي العظم و هم خمسة، نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم بيّنا فيما مضى من الأيات ما يرتبط بأحوالها و ما جرى لهما مع أبناء زمانهما مفصّلاً و قوله: **وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتٰابَ** أي في ذريّة نوح و إبراهيم، لأنّ الأنبياء بعدهما كلّهم كانوا من نسلهما و عليهم أنزل الكتاب.

فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ من، للتّبعيض، أي بعض الذُّرية كانوا على طريق الحقّ و بعضٌ أخر كانوا فاسقين معرضين عن الحقّ.

ثُمَّ قَفَّيْنٰا عَلىٰ اٰثٰارِهِمْ بِرُسُلِنٰا وَ قَفَّيْنٰا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ اٰتَيْنٰاهُ ٱلْاِنْجِيلَ وَ جَعَلْنٰا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبٰانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهٰا مٰا كَتَبْنٰاهٰا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغٰاءَ رِضْوٰانِ ٱللّٰهِ فَمٰا رَعَوْهٰا حَقَّ رِعٰايَتِهٰا فَاٰتَيْنَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فٰاسِقُونَ

التَّقفية جعل الشّيْ في أثر الشّيْ على الإستمرار فيه و لهذا قيل لقاطع الشّعر قوافي إذا كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه فقوله تعالى: **ثُمَّ قَفَّيْنٰا عَلىٰ اٰثٰارِهِمْ بِرُسُلِنٰا** معناه أرسلنا رسولاً بعد رسولٍ إلى أن وصلت النّوبة إلى المسيح كما قال: **وَ قَفَّيْنٰا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ اٰتَيْنٰاهُ ٱلْاِنْجِيلَ** أي أتبعناهم بعيسى بن مريم يعني جعلنا عيسى إبن مريم بعدهم و أتيناه الإنجيل، و هو الكتاب الّذي أنزل على عيسى عليه السّلام.

وَ جَعَلْنٰا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ واقعاً لا ظاهراً كالمنافق **رَأْفَةً وَ رَحْمَةً** الرَّأفة بفتح الرّاء الشَّفقة قيل معنى جعلنا خلقنا أي خلقنا في قلوب أتباعه و هم الحواريُّون شفقةً و رحمةً، و قيل معناه الأمر به و التّرغيب فيه، و قيل هذا

إشارة إلى أنّهم أمروا في الإنجيل بالصُّلح و ترك إيذاء النّاس و الان اللّه قلوبهم لذلك بخلاف اليهود الّذين قست قلوبهم و حرّفوا الكلم عن مواضعه و قيل الرّأفة اللّين و الرّحمة الشّفقة و الأمر سهل.

دلّت الآية على أنّ النّصارى أعني الحواريّين منهم أشفق و أرحم و ألين قلباً من اليهود و هو كذلك كما نراهم في زماننا هذا فأنّ اليهود في عصرنا هذا من أذلّ الأقوام و ليس هذا إلاّ لظلمهم و قساوة قلوبهم و حقدهم و عنادهم و بخلهم و بالجملة جميع الصّفات المذمومة موجودةٌ فيهم لا رحم له على أبناء جنسهم و لا شفقة و لا إنصاف كأنّهم لم يفهموا معنى العدالة أصلاً و لذلك ضربت عليهم الذّلة و المسكنة و صاروا متشرّدين متّفرقين تفرّق أيادي صبا في كرة الأرض لا حكومة لهم و لا زعامة فهم مقهورون مغلوبون مطرودون و قد لعنهم اللّه تعالى في كتابه غير مرّةٍ و هذا بخلاف النّصارى فأنّ زعامة الملل و رئاسة الدّنيا لهم:

قال اللّه تعالى: **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءامَنُوا ٱلَّذِينَ قالُوٓا إِنَّا نَصارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**[1].

وقوله: **وَ رَهْبانِيَّةً ٱبْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغآءَ رِضْوانِ ٱللَّهِ** إشارة أو إخبارٌ من اللّه أنّ الرُّهبانيّة في النّصارى كانت من مبتدعات أنفسهم ولم يأمرهم اللّه بها و الذّي أمرهم به هو إبتغاء مرضات اللّه لا الرُّهبانية التّي ليست بمرضيّةٍ له تعالى أصلاً في جميع الأديان، و الرُّهبانيّة هي الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرُّهبة أمّا في لبسه أو إنفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الأمور التّي يظهر فيها نسك صاحبها، و لذلك قال رسول اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **لا**

۱- المائدة = ۸۲

رهبانيّة في الإسلام، و السّر في ذلك أنّ الإنسان مدّنيٌ بالطّبع فالرُّهبانيّة على خلاف طبيعة البشر و للبحث في هذا الباب مقام أخر.

فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا أي مع أنّهم إبتدعوا الرُّهبانيّة من عند أنفسهم و سمُّوها عبادةً خالصة للّه بزعمهم، ما قاموا بها حقّ القيام و أنّما كان قصدهم من التّرهيب طلب الرّئاسة و أكل أموالهم، كما أخبر اللّه تعالى عنهم:

قال اللّه تعالى: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَ ٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ**(۱).

قال اللّه تعالى: **ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ**(۲).

و قال بعض المفسّرين معنى الكلام، إبتدعوها الصّالحون فما رعوها المتّأخرون حقّ رعايتها و لذلك قال تعالى: **فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** و الّذين أمنوا منهم هم الصّالحون.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ بفعل الواجبات و ترك المعاصي **وَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ** و صدّقوه في أقواله و أفعاله **يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ** أي مثلين و **الكِفل** بكسر الكاف المثل **مِنْ رَحْمَتِهِ** التّي وسعت كلّ شئ **وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** يوم القيامة **وَ يَغْفِرْ لَكُمْ** ذنوبكم **وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** اى ستّار عليكم رحيمٌ.

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَ أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ

لا، في لئلاّ، زائدة و المعنى ليعلم أهل الكتاب الّذين يتشبّهون بالمؤمنين أنّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل اللّه و (أن)، هي المخفّفة من الثّقيلة و قيل معناه ليعلم أهل الكتاب الّذين حسدوا على المؤمنين بما وعدوا، أنّهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل اللّه فيصرفوا النّبوة عن محمّد إلى من يحبّونه

۱- التّوبة = ۳۴ ۲- التّوبة = ۳۱

و(لا) في لئلاّ، صلة و توكيد و ليست بزائدة و اللّه ذو الفضل العظيم فأنّ الفضل بيده فيعطي من يشاء و يمنع من يشاء على كلّ شئٍ قدير هذا تمام الكلام في تفسير الجزء السّابع و العشرين و يتلوه الجزء الثّامن و العشرون، و الحمد للّه ربّ العالمين.

الفهرست

■

سُورَةُ اَلْفَتْحِ ۱۰۳

■

سُورَةُ اَلْحُجُراٰتِ ۱۵۱

■

■

■

■

■

■

■